| رقمها | ســــورة **الأعــراف** | آياتها |
| --- | --- | --- |
| 7 | ـــــ مكيّة ـــــ | 206 |

الأعراف سورة مكية في 206 آية، ذكر فيها خبر رجال الأعراف، ولم يذكر هذا الخبر في سورة أخرى غيرها، ولذلك سمّيت بهذا الاسم. وهي في تركيز العقيدة السليمة، وفي الوعد والوعيد، شأنها في ذلك شأن السور المكية. في العقيدة ركّزت على التّصديق بالكتاب، القرآن الكريم أساسا، وبهذا بُدئت السورة وخُتمت، وعلى التّصديق بالرّسول ورسالته، وحذّرت من التّكذيب بهما، وقد جاء عرض نُبَذٍ من قصص: نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام وما جرى على المكذّبين بهم من عذاب للاعتبار، وللوعيد من الاستكبار عن الإيمان بالرّسل، وجاء فيها التّحذير من وساوس الشيطان: عدوّ الإنسان كما جاء في عرض نبذة من قصّة آدم مع إبليس، وجاء فيها ما أُمِر به محمد صلّى الله عليه وسلّم من أمر ليبلّغه للنّاس كافّة، وجاء فيها التذكير بآيات من خلق الله تعالى لتوحيده بالعبادة، وجاء فيها السؤال عن الساعة، ومن الوعد والوعيد جاء ذكر خبر أهل الجنّة وأهل النّار.

- **الٓمٓصٓ :**

هذه الحروف من حروف اللّغة العربية التي جاء بها القرآن الكريم بلسان عربيّ مبين. لم يُعرف كتاب تفتتح نصوصه بحروف مقطّعة كهذه إلاّ القرآن الكريم، ولا يعرف سرّها، وسرّ الافتتاح بها إلاّ الله سبحانه – كما أسلفنا قوله في مفتتح سورة البقرة، وما قيل فيها غير هذا فمن باب القول بالرّأي الذي ليس فيه نصّ صحيح من لدن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المكلّف ببيان ما أُغْلِقَ فيه.

- **كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ (1) :**

آية لتثبيت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لتبليغ رسالة ربّه للنّاس، ليتلوَ عليهم كتابه الذي هو من وحي الله تعالى إليه والمعنى : القرآن هو كتاب الله أنزل إليك لتحذّر به النّاس من عذاب الله، وتذكير للمؤمنين بفضل ربّهم عليهم في إرشادهم به للحقّ والصواب، فلا يكن في صدرك شدّة ضيق من تبليغه خشية تكذيبك.

- **ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ (2) :**

وهذه في خطاب النّاس اِعملوا بهدي القرآن المنزّل إليكم من ربّكم، وآمنوا به وأطيعوه، ولا تدعوا من دونه آلهة أخرى تتّخذونها أنصارا، إنّكم قليلا ما تُدركون الصواب في توجّهاتكم ووعْيكم.

- وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ (3) فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (4) :

هنا تقديم وتأخير، والمعنى: وكثير من القُرى جاءها عذاب الاستئصال فأهلكناها، جاء قومها ليلا وهم نائمون، وجاء بعضهم هذا العذاب عند القيلولة وهم في اِستراحتهم، فلمّا رأوا العذاب، ورأوا أنّهم غير ناجين منه اِعترفوا على أنفسهم أنّهم كانوا ضالّين، وأنّهم كانوا ظالمين أنفسهم بالكفر والعصيان. والآيتان للوعيد من الكفر والتكذيب بما جاء به الرّسول صلّى الله عليه وسلّم.

- فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (5) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ (6) :

الآيتان فيما سيكون مع هؤلاء الذين عذّبوا بعذاب الاستئصال يوم القيامة. يُسأل أولا الكافرون سؤال تقرير وتوبيخ وفضيحة: لما كذّبتم بما جاءكم به رسلكم، ولِمَ كفرتم؟ ويؤتى برُسُلهم ليُسألوا سؤال الشّاهد الصّادق: ماذا قالوا لكم؟ ويومئذ يأتيهم الخبرُ التامّ بما كانوا يكذّبون، وبما كانوا يعملون خبرَ العليم المطّلِع على كلّ شيء، خبرَ الذي لم يكن غائبا عنهم، بل كان يراهم ويسمعهم.

- وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (7) وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ (8) :

الآيتان في وزن أعمال العباد يوم القيامة للجزاء أو العقاب. والوزن هنا يدلّ على القضاء والموازين هي تقييم أعمال العباد من وجهي العمل الصالح أو عمل الشرّ والمنكر. والمعنى: ويوم القيامة يحاسب الإنسان على عمله بالعدل، يعرض على العباد كُتُب أعمالهم، فمن كثرت حسناته، وأهمّ الحسنات: الإيمان بوحدانية الله، والعمل بالطاعات، فإنّه يفوز بالنّعيم، وينجو من عذاب الآخرة. ومن عظمت ذنوبه، وكثرت سيّئاته، ولم تكن له حسنات تعدلها فإنّه سيكون من الذين خسروا أنفسهم بسبب كفرهم وتكذيبهم بالآخرة وقيامهم للحساب، وبسبب تكذيبهم بالوعد والوعيد.

- وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ (9) :

هذه في فضل الله تعالى على عباده. ولقد أسكناكم في الأرض، ووطّناكم فيها، وسخرناها لكم لتسعوا فيها لتُرزقوا منها لمعيشتكم ولِقُوتِكم، ولكنّ أكثركم لا يشكرون الله على فضله، ويغفلون عن الإقرار لله بفضله.

- وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ (10) :

هذه إلى الآية 25 في قصّة خروج آدم من جنّة الضيافة وهبوطه إلى الأرض، وفي قصة معصية إبليس.

ولقد خلقناكم – أيّها النّاس – من أصل واحد، من آدم، وحينما آن أوان ولادتكم وخروجكم للحياة أوجدناكم على الصورة والهيأة التي أنتم عليها. ولمّا خلق آدم، أصل البشرية جمعاء في الملكوت العلوي، وكان أول خلق لجنس الإنسان أمرنا الملائكة بالسجود له سجود التكريم وللتحية (إلاّ إبليس) اِستثناء من غير الجنس، لأنّ إبليس لم يكن من الملائكة، لقد كان من الجنّ – كما سيأتي بيانه في سورة الكهف – ولم يكن من الذين سجدوا لآدم سجود التّحية والتّكريم رغم أنّه قد حضر أمر الله تعالى للملائكة وكان وقتها من بينهم.

- قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ **(11)**:

ولما سئل عمّا منعه من السجود اِمتثالا لأمره تعالى، وعن الذي حمله على العصيان، تعلّل بأنّه أفضل شرفا من المادّة التي خلق منها آدم، لأنّه خلق من نار، وخلق آدم من طين، هذا التّميّز في مادّة الخلق أكسبه غرورا بذاته، والغرور أوقعه في الاستكبار عن طاعة الله تعالى، فالغُرور هو الدافع الرئيسي للاستكبار والمعصية، ولعلّ هذا ممّا جُعِل من أسمائه: الغَرور، في قوله تعالى : (وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ (لقمان الآية 33))

- قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ **(12)** :

فكان أن أمره تعالى أن يهبط من السماء، وأطرد منها، لأنّ أهل السماء متواضعون، وينفّذون أمر الله تعالى، ولا يحقّ لمن يكون فيها أن يتكبّر، أو أن يعصي الله فيما أمر، أخرج منها مهانا ذليلا.

- قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ **(13)** قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ **(14)** :

وسأل إبليس ربّه أن يؤخّر موته وأن يمهله إلى يوم البعث والحساب، وأجاب الله تعالى طلبه.

- قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ **(15)** ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ **(16)** :

وأقسم إبليس بقوله (فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى) أي فبإغوائك إيّاي، والإغواء هو إيقاع الغيّ في القلب، وقد وقع إغواؤه بسبب الغُرور والاستكبار. والغيّ هو الهلاك قال تعالى (فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (مريم الآية 59)). أي سوف يلقون هلاكا، وإبليس علم أنّه سيلقى هلاكا بسبب معصيته لأمر ربّه، وإخراجه من رحمة الله. أقسم بأن يقعد متربّصا ببني آدم حتى يزيّن لهم المعصية ليمنعهم من العمل بشرع الله ومن الاهتداء. وأقسم أن لا يترك أيّ جهة من الجهات من حولهم ليدخل عليهم منها ليصدّهم عن سلوك المنهج المستقيم في دينهم وعبادتهم وطاعتهم لربّهم، وليصدّهم عن سلوك المنهج

المستقيم في أخلاقهم وفي معاملاتهم مع بعض في المال والأعمال، وليفسد عليهم نقاوة السريرة، وطيب القلب، وقِيَم العفّة، وكلّ ما فيه صلاح لهم حتى لا يكونوا عبادا شاكرين لله تعالى على هديهم، مع إقرارهم بفضله تعالى عليهم فيما يرزقون وفيما يحيون فيه من النّعم.

وجاء ذكر هذا القسم لتحذير النّاس من فعل إبليس وجنده ليحذروا وساوسه فيما يزيّن لهم من عمل المعاصي، وحتى لا يكونوا موالين له، وحتى لا يقعوا في شَرَكِهِ بسبب حسده ونقمته.

- قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ **(17) :**

وأطرده الله من السماء، من الملكوت العلوي مذموما أي معيبا، ومبعدا عن النعيم، مع توعّده وأتباعه من بني آدم الذين يصغون إلى غوايته ويتّخذونه وليّا بأن يحشرهم جميعا في جهنّم للعذاب لأنّهم أهل معصية. وهذه لمزيد تحذير النّاس من اِتّباع غواية الشيطان. وبهذه الآية تنتهي هذه النبذة من قصة معصية إبليس لربّه.

- وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ **(18) :**

وهنا يتوجّه الأمر لآدم عليه السلام، وقد عاين فعل إبليس وحضر بالسماع والمعاينة قَسَمَهُ لإضلال بنيه، وحضر طرده من المنزلة الّتي كان عليها في الملكوت العلوي، وسمع وعيد الله بإدخاله جهنّم مع الذين يوالونه ويعصون أمر ربّهم.

وجاء في هذا الأمر تكريم آدم بإسكانه صحبة زوجه الجنّة للضيافة قبل أن يتولّى مسؤولية تكليفه باستخلافه في الأرض، وقد أُبيحَ لهما أن ينعما بالأكل من ثمار الجنّة كما يشاءان بغير حساب، ولم يُمنع عنهما إلاّ أن يقتربا من شجرة واحدة، كلّ ما في الجنّة مباح إلاّ شجرة واحدة، فالممنوع زهيد وقليل إزاء ما هو مباح، وتأكّد هذا المنع بالتّحذير من أن يكونا من الظالمين نفسيهما إذا اِقتربا منها، وكان هذا المنع للاختبار، لأنّ كلّ ما في الجنّة مُباح أكله والتنّعم به لمن كان فيها، والمستفاد من هذا أنّ ما يحرّم على الإنسان من طعام أو شراب إنّما هو لاختيار مدى اِمتثال العبد لأمر ربّه، ومدى خشيته من أن يعصي ربّه فيما نهاه عنه، وبهذا يُعرف صدق إيمان العبد ويمتحن فيه.

- فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ **(19) :**

هذه في بيان مدخل إبليس في إغراء آدم ليحمله على مخالفة أمر ربّه، وغايته من الإغراء.

زيّن إبليس لآدم لأن يأكل من الشجرة التي أمره الله بتجنّب القرب منها، وأغراه بأنّ الأكل منها يجعله وزوجه ملكين قريبين من الله تعالى وفي ملكوته العلوي، وأغراهما بأنّ الأكل منها



يجعلهما من الخالدين، أطمعهما بالخلود، وكان غاية إبليس الحقيقية من هذا الإغراء الباطل الذي أطمع به آدم وزوجه هو كشف سوءاتهما لبعض، ورفع الستر عنهما، وكذب عليهما إبليس في إغرائه.

- وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ **(20)** :

وعمد إبليس إلى القسم الكاذب بأنّه لهما من النّاصحين، وما كان قسمه إلاّ للغدر، وخدعهما به، استعمل اسم الله تعالى في قسمه للمخادعة، وهذا من أكبر الآثام.

وقد وردت الآيتان للتحذير من القسم الكاذب المخادع، واستغلال تعظيم القسم بذكر اسم الله تعالى للتغرير، وبيّنت الآية السابقة أنّ الله تعالى لا يحبّ لعباده كشف سوءاتهم لبعض، وكان إبليس يعرف أنّ هذا العمل لا يرضي الله فأوقع فيه آدم وزوجه ليُثير غضب الله عليهما، وقد عمد في تغرير آدم وزوجه إلى إغرائهما بالخلود وقد كتب الله على الآدميين الموت فأثار فيهما الطمع فيما لا حقّ لهما فيه، وأثار فيهما الطمع في أن يتشبّها بالملائكة على غير جنسهما. لذا على الإنسان أن يعتبر بهذا فيحذر من الطمع الزّائف، وغير الممكن، وعليه أن يحذر من قسم العدوّ فإنّه لا يكون في مصلحته، وإنما هو قسم للخداع والتغرير.

- فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ **(21)** :

فخدعهما بكلامه الباطل الزّائف، واغترّا بقسمه، وهيّج طمعهما في الخلود، ولمّا أكلا من الشجرة وقعا في الزّلة، وظهر لهما ما كان خفيًّا عنهما من مقصد النّهي عن قرب الشجرة فانكشفت عورتاهما للاثنين وشرعا يضعان على جسميهما من ورق الجنّة ويضمّانها إلى بعض للسَّتْر. وناداهما ربّهما مُوَبِّخًا على تعدّيهما على ما حرّمه عليهما وهو قليل جدا بالنّسبة لكلّ المباح، ومذكّرا لهما بأنّه نبّههما من الشيطان ووساوسه، وحذّرهما منه بأن وصفه لهما بأنّه عدوّ لهما العداوة الظاهرة.

- قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَـٰسِرِينَ **(22)** :

عندئذ أقرّ الاثنان بظلمهما لنفسيهما بالوقوع في الزّلّة، ونسيان التّحذير، وضعف العزيمة لطرد وساوس الشيطان، ودعوا الله تعالى بأن يغفر لهما زلّتهما، وأن يرحمهما من المؤاخذة ومن العقاب خشية أن يكونا من الذين يخسرون رضوان ربّهم فيطردا من نعيمه. وهكذا يستفيد المؤمن المتدبّر لما يقرأ من قصص القرآن بوجوب الإسراع للتّوبة وطلب المغفرة إذا وقع في المعصية والزّلّة حتّى لا يخسر رضوان ربّه عنه، وحتّى لا يؤاخذ عمّا فعل. والمُستفاد من هذه الآية والّتي سبقتها وجوب الحذر من وساوس الشيطان ومن قرناء السوء من النّاس إذا زيّنوا له التّعدّي على

حرمات الله ونواهيه حتّى ولو أقسموا عليه أن يجالسهم وهم يأتون معاصيهم في نواديهم، فعلى المؤمن أن يحذر غضب ربّه خير له من أن يجامل أصحابه أو أن ينخدع لما يزيّنون له من المعصية. ومن المستفاد ممّا سبق أن كشف العورة ممّا لا يحبّه الله من العمل.

- قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ **(23)** قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ **(24)** :

كذا قضى الله أن ينْزل من السماء إلى الأرض الجنسان: الآدمي والجانّ، بعضهم لبعض عدوّ. عداوة الجانّ للإنسان عداوة تغرير بالكذب، وتزيين المعاصي لطرده من رحمة الله غرورا وحسدا. وعداوة الإنسان للجانّ عداوة الحذر منه ومن وساوسه الضلالية.

وقضى الله تعالى أن تكون الأرض مقرّ إقامة الجنسين، ومكان الاستمتاع بخيراتها إلى وقت اِنقضاء آجالهم. فيها يحيا الجميع وفيها يموتون ومنها يخرجون يوم البعث، يعيشون عليها جيلا بعد جيل، ويستوطنون في باطنها جيلا بعد جيل عند اِنقضاء آجالهم.

- يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ **(25)** :

هذه في التأكيد على أنّ الله لا يرتضي لعباده كشف عوراتهم، والمعنى: يا بني آدم قد ألهمناكم صناعة اللباس لستر عوراتكم، ولباس الزّينة لكسائكم ولأغطيتكم ولفرشكم ولما تحتاجون من متاع لمعاشكم. (وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ) وزينتكم بالإيمان وبالعمل الصالح خير لكم من متاع الدنيا. هذا من إرشاد الله عساهم أن يكونوا من الذّاكرين بالعمل به.

- يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ **(26)** :

هذه موعظة لجميع المؤمنين. يا بني آدم لا يضلّنّكم ولا يخدعنّكم الشيطان أو يغوينّكم كما غوى آدم وحواء من قبل فتسبّب في خروجهما من ديار الضّيافة في الجنّة حين نزع عنهما لباس الحياء فعرّاهما وكشف لهما عورتيهما. احذروا الشيطان، إنّه يراكم هو وجنده ونسله من حيث لا ترونهم. الشياطين أنصار لغير المؤمنين الذين لا يطمعون في رحمته ورضوانه، وليس لهم على المؤمنين الصادقين تأثير.

- وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ **(27)** :

هذه في ذمّ مشركي مكّة كانوا يطوفون بالبيت عراة، وهو من العمل القبيح المستهجن، وحين يسألون عمّا يفعلون يقولون إنّ الله أمرنا بهذا، وقد وجدنا آباءنا كذا يفعلون، يطوفون على هذه الحال. وجاءهم الردّ بأنّ شرْعَ الله يتبرّأ ممّا يدّعون لأنّ الله عزّ وجلّ لا يأمر بالفعل القبيح المستهجن. وجاء الاستفهام للتوبيخ على الادّعاء الباطل: أتقولون على الله ما لا تعلمون، ممّا يدلّ على أنّ فعلهم كان من اِبتداعهم في الدّين الابتداع الضّالّ.

- **قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ (28) :**

لمّا جاء بأنّ الله تعالى لا يأمر بالفحشاء، جاءت هذه لتؤكّد أنّ الله عزّ وجلّ يأمر بالعدل وبالطاعات وبالحقّ، ويدعو للتوجّه إليه وحده بالعبادة في كلّ وقت سجود، أو في كلّ مكان يُعبد فيه وحده، ويدعو النّاس للتّوجّه إليه وحده بالدعاء غير مشركين به وغير مرائين، وبكلّ لسان صادق وقلب خاشع. فكما خلق الأحياء فإنّه تعالى معيدهم إليه للمحاسبة، فيهم فريق اِهتدى إلى الله فهداه للعمل بشرعه وطاعته، وفيهم فريق وجبت عليهم الضلالة والبعد عن الله بمعاصيهم لأنّهم رضوا بأن يكونوا أنصارًا لتدبير الشياطين وما زيّنوا لهم من الخروج عن طاعة الله والتجرّؤ على محرّماته، يظنّون أنفسهم على صواب، وأنّهم متحرّرون من القيود التي تحدّ من حريتهم الشخصية، وما هم من المهتدين.

- **يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ(29) :**

الخطاب عام للنّاس جميعا بأن يلبسوا لباسهم الذي يستر عوراتهم عند الصلاة، لأنّ ستر العورة شرط من شروط الصلاة فإذا ظهرت بطلت الصلاة، ويجدر بالذين يصلّون بالتّبّان عند الرّكبتين خاصّة في فصل الصيف أن يلبسوا فوقه رداءً، حتّى إذا ركعوا أو سجدوا حفظوا ظهورهم وأردافهم من الكشف بسبب قصر الملابس.

وعلى الإنسان أن يأكل ما أحلّه الله له من الطيّبات من الطعام والشراب على قدر حاجته منهما دون سَرَفٍ للمحافظة على نفسه من ضرر التّخمة والأمراض المعدية، والله لا يحبّ الذي يتجاوز حدّه في كلّ أمر وحتى وإن كان في طعامه وشرابه، والاعتدال في كلّ أمر فضيلة.

- **قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ (30) :**



هذه في الردّ على من يحرّم على نفسه، وربّما على غيره أصنافا من طيّبات الطعام من تلقاء نفسه كالذي حرّمه المشركون على أنفسهم من طعام، أو كالذي يدّعيه بنو إسرائيل من تحريم لأصناف من الأطعمة. جاءت هذه الآية لترفع اللُّبْسَ ولتُشَرِّع إباحة كلّ الطيّبات من اللباس ومن الأطعمة إلاّ ما جاء فيه نصّ من عند الله في كتابه أو على لسان رسوله. والقصد من (زِينَةَ ٱللَّهِ) هو اللباس الرفيع، والتجمّل بالثّوب وحسن المظهر ونظافته من غير إسراف حتى لا يكون فيه خُيلاء وكِبْر. كلّ ما يَكسبه الإنسان من الطيّبات من الرّزق وينعم بها هي من عند الله خالصة، لا يحاسب عليها يوم القيامة إذا كان عبدا مؤمنا وشاكرا الله على فضله ونعمته، ولم يكن قد بطر بها واستكبر، وهكذا يوضّح الله شرعه للعلماء ليبلّغوه للنّاس، ويبيّنه للنّاس ليعلموا الحلال والحرام فيما يحتاجون إليه لحياتهم اليوميّة لهَيْأتِهم ومعاشهم.

- قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ **(31) :**

لمّا ذكر الله تعالى ما أحلّ لعباده جاءت هذه الآية فيما يحرّمه. وقد حرّم تعالى (ٱلۡفَوَٰحِش) وهو الاعتداء الجنسي على الأنثى أو على الذكر من الدُّبُر بالاغتصاب، أو بالرّضى والإغراء، وهي كذلك كلّ الأعمال المفرطة في القبح من مثل ما كان في الجاهلية من نكاح زوجة الأب، ومن مثل نكاح الأخت أو البنت كالذي نسمعه من قضايا النّاس في أوساط الشذوذ، وأمّا (وَمَا بَطَنَ) فهي كلّ مظاهر الإغراء الجنسي كالذي تفعله الرّاقصات الغانيات العاريات ممّا يثير الشهوة الجنسية المحرّمة، وكذلك المشاهد الخليعة المثيرة للجنس. وحرّم تعالى (وَٱلۡإِثۡم)، وهو اِسم توصف به جميع المعاصي، وكان العرب في جاهليتهم، وفي أشعارهم يسمّون الخمر إثما، وقاله الجوهريّ في الصحاح (أنظر لسان العرب لابن منظور، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي)، وحرّم (وَٱلۡبَغۡيَ) وهو اِسم لكلّ مظهر من مظاهر التّجاوز في الظلم كالذي يفعله السلطان الجائر بمعارضيه في إلصاق التّهم الباطلة بهم، فيأخذهم بالتّعذيب ويحشرهم في السجون ظلما وعدوانا، ويأخذ آخرين بالشبهة فيسلّط عليهم أعوانه لينكّلوا بهم لإذلالهم وتجويعهم، وهذا من البغي بغير الحقّ. ويحرّم الله تعالى على عباده الشّرك فإنّ الشّرك ظلم عظيم لوحدانية الله عزّ وجلّ، وهذا أمر ليس للمشركين فيه حجّة ولا برهان ولا دليل. ومن المحرّمات أن يدّعي أحدهم بأنّ الله أمرهم بأمر لم يأمر به، أو أن يدّعي بأنّ الله حرّم شيئا لم يحرّمه، فهذا من الكذب على الله عزّ وجلّ، وهو ما يُعرف بالابتداع في الدّين، وكلّ بدعة في الدين ضلالة، وهذا من القول على الله بغير علم، ولا سلطان، ولا برهان.

- وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ **(32) :**

إنّ أعمار العباد من قضاء الله تعالى، فمن جاءه الوقت المعلوم عند الله عزّ وجلّ ليموت فإنّه يُقْضَى نحبه لا يتأخّر عن الأجل الذي حُدِّد لحياته، ولا يُقَدَّمُ الأجل عن موعده المحدّد، فإنّ الموت بالأجل المعلوم عند الله تعالى.

- يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (33) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (34) :

هذا أمر قد جاء للنّاس جميعا مع خلق آدم ليؤمنوا بكلّ رسول يأتيهم من عند الله تعالى يبلّغهم فرائضه وشرعه، وكلّ رسول يدعو قومه ومن يليهم ليؤمنوا بمن سيأتيهم من رسول من بعده كما كان مع موسى وعيسى عليهما السلام اللذيْن بشّرا بمجيء نبيّ خاتم، فمن أطاع أمر ربّه وأصلح ما بينه وبين ربّه فلا يلحقه رعب ولا فزع من أهوال يوم القيامة، ولا يحزن على ما فاته في دنياه، والذين كذّبوا برسله وشرْع الله واستكبروا بالتكذيب والانصراف عن العمل بشرع الله والسماع لرسوله فأولئك يعذّبون في آخرتهم بحشرهم في نار جهنّم لا يخرجون منها أبدا.

- فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ (35) :

وأيّ ظلم أشنع من التّكذيب برسل الله وبشرعه وموعظته، أولئك ينالهم حظّهم من العذاب على قدر كفرهم وِاستكبارهم، وحين تأتيهم الملائكة الذين وُكل لهم قبضُ أرواحهم يسألونهم أين آلهتكم التي كنتم تدعون لتشفع لكم من الموت والعذاب، وقتئذ يدركون أنّهم كانوا خاطئين لأنّ آلهتهم لم تأتِهم، وقد غابت عنهم عند حاجتهم إليها، ووقتئذ يقرّون على أنفسهم، ويعترفون بكفرهم. وهذه الآية لتحذير المكذّبين بمحمد صلّى الله عليه وسلّم وبالقرآن، من الوقوع في الحسرة والنّدم يوم لا ينفعهم ندم، ولا توبة.

- قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ (36) قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ (37) وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ (38) :

يوم القيامة يقال لكلّ المكذّبين بالرّسل وبشرع الله ووعده ووعيده من كلّ أمّة من كلّ عصر أُدخلوا النّار مع أمم سبقتكم في الزّمن وفي الكفر من صنفي الإنس والجنّ على السواء. كلّما دخلت أمّة لعنت الأمّة التي سبقتها إلى النّار، لأنّها كانت سببا في تقليدها واتّباعها في التّكذيب،



وكفرت بهدى الله عزّ وجلّ، حتى إذا اِجتمعوا في النّار وتلاحقوا وانضمّوا فيها قال الأتباع للسابقين الذين اتّبعوهم، وكانوا زعماء لهم وأسيادا: أنتم أضللتمونا، وكنتم سببا في كفرنا، ودعوا ربّهم أن يذيقهم عذابا ضعفا من النّار، ويجيبهم خازن جهنّم، كلّ فئة تعذّب عذابا مضاعفا، المقلّدين لتقليدهم الأعمى طلبا لمرضاة أسيادهم، والأسياد الزّعماء يعذّبون عذابا مضاعفا لإضلالهم أتباعهم، وصدِّهم عن سبيل الله. (وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ) أيّ ويا أهل الدنيا الأحياء لا تعلمون ماهم فيه من العذاب، ومن الحسرة. وهم يتخاصمون في النّار كلّ طائفة تتبرّأ من الأخرى حتى الأسياد يتبرّؤون من الأتباع ويقولون لهم: ليس لكم علينا من فضل ليكون عذابكم أقلّ شأنا من عذابنا وأخفّ وطأة، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون، لا تستحقّون تخفيفا.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ (39) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ (40) :

الآيتان في وعيد الذين كذّبوا بالقرآن واِستكبروا عن التّصديق به وبالرسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وفي مصيرهم ومصير من سبقهم من المكذّبين برسل الله وشرعه وكتبه.

هؤلاء لا تفتح لهم أبواب السماء ليُقبل لهم دعاء، ولا عمل حسن، ويستحيل عليهم دخول الجنّة إلاّ إذا اِستطاعوا أن يدخلوا جملا بجثّته الضخمة في ثقب إبرة مخيط، وهذا أمر يستحيل عليهم، وهذا كان لهم جزاء على جرمهم في التكذيب ورفض شرع الله وهديه، ولهم في جهنّم مستقرّ فراشهم النّار الحارقة، ومن فوقهم دخان النّار الحارق الأسود الخانق ستارًا لهم وغطاء، وهذا جزاؤهم على ظلمهم لرسلهم.

- وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (41) :

وهذه في وعد المؤمنين العاملين الصالحات فإنّهم لا يُكَلّفُون بما يشقّ عليهم من الطاعات وإنّما يكلّفون بما يطيقون وبما يقدرون عليه، وهذا للترغيب في المداومة عليها، وهؤلاء مستقرّهم في الجنّة لا يخرجون منها ليخلّدوا في النّعيم.

- وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (42) :

هذه في مكاسب الذين صدّقوا بالرّسل وبما جاؤوهم به من عند الله تعالى للعمل به، فإنّهم يملكون قلوبا طاهرة من الحقد والضغينة والغلّ والعداوة. وفي هذا تلميح للمؤمنين لبيان فضيلة



تنقية النّفس والقلب من الأحقاد والعداوة نحو الآخر، فقلب المؤمن زكي وطيّب، ونفسه نقيّة الطَوِيَةِ. وهؤلاء في جنّتهم ينعمون بكلّ ما هو جميل في منظره، ورطب في هوائه، ولذيذ في طعامه، وكلّ ما فيه راحة في مجلسه، وما فيه أنس في صحبته، ويقابلون هذه النعمة بحمد الله تعالى على تفضّله عليهم بالهداية للعمل بما يوصلهم لهذا الخير وهذا الفضل، وما كانوا ليحصلوا عليه لو لم يُنعم عليهم بالاهتداء إليه، وما الهدى إلاّ هُدى الله، وقد أقرّوا بأنّ ما جاءهم به رسلهم من الوعد كان حقّا وصدقا. وينادي فيهم المنادي – وهم مستغرقون في حمد الله على فضله – أنّ هذا النّعيم الذي تنعمون به في الجنّة قد بلغتموه بعملكم الصالح وبإيمانكم وبتصديقكم لرسلكم وما جاؤوكم به.

- وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (43) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ (44) :

واطلع أهل الجنّة على المقيمين في النّار فأخبروهم بأنّهم وجدوا في جنّتهم ما وعدتهم به من خيرات ونعيم وتكريم حقّا وصدقا، وسألوهم فهل وجدتم من الوعيد الشديد واقعا حقّا، فقالوا: أجَل، قد كان حقّا. ونادى منادٍ بينهم أنّ الظالمين أنفسهم بالكفر بالوعد والوعيد مطرودون من رحمة الله لأنّهم كانوا يصدّون النّاس عن سبيل الله بتكذيب الرسل، وكانوا يطلبون الطريق المعوّجة التي تضلّهم وتبعدهم عن الصواب، وكانوا ينكرون وقوع إحياء الموتى والبعث للحساب ولا يصدّقون به. وفي هذا موعظة للنّاس للتصديق بالبعث وبالوعد والوعيد.

- وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ (45) :

وبين الجنّة والنّار سور، قال تعالى (فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ (الحديد الآية 13)) وهذا لمنعهما عن بعض (وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ) وأعراف السور هي شُرَفُه، ورجاله هم جماعته، ولم يأت في الحديث الصحيح بيان من يكونون، وأعجبني فيهم قول القرطبي في تفسيره الجامع: "فوقف عن التّعيين لاضطراب الأثر والتفصيل، والله بحقائق الأمور أعلم". ونادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنّة بقولهم سلام عليكم، وهم لم يدخلوها بعدُ، وهم يطمعون في دخولها.

- وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (46) :

وإذا حوّلوا أنظارهم تجاه أهل النّار ونحوهم دعوا ربّهم بأن لا يجعلهم مع المقيمين فيها: القوم الظالمين أنفسهم بالكفر والمعصية.

- وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ (47) أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ (48) :

ونادى أصحاب الأعراف قوما عرفوهم بعلامات وجوههم بما وُسِمُوا بها: قال تعالى: (سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ (القلم الآية 18)) فقالوا لهم: لم تُفدكم زعامتكم وكثرة أعوانكم وأتباعهم، وتعاظمكم عن دخول النّار، أهؤلاء – وأشاروا إلى أهل الجنّة – الّذين حلفتم عليهم بأيمانكم أنّهم لن يحصلوا على رحمة من الله، لقد دخلوا الجنّة وقيل لهم: أُدخلوا الجنّة لا خوف عليكم من العذاب ولا أنتم تحزنون على ما فاتكم في دنياكم.

- وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ (49) :

وهذا من الإخبار بالغيب في اِستغاثة أهل النّار للموعظة والتّحذير، يطلبون من الّذين كانوا يعرفونهم في دنياهم، وهم من أهل الجنّة، أن يغيثوهم بصبّ الماء عليهم، أو إلقاء شيء منه عليهم، وكذلك ممّا أنعم الله به عليهم من طيب الطعام، ولكن لا يُستجاب لهم، يُقال لهم: لا سبيل إلى ذلك فقد حرّم الله على الكافرين في جهنّم طيب الطعام وشراب الماء، وأهل الجنّة لا يعرفون وجوه أهل النّار من سوادها.

- ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ (50) :

أولئك الكافرون كانوا يستهزئون بالوعيد، ويسخرون من الرّسل وأتباعهم، واِستغرقوا في معاصيهم ولهوهم في دنياهم، واليوم يتركون في العذاب منسيين لا يُلتفت إليهم برحمة أو تخفيف منه، مثلما كانوا ينكرون دلائل صدق ما أوعدوا به وما أُنذروا به.

- وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (51) :

هذه في تأنيب أهل النّار. ولقد آتاهم الله القرآن يبيّن الحقّ، وما يُفصل به بين الحقّ والباطل، وإرشاد للمؤمنين لأنّهم هم الذين ينتفعون به.

- هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ (52) :

هل ينتظرون بإعراضهم عن كتاب الله وعن شرعه وعن الإيمان بتوحيد الله إلاّ إلى ما يؤول إليه أمرهم من وقوع العذاب عليهم. يوم يقع الوعيد وتظهر العواقب يوم القيامة، يومئذ يقول الذين

تركوا العمل بالشرع والكتاب ويعلمون أنّ ما جاءتهم به رسل الله من وعيد كان حقّا وصدقا، ويبحثون لأنفسهم عن شفعاء لهم فلا يلقَوْن أحدا، ويتمنَّوْنَ أن يُردّوا للدنيا ليؤمنوا ويصلحوا أعمالهم ويتركوا ما كانوا يعملون من المعاصي، ولكن أمانيهم لا تتحقّق لأنّ الأرض اِنفجرت وزلزلت واِنتهت الحياة الدنيا وأُستبدلت بالآخرة. يومئذ يعرفون أنّهم قد خسروا أنفسهم وأضاعوا حظّهم من النّعيم، وبطل ما كانوا يدّعون من الشفعاء من آلهتهم المزعومة، وما كانوا يقولون من الكذب على الله الأحد سبحانه.

- إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (53) :

بعدما جاء من خيرٍ من علم الغيب فيما سيكون عليه مآل المؤمنين العاملين الصالحات من خير ونعيم مقيم، وما سيؤول إليه الكافرون من سوء المآل ومن حسرة وندم، جاءت هذه الآية للتّذكير بالمعبود الحقّ، إنّه الله الذي خلق السماوات والأرض، ولم يخلقهما أحد غيره، وكلّ ما يعبد سواه لا خَلق له، ولمّا كانت السماوات والأرض من آيات العظمة والوسع فإنّ الله أعظم من خلقه، ولمّا اِحتاجتا لعظم التّقدير، فخالقهما عظيم القدرة والتقدير، وحسَنُ الخلق، خلقهما في ستّة أزمان، اليوم عند الله تعالى زَمَنٌ، ولا يجب أن يُقدّر اليوم بحسب تقديرنا لأنّ الأرض لم تخلق بعد ولم يُخلق بعدُ دورانها بين ليل ونهار في أربع وعشرين ساعة، قد يكون تقدير ذاك اليوم بآلاف السنين عندنا اليوم. ثمّ اِستوى الله على العرش، وأحسن ما يقال في هذا قول مالك رحمه الله: الاستواء معلوم (في اللّغة)، والكيف مجهول. والسؤال عن هذا بدعة.

ومن دلائل حكمته في التدبير أن جعل الحياة الدنيوية قائمة على دخول الليل على النّهار ليجد الآدمي سكنا وراحة، ودخول الليل على النّهار منتظم بدقّة يطلبه دائما من غير فتور. وإنّ الشمس وحركة القمر، ووجود النجوم وإضاءتها وحركاتها من تسخير الله تعالى وتدبيره ومن أمره جلّ وعلا. (أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ) فانتبهوا يا عباد الله، فإنّه هو تعالى الخالق المبدع الواجد للوجود كلّه، وكلّ شيء يسير بأمره كما شاء وأراد، وكان أمره قدرا مقدورا (تَبَارَكَ ٱللَّهُ) فتعالى الله وتعاظم واِرتفع وتزايدت بركاته وهو سيّد العالمين، كلٌّ له خاضع وخانع، ولا أحد سواه سيّد الخلق والوجود سبحانه.

- ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (54) :

هذه في الأمر بالدعاء تعبّدا لله تعالى لإظهار الحاجة إليه، وأنّه لا يُدعى أحدٌ سواه لطلبٍ، ويجب أن يكون هذا الدعاء في تذلّل وخشوع واِستكانة، ويحسن أن يكون سرّا بدون رفع صوت

بُعدا عن المراء، الدعاء مناجاة لله السميع فيحسن بالمؤمن أن يهمس به همسا، وحتى إن كان قد أسرّ به في قلبه فإنّ الله عليم بذات الصدور، وعليم بحاجة عبده. ( إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ) في الدعاء، وذلك إذا رفع به المرءُ صوته ليعلم النّاس حاجته فربّما يقضون له حاجته، ويصبح الدعاء على هذه النية دعاءً في ظاهره لله ولكنّ المقصودَ به سؤال النّاس، وهذا من التحيّل وسوء النّية، أو إذا كان دعاؤه من الشطط كأن يدعو على عامّة النّاس بالشّر وقلّة الرّحمة، أو كان دعاؤه مسجّعا ومتكلّفًا غير صادق، ويقول ما لا يفهم معناه، أو كان يشوّش به على المصلّين في الجامع ليُلْتَفَتَ إليه.

- وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (55) :

في هذه موعظة للمؤمنين حتى يكونوا أهل صلاح، والإفساد في الأرض من أعمال الشرّ ومن أعمال شياطين الإنس. ولقد عبّرت الملائكة عند خلق آدم عن هذا الأمر: "أن يفسد في الأرض". وليس المقصود منه خراب العمران وهدمه، أو إحراق المزارع وتخريب الأرض، فإنّ معنى إفساد الإنسان في الأرض يعني الإضرار بتربة الأرض وجوّها وهوائها ومناخها، وبمياه الشراب ومياه البحار بالتلوّث على نحو ما قاله تعالى: (ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ (الروم الآية 41)) وسيأتي بيانه. ومن الإفساد في الأرض أعمال الشرّ من مثل ترويج المخدّرات لما فيه من إضرار بحياة النّاس البدنية والنّفسية والمالية وجرّهم للانحراف وصرفهم عن العمل وعن الإفادة. ومن الفساد في الأرض اتّجار الحكّام بالأرض، وفي الاستثمار في قطاع الخدمات العامّة، وفي الارتشاء، وفي سنّ القوانين الجائرة أو إصدار الأوامر لضمان بقائهم في الحكم أو لدعم نفوذهم وبسطه على النّاس مسايرةً لجشعهم وأطماعهم واِستغلالهم لمكاسب البلاد ولتعمير خزائنهم بالمال وكسب الممتلكات وتسخير النّاس لخدمتهم، ومن فسادهم خنق الحريات، وإذلال ذوي النزاهة والكفاءة والاقتدار بإبعادهم عمّا يستحقّون من المناصب والمهام وتعويضهم أهل الطمع والفساد ممن لا خبرة لهم ولا كفاءة في إدارة أمور البلاد والعباد. ومن الإفساد في الأرض: اِرتشاء القضاة لما فيه من ضياع حقوق الناس، ونصرة الظلم على الحقّ، ومن الإفساد في الأرض بيع المواد الغذائية الفاسدة للنّاس ممّا يتسبّب لهم في أضرار صحيّة جسيمة قد تؤدّي ببعضهم للوفاة وخاصّة منها اللحوم والأسماك والمصبّرات، وعموما فكلّ عمل أو اِتّجار يلحق بالنّاس ضررا وهلاكا بعد صحة أو بعد أمن هو من الإفساد في الأرض، وكثيرة مظاهره.

(وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا) يكون دعاء المؤمن بين الخوف والرجاء، فإذا جاءه ما يكره تصبّر بالدعاء باللطف وطلب كشف الكرب، وإذا جاءه ما سرّه شكر وحمد الله على فضله. ويدعو المؤمن ربّه طلبا لرحمته ورضوانه خشية عذاب الآخرة، وطمعا في دخول جنّته ونعيمه.

(إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ) هذه بشرى لمن صدق في إيمانه وأخلص طاعته وأحسن عمله فإنّ الله تعالى قريب منه برحمته للإحاطة به عند شدّته وعسرته لتؤازره حتى لا يضعف.

- وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ (56) :

وهذه في إثبات فضل الله تعالى على عباده ولإحياء الأرض ليكونوا عبادًا شاكرين، والشكر ينطلق به لسان المؤمن. وفي هذه الآية إثبات لقدرة الله جلّ وعلا، وإثبات لألوهيته ووحدانيته، فهو تعالى الّذي يبعث الرياح لتسوق السحب المثقّلة بالماء ليغيث بها الأرض العطشى ليحييها بعد موتها فتعمر بعد خلوّها من السكان وتصبح بلدا عامرا بقاطنيها، ومدرّة بالخير لأهلها. هو تعالى، ولا إلاه غيره ممّا يدّعيه المشركون، يبعث بالرياح منتشرة لتبشّر بالغيث (بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ) أي من فضله ورحمته على عباده: مؤمنيهم وكافريهم، لأنّ رحمته تسع جميع خلقه من بشر وحيوان ونبات، حتّى إذا ساقت السحب المثقّلَة بالماء إنساقت بأمر الله طواعية للبلد الميّت الذي شاء أن يحييه، فأنزلت السحب ما حمّلت به حتى تنتعش الأرض وتخرج ما في باطنها من كلّ الثمرات للقائمين عليها، وفي هذا دليل على القدرة على إحياء الموتى لمن يتدبّر آيات الله في الكون، فمثلما يحيِي الله الأرض بعد موتها يخرج الموتى من قبورهم ويحييهم، أخرج البيهقي وغيره عن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله، كيف يعيد الله الخلق؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال: أما مَرَرْت بوادي قومك جدبا ثمّ مررت به يهتزّ خضرا؟ قال: نعم. قال: "فتلك آية الله في خلقه". وقيل: وجه الشبه أنّ إحياءهم من قبورهم يكون بمطر يبعثه الله على قبورهم، فتنشقّ عنهم القبور، ثمّ تعود إليهم الأرواح.

- وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ (57) :

هذه في ضرب المثل بالبيئة الطيّبة التي تنشيء النشء على الدين وعلى القيم والمثل العليا والأعمال الصالحة، والبيئة الفاسدة. والمعنى: والأرض الطيّبة ذات التربة الخصبة السخيّة وذات المشارب العذبة والتي تلقى عناية لحفظها من الطفيليات وما يضرّ بها يخرج نباتها بإذن الله تعالى وتقديره طيّبا مغذّيا ونافعا ورزقا حسنا، وأمّا الأرض ذات التربة الرديئة والسباخ والمشارب

المالحة أو الملوّثة لا يخرج نباتها إلاّ قليلا ولا خير فيه وربّما يحمل في ذاته أمراضا، وهكذا يُضرب المثل بالمجتمع بكافّة مكوّناته: الأسرة والتّعليم والمكوّنات السياسية والثقافية، فإن كانت غاياتُه في كلّ ما يُخطّطُ في برامجه التّربوية والتّنموية تحقيقَ المصالح العامّة للبلاد والعباد، وإذا كانت أهدافُه في تنشئة أجياله قائمةً على ترسيخ القيم الإنسانية النّبيلة أنشأ هذا المجتمع أجيالا تتوارث الاجتهادَ في تحقيق الخير للبلاد وأهله حتّى لا يُرَى فيه أحدٌ فقيرا محتاجا أو عَلِيلاً لا يجد علاجا أو طفلا لا يجد مدرسة للتعلّم، أو شابّا لا يجد فرصة للشغل. وأمّا المجتمع الذي ينتشر فيه الفساد والجشع عند المسؤولين عنه، وأصحاب النّفوذ، وأهل العقد والحلّ فلا خير فيه، ولا ينشئ إلاّ أجيالا ثائرة، ولا تظهر فيه إلاّ كلّ مفسدة.

- لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ **(58) :**

هذه بداية في عرض نبذة من قصّة نوح عليه السّلام مع قومه، وهذه النّبذة خاصّة بالتّكذيب به وبما جاء به من عند ربّه، وكلّ ما جاء من عرضٍ لقصص الأنبياء من بعد هذه النّبذة قائمٌ على نفس الغرض: تكذيب الأقوام برسلهم وبما جاؤوهم به. وهذا كلّه لبيان أنّ دعوة الأنبياء والرسل جميعهم كانت قائمة على دعوة أقوامهم للتّوحيد، وللعمل بشرع الله، وقد جاؤوهم بمواعظ من ربّهم، ولكنّهم جميعا قد كُذِّبوا ببعثتهم، وكُذِّبُوا بما جاؤوهم به، وفي هذا تسلية للرّسول محمد صلّى الله عليه وسلّم حتّى يعلم أنّ ما كان يلاقيه من قومه قد لَقِيَ مثله مَنْ سبقه من المرسلين: وإنّ محور السورة كلّه التّصديق بالنّبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم وبالقرآن، ولذا كان موضوع قصص الأنبياء والمرسلين المذكورين في هذه السورة خاصّا ببسط ما تعرّضوا له من التّكذيب، وفي وعيد المكذّبين للتّحذير، وقد بسطنا القول في موضوع هذه القصص حتّى لا يقولنّ المتدبّر لكتاب الله أنّ قصص الأنبياء والمرسلين يتكرّر ذكرُها في القرآن دون أن يدرك بأنّ موضوع القصص يتغيّر من سورة لأخرى، كلّ حسب الموضوع للسّورة، وبهذا فليس في القرآن تكرار لقصص الأنبياء لأنّ في كلّ مرّة يتغيّر موضوع الاعتبار.

ومعنى الآية: لقد أرسلنا نوحا إلى قومه لدعوتهم لتوحيد الله بالعبادة والذكر، وليتبرّؤوا من الشّرك لأنّه ليس للخلق إلاه آخر غيره، وقد حذّرهم من عذاب الله في آخرتهم إذا أصرّوا على شركهم.

- قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ **(59) :**

وقال رؤساء قومه وقادتهم المؤثّرون عليهم إنّا نراك بدعوتك هذه على باطل واضح.

- قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ **(60) :**

وقال نوح لست على الباطل ولكنّي رسول الله إليكم من سيّد الخلق أجمعين.

- أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (61) :

وقال نوح: جئتكم لأبلّغكم رسالات الله إليكم وإنّي أدعوكم لما فيه صلاحكم ونفعكم في الدنيا والآخرة، وحذّرهم من مخالفة أمر ربّهم بشهادته أنّه يعرف من قدرة الله عليهم ما لا يعرفون، وأنّه يخاف عليهم من عذابه.

- أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (62) :

ودعاهم لأن لا يتعجّبوا من أن يبعث الله تعالى لهم تذكيرا وموعظة وإرشادا بواسطة واحد منكم ليحذّركم من معصيته ومخالفة أمره، ولتخشوه بطاعته وتجنّب نواهيه عساكم تَنْجَوْن بهذا من عذابه وتفوزون برحمته ونعيمه.

- فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ (63) :

فكان من قومه أن كذّبوه، فخلّصه الله منهم وخلّص أتباعه من العذاب الذي لحق المكذّبين وذلك بركوبهم السفينة التي صنعها نوح بأمر ربّه، وغرق الكافرون في الطوفان الذي عمَّهُم لأنّهم كانوا قومًا عميانا عن الحقّ، وأصرّوا على رفضه.

- وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (64) :

وهذه في قصة هود عليه السلام أرسل إلى قوم عاد، وقال لهم مثل ما قال نوح لقومه: (ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ) دعاهم لتوحيد الله، ونبذ الشّرك لأنّه ليس للخلق جميعهم إلاّ الله وحده، وحذّرهم من الشّرك به لاتّقاء عذابه، وذلك لأنّ الاستفهام في (أَفَلَا تَتَّقُونَ) للتحذير والوعيد.

- قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (65)

وقال له زعماء القوم ورؤساؤهم من المشركين مثل ما قال قوم نوح لرسولهم: إنّا نراك على باطل بكلّ تأكيد، وفي خفّة عقل إذ تدعونا لما تقول، وإنّا موقنون بأنّك من الكاذبين على الله فيما تدّعيه، والظنّ هنا بمعنى اليقين، وليس بمعنى الشكّ والتّخمين.

- قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (66) :

وكان ردّ هود: ليس بي خفّة عقل، ولكنّي بحقّ رسول من لدن سيّد الخلق أجمعين.

- أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (67) :

وجئتكم لأبلّغكم رسالة الله ربّكم إليكم: شرعه وإرشاده، وأنا صادق في نصحكم بعدم مخالفة أمره، وأمين في تبليغكم رسالاته.

- أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ **(68)** :

ودعاهم لأن لا يستغربوا من أن يبعث الله لهم كتابًا فيه شرعه ومواعظه لهديهم بواسطة رجل منهم لتحذيرهم من الشرك ومن معصية خالقهم، وليذكروا فضل ربّهم عليهم بشكره وحسن طاعته وعبادته إذ جعلهم يخلفون من سبقهم في عمارة الأرض بعد ذهاب قوم نوح، وتطهير الأرض من الكافرين، وقد أنعم عليهم كذلك بالزيادة في قوة أجساهم وفي طولها، وما عليهم إلاّ أن يحمدوا الله تعالى على فضله بتوحيده وطاعة أمره واتّباع شرعه.

- قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ **(69)** :

وكذّبوا رسولهم واستغربوا أن يدعوهم لعبادة الله وحده، ويتركوا تقليد آبائهم فيما كانوا يعبدون، واستهزؤوا بوعيده، وتحدّوه بأن يأتيهم به إن كان صادقا في الوعيد.

- قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ **(70)** :

وأجابهم هود عليه السلام بأنّه قد وجب عليهم سخط من ربّهم ونزول العذاب بهم لكفرهم بالله وتكذيبهم بالوعيد، وأنَّبَهم على مناقشته ومخاصمته في آلهة من الأصنام سمّوها بأسماء من عندهم– هم وآباؤهم – ليس لهم حجّة وبرهان عليهم، ودعاهم لانتظار نزول العذاب عليهم، وسيرى معهم ما سيحلّ بهم ممّا سيأتيهم.

- فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ **(71)**

وحين جاء القوم أمر الله تعالى بتنفيذ وعيده فيهم أنجى هودا والذين آمنوا معه بفضل منه تعالى، ورحمة بهم، وإستأصل الذين كذّبوا بوعيد الله وأهلكهم جميعا لأنّهم لم يؤمنوا بالرسول ولا بالتّوحيد، ولا بشرع الله جلّ وعلا.

- وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ **(72)** :

وهذه الآية إلى آخر الآية 79 في نبذة من قصة صالح عليه السلام مع قوم ثمود للتّذكير بعاقبة المكذّبين بالرّسالة، وبتوحيد الله، والمستهزئين بالوعيد. والمعنى: ولقد أرسلنا إلى قوم ثمود صالحا عليه السلام، وهو واحد منهم، وقد دعاهم إلى عبادة الله وحده، وترك ما يعبدون من أصنامهم، ونبذ الشّرك، فلا إلاه غير الله تعالى. وقد أيّده الله تعالى بمعجزة عظيمة ظاهرة



للعيان، أخرج الله للقوم من صخرة عظيمة من جبل شاهقٍ صخري وَوَعْرٍ ناقة عظيمة تحت أعينهم. وأمرهم صالح بأن يتركوا ناقة الله تسرح في الأرض وترعى حيث تشاء دون التّعرّض لها بأيّ سوء، وحذّرهم من أن يصيبهم عذاب شديد إذا أساؤوا إليها بأيّ مكروه.

- وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ **(73)** :

وذكّرهم صالح بفضل الله تعالى إذ ورّثهم أرض قوم عاد بعد هلاكهم، وهم يعلمون بما كان قد أصابهم، ذكّرهم بأنّه تعالى أنزلهم فيها منازل طيّبة وأسكنهم فيها، فشيّدوا في المنبسط منها قصورا مرفّهة ومحصّنة، وأنّ منهم من نحت بيته في الجبل محصّنا من كلّ أذى، ثمّ قال لهم: "فأذكروا نِعَم الله تعالى عليكم، وأُشكروا له، ولا تفسدوا في الأرض بالكفر، والظلم، وقطع الطريق على النّاس بالقتل".

- قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ **(74)** :

وقابل المستكبرون من قومه للمؤمنين المستضعفين: أَمُتأكّدون أنتم من أنّ صالحا رسول من عند ربّه؟ وما كان سؤالهم إلاّ لزرع الشّكّ في تصديقه في نفوسهم، ولترغيبهم في التولّي عن صالح والفصل عنه، ولكنّ المؤمنين الصادقين أكّدوا لهم تصديقهم به وبرسالته، وردّوا كيدهم.

- قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ **(75)** :

وجاءت إجابة المستكبرين تؤكّد كفرهم برسالة صالح، وتؤكّد تكذيبهم به تعنّتا وكبرياء وعنادا.

- فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ **(76)** :

ولكنّهم عمدوا لذبح النّاقة، رغم التّحذير الشديد، وعصوا بهذا أمر الله تعالى تجبُّرًا وعنادا، وقالوا لنبيّهم ساخرين ومُتَحَدّين قل لربّك أنزل علينا العقاب الذي تتوعدنا به، إن كنت حقّا رسولا من عنده، وما كانوا مؤمنين برسالته.

- فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ **(77)** :

فأصابهم زلزال شديد في صوت قويّ عظيم، فأصبحوا على حالهم في أماكنهم هامدين موتى لا حراك لهم، وقضي عليهم جميعا.

- فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ **(78)** :

ولمّا أُخبر صالح بأنّ قومه آتيهم الهلاك خرج من بلادهم. وقبل خروجه أشهدهم على أنفسهم قد برّأ ذمّته مع ربّه لأنّه قد أبلغهم رسالة ربّه، وأنّه قد نصح لهم بأن أرشدهم لما ينفعهم



في دنياهم وآخرتهم حتى لا يأخذهم ربّهم بالعذاب، ولكنّهم لم يكونوا يحبّون نصح النّاصحين من عنادهم وكبريائهم ومن اِغترارهم بالإمهال. والآية عن صالح وقومه، ولكنّ المقصود بهذا التّذكير مشركو قريش من باب: "إيّاك أعني واِسمعي يا جارة"، وذلك للموعظة والاعتبار وللتّحذير من نفس المصير.

- وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ **(79)** إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ **(80)** :

وهذه في قوم لوط عليه السلام، كانوا يأتون الذكران جنسيا دون الإناث، ما أتى قوم قبلهم هذه الفاحشة من خروجها عن الفطرة، ومن شناعتها، ولقد لوحظ في عصرنا الحاضر أنّ من يأتي هذه الفاحشة المسماة عندنا بالمِثْلية الجنسية، يصاب بمرض "السيدا" الفتّاك، ولا يأتيها إلاّ المصابون بالشذوذ الجنسي. وقد قال لهم نبيّهم: إنّكم بإتيان الرجال دون النساء شهوة تتجاوزون حدودكم في المعصية. وقياسا على هذا فإنّ "السّحاق" الذي يعني المثلية النسائية يأخذ نفس حكم إتيان الرجل رجلا ذكرا مثله شهوة في تجاوز الحدّ في المعصية. ولا يجوز أن يأتي الرجل زوجته من دبرها، وفي غير موضع التّناسل لأنّه أيضا من الشهوة التي تخرج عن الفطرة السليمة، وهو عمل من الشذوذ الجنسي.

- وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ **(81)** :

فما كان موقف قومه من مواعظه إلاّ أن قالوا أُطردوا لوطا وعائلته من قريتنا وأنفوهم عنّا، وقالوا ساخرين: إنّهم يتنزّهون عمّا نفعل ويدّعون الطهّارة.

- فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ **(82)** :

فأمره الله تعالى بالخروج من القرية صحبة أسرته وأخبره أنّ زوجته ستكون من الهالكين، وذلك لأنّها كانت نصيرة لقومه على زوجها، وسيأتي بيانه في عرض آخر من قصة لوط مع قومه في موضع ثان.

- وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ **(83)** :

وجاء القوم مطر من حجارة مدمّرة على رؤوسهم سقوفَ بيوتهم فهلكوا جميعا وأصيبت زوجة لوط بالفزع لمّا اِلتفتت للقرية مخالفة لأمر لوط بتجنّب الالتفات فماتت وكذا كانت عاقبة المكذّبين بالوعيد والمعرضين عن نصح النبيّ عليه السلام والآتين بهذه الفاحشة المستنكرة التي جعلتهم يُوصَفُون بالمجرمين، وهذه صفة تُلحق بجميع المثليين من الجنسين فوجب الحذر من هذا الشذوذ، ومن سوء العاقبة، وعلى مناصريهم أن يخشوا سوء العاقبة قياسا على ما جرى لزوجة لوط.



- وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (84) :

وهذه في قصة شعيب عليه السلام الذي أُرسل إلى قوم مدين. وشعيب هو صهر موسى وهو أبو زوجته، وقد جاء قومه بدعوة التّوحيد، كشأن سابقيه من الرّسل، والغاية الأساسية موعظة مشركي مكة، وفي هذه القصص إثبات على اِتفاق جميع الديانات السماوية من عهد نوح عليه السلام في الدّعوة للتّوحيد. وقد جاءهم شعيب بمعجزة ظاهرة، ولم يأت في القرآن ذكر هذه المعجزة، ولذا فإنّ أفضل ما يقال فيها هي: الرسالة التي جاء بها، وما قيل غير هذا فلا دليل عليه. ودعاهم شعيب لإتمام الكيل إذا كالوا للنّاس، وإتمام الميزان إذا وزنوا، وبأن لا يبخسوا النّاس بضاعتهم عند الشّراء بإظهار عيوبها أو بالتّبخيس من قيمتها أو جودة صنفها تحيّلا. ودعاهم– كما دعا غيره أقوامهم – أن لا يفسدوا في الأرض بالشّرك بعد تطهيرها من المشركين، وبالمعصية بعد أن جاءهم الرّسول لهديهم، وهذا خير لهم لمعاشهم وحسن علاقتهم ببعض وللقيام بالعدل وحفظ الحقوق وحفظ أمن العباد في أرواحهم وأرزاقهم إن صدقوا في إيمانهم بالله وبالرّسالة التي جاءتهم.

- وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (85) :

كان في أهل مدين قطّاع طريق، وهؤلاء هم الذين يقعدون بكلّ صراط يتربّصون بالمارّين به والمسافرين فيهاجمونهم على غرّة، ويوعدون: يهدّدون بالقتل إن لم يستسلموا لأوامرهم لِسَلْبِهم ممّا يملكون من متاع، وهذا من أعظم الأعمال الإجرامية، وهذا من الإفساد في الأرض، ومن ترويع النّاس وقد نهاهم نبيّهم عن هذا الاجرام. ويشهد عصرنا هذا بكلّ أسف مظاهر منه، ولابدّ من الأخذ بالشدّة على مرتكبيه من المجرمين المفسدين في الأرض. وكان فيهم فريق آخر يمنعون النّاس عن الإيمان بالله تعالى، ويصرفونهم عن الطاعة لله ولرسوله بالتشكيك والتكذيب بالتوحيد وبالرسالة، وبالإغراء، أو التهديد للضعفاء والتّابعين، ويزيّنون للنّاس المعاصي، وهذا من التّعسّف على النّاس في معتقدهم وحريتهم، وهو أمر منهي عنه لما فيه من نشر المفاسد، ومقاومة مظاهر الإصلاح، وتعطيل الحريات. وذكّرهم نبيّهم بفضل الله تعالى عليهم إذ كثّرهم بتناسلهم بعد اِستئصال أسلافهم فعمروا الأرض، وذكّرهم بالاعتبار بتلك العاقبة السيّئة التي جرت على من كان قبلهم للاتّعاظ قصد الاستقامة على دين الله، وللتحذير من سوء المآل.

- وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ (86) :

وقد آمن قوم من أهل مَدْين بالله وحده، وصدّقوا برسالته، وتابوا عمّا كانوا عليه، واِستقاموا على الهدي. وأصرّ آخرون على التّكذيب، ولاشكّ أنّ المؤمنين قد تعرّضوا لمضايقات كثيرة من الكافرين، وأذًى، لذلك دعاهم شعيب لأن يصبروا على ما يلحقهم من معارضيهم حتى يفصل الله جلّ وعلا بينهم وبين أعدائهم بما يقضي بحكمة (وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ) لأنّه هو العَدْلُ، وهو تعالى الحقّ، وهو وَلِيُّ المؤمنين، وهو ذو اِنتقام شديد مِنَ الذين يظلمون النّاس بغير حقّ.

- قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ (87) :

في هذه صورة من الأذى الذي لحق شعيب والذين آمنوا معه. لقد هدّدهم زعماء القوم المتجبّرون بطردهم من بلادهم ونفيهم منها، وإنّ اللام في (لَنُخۡرِجَنَّكَ) تفيد القسم، وأمّا النون المشدّدة فتدلّ على التأكيد على إصرارهم على تنفيذ تهديدهم، إلاّ إذا رجعوا عن دينهم الجديد إلى الدين الذي عليه آباؤهم من الشّرك.

وكان ردّ شعيب على هذا التّهديد: أبالإكراه  وبالجبر يكون الإيمان بدينكم؟

- قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ (88) :

وأضاف شعيب قائلا: إنّنا نكذب على الله تعالى إذا عدنا إلى ملّتكم ونزعم أنّ له شريكا، أيكون هذا منّا بعد أن أنقذنا من الافتراء عليه بهدايتنا لتوحيده؟ لن نعود للكفر والشّرك، (إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا) هذه الجملة للتّسليم بمشيئة الله، وهذا من عمق إيمان شعيب فإنّه يردّ كلّ عَزْمٍ منه على فعل شيء لمشيئة الله وتقديره. (وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا) أيّ إنّ الله عليم بما نقول ومطّلع على أفعالنا اِطلاعا واسعا. (عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا) وقرّر شعيب أن يخرج والمؤمنون معه من القرية بعيدا عن قومه متوكّلا على الله تعالى لحفظه ولتوجيهه لمكان آمن. ودعا ربّه أن يجعل بينه وبين قومه فتحا، أي قضاء وحكما بالحقّ، والله خير النّاصرين. وكان دعاؤه بالفتح بينه وبين قومه في صلاته لأنّه عرف عن شعيب أنّه كثير الصلاة. وخرج شعيب فعلا من أهل "مدين"، واِستقرّ في "الأيكة"، ولم يكن حظّه مع أصحاب الأيكة بأفضل ممّا كان عليه مع أهل مدين.

- وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ (89) :

ولمّا عزم شعيب على الخروج من القرية صحبة من آمن معه حاول الكافرون أن يثنوا أتباعه عن الخروج معه، وأشعروهم بأنّهم سيخسرون حياتهم باتّباعه وسيندمون على اِختيارهم النّفي عن القرية وأهلها.

- فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ (90) :

ولمّا خرج شعيب ومن آمن معه من القرية زُلزلت القرية زلزالا شديدا أمات الجميع وهم جاثمون على ركبهم من الفزع الشديد والخوف والحيرة.

- ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ (91) :

وكذا هلك القوم الذين كذّبوا شعيبا وماتوا، وما عاد لهم أثر من حياة كأن لم يعيشوا في تلك القرية هانئين، وكأنّهم لم يكونوا مقيمين فيها، ولقد وقعت فيهم الخسارة أكثر ممّا هدّدوا بها المؤمنين الذين خرجوا مع شعيب، كانوا فعلا هم الخاسرون، والمؤمنون كانوا النّاجين من عذاب الله وغضبه.

- فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ (92) :

وكان شعيب – وهو يغادر القرية وأهلها – يقول: يا قوم لقد بلّغتكم رسالة ربّي إليكم لهديكم ونصحتكم بأن تؤمنوا به، وتطيعوه، وبأن لا تعصوه، وقد أعرضتم ورفضتم الإيمان، فسيحلّ بكم وعيده، ولن أحزن على ما سيصيبكم، وكيف أحزن على قوم كافرين معاندين؟

- وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ (93) :

وكأنّ في هذه الآية وما يليها تحذيرا لمشركي مكة من أن يصيبهم مثل ما أصاب الأقوام السالفة الذين أصرّوا على الشّرك والتكذيب بالرّسل، ودفعوهم للخروج من قراهم مهاجرين لقرى أخرى، فلحق بهم عذاب الاستئصال والهلاك، ذلك لأنّ هذه الآية وما بعدها في التّرغيب في الإيمان وفي التّحذير من الكفر والتّكذيب، وقد جاءت كذلك بعد عرض لنُبَذٍ من قصص الأنبياء التي تمحورت حول محور واحد: الدعوة للتّوحيد وللإيمان بالرسالات وتصديق الأنبياء، وللتّحذير من عذاب الاستئصال بسبب الكفر والتّكذيب، وجميع من ذُكِرَ من الأنبياء قد غادروا قراهم بسبب إيذاية المشركين، وقد جاءت هذه السورة، والمسلمون من المستضعفين يشهدون حينها إيذاءات كثيرة. والمعنى: وما أرسلنا من نبيّ في قرية فكذّب أهلها به إلاّ أصبنا أهلها بالشدائد، وبضيق المعيشة، والآفات، وبالسّقْم والألم، وسوء الحال عساهم يتوجّهون إلى الله بخالص الدعاء في خضوع وتذلّل.



- ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (94) :

ثمّ عوّضنا شدّتهم بالرّخاء اِستدراجًا لهم حتى (عَفَواْ) أي كثروا وكثرت خيراتهم وتنوّعت وكثرت أموالهم ونَمَوْا وعُمِّرتْ بيوتهم، ولم يكونوا شاكرين، بل قالوا تلك هي حياتنا، فقد أصاب آباءنا الضّرّاء من قبلُ، ثم اِنفرجت وسُرُّوا بكثرة الخيرات التي جاءتهم، فجاءهم العذاب فجأة وهم في غفلة.

- وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (95) :

هذه في الترغيب والترهيب، والمعنى: لو أنّ أهل القرى آمنوا بالله وحده وصدّقوا برسله وأطاعوا الله عزّ وجلّ في أمره ونهيه لأرسل الله عليهم خيرات السماء، ولأخرج لهم من خيرات الأرض من كنوزها وثمار أشجارها وممّا تنبت من الزّرع، ولكنّهم كذّبوا بالتوحيد وبالرّسالات وعصوا الرّســـل فأهلكهم الله تعالى بالعذاب الدنيوي قبل الأخروي بسبب كفرهم وسيّئات أعمالهم.

- أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ (96) أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (97) أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (98):

الآيات في وعيد الكافرين المكذّبين، والمعنى: ألا يخاف هؤلاء أن يصيبهم عقاب الله وعذابه على كفرهم بليل وهم نائمون فيمتدّ نومهم إلى آخرتهم بموتهم، أو يأتيهم في وضح النّهار وهم لاهُون ومنشغلون بمتاع دنياهــم. أيأمن هؤلاء عذاب الله تعالى بما يحظون من إمهالٍ، لا يأمن عذاب الله إلاّ القـــوم الذين خسروا أنفسهم وخسروا آخرتهم بسبب عنادهم وإصرارهم على الكفر.

- أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (99) :

وهذه في موعظة عامّة، والمعنى: ألم يتبيّن للأجيال التي خَلَفَت الأمم المُعاقبة ما حدث للسابقين من إهلاك للاعتبار، وأنّا قادرون عليهم إن هم كانوا على آثارهم في الكفر والعصيان، وأنّا لو أردنا أن نعاقبهم بسبب ذنوبهم لفعلنا، ولختمنا على قلوبهم حتى يموتوا على الكفر ليعاقبوا في آخرتهم، أفلا يهتدون بسماع الحقّ للموعظة والاعتبار؟

- تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ (100) :



إنّا نخبرك عن القرى وعن أهلها جاءتهم رسلهم بالحقائق وبالهدى وبالدلائل على الباطل ولكنّهم بسبب عنادهم أصرّوا على التّكذيب، ولم تَلِنْ قلوبهم للحقّ وليتراجعوا على ما كانوا عليه من الباطل. وهكذا يجعل الله قلوب الكافرين المعاندين متحجّرة رافضة لإصلاح حالها وللاهتداء للصواب.

- وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ (101) :

وهؤلاء الذين عوقبوا لم نجد لهم وفاءً لما وصّاهم الله به من توحيده واِتّباع رسله، ولقد وجدنا أكثرهم خارجين عن الطاعة وعن الدّين القويم.

- ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (102) :

هذه إلى غاية الآية 171 في قصة موسى عليه السلام وقومه. ويتميّز هذا العرض عن غيره من العروض التي جاءت في سور أخرى من القرآن بالإخبار عن نبوّة مُحمّد صلّى الله عليه وسلّم النبيّ الأميّ ودعوة قومه لتصديقه ومؤازرته حين يأتيهم، وفيها عنصر آخر تنفرد به هذه القصّة هو عرض ما فعل الخَلف من بعده من مخالفة الاستقامة على الدين الذي جاءهم به، وأمّا العنصر الثالث المميّز لهذا العرض فيتمثّل في طلب موسى أن يرى الله تعالى جهرة. وبهذه الخواص نستشهد على أنّ قصص الأنبياء التي يتوارد ذكرها في جملة من السور ليس فيها تكرار لسردِ حوادثها، وإنّما هي تختلف من سورة لأخرى في الغرض المقصود التركيز عليه، ومن سورة لأخرى يُذكر عنصر جديد أو أكثر من عنصر في أحداث القصة: فوجب الانتباه لهذا الأمر (أنظر كتاب مُحمّد التهامي نقرة، القصص القرآني "موضوع أطروحة دكتوراه").

والمعنى: ثمّ بعثنا من بعد أولئك الرّسل موسى عليه السلام برسالتنا إلى فرعون وأعوانه فكفروا بالمعجزات التي أظهرها لهم موسى لتأييد صدقه فتبيّن ماذا كانت عاقبة المفسدين في الأرض بالظلم والطغيان.

- وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (103) :

قال موسى لفرعون إنّي رسول الله سيّد الخلق أجمعين.

- حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ(104) :

وقال له: أنا حريص على أن لا أقول على الله إلاّ ما كلّفني بتبليغه بالصدق والحقّ، وقد جئتكم بشاهد من عند الله يدلّ على صدقي فأطلق سراح بني إسرائيل من الاستعباد، واسمح لهم بالخروج معي إلى أرض غير هذه.

- قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (105) :

وقال فرعون: إن كنت قد جئت بشاهد من عنده فأحضره واعرضه علينا إن كنت صادقا فيما تقول.

- فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (106) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ (107) :

فرمى موسى بعصاه على الأرض فتحوّلت إلى حيّة عظيمة الجسم ظاهرة، وأخرج يده من جيب صدره فإذا هي بيضاء نقية لمن يراها، وقد كان موسى أسمر البشرة.

- قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ (108) :

وقال الحاضرون في مجلس فرعون من أهل بطانته إنّ هذا لساحر مشعوذ ماهر، عليم بفنون السّحر.

- يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (109) :

وقال فرعون للحاضرين بمجلسه: هذا يريد أن يخلي الأرض من أهلها فبماذا تشيرون عليّ؟

- قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ (110) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ (111) :

فأشاروا عليه أن يجعل موسى وأخاهُ هارون ينتظران قليلا، وأن يبعث في مدن البلاد من يجمع السحرة الماهرين فيها ليحضروهم للبلاط.

- وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ (112) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (113) :

وجُمع السحرة بين يدي فرعون، وعرض عليهم مناظرة موسى، ورأوْا في أنفسهم الغلبة والتفوّق فسألوا فرعون أن يجازيهم جزاء طيّبا إذا غلبوه، وأجاب فرعون طلبهم ووعدهم بتقريبهم منه تكريما لهم.

- قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ (114) قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (115) :

وحين اِجتمع القوم لحضور المناظرة قال السحرة لموسى إمّا أن تبدأ بإلقاء سحرك وإمّا أن نبدأ نحن بإلقاء سحرنا، فقال لهم موسى: ابدؤوا، فلمّا ألقوا سحرهم سحروا أعين النّاس فأظهروا لهم خيالات مخالفة للحقيقة، وخوّفوهم تخويفا شديدا ممّا صنعوا، وأظهروا سحرا عجيبا بالغ العجب.

- ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (116) فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (117) :

ومن عناية الله بموسى أن أوحى إليه بأن يرمي عصاه في ساحتهم فإذا بالعصا تبتلع ما رموا من حبال وأشكال وما كانوا يخيّلون للنّاس من خيالات، وهكذا ظهر الحقّ أنّ ما جاء به موسى لم يكن سحرا إنّما كان معجزة قاهرة، وظهر بطلان ما كانوا يفعلون من السحر.

- فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ (118) وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (119) :

وهكذا في ذلك المكان أمام فرعون وملئه وبحضور حشود الناس غُلب السحرة جميعهم، وظهرت خيبتهم، وذلّوا أمام أعين النّاس، وما كان منهم إلاّ أن خرّوا سجّدًا بين قدمي موسى على أعين فرعون والحشد من النّاس.

- قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (120) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (121) :

وأعلنوا بأنّهم يصدّقون بسيّد الكائنات والمخلوقات ومرسل موسى وهارون.

بدؤوا مناظـرتهم سحرة طامعين في هبات فرعون، ولمّا رأوا المعجزة اِنقلبوا مؤمنين بعد كفرهم.

- قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ (122) لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ (123) :

واِغتاظ فرعون ممّا رآه من سجود السحرة لموسى، ورأى فيه عصيانا له فآخذهم على إيمانهم بموسى ولم يأذن لهم بذلك، ورأى في عملهم هذا مؤامرة مدبّرة في الخفاء اِتفقّوا عليها ليخرجوا من المدينة أهلها، وحكم عليهم بقطع أيديهم من جهة وأرجلهم من الجهة الثانية المخالفة للأولى ثمّ بعد ذلك يعلّق جثثهم في الفضاء موثوقي الأذرع لتأكل الطير من رؤوسهم ليعتبر بهم النّاس فلا يعصون فرعون ولا يتآمرون عليه وليعرفوا بطشه فيرهبوه.

- قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (124) وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ (125) :

وقال السحرة: إن صلبتنا وأمتّنا فإنّا جميعا راجعون إلى الله، وما كان حكمك الانتقامي منّا إلاّ لأنّا صدّقنا بمعجزات ربّنا وبرسالته وآياته لمّا جاءتنا. اللّهمّ ربّنا أَفِضْ علينا صبرا قويّا لنتحمّل الأذى الّذي ينتظرنا، وأمِتْنا على ملّة الإسلام منقادين إليك.

- وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ (126) :

وقال أهل بطانة فرعون والقادة: أتترك موسى وقومه وأتباعه أحرارا في الأرض يفسدون فيها بالدعوة لإلاه موسى، وليبدلوا على النّاس دينهم، وليدعوا عبادتك وتقديسك وعبادة آلهتك، فقال



فرعون حانقا: سنقتل أبناءهم حتى نقطع نسلهم ونستبقي نساءهم لخدمتنا ولهونا، وإنّا قاهروهم وغالبوهم، ونحن أقوى منهم.

- قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (127) :

ورأى موسى من أعوان فرعون إلحاق الأذى بقومه، فدعاهم لأن يستعينوا بالابتهال إلى الله ليُقوّيهم على اِحتمال الأذى، وليشدّ أزرهم ليتقوّى فيهم الصبر، وذكّرهم بأنّ الأرض ملك لله وليست لفرعون، وهو تعالى يعطيها لمن يشاء ويمكّنهم منها، ودائما حسن العاقبة لعباده المتقين.

- قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (128) :

واِشتكى القوم لموسى سوء معاملة أهل مصر لهم فقالوا: لقد كنّا نتأذّى منهم من قبل أن تأتينا برسالتك، وتقوّى أذاهم من بعد ما جئتنا، فقال لهم موسى ليُسلِيَ عنهم همّهم: لا تَغْتَمّوا عسى الله أن يهلك عدوّكم ويجعلكم خلفاء في الأرض بعد إهلاك الكافرين لتعمّروها بنسلكم، ويختبر بهذا شكركم على فضله ونعمته ويختبر مدى محافظتكم على دينه وشرعه وطاعته وحسن عبادته.

- وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (129) :

ولقد عاقبنا آل فرعون بالجدب والقحط الشديد، وكان من أثر ذلك أن حُرموا من كثير من خيرات الأرض وإنتاجها عساهم يعرفون قدرة إلاه موسى عليهم وعساهم يتوبون عن غيّهم.

- فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (130) :

ولكنّهم لم يعتبروا بما أصابهم، فإذا جاءهم الخصب والغنى قالوا هذا من ثمرة جهدنا، ولا يذكرون الله الذي رزقهم ولا يشكرونه، وإذا حدث لهم حادث يسوؤهم ردّوا الأمر لموسى ومن معه تشاؤما منهم، ألا يعلمون أنّ ما أصابهم كان عقابا لهم من عند الله، وليس من عند موسى، ولكنّ أكثرهم يجهلون قدرة ربّهم عليهم.

- وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (131) :

وكلّما دعا موسى أهل مصر للإيمان بالله، وكلّما حذّرهم من وعيده، وكلّما ذكّرهم بما أصابهم من عذاب الله قالوا مهما جئتنا به من عقوبة ومن معجزة – الّتي سمّوها عملا سحريا – فلن نؤمن لك، ولن نصدّقك ولن نتّبعك من إصرارهم على الكفر وتكذيبهم برسالته.



- فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (132) :

فأراهم الله تعالى بعضا من آيات وعيده، أرسل عليهم سيلا أغرق جمعا من دورهم، وأفسد حقولا لهم، وأرسل عليهم الجراد فأفسد زرعهم وخرّب أرضهم، ثمّ القمل نشرها على رؤوسهم وفي أبدانهم وأغطيتهم، وأفسد عليهم نومهم بنقيق الضفادع، وأفسد ماءهم بأن تلوّن بالأحمر كأنّه مُزِج بالدم، فما عادت مياههم صالحة للشّرب، كلّ هذه العقوبات كانت دلائل واضحة على صدق وعيد الله، وعلى قدرته على إهلاكهم، ودلائل واضحة على صدق موسى ونذيره، ورغم هذا كلّه تكبّروا عن الإيمان، وأصرّوا على الكفر عنادا، فكانوا قوما مجرمين في حقّ أنفسهم.

- وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (133) :

ولمّا اشتدّت عليهم تلك الآفات، ولم يجدوا للخلاص منها سبيلا، وعلموا أنّها علامات سخط وعقاب اِلتجؤوا لموسى ورجوهُ أن يدعو لهم ربّه بما أكرمه به من القرب منه، والسماع له ليكشف عنهم الكرب فسيصدّقون به رسولا، ويرسلون معه بني إسرائيل ويسمحون لهم بالخروج من أرضهم.

- فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (134) :

ولمّا كشف الله عنهم تلك الآفات وخلّصهم منها إلى موعد آخر سيبلغونه بعد مماتهم ثمّ بعد إحيائهم ليوم الحساب نكثوا عهدهم وتراجعوا عمّا وعدوا به موسى من الإيمان به، والسماح لبني إسرائيل بالخروج من بلادهم.

- فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ (135) :

ولمّا نقضوا العهد، أمر الله موسى بالخروج في غفلة من آل فرعون ببني إسرائيل عبر نهر النيل، ولمّا خرجوا فطن بالأمر فرعون وملؤه فأتبعوه، ولمّا دخلوا النيل على آثارهم غمّهم الماء فأغرقهم الله في لُجَجِه، وكذا اِنتقم الله منهم على أعين بني إسرائيل وهم يشهدون. وكان هذا الانتقام بسبب إصرارهم على التكذيب بوعيد الله، وبسبب غفلتهم عن إدراك قدرة الله عليهم.

- وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (136) بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ (137) :

ونجّى الله بني إسرائيل من الاستعباد والقهر وأنقذهم منهما، وانتشروا في مشارق الأرض ومغاربها، ونُصِرُوا فتقوّوْا وما عادوا مستضعفين، وهكذا تمّ ما وعد الله تعالى به بني إسرائيل بإنقاذهم ممّا كانوا فيه جزاء صبرهم، وجزاء إيمانهم واِلتزامهم بشرع الله، وأصاب الخراب ما كان



يقيم فرعون وقومه من عمارات ومزارع وما كانوا يغرسون من شجر مثمر ومن كروم في بساتينهم.

- وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ (138) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (139) :

ويسّر الله لهم قطع البحر وتعدّوه وتجاوزوه إلى البرّ، ومرّوا على قوم يقيمون على عبادة الأصنام فقالوا: يا موسى اِجعل لنا صنما نعبده مثل هؤلاء، فقال لهم موسى: إنّكم تقابلون نعمة الله بقول يدلّ على جهلكم به ويدلّ على أنّ الإيمان بوحدانية الله لمَّا يَدْخُلْ في قلوبكم.

إنّ هؤلاء – عبدة الأصنام – (متبرّ) ما هم فيه، أي مهلك ومدمّر، ويجلب غضب الله، وما يقومون به عمل باطل وعبث وهو من الوهم.

- قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (140) :

واِستغرب موسى من قومه هذا الطلب فقال مُوَبِّخًا: أأطلب إلاها معبودا غير الله تعالى؟ ما أعجب ما تطلبون وما أنكره، وهو الذي أنعم عليكم برفعة المنزلة على سائر الخلق في هذا الزمان!

- وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ (141) :

واُذكروا إذ أنجاكم الله من آل فرعون وظلمهم واِستبدادهم، كانوا يذيقونكم أسوأ العذاب، ويحمّلونكم من الأعمال ما لا تطيقون، يقتلون أولادكم الذكران ليقطعوا نسلكم ويُبْقُون بناتكم أحياء ليستغلّوهنّ لخدمتهم أو ملاهيهم وعبثهم، وفي ذلك نقمة شديدة عليكم ومصيبة كبيرة.

- وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (142) :

ودعونا موسى للمناجاة لثلاثين ليلة وزدنا عليها عشر فاكْتمَل الوعد الذي وعده بكلامه إيّاه أربعين ليلة. وكان موسى قد كلّف أخاه هارون ليخلفه في توجيه القوم، وأمره بأن يسهر على صلاح أمورهم، ونهاه عن أن يساير المفسدين منهم فيما يطلبون، وعليه أن لا يسكت عليهم فيما يعصون أو يفعلون من المفاسد.

- وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (143) :



ولمّا حضر موسى الميقات في المكان الموعود كلّمه ربّه في الشّرع الّذي يجب عليه أن يبلّغه لقومه، حينها قال ربّ اجعلني أراك رأي العين. قال الله: تستحيل عليك رؤيتي، ولكن تأمّل في الجبل فإنْ وجدته ثابتا في مكانه على حاله فسوف تتمكّن من رؤيتي، فلمّا ظهر شيء من نور قدسه اِستوى الجبل بالأرض، ولم يعد قائما، وسقط موسى مغشيا عليه من عظيم ما رأى في الجبل، وغاب عن وعيه، فلمّا أفاق من غيبوبته قال: سبحانك ربّي، تنزّهت عن التّجسيم وعن الرؤية البصرية، وأنا أكثر المؤمنين إيمانا بأنّك لا تُرى، وبأنّك غير مجسّد سبحانك.

- قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ **(144) :**

قال الله تعالى: يا موسى إنّي اِخترتك على أهل زمانك لتحمل إليهم رسالتي، وفضلتك عليهم بأن كلّمتك، فاحمل إليهم ما كلّفتك به، وبلغهم إيّاه، وحافظ على شكرك لي على ما تفضّلت به عليك، وتميّزت به على النّاس.

- وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ **(145) :**

وآتينا موسى ألواحا نقشنا عليها من كلّ ما يحتاج إليه المؤمن في دينه ودنياه من شرائع ومواعظ، وتبيانا لكلّ ما أمر الله أو نهى عنه (فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ) فاعمل بأحكامها بجدّ وعزيمة قويّة، (وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا) أي أن يعملوا بما فيها من أحكام هي أحسن حكما وأفضل رشادا ممّا يتحاكمون به من أحكام تعارفوا عليها، وليعملوا بما يطيقون منها. لا يجب أن يُفهم من هذه الجملة أنّ القوم أمروا بأن يأخذوا من الأحكام ما يستحسنون. وأن يتركوا مالا يرونه حسنا). وسيرى المارقون عن الدين والخارجون عنه أيّ مأوى سيأْوَوْن إليه في آخرتهم يوم حسابهم. وهذه الجملة للوعيد.

وفي الألواح الوصايا العشر، وهي تابعة للتّوراة ومُتَضَمِّنَتها.

- سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ **(146) :**

سأُبْعِدُ المستكبرين الذين يتكبّرون في الأرض ظلما وجورًا وعدوانا عن إدراك حقائق دلائل التّوحيد، وعن الخوف من الوعيد لأنّهم لا يحبّون أن يروا دلائل الحقّ، ولا يحبّون أن يصدّقوا بها، إنّهم لا يحبّون أن يتّبعوا سبل الرّشاد، ويحبّون أن يسلكوا سبل المعصية والظلم والضلال، ذلك بأنّهم يكذّبون بالوعيد، ولأنّهم غافلون عن يوم الحساب وهوله.



- وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ(147) :

هذه موعظة عامّة، وفيها اِلتفات لمشركي قريش، والمعنى: والذين يكذّبون بالوعيد، ويكذّبون بيوم الحساب فسدت أعمالهم، وإذا عملوا أعمالا في البرّ فإنّهم لا يؤجرون عليها لكفرهم. إنّهم لا يقرّون بيوم للحساب، ولا يقرّون بوعدٍ ولا وعيد فكيف يُكْرَمُون على شيء لا ينتظرونه ولا يقرّون بحصوله؟

- وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ (148) :

لمّا ذهب موسى لميقات ربّه، صنع فئة من قومه تمثالا على صورة عجل من الذهب الذي هربت به نساؤهم من مصر، وكان حُلِيًا لهنَّ، وجعلوا في مؤخرة صورة العجل فراغا فإذا نفخ ريح سمع صوت داخل الصورة اِعتبروه خوارًا لعجلهم، وجعلوه إلاهًا لهم يقدّسونه. وما كان أعجب عملَهم، وما كان أسخفه! ألا يلاحظون أنّ ربّهم الذي يعبدون لا ينطق بكلمة ولا يدلّهم على شرعه ولا يبيّن لهم الطريق الموصل إلى رضاه؟ جعلوه لهم إلاهًا فظلموا أنفسهم بهذا التوجّه لأنّه لا ينفعهم بشيء.

ومن غريب أمر هذه الفئة أن سبق لموسى أن نبهّهم بأن لا يتّخذوا إلاها غير الله وذلك حينما سألوا موسى أن يجعل لهم إلاها كما رأوا عند القرية التي مرّوا بها في طريقهم كما سبق ذكره، ولكن أعماهم جهلهم بربّهم، وكانوا يستحسنون التقليد، وكانوا معاندين ولا يعُون.

- وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (149) :

ولمّا افتضح ضلالهم، وعرفوا خطأهم ندموا على ما فعلوا، وسألوا الله تعالى أن يرحمهم بالتّجاوز عن سيّئتهم، وأن يغفر لهم خطيئتهم، وخَشُوا أن يكونوا من الخاسرين لآخرتهم إذا لم يرحمهم ربّهم وإن لم يغفر لهم.

- وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (150) :

ولمّا كان موسى بالميقات عند ربّه، أخبره تعالى بما فعل قومه من بعده من اِتّخاذ العجل إلاها، فرجع موسى حانقا، ثائرا وغاضبا، وكان رجلا ذا بأس وقوة، وأسف كثيرا لما فعله قومه من بعده وهو الذي دعاهم لعبادة الله وحده، ووعظهم بأن لا يتّخذوا الأصنام آلهة، وشعر كأنّه لم



يفلح في دعوته، ولم ينجح في أداء رسالته. ولمّا بلغ مكان القوم قام فيهم مُؤَنِّبًا ومُوَبِّخًا لسوء ما عملوا في غيابه، وسألهم أتستعجلون ﴿أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ وهو عقابه وعذاب الاستئصال؟ ورمى بالألواح المنقوشة من عند الله والتي فيها أوامره ومواعظه فتكسّرت من شدّة ما أصابه من الغيظ والحنق وثورة أعصابه، ومسك بشعر رأس أخيه، وأخذ يجرّه منه أمام أعين الملإِ لأنّه كان مستخلفا عليهم، وكان بينهم لم يأخذ بقوّة وحزم خلافته ليمنع الفاسدين المجرمين من أن يأتوا عملهم وهو شاهد وحاضر فيهم. استعطفه أخوه هارون بالأخوة التي تربطهم وبأنّه ابن أمّه، وأخبره بأنّ القوم قد إِحتقروه ولم يسمعوا له، وكان قد منعهم من أن يأتوا عملهم ولكنّهم آذوه حتى كادوا يقتلونه ضربا وإيذاءً، واسترحمه بأن لا يتشدّد معه فيشمت به من سبق لهم أن أهانوه وضربوه وآذوهُ فيكون النّكال به من جانبين، وناشده أن لا يجمعه مع الظالمين في نفس سياق المعصية والجريمة.

- قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (151) :

حينما سمع موسى من أخيه ما جرى مع أخيه من عصيان وعدوان وإِحتقار وإِمتهان هدَّأ من رَوْعه وغضبه وإِسترجع، وسأل الله تعالى أن يغفر له ولأخيه ما كان منهما من ضعف وخطإ، ودعاه بأن يدخلهما في رحمته فلا يؤاخذهما عمّا كان، وتوسّل إليه بأنّه سبحانه أرحم الرّاحمين جلّ وعلا.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ (152) :

هذه في الإخبار عن حكم الله تعالى في الذين صنعوا العجل واتّخذوه معبودا، لقد حقّ عليهم غضب الله تعالى، وسيلحقهم طول حياتهم في دنياهم المذلّة والهوان، وكذا يكون جزاء الكاذبين على الله وقدسيته ووحدانيته.

- وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ (153) :

وأمّا الذين عبدوا العجل، وهي سيّئة كبيرة، ولم يكونوا قد ساهموا في صناعته ونحته، ثمّ ثابوا إلى رشدهم، وتابوا عمّا كانوا يفعلون، وآمنوا بالله وحده وصدقوا في توحيده، وأخلصوا له في الطاعة والعبادة، فإنّ الله تعالى بعد توبتهم يغفر لهم ما أتوه من قبل، ورحيم بهم في آخرتهم فلا يؤاخذهم عمّا كانوا قد فعلوا.

- وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ(154) :



ولمّا هدأ موسى وسكن غضبه عاد إلى الألواح المكسّرة يجمعها، ويقرؤها على النّاس وقد نقش عليها إرشاد للعباد لما يهديهم لربّهم وللنّجاة في آخرتهم إذا عملوا بما جاء فيها من شرع وموعظة، وفيها لمن عمل بها وخشي ربّه وخشي عقابه ما يأمن به من عذابه، وما ينال به رحمته.

- وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ (155) :

واِختار موسى سبعين رجلا من خيار قومه، واِنطلق بهم إلى ميقات ربّه (وهذا ميقات ثان) ليعتذروا إليه تعالى عن عبادة العجل، وليطلبوا عفوه ويستغفروه. فلمّا بلغوا مكان الموعد ارتجّت بهم الأرض رجًّا قويّا، وزلزلت من تحت أقدامهم، أو ربّما نزلت عليهم صاعقة مخيفة لأنّهم لم يقوموا في الفئة الضالّة ليردّوهم عن غيّهم في جدّ وحزم وقوة وقد كانوا سادة في قومهم وأشرافًا يُسمع لهم، فلابدّ أن يكون في كلّ قوم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وإلاّ كانوا معهم إذا سكتوا عمّا يفعلون من منكر وسيّئات، وأغمضوا عنه أعينهم. فسجد الرّجال لله تعالى، ودعا موسى ربّه بأن لا يهلكهم بما فعل ذوو العقول السخيفة منهم وغير الواعين من عمل سيّئ ومعصية كبيرة، وقال متوسّلا: لو شئت أهلكتنا جميعا قبل حضورنا، إن هي إلاّ مِحنَتُك وَبَلِيَّتُك تُضِلُّ بها من تشاء من عبادك المجرمين، وتهدي من تشاء من عبادك، أنت سبحانك الذي تتولّى جميع أمورنا، وأنت سبحانك الذي تتصرّف فينا كما تشاء فاغفر لنا معصيتنا، واِرحمنا فلا تعاقبنا، وأنت يا ربّنا خير من يغفر لعباده زلاّتهم ومعاصيهم.

- وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ (156) :

وأضاف موسى داعيا: واقدر لنا من كلّ خير تعرفه صالحا لنا في دنيانا وآخرتنا من هداية وتوفيق وحسن عمل، إنّا تبنا إليك، واِهتدينا للعمل بأوامرك. وأوحى إليه ربّه أنّ عذابه لَاحِقٌ بمَن يشاء مِنْ عباده، وأنّ رحمته تعمّ كلّ شيء، وسيقدّرها ويمنحها للّذين يمتثلون لطاعته وأوامره، ويجتنبون نهيه ومعصيته، ويؤدّون زكاة أموالهم وزروعهم وأنعامهم، وللمؤمنين الذين يصدّقون بالوعد والوعيد، وبالقيام للآخرة للحساب.

- ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ

عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (157) :

وهذه تتمة للآية السابقة، فرحمة الله الواسعة سيكتبها للذين يتّقون ويؤتون الزكاة وللذين يؤمنون بآياته و(ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ)، فقد جاء في ما أوحى الله تعالى لموسى في الميقات الثاني الذي حضره سبعون رجلا من أشراف قومه أنّ على بني إسرائيل أن يتّبعوا الرسول النّبي الأمّيّ لتسعهم رحمته الواسعة، وأخبر تعالى أنّ صفة هذا الرسول النّبيّ مكتوبة عندهم في التوراة، وستكتب في الإنجيل، صفته أنّه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيّبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وأنّهم مأمورون بالتصديق به، وبتعظيمه وتوقيره وبنصره وشدّ أزره، وباتّباع النور الذي سينزل عليه وهو القرآن ليكونوا من الفائزين برحمة الله الواسعة. والمستفاد من الآية أنّه من تمام إيمان بني إسرائيل ليكونوا من المفلحين وجوب التصديق بالنّبيّ الأمّي الذي سيأتيهم وهو محمد صلّى الله عليه وسلّم، وأنّ عليهم أن يتّبعوا الكتاب الذي ينزل عليه، وأنّ عليهم واجب نصرته وتعظيمه، ومن المُستفاد أيضا أنّ الإخبار برسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم ونبوّته قد ورد ذكره في التّوراة والإنجيل. وفي هذا تشريف كبير للرّسول النبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم وتشريف كبير للمسلمين أتباع هذا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

- قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (158) :

هذه فيما أوحى الله به لرسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم لتبليغه للنّاس كافّة، والمعنى: نَادِ في النّاس وأخبرهم أنّك رسول الله إليهم كافّة، كتابيين وأميين غير كتابيين. أخبرهم أنّك رسوله الذي له ملك السماوات والأرض، وهو إلاه واحد لا إلاه إلاّ هو، هو الذي يحي ويميت، وعليكم أن تؤمنوا بالله وحده، وأن تصدّقوا برسوله النّبيّ الذي لم يكن له علم بالأديان السابقة ولا خبر، وهو الذي يصدّق بوحدانية الله، ويصدّق بالكتب المنزلة، وعليكم أن تقتدوا بسيرته في العبادة والطاعة وأعمال البرّ رجاء أن تكونوا من المهتدين إلى الحقّ وإلى صراطه المستقيم.

- وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ (159) :

ولقد كان جماعة عظيمة من قوم موسى يرشدون غيرهم إلى الحقّ الذي أنزله الله على نبيّهم، وهم بما أنزل الله يحكمون بالعدل بين الناس وبالقسط.

- وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ **(160)** :

وصيّرنا بني إسرائيل اثنتي عشرة فرقة وجماعات من مثل ما عند العرب من القبائل أو الآل، أو العرش، وهذا ليكون لكلّ (سبط) أي لكلّ فرقة رئيس، فيخفّ على موسى أمر التبليغ، وليخلف رئيس السبط في تعهّد جماعته للعمل بشرع الله وأوامر موسى. ولمّا اِستسقى موسى لقومه أوحى إليه ربّه أن يضرب الحجر بالعصا فانفجرت بقدرة الله تعالى وفضله اِثنتا عشرة عينا، ليكون لكلّ سبط عين يشربون منها، فلا يختلفون في توزيع الماء أو في الاتّجار به.

وقد أكرمهم الله تعالى لمّا كانوا في التّيه بأن رفع فوقهم سحابا أبيض رقيقا ليظلّهم من الشمس وحرّها وهم في الصحراء، وأنزل عليهم طعاما من السماء كالرقاق من الخبز، وهو المنّ، وأرسل لهم الطائر المعروف بالسُّماني يلتقطونه بأيديهم دون عناء، ومن غير حاجة للمهارة في الصيد، وأحلّ الله لهم الأكل من كلّ الطيّبات التي يسّر الله لهم رزقها وغُنْمها. ولم يكونوا قد ظلموا الله بمعاصيهم لأنّ الله تعالى غنيّ عنهم وعن طاعاتهم، ولكن كانوا يظلمون أنفسهم بمعاصيهم لأنّهم سيحاسبون عنها وسيُعاقبون. وكان هذا بعد وفاة موسى، فقد توفى موسى في التيه، والذي خرج بهم من التّيه ابن أخيه أشعياء.

- وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ **(161)** :

وأذكر لمّا قيل لهم أقيموا في هذه القرية، وعمِّرُوها واخدموا أرضها لتخرجوا منها ما طلبتم من القثّاء والثوم والبصل والبقول حيث حللتم، وادعوا ربّكم بأن يحطّ عنكم خطاياكم وإذا دخلتم مدْخلها فانحنوا إنحناء الشكر لله تعالى وادخلوها خاشعين ليغفر الله لكم ما آتيتم من معصية، وسنضفي على المطيعين لله المستقيمين على الطاعات الكثير من الخيرات.

- فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ **(162)** :

فحرّفوا الكلام، وبدل أن يقول حُطَّ علينا خطايانا قالوا حنطة شعير فأرسل الله عليهم عذابا من السماء بسبب ظلمهم لأنفسهم بتحريفهم لكلام الله تعالى، واستكبارهم عن الطاعة.

- وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ **(163)** :



(وَسۡـَٔلۡهُمۡ ) صيغة في التّعبير لكشف ما يُراد تَنَاسِيه، وإخفاؤه، إسألهم عن سكّان تلك القرية الواقعة على ساحل البحر ماذا كان خبرها؟ قد أُختُبِرُوا في طاعتهم لأمر ربّهم في الامتناع عن الصيد كلّ يوم سبت من الأسبوع. كان السمك يظهر لهم على سطح البحر (شُرَّعًا) بكثرة، وفي غير يوم السبت تغوص في بحرها ولا تظهر. فاعتدوا على أمر الله في التحريم فأُخِذُوا بالشدّة بسبب خروجهم عن الطاعة. والعبرة وجوب الالتزام بالطاعة، ومقاومة هوى النّفس مهما كان الأمر.

- وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ (164) :

هذه في قوم يَنْهَوْن الوعّاظ عن الوعظ ويدعونهم لترك النّاس أحرارا فيما يفعلون، وفي كلّ دين فإنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر واجبٌ فعلُه على كلّ عالم وواعظ وناصح بالكلمة الطيّبة، وعلى وليّ الأمر الحاكم أن يحرص عليه بالحزم وتفعيل سلطانه بالقوّة.

وأذكر إذ قالت جماعة من الناس للوعاظ، ما همّكم في قوم سيهلكهم الله بما يفعلون أو يأخذهم بعذاب حتى تقوموا فيهم واعظين لإرشادهم لطاعة الله والحذر من إتيان المعاصي. وقال الوعاظ: إنّا لا نحبّ أن يؤاخذنا ربنا على تقصيرنا في ترك النّهي عن المنكر، ولعلّنا نجد عند ربّنا العُذر بما فعلنا من دعوة القوم للخشية من الله جلّ وعلا.

- فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ (165) :

النسيان هنا بمعنى التَّرْكِ كقوله تعالى (نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ (التوبة الآية 67)) والمعنى: فلمّا تركوا العمل بما وعظوا به أنقذنا الواعظين، وسلّطنا على العصاة المذنبين عذابا شديدا لخروجهم عن الدّين وعن الطاعات إلى المعاصي.

- فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ (166) :

ولمّا تكبّروا عن الانتهاء عن المحرّمات رغم ما أصابهم صيّرناهم في سلوكهم وحركاتهم مَسْخَرَةً عند النّاس وأضحوكة كالقردة، عليهم الذلّة والمهانة.

- وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ (167) :

وأذكر أنّ ربّك قد أعلم النّاس بقضائه وأخبرهم بأن يرسلنّ على العصاة من اليهود من يذيقهم العذاب الأليم إلى يوم القيامة. إنّ ربّك سريع العقاب لمن يعصيه، وإنّه تعالى غفور رحيم للتائبين وللمؤمنين الطائعين.



- وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ (168) :

وفرّقنا اليهود في أنحاء الأرض فرقا مُبَعْثرةً، منهم المؤمنون المتعبّدون العاملون الصالحات، ومنهم من أقلّ منهم درجة في الإيمان وعمل الطاعات والصالحات، ولقد امتحناهم بالرّخاء والنّعيم والصحة ووفرة المال والخيرات، واِمتحناهم بالشدائد لعلّهم يصلحون أمرهم في دينهم وعملهم ويرجعون عن المعصية ويتوبون.

- فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (169) :

فجاء بعد هؤلاء جيل من أولادهم أخذوا عنهم ما جاء في التوراة من شرع ومواعظ ودرسوا الأحكام، فآثروا عرَض الدنيا لشدّة حرصهم على متاعها، ومَنَّوْا أنفسهم أنّه سيغفر لهم وإذا جاءهم عَرْضٌ من عروض الدنيا المخالفة لشرع الله من مثل الرّشوة والمكاسب الخبيثة يأخذونه وهم يُمَنُّونَ أنفسهم بأنّه سيُغفر لهم ثانية من اِغترارهم بالمغفرة. ومن المؤسف أنّ فينا من يحقّ فيهم هذا الوصف، يخالفون شرع الله فيما يكسبون من متاع الدنيا وهم يعلمون أنّ في كسبهم شبهة، ويقولون في أنفسهم إذا أنّبتهم ضمائرهم: الله غفور رحيم، وإذا صادفهم كسب آخر من وجه غير مشروع أخذوه مغترّين بالقول: والله غفور رحيم، ودون أن يتوبوا عن الكسب الأوّل ولا الثاني، وهذا من التّمنّي على الله الأماني بغير توبة وإقلاع عن المعصية. (أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم) اِستفهام للتّوبيخ لأنّهم دعوا لأن لا يقولوا على الله إلاّ الحقّ، والحال أنّهم قد علموا أنّ في التوراة تحذيرا شديدا من الكذب على الله في الشرع والأحكام، وقد علموا أيضا أنّ فيها ترغيبا في كسب النّجاة في الآخرة لأهل التّقوى الذين يحذرون الباطل من الكسب والعمل. (أَفَلَا تَعۡقِلُونَ) اِستفهام لتوبيخ من آثر الدنيا على الآخرة، وترك شرع ربّه وراء ظهره، ولحفز ذوي العقول الواعية على مراقبة أنفسهم حتى لا يغترّوا بالمغفرة ليأتوا الشُّبُهات والمخالفات لأحكام الله تعالى.

- وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ (170) :

وعلى نقيض السابق ذكرهم، فإنّ الذين يتمسّكون بتعاليم التوراة ويعملون بها، ويعملون بالطاعات في العبادة فإنّ الله تعالى لا يضيع أجرهم في آخرتهم لصلاح عملهم ودينهم.

- وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ (171) :

(وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ) وأذكر إذ اِقتلعنا الجبل من أصله ورفعناه فوق رؤوسهم كأنّه غمامة تظلّهم جميعا، وأيقنوا أنّهم هالكون بسقوطه عليهم، وسمعوا صوتا يأمرهم بأن يقبلوا ما نزل عليهم من فرائض وأحكام، وبأن يلتزموا بها (بِقُوَّةٍ) أي بجِدّ وعزم واِجتهاد، وبأن يتعهّدوا ما نزل عليهم بالقراءة والتدبّر، وذكر أحكامه بالعلم والعمل رجاء أن يكونوا من المتّقين.

وكذا تنتهي هذه النّبذة من قصة موسى مع قومه، وكان هذا العرض قد نزل بمكّة للعلم بشريعة من سبق من أخبار الرسل مع أقوامهم لرفع الأمّيّة عن من نزل عليهم القرآن، والمقصود بالأمّيّة هنا، جهل أخبار السماء، وأخبار الديانات السماويّة السابقة، وقصد بها إنذار مشركي قريش والعرب عموما من التّكذيب بالوعيد، وفي هذا عبرة للإنذار، وللاعتبار، وأمّا ما جاء من خبر موسى وقومه في سورة البقرة فقد كان مدنيا، وكان التوجّه فيها لأهل الكتاب بالمدينة للتذكير بماضيهم في العناد والاستكبار عن طاعة الله تعالى، واِتباع رسوله، وفيها تذكيرهم بمنَنِ الله جلّ وعلا عليهم، كما جاء فيها تذكيرهم بالعقوبات التي سُلّطت عليهم وعلى آل فرعون للإنذار والوعيد، فكلّ عرض منهما جاء لغاية غير الغاية الثانية.

- وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ **(172) :**

هذه الآية في أخذ العهد على بني آدم للإيمان بتوحيده، وهي آية أشْكل على العلماء فهمها، وتكلّموا في تأويلها وأحكامها، ولعلّ الأقرب إلى ما يطمئِنُّ القلبُ لفهمها أنّ الله تعالى أخرج من ظهور بني آدم جيلا بعد جيل من الأبناء (وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ) بدلائل خلقه الكونية المرئية، وبالدلائل العقلية التي منها أنّ كلّ موجود لابدّ أن يكون له واجد، ومنها قول أهل المنطق: البعرة تدلّ على البعير، وأنّ كلّ مخلوق له خالق، وبما اِستودع الله في الآدميين من الفطرة والإلهام، كلّ هذه العناصر تدلّ البالغ العاقل على أنّ له ربّا خالقا، وأنّه قد تفضّل عليه بحسن الخَلق فأكرمه به، (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) اِستفهام للتقرير، كلّ ما في الكون، وفي خلق الآدميّ ذاته يشهد بأنّ له خالقا، فهلاّ سأل الإنسان نفسه، أليس لي ربّا؟ فإن كان عاقلا ومتدبّرا وواعيا فإنّه يقول: بلى إنّ لي ربّا، ويشهد بذلك كي لا يقول يوم القيامة إنّي كنت غافلا عن هذا التفكير والتدبّر، وعن معرفة خالقي وسيّدي صاحب الفضل عليّ. والله أعلم، فقد تحيّر العلماء في فهم الآية، وفي تفسيرها، وفي البحث في أقوال الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن بيان لها فلم يظْفَرُوا بحديث صحيح.

- أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ **(173) :**

وحتى لا يأتي يوم القيامة مُتلبِّسًا بالشّرك، فإذا سُئِل عن شركهِ أوعزَ ذلك لتقليده لآبائه متهرّبا من مسؤوليته عن نفسه، وطلب عدم المؤاخذة، والنّجاة من الإهلاك بالعذاب بسبب ما فعله آباؤه من عمل باطل نشأ عليه.

ففي هذه الآية تحميل الإنسان مسؤوليته عن نفسه، فقد خلق له الله تعالى مؤهّلات ليميّز بها بين الحقّ والباطل كي لا يقع في الباطل، وليتحرّر من التقليد الذي لا يقبله العقل، ولا يناسب الفطرة.

- **وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ (174) :**

وهكذا تتوضّح الشواهد وتتبيّن عسى أن يثوب لرشدهم المبطلون ويهتدوا للصواب ويرجعوا عن شركهم إلى التّوحيد. وهذه الآية موجّهة للمقلّدين المعطّلين لعقولهم.

- **وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ (175) :**

هذه في الذي علم بصدق الوحي، ولكنّه كفر به اِستكبارا، والمعنى: وأذكر خبر الشخص الذي مكّناه من عِلْمِ آياتنا المنزلة على رسولنا، فخرج من التّصديق بها إلى الكفر كما تنسلخ الحيّة من جلدها، فسُرَّ به الشيطان ولحقه، وزيّن له كفره وصار قرينا له، فغدَا من الضالّين الهالكين. وهذا على نقيض من كان ملحدًا ثمّ اِهتدى بعلمه وفكره وتدبّره في آيات الله الكونية وهو العالم بها من مثل الفيلسوف، وعالم الفلك، والفيزيائي والطبيب الجرّاح، وصار مؤمنا بالله عن اقتناع.

- **وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ (176) :**

ولو شاء الله لرفعه إلى مراتب العلم، ولكنّه أحبّ الدنيا وأحبّ الظهور والتّميّز في النّاس، ومالَ إلى متاعها، ومَالَ إلى مسايرة هواه في إتيان المعاصي والمجاهرة بالكفر، حتى صار يُطْرَدُ من المجالس مثلما يطرد الكلب، ولا يُرْغَبُ في كلامه واِنتقاداته مثلما يُكرَهُ لَهَثُ الكلب، وهو في كلّ حال يلهث، يلهث على متاع الدنيا ويلهث إذا تكلّم، وهذا مثل الذين يكذّبون بآيات الله الدالّة على التّوحيد والتي ترغّب في الإيمان والطاعات والاستقامة، وتحذّر من الوعيد. فوضّح لهم سوء عاقبة المكذّبين ممّا تقصّه عليهم من قصص الأمم السالفة لعلّهم يعتبرون فينتهوا عمّا يقولون.

- **سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ (177) :**

وما أسوأ مثلهم بالكلاب بسبب تكذيبهم بآيات الله! وإنّهم ليظلمون أنفسهم بهذا التكذيب لأنّهم يحتقرون في دنياهم، وفي آخرتهم سيلحق بهم عذاب عظيم.



- مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ (178) :

من يَهْدِهِ الله للإيمان فهو المهتدي للصراط المستقيم الذي ينجيه من العذاب، ومن يضلل الله عن هديه بسبب إصراره على الكفر والتّكذيب فسيخسر عاقبته في آخرته.

- وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ(179) :

هذه في وعيد الذين عطّلوا ملكات الفهم والعلم والوعي لديهم التي تميّزهم عن الأنعام، وعطلوا القلوب التي تعي وتفهم والأعين التي تبصر فتدرك الحقائق وتكشف الباطل، وعطلوا الأسماع التي تبلّغ العقول العلم فصاروا غافلين عن الحقّ وعن الهدى وعن السبيل القويم. هؤلاء خلق الله لهم جهنّم ليقيموا فيها في آخرتهم، ومعهم شياطينهم من الجنّ الذين زيّنوا لهم تقليد السلف الضالّين، وأعموا لهم أبصارهم وحجّروا لهم قلوبهم وصمّوهم عن الاستماع لمن يهديهم لسبيل الرّشاد.

- وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ(180) :

هذه في الأمر بإخلاص العبادة لله، وفي التّرغيب في معرفة أسمائه الحسنى والصفات العُلا. جاء في الحديث النّبويّ المتواتر : "إنّ لله تسعة وتسعين اِسما من أحصاها دخل الجنّة". ومعنى أحصاها: عدّها وحفظها وفهم بعضا من مدلولها. ولم يأت في الحديث النّبويّ بيانها، واِختلف العلماء في ضبطها، فيها ما جاء ذكرها في القرآن الكريم وهي المُتَفّقُ عليها، وفيها ما اُستُنبطَ من الأفعال وهذه مُختلفٌ فيها، وذكر القرطبي في كتابيه: (الجامع لأحكام القرآن، وهو كتاب في التفسير وفي: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) أنّ المختلف فيه من أسماء الله الحسنى "قد وقف على ما يُنَيِّفُ على مائتي اِسم".

ومعنى الأسماء الحسنى هي الأسماء الدالّة على أكمل الصفات في الجلال وفي الجمال، ومن الأسماء الدّالّة على الجلال: (العظيم، الجليل، القادر، الجبّار..) ومن الأسماء الدّالّة على الجمال (الرؤوف، اللطيف، الكريم، الرّحمان، الرحيم...) (فَٱدْعُوهُ بِهَا) توسّلوا بها في الدعاء كأن يقول الداعي طالبا الشفاء: اللّهم اُلطف بي فأنت اللطيف، وكأن يقول طالب النّصر: اللّهم اُنصرني فأنت القويّ النّصير والوكيل الحفيظ... إلخ.

(وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ) ودعوا المشركين والذين عَدَلُوا عن صراط الله المستقيم إلى كلّ طريق مُضلّ، ومالوا إلى الباطل إلى ما هم عليه من لغَطٍ وجَدَلٍ في أسمائه تعالى، سيأتيهم يومٌ يُجزَوْنَ فيه عمّا كانوا يقولون، وعمّا كانوا يفعلون.



- وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ (181) :

هذه آية عامّة ليست كسابقتها 159 التي خُصّت بقوم موسى، والمعنى: لا يخلو زمن من أن يظهر فيها دعاة يَدْعُون إلى الحقّ، وبالحقّ يحكمون في الخصومات. والحمد لله إذ جعل في الأمة الإسلامية الخُطَب الجمعية، وفي مواسم الأعياد والحجّ للوعظ والإرشاد، وأمر القضاة المسلمون بالحكم بالعدل والقسط، ممّا يؤهِّلُنَا لنكونَ نحن المسلمين المعنيين بهذه الآية.

- وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ (182) وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ(183) :

وهاتان في الكفّار والملحدين والمشركين والمكذّبين عموما بالدّين والوعد والوعيد، هؤلاء سيؤخذون بالتدرّج إلى الهلاك، ولا نُباغتُهم، وسيُؤْتَوْن من حيث لا يعلمون وجه الأخذ للهلاك، وأمهلهم في العقوبة ولا أعجِّلُها لهم حتى أطيل لهم مدّة المتعة، ولكن سيكون الأخذ لهم شديد الوقع، ولا يَفْلِتُونَ منه.

- أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ (184) :

أولا يتدبّرون ما جاءهم من القرآن حتى يتأكّدوا أنّ صاحبهم.. وهو محمد صلّى الله عليه وسلّم ليس به جنون، إن هو إلاّ نبيّ ينذر قومه من عذاب الله ليسلكوا سبيل النّجاة منه.

- أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ (185) :

أو لم يتأمّلوا فيما خلق الله تعالى من حولهم من ملك عظيم في السماوات وفي الأرض، وفي كلّ شيء خلقه من عظيم أو صغير أو حقير ليعرفوا كمال قدرته عليهم، أو لا يخافون أن يكون قد اِقترب أجلهم ليهلكوا جميعا. فإذا جاء أجلهم وهلكوا فبأيّ حديث سيؤمنون عندئذ. وقد فاتهم زمن التّكليف، وليس لهم من عودة إلى دنياهم.

- مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ (186) :

من أبعده الله عن هديه فلا هادي له، ويترك الله المتجاوزين حدّهم في الكفر على حالهم حيارى لا يبصرون طريق الرّشاد.

- يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (187) :

هذه الآية في الإخبار عمّا كان يثير فضول النّاس لمعرفته، وهو قيام الساعة، وكان سؤالهم سؤالَ الرّاغب في معرفة أماراتها، وهو سؤال المؤمنين بقيامها، وأمّا طائفة المكذّبين بقيامها



فيسألون عنها سؤال الإنكار. والمعنى: يسألونك يا محمد عن قيام الساعة (أَيَّانَ مُرْسَاهَا) متى ستقع وتقوم؟ والمقصود بالساعة تحديد زمن إنهاء الحياة الدنيوية بحدوث الانفجار العظيم للأرض، وانشقاق السماوات وهلاك جميع الخلق والكائنات، والإذن بنشوء الحياة الأخروية. وهذا من علم الغيب. وجاء الردّ عن السؤال بأنّ زمن وقوعها يستأثر الله تعالى بعلمه، وبتحديد توقيته، ولا يبيّنه لأيّ أحد من خلقه. (لَا يُجَلِّيهَا) لا يظهرها في وقتها إلاّ هو. وحين تظهر لا تطيقها السماوات والأرض لعظم ما يقع فيها من زلازل وانشقاق ودمار عظيم وهلاك وفناء حتى الجبال تُدكُّ، والنجوم تندثر، والبحار تنضب وتجفّ، فما يحدث عند قيامها ثقيلٌ اِحتماله على كلّ الكائنات. ولا تقوم الساعة إلاّ فجأة. يسألونك عنها كأنّك عالم بها، أو باحث عنها، فأخبر سائليك بأنّ زمن توقيتها عند الله، ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون قدرة الله وتقديره، ولا يعرفون حكمة الله في إخفاء ما لا يعلمون من الغيبيات.

- **قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (188) :**

هذه في التّأكيد على أنّ خبر المستقبل من الغيب، لا أحد يعرف ما سيكون فيه ولو كان نبيّا مرسلا إلاّ إذا أطلعه الله تعالى على شيء منه. والمعنى: أخبرهم – يا محمد – أنك لا تستطيع لنفسك نفعا ولا ضرّا بإرادتك. والحال أنّك نبيّ مرسل – ذلك لأنّ مشيئة الله هي المتصرّفة في شؤون العباد جميعهم، ولو كنتَ مطّلعا على الغيب ومجرياته لادّخرت من الخيرات اِحترازا من المضار المقبلة ولسنوات الجدب، ولكنت تجتنب كلّ الأسباب المؤدّية للمضارّ في العمل أو الصّحة أو الكسب أو عند المواجهة القتالية، وعندئذ لا يمسّك أيّ سوء في حياتك، ولكن يعتريك المرض أو المشاقّ أو التّعب كسائر الخلق، أخبرهم أنّما أنت منذر للكافرين المكذّبين من عذاب الله، ومبشّر للمؤمنين برضوان الله تعالى ونعيمه في آخرتهم، وبأمانة تعالى من عذابه في دنياهم.

هذه آية عميقة الدلالة في أنّ قضاء الله وقدره نافذان في خلقه، وأنّهما من الغيب، وحتى الأنبياء والرّسل لا يعلمون منهما شيئا إلاّ بما شاء الله أن يطلعهم عليه لحكمة أرادها، وما شاء الله كان.

- **هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (189) فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (190) :**

هاتان في بيان فضل الله على الزّوجين في إتيانهما الولد السويّ، ولكنّهما كانا جاحدين للفضل فأشركا به مالا فضل له عليهما. والمعنى: هو الذي خلقكم من أصل واحد، من آدم،

وجعل من آدم زوجه، وقد خلق الله للذكر زوجه ليأنس بها ويرتاح إليها، فلمّا تزوّجا وحملت حملا أثقلها (فَمَرَّتْ بِهِ) واستمرّ حمل الزوجة ولم يعطّلها عن الحركة حتى وضعت. ولمّا حصل الحمل دعوا الله تعالى لئن آتيتنا ولدا صالحا سويا في خُلُقِه وفي خِلْقَتِه لنكوننّ من عبادك الشاكرين لك على فضلك. ولكن حينما جاءهما الولد السويّ نسبا الفضل في إيجاده ونشأته لنَفْسَيْهما ولم يذكرا فضل ربّهما عليهما في خلق الجنين وفي ولادة الطفل، فتعالى الله عمّا يشركون فيما خلق الله وقدّر.

- أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (191) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (192) :

الآيتان في توبيخ من يعبد الأصنام التي يصنعها بيده، وهي لا تخلق شيئا، بل هي مخلوقة، ويغفل عن عبادة ربّه الذي خلقه. يعبد أصناما لا تنصر معبوديها، ولا تستطيع أن تنتصر لنفسها إذا أقبل عليها من يكسّرها ويحطّمها، وهذا من سخف العقل.

- وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ (193) :

وإن تدعهم – يا محمد – لعبادة الله وحده وطاعته لا يستجيبوا لك. وسواء عليهم أدعوتهم للتوحيد، أم لم تدْعُهم وسكتّ عن نهيهم عن الشرك فإنّهم لا يهتدون لأنّه سبق في علم الله أنّهم لا يؤمنون لعنادهم، وإصرارهم على التقليد.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (194) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (195) :

الآيتان في محاجّة عبدة الأصنام. ما تدعون من الأصنام مخلوقات أمثالكم، فالحجارة والطين مِنْ خلق الله، وكلّ ما خلق الله خاضع لقدرته تعالى، ولا يقدر لنفسه على شيء. فادعوا أصنامكم واطلبوا منها أيّ شيء، وانظروا هل تستطيع أن تستجيب لكم في شيء إن كنتم صادقين في تأليهها. وهذا الاستفهام للتوبيخ على سخف العقل. ثمّ انظروا ألها أرجل تتحرّك بها وتمشي لقضاء شأنها وشأنكم أم لها أيد للبطش بها، أم لها أعين تبصر بها، أم لها آذان تسمع بها، إنّها حجارة صمّاء جماد لا تتحرّك ولا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل، فمن عَمَى البصيرة ومن سخف العقل عبادتها والتّوجّه إليها بالدعاء للنّصرة أو قضاء الحاجة، وإن كنتم – والخطاب للمشركين عبدة الأصنام – تؤمنون بأنّ أصنامكم قادرة على شيء للإضرار بي فمروها وأُدعوا لتفعل بي ما شاءت ولا تمهلوني ولا تتأخّروا في تنفيذ كيدكم لأنّي لا أخافكم، فإنّ ما يُصيب العبد من خير أو ضرّ هو من أمر الله تعالى ومشيئته.

- ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ **(196) :**

إنّ نصيري وحافظي وظهيري الله تعالى الّذي نزل القرآن، وهو حافظ لعباده المؤمنين بلطفه، وحاميهم من كيد الكائدين.

- ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ **(197) :**

وكلّ من تدعون من دون الله تعالى لا يستطيعون نجدتكم ولا حمايتكم ولا نصركم على أعدائكم، ولا يستطيعون حماية أنفسهم. وما أحوج أولئك الذين يتوجّهون لقبور من يُسمّونهم أولياء الله الصالحين ليقرّبوا لهم الذبائح، والولائم، والصدقات، ويتوجّهون لهم في خشوع على أعتاب قبورهم بأدعيتهم أن يتّعظوا بهذه الآية، فإنّ الدعاء يُتوجّه به إلى الله وحده، وإنّ الصدقات من المال أو الطعام يجب أن يُتقرّب به إلى الله وحده وكذلك النّذور من الذبائح، فكلّ ما يذبح ولا يذكر عليه اِسم الله تعالى وحده يحرم أكله وطعامه. ولا يجوز التّمسّح على قبورهم، ولا أن يهدى لهم البخور، ولا يجوز التّبرّك بالشّرب من مياه الآبار بتلك الزّوايا. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لابن عبّاس:"واعلم أن لو اجتمعت الإنس والجنّ على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بما كتب الله لك، جفّت الأقلام، وارتفعت الصحف" (رواه الترمذي). وما يقام في بلادنا من مهرجانات عامّة باسم بعض الأولياء لرفع ذكرهم، ولاستجلاب بركاتهم – كما يدّعون – خطأ جسيم في حقّ عقيدة التّوحيد، وعلى الوعّاظ مسؤولية توعية النّاس كي ينتهوا عمّا يفعلون.

- ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ **(198) :**

وإن تدْعُ هذه الأصنام إلى الهدي فإنّها لا تسمع لأنّها من الحجارة الصمّاء، وترى لها كالأعين المفتّحة وهي لا تبصر لأنّها صور مُجسَّدة لا تبصر.

- ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ **(199) :**

أعجبني في هذه الآية قول القرطبي في تفسيره (ج7 ص344): هذه الآية من ثلاثة كلمات، تضمّنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات، فقوله (خُذِ ٱلۡعَفۡوَ) دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرّفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين، ودخل في قوله (وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ) صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغضّ الأبصار، والاستعداد لدار القرار، وفي قوله (وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ) الحضّ على التعلّق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتّنزّه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة، والأفعال الرّشيدة. (انتهى).

فهذه الآية جامع لمكارم الأخلاق: وحَرِيٌّ بكلّ من وَلِي من أمر المسلمين أمرا أن يتخلّق بهذه المبادئ الأخلاقية السامية في تعامله مع جميع الطوائف في أمّته. وعلى المربّي والواعظ والعالم

ورجل الإعلام والمؤطّر في الإدارة أن يتعاملوا مع منظوريهم بهذه الخُلق ليكونوا قدوة لهم في حسن التّعامل مع النّاس نشرا للقيم النبيلة فيهم.

- وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ **(200)** :

وهذه في توجيه من يَتَمَلَّكُه الغضبُ ليهدأ، ومن يوسوس له الشيطان بفعل معصية ليخالفه. والمعنى: فإذا وسوس لك الشيطان بفعل معصية، أو ليصرفك عن ذكر الله تعالى، فاستعن على غَلَبتِه بالاستجارة بالله بقولك: "أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم". إنّه مطّلع على عباده يسمع دعاءهم واستجارتهم به، ويعلم حالهم وأوضاعهم.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ **(201)** :

عباد الله المؤمنون حقّا المطيعون لله كلّما عرض لهم الشيطان بوسوسة فيها معصية، أو إذا أثار حماستهم ليثير غضبهم تذكّروا موعظة الله للتعامل بالعفو عند الغضب، أو تذكّروا أن يتخلّصوا من وسوسة الشيطان بالاستجارة بالله للخلاص منه فإذا هم يبصرون موضع الحقّ فيتّبعونه، ويكشفون مواطن الزلل أو مواضع الظلم والباطل فيحذرونها، فإذا هم على بصيرة من أمرهم.

- وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ **(202)** :

هذه في شياطين الإنس من أهل الضلالة، هم إخوان شياطين الجنّ. إنّهم يعينون الشياطين على تزيين المعاصي للكفّار وأهل المعصية، ويعاونون على الضلال، ولا يقصّرون في ذلك، ولا يتوبون ولا يرجعون.

- وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ **(203)** :

كان المكذّبون بالرسالة من كفّار قريش يطالبون الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بأن يأتيهم بمعجزة ليصدّقوه، ولمّا لم يأتهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم بمعجزة كما شاؤوها قالوا اِختلق لنا معجزة وآتِ بها من عندك بما أنّك رسول من عند الله، فجاءهم الوحي ليردّ عليهم، إنّما أنا رسول أتبع ما يوحي إليّ من ربّي، ولقد جاءتكم أكبر معجزة وهو القرآن الكريم فيه براهين وحجج تهدي للحقّ وتفتح عليه البصائر وتكشف لها الباطل، وفيه الرّشاد لما يصلح لكم لحياتكم في دنياكم ولعاقبتكم في آخرتكم، وهو نعمة للذين آمنوا.

- وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ **(204)** :

هذه في حكم عام لاحترام قداسة كلام الله تعالى. والمعنى: إذا قرئ عليكم القرآن، فاستمعوا لما يُقرأ عليكم، واسكتوا لتحسنوا الإصغاء إليه، وفهم ما يبلغكم من سماعه رجاء أن تحظوا برحمة

الله بالحصول على الأجر والثواب على حسن الإنصات والتدبّر. وإنّ هذا الأمر عام، وهو أوكد في الصلاة الجهرية وعند سماع الموعظة والخطبة. وإنّ بعض القائمين على شؤون المساجد يعمدون إلى تمرير قراءة القرآن عبر مصادح المآذن أيّام الجمع قبل حلول موعد النداء للصلاة قصد التبرّك في نظرهم، والنّاس في غفلة تامّة عن الإنصات إليه لانشغالهم بالتسوّق أو بأعمالهم المهنية، والنساء في بيوتهنّ منشغلات عنه بأعمالهنّ المنزلية، وأحيانا يكون المسجد وسط سوق مزدحم فتختلط الأصوات واللغط وأحيانا الإشهار بالصوت أو بالمسجّلات فلا أحد يستطيع أن يتوضّح ما يُقْرأ، ولا أحد يتوقّف ليسمع وينصت. ولقد وعظتهم لينتهوا عن تمرير القرآن عبر المصادح إلى الشارع لأنّه لا يحظى باهتمام أيّ أحد من النّاس، وقلت لهم إن أردتم أن تفعلوه فأسمعوه لمن دخل المسجد فإنّه مُتهَيّأً أكثر من غيره لسماعه. وقلتُ فيما قلتُ إنّ المئذنة إنّما تقَام للأذان لا لتلاوة القرآن. واستعنت بفتوى صدرت عن الأزهر في مجلّته، وبفتوى عن الشيخ محمد المختار السلامي مفتي الديار التونسية بمجلة الهداية للانتهاء عن تمرير القرآن بالمآذن احتراما لقداسته، ولرفع الإثم عن من بلغه الصوت ولم ينصت إليه، ولكنّ أغلبهم لم يقتنع بما قلت، وأصرّوا على ما يفعلون، والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

- **وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ (205) :**

(وَٱذۡكُر رَّبَّكَ) قد يكون بمعنى: وأدعُ ربّك بالذكر والتّسبيح وبالصلاة وبالحمد، وقد يكون بمعنى: واقرأ القرآن بتأمّل وتدبّر، وليكن ذكرك في خشوع وتذلّل لله طمعا في الاستجابة لرجائك، وفي خوف من عذابه لطلب النّجاة منه، ودون رفع في الصوت، أسمع نفسك، ودلّ هذا على أنّ رفع الصوت بالذكر ممنوع فإنّ الله تعالى سميع وبصير. وليكن ذكرك في صباحك وفي مسائك، ولا تكن غافلا عن الذكر.

- **إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ (206) :**

(إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ) هم الملائكة، فإنّهم يحبّون عبادة الله تعالى ويتواضعون فيها، ويعظّمونه وينزّهونه عن كلّ سوء وكلّ نقص، وله يصلّون، ويذلّون. وهذه الآية موضع سجدة في القرآن. وسجود التلاوة ليس بواجب عند مالك والشافعي، وهو واجب عند أبي حنيفة (انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ورسالة ابن زيد القيرواني، والقوانين الفقهية لابن جزي، وبداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد...).

وهكذا تختم سورة الأعراف بالترغيب في قراءة القرآن وفي طاعة الله تعالى وطاعة الرسول صلّى الله عليه وسلّم كما بدأت السورة بالدعوة للإيمان بالرسول صلّى الله عليه وسلّم وبالوحي وللتصديق بالبعث.

| رقمها | سـورة الأنفـال | آياتها |
|---|---|---|
| 8 | ـــ مدنيّة ـــ | 75 |

سورة الأنفال مدنيّة، موضوعها العام في عرض أحداث غزوة بدر، وسبب حدوثها، وفي ذكر عناصر فضل الله عزّ وجلّ على المسلمين في تحقيق نصرهم على المشركين.

أهمّ مواضيعها في العقيدة: الدعوة إلى طاعة الله تعالى وطاعة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

وفي الأحكام: فقد جاء فيها تحديد مصارف الغنائم.

وفي الحياة العامّة: فإنّ أهمّ ما جاء فيها دعوة المسلمين لإعداد عناصر القوة لضمان أمنهم من كيد أعدائهم، وفيها ترغيبهم في القتال إذا فرض عليهم، ولاتقاء الفتنة.

وجاء فيها بشارة المؤمنين بالأمان من عذاب الله إذا داوموا على الاستغفار، وفيها موعظة المشركين ليستقيموا على دين الله حتى لا يكونوا كالأنعام، لينتهوا عن تحدّيهم للرسول فيأتيهم بعذاب الله.

- يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (1) :

يسألك المسلمون بعد اِنتصارهم ببدر على المشركين عن كيفيّة توزيع ما نَفَلهم الله تعالى من الغنائم؟ والنّفل هو كلّ ما زاد عن الحقّ وهو التّطوّع. أجبهم – يا محمد – بأنّ توزيعها مُفَوَّضٌ لحكم الله، ولِمَا يراه رسوله، فحافظوا على صدق إيمانكم، وأصلحوا علاقتكم ببعضكم، ولا تتخالفوا على توزيعها، ولا تنازعوا. واِلتزموا بطاعة الله وطاعة رسوله إن كنتم صادقين في إيمانكم.

- إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (3) أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4) :

هذه في صفات المؤمنين الصادقين، وجزائهم. من أهمّ صفات المؤمنين أنّهم كلّما سمعوا ذكرًا لله تعالى من موعظة وحِكمة أو حُكم اِستشعرت قلوبهم عظمة الله عزّ وجلّ، واِستشعرت الخوف من معصيته، وإذا سمعوا شيئا من كلامه عزّ وجلّ اِزدادوا تصديقا بما قال تعالى على نحو ما ذكره تعالى : (وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ (المائدة الآية 83)) وازدادوا تمسّكا بكتاب الله وبالانتفاع بمواعظه، وهم



على ربّهم يعتمدون، وبه يثقون. وهم يحافظون على أداء صلواتهم في أوقاتها المعلومة، وحسب شروطها في اِنتظام وفي خشوع، وهم من الذين لا يبخلون بشيء ممّا آتاهم الله من مال ورزق ليؤازروا به الفقراء في صدقات تطوّعهم، ويؤدّون زكاة مالهم وزكاة أرضهم في وجوهها المفروضة، وفي وقتها المعلوم.

هؤلاء هم المؤمنون الصادقون في إيمانهم، وهؤلاء هم المؤمنون حقّا، لهم منازل عالية في الجنّة تكريما لهم على صدقهم، ومع المنازل العالية في الجنّة، وزيادة على المغفرة يؤتيهم الله رزقا حسنا خاليا من الكَدَر.

- كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ (5) :

بعد ذلك الترغيب في صدق الإيمان للحصول على ذاك الجزاء العظيم في مقدمة هذه السورة، وما جاء فيها من الإشارة لأنفال غزوة بدر، بدأ مع هذه الآية عرض أحداثها.

وملخّص أحداث هذه الغزوة – على ما جاء في كتب السيرة النبويّة (أُنظر كتابنا: رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم رسالة نور ورحمة وحوار، صدر بتونس 2009) أنّ مشركي قريش قد صادروا جميع ممتلكات المهاجرين، وكان لأهل مكة تجارتان: إحداهما للشام، وأخرى لليمن، فلمّا كانت السنة الثانية من الهجرة وحان موعد عودة عير قريش المحمّلة بأموالهم وتجارتهم أرسل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من يترصدها في الطريق، وكان قصدها اِسترجاع أموال المهاجرين، فلمّا بلغه خبر عودتها نَدَبَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أصحابه للخروج إليها قائلا: "هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلّ الله يُنَفِّلكموها"، وكانت غايته اِسترداد حقوق المهاجرين المسلوبة، فاستجاب له 80 من المهاجرين و230 من الأنصار، خرجوا للقافلة من غير عتاد كبير، ولم يكونوا يتوقّعون حصول معركة قتالية ظنّا منهم أنّ كثرة عددهم كافٍ لإرهاب مرافقي القافلة فيكون اِستسلامهم لهم سهلا من غير قتال أو معركة.

ولكنّ الداهية – أبا سفيان– رئيس القافلة كان يتوجّس خيفة من أن يقطع عليهم الطريق قرب المدينة لأنّ طريقهم إلى الشام ومنها يمرّ عبر المدينة، فأرسل إلى مكة من يطلب إليه النّفير، وغيّر طريقه المعتاد حماية للقافلة، فلمّا صاح الساعي بمكة يستنفر أهلها للخروج لقافلتهم هبّ المشركون في أكثر من ألف مقاتل ومعهم عتادهم وفرسانهم العتاة، وخرجوا عازمين على الانتقام من المسلمين وقصدوا تأديبهم حتى لا يفكّروا بعد ذلك في اِعتراض قوافلهم، واِلتقى الجمعان: المسلمون والمشركون على غير ميعاد قرب بئر "بدر"، ونجت القافلة، ولكنّ المشركين وجدوها فرصة سانحة للقضاء على جموع المسلمين خاصة وقد رأوهم قلّة ومن غير عتاد، ووجدوا أنفسهم كثرة في عدّة وعتاد، ووجدوا قبالتهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمهاجرين فأرادوا مَذْبحةً لهم.

وجدّ بين الجمعين قتال اِنكشف عن هزيمة مريرة للمشركين، قتل بعضٌ من زعمائهم ومقاتليهم العتاة، ووجدوا من المسلمين قتالا شرسًا وثباتا، فهربوا منهم تاركين عتادهم، وعادوا لمكة منكسرين منهزمين، وقد قتل منهم من قُتل، وأُسِر منهم من أُسِر، فقامت فيه نياحة، وخيّم على مكة حزنٌ وغمّ كبيران.

لم يكن أحدٌ يفهم ما كان قد جرى في هذه الغزوة من نصر للقلّة على الكثرة المزهوة بنفسها وبعتادها، وأراد المسلمون القافلة فلم يجدوها ولكنّهم وجدوا أنفسهم في مواجهة قتالية مع أعدائهم حتى نزل الوحي فبيّن أنّ كلّ ما جرى كان من تقدير الله عزّ وجلّ. لم يرد الله للمسلمين الخروج للقافلة، بل أخرجهم ليريهم نصرهم على أعدائهم بتقديره، وليريهم قدرته تعالى على إظهار دينه ولو كره المشركون.

هذه المواجهة رفعت من معنويات المسلمين وأَرَتْهم نصرةَ الله تعالى لهم وتأييده لهم، وشفت أنفسهم، وكانت لهم بداية لمرحلة جديدة في الدعوة.

ومعنى الآية: مثلما أخرجك الله – يا محمد – من بيتك بمكة مهاجرا لأمر قد قضاه، وأنت معك الحقّ فيما تدعو إليه، وقد خرج فريق من المؤمنين من ديارهم وأموالهم بمكة، وهم كارهون، وأنقذكم من كيد الكائدين، فإنّ الله مؤيّدكم دوما.

- يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ (6) :

لمّا ندب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أصحابه للخروج إلى العير، ولم يكن معهم عدّة للقتال، ولم يكونوا مستعدّين لمثل هذا الأمر قالوا: لو أخبرتنا بالقتال من قبلُ لأخذنا أُهبتنا لذلك. ومعنى (فِي ٱلۡحَقِّ) في هذه الآية: القتال. (بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ) بعد ما جاء الأمر به، فخرج له جمع منهم مكرهين كأنّهم كانوا يساقون إلى الموت بأرجلهم، وكأنّهم يرون الموت قتلا بأعينهم لما كانوا يتوقّعون من المشركين من رَدَّةِ فعْلِهم، ومن تخوّفهم منهم.

- وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (7) لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ (8) :

وأذكروا إذ وعدكم الله أن يمكنّكم من الغلبة على إحدى الطائفتين من أعدائكم، وكنتم تحبّون أن تكون قافلة العير تحت سيطرتكم ونفوذكم لأنّها سهلة المنال ليس فيها جيش، ولا قوة سلاح، ولما فيها من كثرة المال والغنائم، ولكنّ الله تعالى أراد أمرا آخر، أراد أن (يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ) أي أن يظهر الإسلام ويدلّ على قدرته وتنفيذ وعده للمؤمنين بالنّصر، وتنفيذ وعيده في الكافرين بقطع دابرهم حتى يهلكوا، فالغاية من فرض هذه المواجهة إظهار دينه الحقّ: الإسلام، وإظهار وعده

بنصرة رسوله والمؤمنين ليبطل الباطل: إزالة دولة الشرك وهزيمتها رغمًا عن إرادة المشركين ورغبتهم وجهودهم.

- إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ (9) :

هذه في ما أصاب المسلمين من شدّة الخوف على أنفسهم من الهلاك حينما وجدوا أنفسهم قبالة جيش المشركين في عدد كبير واِستعداد للقتال ومعهم فرسانهم وزعماؤهم وفي قوة عتاد. أصابهم الهلع فجعلوا يطلبون من الله تعالى الغوث والعون والنصر وهم الذين كانوا قد خرجوا يريدون قافلة العير، ولم يكن في خاطرهم أن يواجهوا جيشا، فاستجاب الله لهم بأن أوحى لرسوله صلّى الله عليه وسلّم بأنّه مرسل إليهم ألفا من الملائكة يتتابعون في نزولهم فوجا بعد فوج لدعم صفوفهم.

- وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (10) :

وجعل لكم هذا المدد المتتابع ليبشّركم بالنّصر، ولتسكن إليه قلوبكم، ولا يكون النّصر إلا بتوفيق من الله وتقديره. إنّ الله عزيز لا يغلب وحكيم في تدبير الأمر وتحقيقه.

- إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ (11) :

هذه في عناصر المساندة التي أنزلها الله تعالى على عباده المؤمنين ليرفع عنهم الهلع ويثبّت أقدامهم. فقد ألقى عليهم النّعاس كالغطاء على نفوسهم وقلوبهم ليزيل عنها ما تشعر به من الخوف، وليرتاحوا به قليلا، وأمانًا لهم. ثمّ أنزل عليهم ماء من السماء ليشربوا وهم في أماكنهم وليتوضؤوا، ولقد كان المسلمون معسكرين فوق تل، والمشركون قد عسكروا حول الوادي، فلمّا نزل عليهم الماء تعثّروا في الحراك لأنّهم وجدوا مغائص وثقلت أرجلهم وغاصت حوافر الخيل وهكذا ذهب عن المسلمين ما كان يوسوس به الشيطان إليهم من المخاوف، وربط على قلوبهم بتقويتها باليقين وبالصبر، وثبّت أقدامهم ليقاتلوا وهم مؤمّلون النّصر وواثقون من دعم الملائكة وتحقيق وعد الله لهم بنصرهم.

- إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ (12) :

وهذه في عوامل نصر المؤمنين، وعوامل هزيمة المشركين. لقد كان أهمّ عنصر في النّصر ثبات الأقدام، وكان من أهمّ عوامل الهزيمة الشعور بالرّعب والخوف من الطرف المقابل. والمعنى: وأُذكروا إذ يوحي ربّك إلى الملائكة بأنّي معكم بالنّصر، فشدّوا أزر المؤمنين بتقوية

عزائمهم، ودعم معنوياتهم، سيلقي الله في قلوب الكافرين الخوف من المسلمين والفزع لإحباط معنوياتهم حتى يهربوا من مواجهتهم، فأُضربوا – أيّها المؤمنون – الرؤوس واقطعوها، وَاقطعوا أطراف الأصابع حتى لا ترفع أيديهم عليكم سيفا بعدها.

- ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (13) :

اِستحقّوا هذا المصير لأنّهم خالفوا أمر الله، وأتعبوا رسوله صلّى الله عليه وسلّم بالتكذيب وبالأذى، ومن يخالف الله تعالى ويَعْصِه ويكذّب رسوله فإنّ الله معذّبه أشدّ العذاب عقابا له.

- ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ (14) :

في هذه الآية خطاب للمشركين للاعتبار بهزيمتهم. فقد قتل يوم بدر سبعون منهم، وأُسِرَ سبعون. ومن رؤساء الكفر والعتاة قُتل أبو جهل رأس الكفر، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، وقامت في مكة النواحات. والمعنى: ما حدث لكم هو من العذاب الذي تذَوَّقتموه في دنياكم، وإنّ لكم – إذا أصررتم على البقاء على الكفر – عذابا أشدّ بنار جهنّم في آخرتكم.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ (15) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (16) :

الآيتان في الحضّ على القتال وفي التّحذير من الهروب يوم الزّحف. يا أيّها الذين آمنوا اِثبتوا عند لقاء أعدائكم إذا هاجموكم، وزحفوا نحوكم لقتالكم، ولا تهربوا من مواجهتهم وتقابلوهم بظهوركم منهزمين. ومن يهرب منكم من المواجهة فقد عاد بغضب من الله تعالى عليه، وسيكون مصيره ومأواه ومستقرّه في آخرته في جهنّم، إلاّ إذا كان قد عمد إلى الفرار من باب الحيلة والمكر ليوقع الأعداء في مصيدة، أو كان فراره لينضمّ إلى جماعة أخرى ليدعمها في قتال العدوّ المشترك، فما كان للخدعة أو للكرّ مع جماعة أخرى فلا حرج عليه.

- فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17) :

هذه في مظهر من مظاهر تأييد الله تعالى لعباده المؤمنين الذي حقّقوا به نصرهم على أعدائهم. لقد نصرهم الله وأيّدهم بتسديد رميهم وإصابة أهدافهم. ما كان هذا التسديد، ودقّة الإصابة، وما كانت إصاباتهم قاتلة من حسن دُرْبتهم، ومن مهارتهم، وما كانت من ضعف أعدائهم أو من جهلهم بفنون القتال، ولكنّها كانت من إرادة الله فما رمى أحد من المؤمنين سَهمه بمهارة منه فأصاب به مَقْتَلاً في عدوّه ولكنّ الله تعالى هو الذي سدّد رميته وما كان سهمه قاتلا ولكنّ الله هو الذي قتل أعداءهم، ولم يقتل أحدٌ من المسلمين مشركا بسيفه ولكنّ الله تعالى هو

الذي قتله بأمره. وهذا ليعرف المؤمنون فضل ربّهم عليهم في نصرهم على أعدائهم، وفي كفّ أيدي الأعداء عنهم، وإنّ الله سميع لمناجاة عباده المؤمنين واستغاثتهم، وعليم بحاجتهم، وبما يلزمهم لينتصروا، ويفرحوا بنصر الله. وبهذا التسديد عوّض الله عن المؤمنين قلّة عتادهم، وقتلهم لجماعة من المشركين بضربات قاتلة هو الذي دفع المشركين للهروب من المواجهة فربح المسلمون غنائمهم وربحوا المواجهة وكفى الله المؤمنين القتال وعوّض عنهم قلّة عددهم.

- ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ (18) :

هذا ما حدث معكم، وإنّ الله عزّ وجلّ مضعف كيد الكافرين، ولن يبلغوا به شيئا.

- إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (19) :

في هذه الآية بلاغ للمشركين، وقد جاء في خبر يوم بدر أنّ أبا جهل قد رفع صوته بالدعاء: اللّهمّ أيّنا كان أقطع للرحم، وأتانا بما لا نعرف فَأَحْنِهِ الغداةَ (أي أهلكه قبل نهاية اليوم). والمعنى: أيّها الكافرون إن كنتم تطلبون القضاء بينكم وبين المسلمين بالنّصر، فقد رأيتم نصر المؤمنين وهزيمتكم وهلاك الذي طلبه الداعي، وإن تنتهوا عن شرككم وكفركم ومعاداتكم للمسلمين فهو خير لكم، وإن كنتم تودّون العودة للقتال فإنّ المسلمين مستعدّون لملاقاتكم ولقتلكم وأسركم وإذلالكم، ولن يغنيكم عددكم مهما كثر، ولا عتادكم مهما قوي عن إذلالكم بالهزيمة. واعلموا أنّ الله مع المؤمنين، ومن كان الله معه فلن يُغلب.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (20) :

هذه الآية في محور موضوع السورة: الحضّ على طاعة الله تعالى في الامتثال لأمره، وتجنّب معصيته، والحثّ على طاعة رسوله فيما يدعو المؤمنين إليه للإيمان، أو للإنفاق في سبيل الله، أو للجهاد، وتجنّب الإعراض عنه، والحال أنّهم يسمعون ما ينزل عليه من الوحي من وعدهم بالخيرات والنّصر وإظهار الدين، والتمكين في الأرض.

- وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (21) :

واحذروا – أيّها المؤمنون الصادقون – أن تكونوا كالمنافقين الذين يقولون للرّسول: سمعنا ما تدعو إليه، وهم في واقع الأمر لا يسمعون منه شيئا لأنّ قلوبهم معرضة عنه.

- إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (22) :

(إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ) هذا مثل الذين يسمعون الحقّ ولكنّهم لا يعترفون به رغم وضوحه، فهم كالدوّاب لا تسمع ما يبلغها من العلم، ولا تعبّر عن قبولها للأمر أو عن رفضها لأنّها بكماء، ولا تعِي ما تسمع أو تدرك أبعاده كأنّها لا تعقل ولا تفهم.

- وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرًا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ (23) :

لقد سبق في علم الله تعالى أنّ هؤلاء لا يحبّون لأنفسهم الاهتداء، فلو فُتِح عليهم سمعهم ليسمعوا ما يهديهم إلى ربّهم وإلى الحقّ وإلى العمل الصالح لجنحوا لإتّباع أهوائهم، وأعرضوا عن الحقّ والعمل به، فهم قوم معاندون، لا يعملون إلاّ بما تهوى أنفسهم.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ (24) :

هذه الآية وما بعدها إلى الآية 28 في موعظة المؤمنين كافّة لإرشادهم لما يحييهم الحياة الطيّبة، ويحفظهم من الفتنة في أمنهم، ولما يُحسِّن علاقتهم ببعض، ويجلب لهم الفضل العظيم في آخرتهم. والمعنى: يا أيّها الذين آمنوا إذا دعاكم الله تعالى لأمر فأطيعوه ولا تعصوه، وإذا دعاكم الرسول صلّى الله عليه وسلّم لما يحيي قلوبكم بالإيمان ولما يورثكم السعادة في آخرتكم فأطيعوه ونفّذوا أمره خاصة إذا دعاكم للجهاد. واعلموا أنّ الله سبحانه يجعل حاجزا بين المرء وما يتمنّاه قلبه من طول الحياة ليعمل لآخرته لينعم بفضل الله، ويضع له حدودا تمنعه من المعاصي ليتجنّب غضب الله عليه، وهكذا يحفظه من الزّلل ومن الغفلة عن العمل لآخرته، واعلموا أنّكم ستحشرون إليه للحساب: للجزاء أو للعقاب، فاعملوا لذاك اليوم.

- وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةًۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (25) :

وقُوا أنفسكم واِحفظوها وجنّبوها البلاء العظيم الذي يعمّ الجميع، وذلك بالنّهي عن المنكر، وأعظم المناكير: الكفر. واعلموا أنّ عذاب الله شديد وأنّ عقابه أليم فتناصحوا بالحقّ، وبتجنّب المعاصي.

- وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (26) :

وأذكروا فضل ربّكم عليكم إذ أيّدكم بنصره يوم بدر إذ كنتم قلّة في العدد والعدّة ولم يكن عندكم أنصار من خارج المدينة، وكنتم يومئذ تخافون أن يهلككم أعداؤكم ويستأصلوكم ويُبِيدُوكم، فردّكم إلى المدينة سالمين، وقوّاكم بنصركم على أعدائكم، ومنحكم غنائمهم عساكم تشكرون الله جلّ وعلا على فضائله ونعمه.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (27) :

يا أيّها الذين آمنوا (لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ) بإفشاء عزم الرّسول صلّى الله عليه وسلّم على فعل أمر، أو إذا دعاكم للاستعداد لمُهمَّةٍ حتى لا يصل شيء ممّا أسرّ به إليكم إلى المشركين أو أهل الكتاب، ولا(تَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ) بإضاعة الفرائض، أو التنقيص منها وممّا أؤتمنتم عليه من أمور

الدين، وأنتم تعلمون ما في إفشاء الأسرار من خيانة وقبح وعار، وما في التّهاون في الدّين من ضعف في الإيمان.

- **وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ (28) :**

واعلموا أنّ الله يختبركم بما وهبه لكم من رزق واسع، ومن ذرية، فاشكروا له على ما أنعم عليكم، وآثروا حقّ الله في الشكر والطاعة لنيل أجره على ملاينة الأولاد في معاصيهم، وعلى الشّح بالمال.

- **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ (29) :**

وهذه في ترغيب المؤمنين في التقوى. من يَتَّقِ الله يجعل له هداية، ونورا يفرّق به بين الحقّ والباطل، ومخرجا من الشدّة، ويغطّي عنه سيّئاته حتّى لا يؤاخذه عنها، ويغفر له ذنوبه لِيَلْقَى التّكريم في آخرته والله تعالى كثير الفضل على المتّقين.

- **وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ (30) :**

هذه في الإخبار على ما اِجتمع عليه المشركون في دار النّدوة من المكر بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقد كان رأي بعضهم أن يحبسوه أو يُوثِقُوه بالوثاق، ورأى آخرون أن يخرجوه من مكة منفيا لا يَعود إليها أبدا، وكلّ يدبّر أمرا للخلاص منه صلّى الله عليه وسلّم، وممّا يدعوهم إليه، و(وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُ) ويدبّر الله أمرًا ليُذهب تدبيرهم، وأمرُ الله هو الذي يُقْضى، ويكون. والمكرُ من الله هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون، وقد جاءهم يوم بدر.

- **وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ(31) :**

هذه في وقاحة بعض المشركين، حين يسمعون ما يقرأ عليهم من الوحي، يقولون قد سمعنا هذه القصص من قبل، لو نشاء لقلنا مثل هذا القول، إن هذا إلاّ حديث مسَجَّعٌ من أحاديث الأولين المسطورة في كتبهم.

- **وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ (32) :**

وهذه في الدليل على تكذيبهم بالوعيد. وأُذكر إذ قالوا إن كان هذا الوعيد ثابتا نازلا من عندك بالحقّ فأمطرنا بحجارة ترسلها علينا من السماء، أو أَرِنَا عذابا أليما كما تقول.

- **وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ (33) :**



هذه الآية في كرامة من كرامات النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم. لقد كانت حياته في قومه ووجوده في أيّ مكان أمانا لأهل البلد لا يرون عذابا مادام فيهم تكريما لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم. وفي الآية كرامة أخرى يحظى بها القوم المستغفرون، فالله أعطاهم الأمان من العذاب ماداموا على الاستغفار.

- وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ **(34)** :

وما لهم أن لا يعذّبهم الله بالسيف بعد خروجك أنت والمستضعفين معك من مكة ليريهم أنّ وعيد الله فيهم حقّ، وهم الذين يمنعون المسلمين من دخول المسجد الحرام، والحال أنّهم ليسوا أصحاب الولاية عن هذا المسجد. أولياؤه الحقّ هم النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه المؤمنون المخلصون المتّقون، ولكنّ أكثرهم لا يعلمون أنّ المتّقين هم أولياء المسجد الحرام.

- وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ **(35)** :

كان المشركون حين يطوفون بالبيت يُصفّرون ويصفّقون، وكان الرجال يطوفون عراة، وهذه الآية تسجّل ما كانوا يفعلون في طوافهم. وما كانت عبادتهم عند طوافهم بالبيت إلا صياحا وصفيرا، وتصفيقا باليدين، وما أمرهم الله تعالى بهذا. فذوقوا العذاب: عذاب القتل يوم بدر، وعذابا آخر يوم القيامة بسبب كفركم.

وعسى أن يتّعظ بهذه الآية مريدو الصوفية، وأصحاب الطرق ليتجنّبوا الشطحات عند الذِّكر، والنقر على الدفوف، وضرب الكفّ على الكفّ للوزن الموسيقي وتعمّد رفع الصوت مع التّغنّي، فهذا لا يتناسب مع ما تدعو إليه الآيات من إخفاء الذكر والاعتدال فيه، ولا يتناسب مع موضوع هذه الآية.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ **(36)** :

إنّ الذين كفروا يستأجرون بأموالهم مَن يقاتل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه، فسينفقون أموالهم لهذه الغاية ولكن لن يبلغوا غايتهم وسيندمون على إنفاقها ويأسفون، وإنّهم سيغلبون عند المواجهة، والكافرون سيحشرون إلى جهنّم عقابا لهم.

- لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ **(37)** :

المقصود بالخبيث هنا هو الكافر، وأمّا الطيّب فهو المؤمن، والمعنى: جعل الله تلك المواجهة ليفصل بين الكافر والمؤمن، ويجمع الكافرين على جميع أصنافهم، مشركين ومنافقين وملحدين



ومكذّبين ومجرمين ومقلّدين للكفر حتى ينضمّوا ثمّ يجعلهم في جهنّم مع بعض. أولئك البعيدون عن الحقّ هم الخاسرون، أولئك هنا إسم إشارة للبعيد لبعدهم عن الحقّ.

- قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ (38) :

هذه في تخيير الكافرين بين السلم والحرب. أَخْبِرِ الكافرين إن يكفّوا أيديهم عن قتال المسلمين وينتهوا عن كفرهم يغفرْ لهم ما قد مضى من فعلهم وما فرط منهم، وإن يعودوا للقتال فإنّهم سيعرفون سوء مآلهم، فقد عُرفت عادة الله في معاقبة المكذّبين لرسله ممّا حدث للأمم السالفة، نهايتهم معلومة، وهي نهاية أليمة ومفزعة.

- وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ(39) وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ(40) :

هذه في حضّ المؤمنين على قتال الكافرين إذا قاتلوهم للمحافظة على أمن أرواحهم وعلى ممارسة شعائر دينهم في أمان، فإن تولّوا عنهم فلا شأن لهم بهم. والقتال هو تنافس طرفين على قتل أحدهما الآخر. وقد شرع القتال – كما تبيّنه الآية – حتى لا يُفتتن المسلمون في دينهم من طرف أعدائهم بالقتل أو التعطيب أو بإكراههم على الردّة، ولغاية أخرى، لإظهار دين التوحيد، دين الله، دين الإسلام، فإذا كفّوا أيديهم فإنّ الله بصير بما يعملون، وهو الذي سيحاسبهم على أعمالهم. وإذا أصرّوا على معاداتكم ومقاومة الدعوة لدين الله فاعلموا أنّ الله معينكم وناصركم عليهم وحافظكم منهم (نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ) هو المعين الحقيقي والنّصير حقّا.

- وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (41) :

هذه في حكم توزيع الغنائم. والغنائم هي كلّ ما جُمع من المنقولات التي تركها المشركون من ورائهم وهربوا عنها، أو قتلوا ولم يعد لها صاحب. تقسم الغنائم على النحو التالي : خمس الغنائم يُصرف في مصالح المسلمين العامّة، وفي إعداد العتاد من سلاح ودروع.. وهذا خمس الله والرسول. ويوّزع الباقي على قرابة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من بني هاشم وبني المطّلب وحلفائهم، وعلى اليتامى، والمساكين وأبناء السبيل، كلّ حسب ما تقتضيه حاجته. وهذا التّوزيع فرضه الله على عباده المؤمنين إن كانوا حقّا صادقين في إيمانهم بالله، وبما نزل على رسوله من البشارة بنصره يوم بدر الذي فرق الله فيه بين الحقّ والباطل المهزوم، يوم اِلتقى جمع المؤمنين وجمع الكافرين، والله على كلّ شيء قدير. وفي أحكام الغنائم وتوزيعها جملة من التفاصيل

تعرف من كتب الفقه، وكتب فيها القرطبي في تفسيره تفاصيل واضحة على مختلف الأقوال، وهذه الأحكام لم يَعُدْ معمولا بها لأنّ الغنائم صارت بيد الجيش النظامي في كلّ دولة، ووليّ الأمر هو الذي يقرّر فيها ما يراه صالحا للبلاد، ولتكريم أبطال جنده المنتصرين، ولمساعدة الأيتام والأرامل الذين فقدوا في الحرب آباءهم أو أزواجهم.

- إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (42) :

هذه الآية والآيتان من بعدها في عرض بعض أحداث معركة بدر. كان المسلمون قد عسكروا بحافة الوادي من جهة المدينة، وعسكر المشركون بالحافة الأبعد من جهة مكة، وكانت عير قريش وأموالها بقيادة أبي سفيان في طريق آخر بعيدا عن الجمعين من جهة مكة، أخذت طريقا غير الطريق المعتاد، ولو تواعدوا على اللقاء للقتال لاختلفوا في المكان وموعد اللقاء ولكنّ الله تعالى هو الذي تخيّر المكان ووجّههم إليه وقدّر زمن المواجهة، وما قدّره الله وشاءه قد حصل ليقضي بمَوْت مَنْ مات من المشركين على أعين النّاس لتقوم عليهم الحجّة بأنّ وعيده نافذ في أعداء الدين، ولينتصر ويحيا المؤمنون على أعين النّاس ليعرفوا أنّ الله ناصرٌ أولياءه وحافظهم ومُظهِرُهم على أعدائهم، وإنّ الله جلّ وعلا سميع لما يدعو به المؤمنون وما يدعو به المشركون، وبمن يطلبون نصرهم، وهو سبحانه عليم بما ينفع المؤمنين لإظهارهم وتأييدهم وتعزيزهم.

- إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (43) :

هذه في تأثير العامل النفسي على معنويات المسلمين. والمعنى: وأذكر يا محمد إذ يريك الله في منامك المشركين قليلي العدد والعدّة، ولو أراكهم على ما هم عليه من الكثرة لضعفتم وجبنتم من لقاء عدوّكم، ولاختلفتم على مواجهتهم وقتالهم، ولكنّ الله سلّمكم من الاختلاف ومن الفشل والخوف من عددهم وعدّتهم، فإنّه سبحانه يعلم مشاعركم وأحاسيسكم وبواطنكم فحماكم من مشاعر الخوف واليأس برؤيا منامية.

- وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (44) :

الخطاب في الآية لجموع المقاتلين، والمعنى: وأُذكر إذ جعلكم – أيّها المسلمون – تروْن أعداءكم قلّة عند المواجهة لتتحفّزوا لقتالهم، وحتى لا ترهبوا جموعهم، وجعل أعداءكم الكافرين يرونكم قلةً كذلك حتى إذا وقعت فيهم الهزيمة زُرع فيهم منكم الرّعب، فيرون الواحد منكم قدر



عشر منهم أو أكثر، وعندئذ يحسبون للقائكم أكثر من حساب، وحتى لا يتجرّؤوا عليكم، وهذا ما قضاه الله لكم ولهم وقد فعل، وإلى الله يرجع الأمر كلّه في تدبير نصركم وفي تأديب أعدائكم، وفي إحقاق الحقّ وإبطال الباطل.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ **(45)** :

يا أيّها المؤمنون إذا واجهتم جماعة من المقاتلين فقاتلوا بشدّة، ولا تفرّوا من المواجهة وداوموا على الدعاء بالنّصر، وأذكروا أنّ الله دوما مع المؤمنين الصادقين، ولا تغفلوا عن ذكره تعالى بالتسبيح والصلاة والصبر عند لقاء الأعداء عساكم تفوزون بتأييده وبفضله.

- وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ **(46)**

هذه موعظة من الله للمؤمنين لاكتساب أسباب النّصر. على المؤمنين أن يطيعوا الله في ما أمرهم من الجهاد في سبيله، وأن يطيعوا رسوله صلّى الله عليه وسلّم إذا دعاهم للنّفير وللخروج لأعدائهم، ولا تختلفوا في الخروج للقتال أو التخلّف عنه فتجبُنوا وعندئذ تتلاشى قوتكم وتضعفوا ويتجرّأ عليكم أعداؤكم وتكسر شوكتكم واصبروا عند لقاء الأعداء واثبتوا واعلموا أنّ الله مع الصابرين.

- وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ **(47)** :

ولا تكونوا عند خروجكم للجهاد كالمشركين الذين خرجوا من مكة لقتالكم متجاوزين حدودهم في الزّهوِ والفخر بذواتهم وبقوّتهم، ومتظاهرين بالقوة وشدّة البأس أمام النّاس لإرهابهم، وكانوا يمنعون الناس عن الإيمان بالله وحده وطاعة أمره، وكان الله تعالى عليما بدقائق أمورهم علما تامّا. وهذا حتى يخرج المسلمون للقتال في طاعةٍ لإظهار دين الله الحقّ، نصرةً للحقّ، وردًّا للباطل.

- وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ **(48)** :

وأذكر إذ زيّن الشيطان للمشركين خروجهم لقتال المسلمين وشجّعهم على ذلك بأنّه لن يغلبوا في قتالهم هذا، وليس في الناس من يقدر على غلبتهم، وقال لهم إنّي حليف لكم بالنّصرة والتدبير. (تروي بعض كتب السيرة التي سجّلت حادثة بدر أنّ الشيطان تمثّل للمشركين يومئذ في صورة سراقة بن مالك، وقال لهم إنّي حليفٌ لكم من بني بكر بن عبْد مناة – انظر سيرة ابن هشام). فلمّا تقابل الجمعان: المسلمون وأعداؤهم المشركون حتى تَرَاءَوْا لبعض رجع الشيطان هاربا وولّى مدبرا،



وقال إنّي بريء منكم، وصرّح بأنّه يرى ما لا يرون من بوادر هزيمتهم، من رؤيته لجموع الملائكة التي تتنزّل، وقال إنّي أخاف الله، والله شديد العقاب لمن عصى وكفر.

- إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (49) :

وقد قال المنافقون ومعهم الحاقدون عن المسلمين قبل أن تحصل المواجهة يوم بدر: اِغترّ هؤلاء بدينهم ويظنّون أنّهم منتصرون، وهم قلّة وليسوا من رجال البأس، ولم يعلموا أنّه من يتوكّل على الله فإنّه لا يغلب لأن الله عزيز لا يُغلب وحكيم في تدبير أمور النّصر.

- وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (50) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (51) :

وليتك تتطلّع كيف تلقى الملائكة الكافرين حين يموتون، لو كنت تراهم لرأيتهم يضربون أحسن ما خُلق فيهم: وجوههم، وأسوأ ما فيهم: أدبارهم اِحتقارا ومهانة لإذلالهم، ويتذوّقون مع هذا الامتهان والإذلال عذابَ الحريق للعقاب بسبب ما اِكتسبوا من أعمال وبسبب رفع أيديهم على المسلمين بالسيف والرمح والرّمي، وإنّ الله ليس بظلاّم للعبيد، وإنّما هم الذين ظلموا أنفسهم بما عملوا فاستحقّوا مقابل أعمالهم ما يناسبها من الحكم.

- كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (52) :

اِستحقّوا ذاك العقاب وتلك المهانة بمثل ما عاقب الله به آل فرعون والذين سبقهم من الكافرين والمكذّبين الذين شاقّوا رسل الله وآذوا المؤمنين معهم، فعاقبهم الله بما يناسب ذنوبهم، والله شديد العقاب لمن آذى رسله وأولياءه المؤمنين والذين كفروا بوحدانيته وبوعيده.

- ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53) :

ذلك التّقتيل الذي حدث في كفّار مكة كان بسبب كفرهم بنعمة الله عليهم. لقد أنعم الله تعالى عليهم بأن بعث فيهم رسولا من أنفسهم لهديهم لدين الله الحقّ وليجتنبوا الباطل فكذّبوه وآذوه، وأخرجوه هو ومن معه من المؤمنين من بلدهم وديارهم، فأبدل الله نعمته عليهم بالنّقمة، حتى يرجعوا عن باطلهم إلى الإيمان الحقّ. وليكفّوا عن صدّ المؤمنين عن سبيل الله جلّ وعلا، وإنّ الله سميع لما يدبّرون، وعليم بما يمكرون وما يعدّون له.

- كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ (54) :



ما حدث لهم سبق أن حدث مثله مع آل فرعون، وأقوام أخرى سبقوهم. كذّبوا بالمعجزات والدلائل التي جاءتهم مع رسلهم ليؤمنوا بالله وحده ويطيعوه، وَيَدَعُوا الشّرك، ولم يؤمنوا فأهلكهم الله بسبب ذنوبهم، وأغرق آل فرعون. وجميعهم كانوا ظالمين أنفسهم بالكفر بالله وحده، وتصديق رسوله.

- **إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (55) ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ (56) :**

إنّ أسوأ أنواع البهائم التي تدبّ على الأرض الذين كفروا برسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم وما جاء به، فهم لا يؤمنون به، وهم الذين عاهدت منهم ثمّ ينقضون عهدهم – وهؤلاء على ما جاء في السيرة النبويّة جماعة من بني قريظة لأنّهم هم الذين كانوا يعاهدون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثمّ ينقضون عهودهم معه في كلّ مرّة كانوا قد عاهدوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على منحهم الأمان منهم، ثمّ أمدّوا مشركي مكة بالسلاح فنقضوا بهذا عهدهم، وفي غزوة الأحزاب فعلوا نفس الشيء بعد إعادة عهدهم مع الرسول على الأمان. وهم لا يخشون الله جلّ وعلا فيما يفعلون.

- **فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ (57) :**

هؤلاء إن تجدهم في حرب معك فأطردهم تخويفا لمن وراءهم من كفّار مكة عساهم يتذكّرون بوعدك إيّاهم، وهذه في النضير وبني قريظة، وهم من يهود المدينة.

- **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ (58) :**

فإذا خفت خيانة من قوم بينك وبينهم عهد، فأطرح إليهم عهدهم وحاربهم، وأعلمهم بطرح العهد ليكونوا على علم بنقضه حتى لا يتّهموك بالغدر إنّ الله لا يحبّ الخائنين لأنّ الخيانة غدر.

- **وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ (59) :**

ولا تحسبنّ الذين أفلتوا من واقعة بدر، من القتل أو الأسر أنّهم لا يقعون في الظّفر بهم في الدنيا، أو لا يقعون في العذاب يوم القيامة.

- **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ (60) :**

هذه في أمر عام لامتلاك أسباب القوة العسكرية لإرهاب العدوّ حتى لا يتجرّأ على الآمنين لنهب أرزاقهم أو لافتنانهم في دينهم. وإذا كانت أسباب القوة تقدّر بعدد الجند المدرّبين على فنون القتال، وبترسانة السلاح، وبعدد الفرسان والخيول المطهّمة المُعَدَّة للكرّ والهجوم المباغت السريع،



فإنّ القوة العسكرية في عصرنا الحاضر قد تطوّرت أساليبها التقنية في الرصد والكشف والتجسّس عبر الأقمار الصناعية ووسائل الاتصال الحديثة، وتعدّدت فنون القتال عبر الاستشعار عن بعد، وعبر إرسال الطائرات الموجّهة عن بُعد، وتطوّرت الأسلحة المدمّرة العابرة للحدود، ولم تعد المواجهة بين الجيوش بيّنة وظاهرة، فإنّ القادة يسيّرون المعارك في مكاتب مغلقة ومحصّنة وغير معلومة، وأوامرهم تُنفّذ بدقّة عجيبة عبر إرساليات قصيرة، وتغيّرت فنون القتال، فقد يُعتمد على أبناء البلد المعارضين لحكّامهم أو لأنظمة بلدانهم لتيسير تدخل العدوّ لضرب أهدافه بدقّة، ولذلك صار من أهمّ إمتلاك أسباب القوة بناء الجبهة الداخلية من عناصر الأحزاب والجمعيات المدنية المتحمّسة للمحافظة على الوطن ومكتسباته وذلك بحفظ البلد من إنتشار الفساد والمفسدين في البلاد، وبمقاومة النظام السياسي الفاسد بالوسائل السلمية وبحسن اختيار المسؤولين على أسس : الكفاءة والنزاهة وحبّ الوطن، ووضوح الرؤية والمنهج لخدمة الصالح العام لأهل البلد.

وفي الآية ترغيب في الإنفاق من أجل بناء قوّة البلاد في أيّ مجال من مجالات القوة التي تعدّدت إلى قوة علمية، وقوة تقنية، وقوة إقتصادية، وبنية اجتماعية متآزرة، ولم تعد مقتصرة على القوة العسكرية. وما ينفقْ في سبيل الله يعوّضْه الله خيرا منه، ولا يظلم في ثوابه وأجره على ما قدّمه لدينه ولبلاده وللصالح العام.

- **وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (61) :**

وإن مال أعداؤكم للسلم وللمصالحة ورغبوا فيها فصالحوهم. وهذه الآية ممّا يُستشهد بها على أنّ الدين الإسلامي دين السلام وليس دين القتال. لا يقاتل المسلمون إلاّ من بادروهم بالقتال. وتوكّلوا على الله فيما قَرَّ عليه عزمُكم، وهو سبحانه مطّلع على ما تقولون وما تعملون لأنّه جلّ وعلا سميع عليم.

- **وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ (62) :**

وإن يريدوا بالصلح أن يغدروا بك ليستعينوا به على أخذكم على غرّة فإنّ الله كافيك في دفع شرّهم، وردّ كيدهم. هو الذي قوّاك بنصره وبالأنصار.

- **وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ (63) :**

هذه في الأنصار، كانوا على قبيلتين: الأوس والخزرج، وكانت بينهما معارك وثأر، وكانوا على خلاف فيما بينهم، فلمّا هاجر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة كان من أول عمله فيهم أن صالح بينهم. وفي الآية تنبيه لفضل الله تعالى على رسوله وعلى المؤمنين الأنصار



الذين أيّده بهم فقال تعالى بأنّه هو الذي جمع بين قلوب الأوس والخزرج بعد عداوتهم، ولو أنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم حاول التأليف بين قلوبهم بمفرده من غير تأييد الله تعالى ما اِستطاع أن يؤلّف بينها ولو أنفق مالَ الأرض كلّه لهذه الغاية، ولكنّ الله تعالى فَعَل ذلك، إنّه تعالى عزيز لا يُغلب، وحكيم في تدبيره.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ **(64) :**

يا أيّها النّبيّ يكفيك الله العزيز الحكيم ومن اِتّبعك من المهاجرين والأنصار في قتالك للمشركين.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ **(65) :**

يا أيّها النّبيّ حُضَّ المؤمنين وحِثَّهُم على الجهاد في سبيل الله في صبر، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين من الكافرين بتأييد من الله تعالى، وإن يكن منهم مائة يغلبوا ألفًا منهم، فإنّ الكافرين لا يعلمون أنّ الله تعالى مؤيّد عباده المؤمنين.

- ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ **(66) :**

أمّا وقد علم فيكم – أيّها المؤمنون – ضعفا في الصبر عند ملاقاتكم الأعداء، وضعفا في العُدَّةِ فإنّ الواحد منكم باثنين من أعدائكم بإذن الله جلّ وعلا، والله يؤيّد الصابرين في قتالهم.

- مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ **(67)** لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ **(68):**

الآيتان في أسرى بدر، شاور الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أصحابه فيما يفعل بهم: فأشار عليه أبو بكر أن يأخذ منهم فدية لتحريرهم من الأسر، وما هم إلاّ بنو عمّ وعشيرة، وأشار عليه عمر بن الخطّاب أن يمكّنه منهم لضرب أعناقهم. (أُنظر سيرة ابن هشام، وكتابنا: رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم وغيرهما..) فنزلت الآية في عتاب من أشار على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالفدية قصد تقوية شوكة المسلمين في أوّل معارك الاقتتال. والمعنى: ما كان لنبيّ (الحديث موجّه لمن دبّر بالفدية، وليس العتاب موجّها للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم) أن يكون له أسرى حتى (يُثۡخِنَ) يبالغ في قتل الكفّار ويوهنهم ويعجزهم ويرهبهم، فإن حدث هذا فإنّ له أن يفتدي الأسرى بعد بلوغ القصد. تريدون المال وحطام الدنيا ومتاعها بفدائكم للأسرى، والله تعالى يريد قتلهم ليظهر دينه الحقّ، والله عزيز لا يغلب، وحكيم فيما يقدّر. لولا وعد من الله تعالى وقضاؤه فيما تقدّم إثباته في

اللوح المحفوظ بأن لا يعذّب قوما حتى يبيّن لهم شرعه، وأن لا يعذِّب قوما فيهم محمد صلّى الله عليه وسلّم لأصابكم عذاب عظيم فيما حصلتم عليه من مال الفدية.

- فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (69) :

هذه في إباحة الانتفاع بمال الفدية، وفيها ما يدلّ على تكريم أبي بكر الذي أشار على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يقبل الفدية عن الأسرى حتى يرفع عنه العتاب، ولا يشعر أبوبكر بالذنب. فقد أُبيح للمسلمين الانتفاع بهذا المال حلالا طيّبا، وجاء فيها التأكيد على تقوى الله، والطمع في مغفرته ورحمته.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (70) :

يا أيّها النّبيّ أعرض على الأسرى أن يفتدوا أنفسهم بالمال، أو بتقديم خدمات معروضة عليهم، وقد عرض الرّسول صلّى الله عليه وسلّم على المتعلّمين منهم القراءة والكتابة أن يفتدوا أنفسهم بتعليم جملة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة. ومن هذا التوجّه ندرك مدى تقدير الدين الإسلامي للعلم وأهله وللمعلّمين المؤدّبين، فإنّ الأمّة الإسلامية أمّة "اِقرأ" وأمّة سورة "القلم"، وإنّ دينهم يحفّز على التعلّم وتكريم أهل العلم وتكريم الكتاب وتكريم العقل والفكر، وهذان غذاؤهما: العلم لتنوير البصائر نصرة للحقّ وإبطالا للباطل. (إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا) إذا صفت قلوبكم ولأنَتْ للصواب وللدّين الحقّ يعوّض الله تعالى لكم في الدنيا ما دفعتم من الفداء، ويثيبكم في آخرتكم بالمغفرة، والله سبحانه غفور رحيم.

- وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (71) :

وإذا كان في نيّتهم خداع ومكر بأن يتظاهروا بالميل للإسلام للتهرّب من الفدية فليذكروا أنّهم قد خرجوا لقتالكم فمكنّكم الله منهم ونصركم عليهم وأوقعهم أسرى بين أيديكم، والله عليم بخفايا الصدور، وحكيم بتدبير إيقاعهم في الأسر ثانية أو من التمكين منهم لقتلهم.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(72) :

هذه في العلاقة مع المؤمنين الذين لم يهاجروا وقد اِفتتنوا في دينهم. الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بالنفس وبالمال، والأنصار بالمدينة، بعضهم أعوان لبعض في النّصرة، والمؤازرة. وأمّا المؤمنون الذين بقُوا بمكة ولم يهاجروا فليس عليكم نصرتهم ومؤازرتهم وحمايتهم

حتى يهاجروا ويخرجوا من مكة إلاّ إذا طلبوا نصرتكم في الدين إذا اِفتُتِنُوا فيه وأوذوا بسببه فعليكم عندئذ واجب نصرتهم وحمايتهم إلاّ إذا دخلوا في حلفٍ مع قوم بينكم وبينهم معاهدة سلام، وعهد بعدم الاقتتال، فهؤلاء أمرهم إلى الله تعالى، والله مطلع على ما تعملون فاحذروا معصيته ومخالفة أمره.

- وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ **(73) :**

فإن لم تفعلوا ما أمرتم به من المحافظة على العهد والميثاق يحدث بلاء كبير، فالكافرون يجتمعون عليكم من كلّ جهة وصوب لأنّهم أنصار لبعض، ولا يتخلّفون عن النّفير، وعندئذ يقع فساد كبير من قتل وتخريب واِختلال في أمنكم.

- وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ **(74)** وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ **(75) :**

وتُختم السورة بما بُدِئَت به في ذكر صفات المؤمنين، الصادقين في إيمانهم وفي طاعتهم لأمر ربّهم، وهكذا يتّحد الربط بين المقدمة والخاتمة. المؤمنون حقّا هم المؤمنون المهاجرون بدينهم، والمجاهدون في سبيل الله، وهذه خاصية في المهاجرين الأوائل، وكذلك هم الأنصار الذين آووْا المهاجرين وقاسموهم بيوتهم وأموالهم ونصروا المسلمين في قتالهم لأعدائهم، هؤلاء يبشّرهم الله جلّ وعلا بمغفرة ذنوبهم وبالإنعام عليهم بالرزق الحسن في دنياهم وآخرتهم لإسعادهم. ولا يقتصر هذا الفضل على هؤلاء فحسب، بل يشمل كذلك المؤمنين الذين جاؤوا من بعدهم والمهاجرين والمجاهدين، فهؤلاء من طائفة من سبق ذكرهم، وأصحاب القرابة بالإيمان والهجرة، هم مع بعض. كذا حكم الله تعالى في علمه. والله سبحانه مطّلع على كلّ أمر وعلى كلّ عمل يأتيه عباده.

| رقمها | ســـورة التّوبـــة | آياتها |
| --- | --- | --- |
| 9 | ـــ مكيّة ـــ | 129 |

نزلت هذه السورة إثر غزوة تبوك التي وقعت في عام شدّة وعُسرة بسبب الجفاف وقلّة المؤونة، فكان إنفاق أصحاب اليُسر على قافلة المجاهدين لتزويدها بالسلاح والمؤونة قليلا، وفيه شحّ، وهذا أمر لم يُرضِ الله تعالى. وقد وقعت في صيف كان شديد الحرارة، فتخلّف عن الخروج للجهاد جمع من المسلمين، منهم من تقدّم للرسول صلّى الله عليه وسلّم باعتذاره عن الخروج، وكان اعتذارهم عند الله تعالى وَاهِيًا، ومنهم من تخلّف، وقعد في المدينة وما كان له عذر في ذلك، ولم يتقدّم للرسول صلّى الله عليه وسلّم بعذر، ولمّا خرج المسلمون ووجدوا أنفسهم قاعدين في المدينة أنّبتهم ضمائرهم، وندموا عن قعودهم، وكانوا ثلاثة من الصحابة، ومنهم من كان منافقا لم يخرج، وعمد إلى إحباط عزائم من عزم على الخروج، وقالوا لهم: لا تنفروا في الحرّ.

ولهذا سمّى كتّاب السيرة النّبوية هذه السورة "بالفاضحة" لأنّها فضحت المنافقين، وكشفت ما خفي من أمر المتخلّفين من أصحاب الأعذار الواهية وكشفت بخل البخلاء منهم. وسمّيت سورة "التوبة" لأنّها نزلت بالتوبة على الثلاثة المخلّفين، وعلى البدريين من المهاجرين والأنصار المتخلّفين عن الغزوة. وسمّيت في بعض المصاحف بسورة "البراءة" لأنّها أُفتتحت بآية البراءة من المشركين ومن العهد معهم، وفيها البراءة من أهل النّفاق، ودعت الرّسول صلّى الله عليه وسلّم للامتناع عن الاستغفار لهم، وعن صلاة الجنازة عليهم.

وفي السورة إشكال في ذكر "البسملة" عند الافتتاح بقراءتها للأسباب التالية :

أوّل الأسباب: أنّها حين نزلت، وقد جاء فيها الإعلان عن براءة المسلمين من عهد المشركين بعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عليّا بن أبي طالب رضي الله عنه بنصّ البراءة لإبلاغه للمشركين، وكان زمنها سنة تسع للهجرة في موسم الحجّ الّذي أمر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أبا بكر رضي الله عنه بإمارة المسلمين الحاجّين، ولمّا بلغ عليّ رضي الله عنه مكة كان وصوله يوم عرفة فوقف في الموقف وقرأ البراءة دون أن يفتتح قراءتها بالبسملة. قال عبد الله بن عبّاس، سألت عليّ بن أبي طالب لِمَ لمْ يكتب في براءة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ؟ قال: لأنّ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أمان، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان. وروى معناه عن المبرّد: قال: ولذلك لم يجمع

بينهما، فإنّ (بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) رحمة، وبراءة نزلت سخطة (انظر تفسير القرطبي، وكتاب السيوطي، علوم القرآن).

وثانيها: أنّ سورتي الأنفال والتوبة في غزوتين، وهما مكتملتان في موضوع الجهاد والقتال، ومن ثمّ قُرِن بينهما. ولم يُكتب بينها سطر (بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ). قال ابن العربي الأندلسي الفقيه صاحب كتاب التفسير (أحكام القرآن) وهو أستاذ القرطبي: "ورأوا أنّ قصة براءة" شبيهة بقصة الأنفال" فألحقوها بها.

وثالث الأسباب: أنّه لم يُرْوَ عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حين كان ينزل عليه الوحي، ويأمر بكتابة ما نزل عليه لم يشر إلى ما يفيد أنّ هذه السورة سورة منفصلة، ولم يسمّها باسمها: فإنّ اسميها : "التوبة" أو "براءة" من وضع المصحفيين.

من أهم مواضيع السورة :

- الإعلام: بفسخ المعاهدة مع المشركين بعد انقضاء مهلة الأربعة أشهر والإعلام بالبراءة من المشركين.
- وفضح المنافقين المتخلّفين عن الجهاد بأعذار واهية مع إعذار البدريين والثلاثة النادمين والفقراء الذين لم يجدوا ركبا.
- خبر هجرة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وصاحبه.
- الولاية للمؤمنين فحسب.
- فضل الله على المؤمنين في نصرهم في غزوة تبوك.
- حضّ المؤمنين على الجهاد بالمال وبالنفس.
- الحذر من الأعراب.
- فضل السابقين الأولين من المؤمنين.
- وختاما، فضل بعثة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم على العالمين.

أمّا مواضيعها في التّشريع فقد جاءت :

- في تحريم القتال في الأشهر الحرم،
- في تحريم النسيء
- في حكم ناكث العهد في الحرب،
- في بيان مصارف الزكاة.
- في سوء عاقبة مانعي الزكاة.
- في فرض الجزية على أهل الكتاب.

– في حكم بناء المسجد الضرار.

وعموما فإنّ هذه السورة لمن يقرأها بإمعان تُشْعِرُهُ بأنّ عهدها عهدُ قوّة، وفرضُ الإرادة.

- **بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (1) :**

إنّ الله تعالى يزيل ويقطع ما بين رسوله وما بين المشركين من معاهدة.

- **فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ (2) :**

فسيروا في الأرض أربعة أشهر آمنين، وهذا فيما كان بين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من معاهدات مع المشركين وكانت محدّدة بزمن يقلّ عن أربعة أشهر أو يبلغها، وأمّا ما كان من معاهدة طويلة الأمد فقد أمر تعالى في الآية الرابعة بأن يتمّ إليهم عهدهم. (وَٱعْلَمُوٓاْ) صيغة تهديد لتحذير المشركين الذين تسوّل لهم أنفسهم أن يقاتلوا المسلمين ليعلموا أنّهم غير مفلتين من عقاب الله حيثما يختفون، وأنّ الله تعالى مخزيهم ومهلكهم.

- **وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (3) :**

وإعلامٌ من الله تعالى ورسوله إلى كافّة النّاس يوم عرفة أو يوم النّحر أنّ الله تعالى يتبرّأ من المشركين، ورسوله كذلك يتبرّأ منهم إلاّ إذا تابوا من الشّرك وأقلعوا عنه، وهذا خير لهم لدنياهم لأنّهم يهتدون بذلك للحقّ، وخير لهم لآخرتهم، وإن أعرضوا عن الإيمان بالتوحيد فليعلموا أنّهم غير ناجين من عذاب الله وعقابه، وبشّر الكافرين بالعذاب الموجع، والتّبشير بالعذاب يدلّ على مزيد من الإهانة، لأنّ هذا اللفظ يأتي مع الإخبار بما يسرّ ويُفرح.

- **إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (4) :**

إلاّ المعاهدين في مدّة عهدهم، وثبتوا على العهد، ولم يخالفوا شروطه، ولم يعاونوا عليكم أعداءكم فحافظوا على عهدكم معهم إلى أجله المعيّن. إنّ الله يحبّ المؤمنين الذين يخشون ربّهم.

- **فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(5) :**

هذه إلى غاية الآية 15 في الإذن للمسلمين بقتل من أراد بهم كيدًا من الأعراب المشركين الذين كانوا يقيمون خارج الحرم المكي في البراري وفي الجبال وعلى ضفاف الأودية، وأمّا

مشركو قريش فقد كانوا في حِمَى الحرم المكي. فمن مكائد الأعراب بالمسلمين ما حدث في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة، فقد قدم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قوم من عَضُل وقارّة، وذكروا له أنّ فيهم إسلاما، وطلبوا منه أن يبعث معهم نفرا من أصحابه يفقّهونهم في الدين ويقرئونهم القرآن، ويعلّمونهم شرائع الإسلام فبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم معهم ستّة أنفار من أصحابه، فخرجوا معهم حتى إذا كانوا على "الرّجيع" غدر بهم القوم وقتلوهم جميعا. وفي نفس الشهر من تلك السنة وقعت واقعة أخرى أشدّ وأفضع من تلك، تعرف بواقعة بئر معونة جبلة كان سببها الأعرابي أبا براء عامر قدم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينة، وقال له: يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد، فدعَوْهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك، وطمأنه أنّه من أهل نجد: وقال: إنّي جار لمن ترسلهم إليهم، فبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المنذر بن عمرو في سبعين رجلا من أصحابه، من خيار المسلمين، وحدث ما حدث وقتل المشركُون بقيادة عامر بن الطفيل هؤلاء جميعهم. وقد أغار عيينة بن حصن الفزاري في خيل من غطفان على إبل حوامل من إبل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالغابة بالمدينة، وعيينة كان من قادة قبائل غطفان لحرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مع الأحزاب، وكان عدوّا حاقدا على الرّسول وعلى المسلمين، وقتل الراعي، وسبى زوجته هو ومن كان معه من أحابيش غطفان. (انظر كتابنا في السيرة النبويّة، بعنوان: رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم، ص ص 307-310 وص ص 344-347) و(انظر كتاب أسباب النزول للقاضي).

كان لابدّ من هذه المقدمة الموجزة لبيان سبب نزول هذه الآي التي أباحت للمسلمين قتال مشركي العرب الأعراب منهم والأحابيش من سكّان البوادي والوديان الذين كانوا يقتلون الأبرياء لسلبهم، أو للترويع، وكانوا يقطعون الطرق على القوافل، وحتى لا يقال إنّ الإسلام دين الإرهاب، ودين القتال، كلاّ وإنّما فرض القتال لكفّ أذى الظالمين القتلة المجرمين لفرض الأمن في البلاد والأمان لأرواح العباد.

ومعنى الآية: إذا إنقضت الأشهر الأربعة التي مُنحت لهم ليبلغهم الإعلام، وليأخذوا حيطتهم، فاقتلوا المشركين الذين آذوكم، وتفرّقوا في الصحراء وشعاب الجبال، والذين يتآمرون عليكم، وتمكنّوا منهم، وحاصروهم في مكان تحصّنهم، وامنعوهم من دخول مكة، وترصّدوهم في كلّ طريق وممّر يمكن مراقبتهم منه، فإن تابوا عن الشرك، وعن قتالكم، وعن الإفساد في الأرض، وأقاموا الصلاة لله، وآتوا الزكاة مثلكم، فلا تتعرّضوا لهم بالأسر، ولا بالقتل، إنّ الله غفور رحيم.

وهذه الآية جمعت بين الترهيب والترغيب.

- وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (6) :

هذه في التوسعة على الرّاغبين في الاطلاع على ما يدعو إليه الدّين الجديد. والمعنى: وإن أحد من المشركين طلب جوارك بعد اِنسلاخ الأشهر الأربعة ليسمع القرآن ويعرف الدين وشرائعه فأَمِّنْهُ على نفسه حتى يسمع منكم كلام الله تعالى، وما تدعوه إليه، وأُتركه حتى يصل إلى المكان الذي يأمن فيه على حياته بين أهله. ولهم هذه الرخصة لأنّ الكثير من المشركين من غير سكّان مكة لا علم لهم بما تبلّغ النّاس به.

- كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (7) :

لا يجوزُ أن يكون للمشركين الذين لا يؤمنون بالله وحده ولا يؤمنون برسوله، عهد مع الله ورسوله إلاّ الذين سبق لكم أن عاهدتموهم على الأمن والأمان والسلام، فما داموا على العهد ولم ينقضوه فحافظوا على الالتزام بما عاهدتموهم عليه، إنّ الله يحبّ المؤمنين الأوفياء لعهودهم.

- كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ (8) :

كيف يكون لكم معهم عهد، وهم الذين إذا ظفروا بكم وتغلّبوا عليكم فإنّهم ينقضون عهدهم معكم، ولا يراعون في معاملتهم لكم (إِلاًّ): قرابةً، ولا رَحِمًا، ولا جوارًا (وَلَا ذِمَّةً) ولا عهدا، أو أمانا، أو ضمانا للحقوق، بل سيؤذونكم بما اِستطاعوا. يقولون لكم بأفواههم ما تحبّون سماعه منهم، وفي أنفسهم رفض للعهد، وأكثرهم ناقضون للعهود.

- ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (9) :

اِبتاعوا بآيات الله وحججه شيئا يسيرا من عرض الدنيا وشهواتها فحادوا عن طريق الله تعالى القويم، إنّهم أساؤوا العمل وساءت بذلك عاقبتهم.

- لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ (10) :

لا يراعون في مؤمن قرابة ولا رحما ولا جوارا، ولا عهدا، أو ضمانا للحقوق، وأولئك هم الظالمون المعتدون على حقوق النّاس، والغادرون.

- فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(11) :

وهذه الآية تفتح أبواب الرجاء للتّائبين. فإن غيّروا سلوكهم وتابوا عن الشرك ونقض العهود، وإيذاء المؤمنين، وأطاعوا الله ورسوله في أداء الطاعات من إقام للصلاة وإيتاء الزكاة، فلا



تؤاخذوهم عمّا سبق منهم، فقد صاروا إخوانا لكم في الدين، وصاروا جماعة منكم، وهكذا نوضّح الأحكام لقوم يتدبّرون حكمة تشريع الله تعالى.

- **وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ (12) :**

هذه الآية والآيات الثلاث الموالية لها في التعامل بالقوّة مع ناكثِي العهد لمنع غدرهم. والمعنى: وإذا نقض المشركون الظالمون العتاة عهودهم التي أكّدوها بأيمانهم، وإذا عابوا عليكم دينكم، وسمعتموهم يطعنون فيه بالثلب والتّكذيب فقاتلوهم وخاصة رؤساءهم وصناديدهم وزعماءهم، إنّهم لا يوفون بأيمانهم وعهودهم، وهذا ليكفّوا عن إيذاء المؤمنين، وعن صدّ النّاس عن دين الله.

- **أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (13) :**

كيف لا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم، ونقضوا عهودهم، ودبّروا في إخراج الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من مكة، وشرعوا في تنفيذ تدبيرهم، وهم الذين بادروكم بالإيذاء بمكة وبقتالكم ببدر ونقض العهد. أتخافون قتلهم فالله أحقّ أن تخافوه، وأن تخشوا غضبه عليكم إذا قعدتم عن قتالهم لردّ أذاهم عنكم. والاستفهام هنا لحفز همم المؤمنين للجهاد لنصرة دينه.

- **قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ(14) :**

قاتلوهم يجعلْ الله عقابهم وعذابهم على أيديكم بعدما كانوا هم الذين يعذّبونكم بأذاهم، ويُذِلّهم على أيديكم بعدما كانوا يهزؤون بكم ويحتقرونكم، وبهذا ينصركم عليهم، ويجعل هزيمتهم على أيديكم، ويشفي صدوركم بانتقامكم المباشر منهم.

- **وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (15) :**

وبنصركم عليهم يذهب ما كانت تحمله قلوبكم من كرب وألم وغضب عليهم بسبب ما كانوا يؤذونكم به، وبإظهاركم عليهم قد يسلم بعضهم فيتوب الله عليهم (من مثل ما حصل مع أبي سفيان الذي كان رأسا من رؤساء الكفر ثم تاب وأسلم). والله عليم بما في نفوس عباده، وحكيم في تدبير اِهتداء بعضهم، أو الانتقام من المصرّين على الكفر منهم.

- **أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ (16) :**

وهل كنتم تظنّون أن تُتركوا بدون اِختبار لمدى صدق إيمانكم وإخلاصكم للعمل بأمر الله تعالى. لقد فرض عليكم الجهاد ليتميّز المُجاهد منكم والمخلص عن المتخلّف عنه، وليظهر الذين



لا يستبدلون ولاية الله تعالى، وولاية رسوله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين بولاية المشركين بالتودّد إليهم ومخالطتهم، والله تعالى مطّلع على أعمالكم وتوجّهاتكم.

- مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ (17) :

ليس من حقّ المشركين أن يكونوا مقيمين في الحرم المكي حيث المسجد الحرام وحيث الأمكنة المقدّسة التابعة للحجّ حيث تقام الصلوات لله وحده، ولا يذكر إلاّ الله وحده. فهذه مساجد لعبادة الله وحده فكيف تكون الإقامة فيها للمشركين وهم يقرّون بألسنتهم أنّهم كافرون. أولئك الذين فسدت أعمالهم، ومأواهم في آخرتهم في النّار يقيمون فيها أبدا.

- إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ (18) :

في هذه الآية حصرٌ لأن تكون عمارة مساجد الله لإقامة الصلاة فيها، وللعناية بما يلزمها من نظافة ورعاية وعناية بصيانتها من مسؤولية المؤمنين بالله وحده، الذين يصدّقون بالبعث بعد الموت للقيام للحساب، والذين يؤدّون الصلوات في أوقاتها ويقيمون فيها النداء للإعلان عن دخول وقتها وللنداء لحضور جماعتها، والذين يؤدّون زكاة أموالهم ولا يبخلون بها والذين لا يخشون إلاّ الله وحده، ليس لهم آلهة أخرى يعبدونها، ولا يخشون مع الله أحدا من الأعداء أو من الظالمين، هؤلاء الذين تتعلّق هممهم بعمارة مساجد الله ويحضرون فيها للصلاة الجامعة وللذِّكْر خليقون بأن يكونوا من المهتدين.

- أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (19) :

كان مشركو قريش يفخرون بأنّهم يسقون حجّاج بيت الحرام، ويعتبرون عملهم هذا مفخرة وفيه الثواب الجزيل من عند الله صاحب البيت الحرام، ومعلوم أنّ مكّة واقعة في صحراء نَجْدٍ، وأنّ الماء نادر الوجود فيها، وتشير الآية أنّ سقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام بالقيام بعمل التّنظيف وإكساء الكعبة لا يُمثَّلُ بإيمان العبد بالله وحده وبالقيام للحساب في الآخرة، وبالجهاد في سبيل الله، ولا تساويها مطلقا. والله لا يهدي الكافرين الذين يظلمون أنفسهم بالتّكذيب بوحدانية الله، وباليوم الآخر.

- ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (20) :

هذه في توضيح اِستحالة التّساوي بين فريقي السقاة وعمّار المسجد الحرام وفريق المؤمنين.

المؤمنون المهاجرون والمجاهدون في سبيل الله بالمال وبالنفس أرفع درجة ومنزلة عند الله تعالى وأكثرهم ثوابا، وهم الفائزون برضوانه وبنعيمه في آخرتهم.

- ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (21) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (22)﴾ :

الآيتان في بيان وجوه فوز الفائزين الذين ورد ذكرهم في الآية السابقة، والذين هم المؤمنون والمهاجرون والمجاهدون في سبيل الله تعالى، يخبرهم الله تعالى بأنّه سيكرمهم برحمة منه، ومن يرحمه الله تعالى لا يعذّبه، ويبشّرهم برضوانه، ومن رضي الله عنه أعطاه من خيراته ونعيمه حتى يرضى عبده ولا يستزيد شيئا، وأدخلهم بساتين يجدون فيها النّعيم التامّ الذي لا يزول، ويحيون فيها لا يموتون عنها أبدا. إنّ الله تعالى عنده الكثير من الخيرات والنّعيم ووجوه التكريم. نسأل الله تعالى أن يكتبنا نحن منجزي هذا العمل، والقرّاء، مع هؤلاء الفائزين، وأن يجعل وجه جهادنا في سبيله وفي نفع النّاس بمساعدتهم على تدبّر كتابه الكريم، وأن يجعل هجرتنا في هجرة ما نهى الله عنه وفي ما حرّمه علينا. آمين.

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23)﴾ :

هذه في توضيح ما جاء مُجْمَلاً في الآية 16 في قوله تعالى: (وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً) والوليجة هي البطانة والأولياء. والمعنى: لا تجعلوا آباءكم ولا إخوانكم أنصارًا لكم وبطانة إن فضّلوا الكفر على الإيمان. ولا تطلعوهم على أسراركم فإنّهم أنصار أعدائكم الكافرين. ومن يصاحبهم منكم فإنّه من الظالمين لنفسه ولإخوانه المؤمنين لأنّ الذي يختار الكفر ويفضّله على الإيمان لا يُؤْمَنُ جانِبُهُ.

- ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24)﴾ :

هذه في بيان بعض الأسباب التي جعلت بعض أولئك يستحبّون الكفر على الإيمان، وفي توضيح ما جاء في الآية السابقة والآية 16 من المقصد الشرعي من النّهي عن اِتّخاذ الآباء والإخوان أولياء من دون المؤمنين، وهي أيضا في التحذير من تفضيل متاع الدنيا وصحبة الكافرين على الإيمان بالله تعالى والتصديق برسوله على الجهاد في سبيل الله جلّ وعلا.

لهؤلاء يقال إن كنتم تفضّلون ولاية آبائكم وأبنائكم وأصحابكم وأزواجكم وعشيرتكم على الإيمان بالله، والتصديق برسوله، والاستجابة للدعوة للجهاد في سبيل الله تعالى، وإن كنتم

تفضّلون على هذه الفضائل كسب المزيد من المال بأي وجه من الكسب دون مراعاة حِلّيته، وتفضّلون عليها تجارتكم، وتخافون عليها كسادها، وتفضّلون عليها القعود بدياركم فانتظروا عقاب الله تعالى وحُكمه فيكم، ذلك لأنّ الله تعالى لا يرضى عن القوم الخارجين عن طاعته، والرّافضين للإيمان به.

- لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ **(25) :**

هذه الآية والآيتان من بعدها في غزوة حنين وأثرها. وقعت هذه الواقعة بعد فتح مكة، "فحين بلغ عرب قيس عيلان خبر فتح مكة ظنّوا أنّ أهل قريش قد ذُلّوا، فهبّوا جميعا لنجدتهم، وأخذتم حمية الجاهلية لمحاربة المسلمين نصرة لإخوانهم وحلفائهم، وكانت مضاربهم تضمّ بطون هوازن، وبني نصر، وجشم، وسعد بن بكر، وجماعة بني هلال، واِنضمّ إليهم كذلك جماعة من الثقفيين من أهل الطائف، واِجتمعوا على قائدهم ذي البأس الشديد، والدهاء: مالك بن عوف النضري، فاشترط عليهم ألاّ يخرج بهم إلاّ إذا اِصطحبوا معهم نساءهم وأبناءهم، وأنعامهم، وشياههم للميدان، وقصد بهذا الشرط تثبيتهم في ميدان المعركة إذا تقابل مع المسلمين حتى لا يهربوا إذا احتدم القتال، فيحبسهم حابس الخوف من سبي نسائهم وأبنائهم وأموالهم، ووافقه الجميع على شرطه فخرجوا معه جميعا حتى نزل بهم بوادي أوطاس في ديار هوازن بالقرب من حنين.

وبلغ إلى علم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نبأ خروجهم لقتال المسلمين فنَدَبَ أتباعه للخروج إليهم فاجتمع له اِثنا عشر ألف نفر، ورأى المسلمون جموعهم فقال أحدهم: "لن نغلب اليوم من قلّة"، وفي هذا قال تعالى: "ويوم حنين إذْ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا.." (من كتابي رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم ص ص 474-475) (وانظر كتب السيرة النبويّة في أحداث هذه المعركة).

وممّا تجدر ملاحظته في تفسير آي هذه السورة، أنّ كلّ من ليس له دراية واِطلاع على السيرة النبويّة، وأسباب وقائع المعارك بين المسلمين وأعدائهم من المشركين أطوارا، وأهل الكتاب طورًا، وليس له علم بنصوص المعاهدات بين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأهل الكتاب، وبعض القبائل العربية، ومعاهدة الحديبية، فإنّه لا يستطيع أن يفهم دواعي فرض الجهاد على المسلمين، وحضّهم على الخروج إليه، وتحذيرهم من التخلّف عنه، وحينئذ يقع في خطإ جسيم في فهم هذه السورة، وفي فهم المقاصد ممّا جاء فيها من الدعوة للحزم في قتال المشركين، وربّما يصدّق تهم الكائدين لهذا الدين بقولهم إنّ الإسلام دين الإرهاب ودين القتال. ولقد اِستغلّ بعضهم آي هذه السـورة للتغرير بالشباب فجنّدوهم للقتال لتحقيق مصالحهم للتملّك بالسلطة في البلاد،

أو لتيسير أسباب تملّك الأجانب لخيرات البلاد العربية أو الإسلامية، وذلك بإخراج آي هذه السورة عن إطارها الموضوعي، فوجب الحذر من هذا التّحريف البيّن لكلام الله تعالى.

والمعنى: لقد نصركم في مواجهات قتالية كثيرة، ويوم حنين، يوم قلتم لن نغلب اليوم من قلّة لأنّكم كنتم كثرة، فلم تنفعكم كثرتكم يومها، إذ لم تحقّقوا بها النّصر، بل لقد بلغ بكم الأمر أن شعرتم بأنّ الأرض – رغم اِتّساعها – قد ضاقت عليكم حين غُلِبتم، وقد فرّ أغلبكم من المواجهة موليّا ظهره لأعدائه.

- **ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ (26) :**

وبعد برهة أنزل الله أمَنَتَه على رسوله وعلى المؤمنين لطمأنتهم، وأنزل جندا من الملائكة لا يُبصرهنّ أحد، واِنتقم الله من الكافرين بأن جعل الدائرة تدور عليهم، فهُزِمُوا، وذلك جزاء الكافرين.

- **ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (27) :**

ومن يشأ من هؤلاء المقاتلين أن يتوب عن كفره، وعن قتاله للمسلمين فإنّ الله يتوب عليه ويغفر له ويرحمه، ولقد مَنَّ الله تعالى على مالك بن عوف النّضري أن شرح الله جلّ وعلا قلبه للإسلام، فتاب عن كفره، وأسلم، وأبلى بعد ذلك في الإسلام بلاءً حسنا، والله سبحانه غفور رحيم.

- **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (28) :**

هذه في تحريم دخول المساجد على المشركين حتى لا يدنّسوها بشركهم. المساجد عموما والمسجد الحرام بالذات يحرم على المشركين دخولها لأنّ نفوسهم خبيثة بالشّرك وغير طاهرة، ونفوس المؤمنين زكية. ويأتي هذا التحريم لسدّ باب الذرائع، فالمشركون حيثما حلّوا أقاموا أصناما للتّعبّد، وفي المساجد لا يُعبد إلاّ الله وحده، والمساجد مطهّرة من الأوثان والأصنام. والمساجد لا يدخلها إلاّ المتطهرون من الجنابة، والمشركون غير طاهرين من الشرك، وغير متطهّرين من الجنابة، وجاء هذا الأمر عند نزول البراءة سنة تسع للهجرة، وبعد هذا الإنزال صار محرّما على مشركي قريش ومشركي العرب دخول المسجد الحرام، وبهذا خلُص هذا المسجد منهم وصار من مسؤولية المسلمين. وإن خفتم فاقة وفقرا بسبب مقاطعة المشركين للتّجارة بمكة فإنّ الله يعدكم أن يغنيكم من نعمه ومن رزقه بما شاء، وإذا شاء لأنّه عليم بما يصلح لكم، وحكيم في تدبير أمور الرّزق إليكم.

- قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ **(29) :**

هذه في فرض الجزية على أهل الكتاب. والجزية خراج مضروب على رأس كلّ ذمّيّ مقابِل تكفّل الدولة بحماية أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ودينهم، ولا يدفعون زكاة مقابل ذلك، ولا يُدْعون للقتال مع جند المسلمين. ولم تعد الدولة الإسلامية تضرب الجزية على أهل الذمّة وذلك لأنّ قوانينها المدنية عوّضتها بالضرائب. وقد أُمِرَ المسلمون في زمن التّنزيل لضمان أمنهم وأمانهم في ممارسة شعائر دينهم بقتال الذين لا يؤمنون بوجود الله وبوحدانيته، ولا باليوم الآخر: يوم البعث للمحاسبة والمجازاة، والذين ينتهكون حرمات الله تعالى وما حرّم رسوله، ولا يدينون بدين التوحيد، دين الإسلام من طائفة الذين أوتوا الكتاب إلاّ الذين خضعوا لحكم الدولة الإسلامية واحترموا تشريعاتها الموافقة للدين الإسلامي ودفعوا لها الجزية عن قدرة، بما لا يشقّ عليهم.

- وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ **(30) :**

هذه الآية والآيتان بعدها في توضيح الداعي لما جاء في الآية السابقة من الأمر بقتال تلك الطائفة من أهل الكتاب، ولا يجوز تعميم الأمر بقتال جميع طوائف أهل الكتاب، "منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون". إنّما يقاتل المسلمون الذين حرّفوا منهم دينهم فأشركوا بالله تعالى، والذين يصدّون عن سبيل الله – كما سيأتي بيانه – ومعنى الآية: وادّعى جمع من اليهود أنّ عزيرا – وهو نبيّ مرسل – ابن الله، وقالت طائفة من النّصارى المسيح ابن الله، وهو نبيّ مرسل وأمّه مريم بنت عمران عليهم السلام جميعا. جعلوا لله ولدا، وما كان لله صاحبة ولا ولد، سبحانه وتعالى عمّا يصفون، وبقولهم هذا (يُضَٰهِـُٔونَ) أي يشابهون قول المشركين في الشّرك إذ يدّعون أنّ الملائكة بنات الله من سروات الجنّ. فهم في الشّرك سواء (قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ) هذا دعاء عليهم بالموت قتلا لتعذيبهم بسبب اِنصرافهم عن الحقّ إلى الباطل. هذه الطوائف من أهل الكتاب هي التي تُقَاتل لأنّها من طوائف الشّرك، والله لا يحبّ أن يُشْرَكَ به.

- ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ **(31) :**

وهذه في صنف آخر من أصناف الشرك في طوائف من أهل الكتاب. إنّ طائفة من اليهود اتّخذوا (أَحۡبَارَهُمۡ) وهم علماؤهم في الدين وشريعتهم أربابا يقدّسونهم ويطيعونهم طاعة عمياء، ومن النّصارى من اِتّخذ (رُهۡبَٰنَهُمۡ) وهم العُبّادُ المتنسّكون عندهم أربابا يطيعونهم، ويشرون من

عندهم صكوك الغفران، ومنهم من يدّعي أنّ المسيح ابن الله، وما أُمِرَ اليهود والنّصارى إلاّ ليعبدوا الله الواحد الأحد، لا إلاه سواه، ولا معبود سواه، تنزّه الله تعالى عمّا يدّعون له من الشركاء.

- يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ (32) :

هذه الطوائف من الذين أشركوا من أهل الكتاب يبتغون بما يشيعون في النّاس قصدا وعمدا أن يقاوموا اِنتشار الإسلام، وقيام شرع الله، والتّصديق بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم وبالقرآن وحيا من عند الله (بِأَفۡوَٰهِهِمۡ) باعتماد التكذيب، وصدّ النّاس عن الإيمان. ويأبى الله إلاّ أن يظهر دينه، ويُتِمَّ تبليغه، ونشره في ربوع الأرض – وقد تمّ ما أراده الله تعالى وتحقّق، والحمد لله، رغم كُره الكافرين لذلك لأنّ هذا الأمر يكشف زَيْفَهم، وفساد عقيدتهم. هؤلاء هم المعنيون بالأمر بقتالهم، وأمّا طائفة المؤمنين من أهل الكتاب من غير المشركين، ومن غير المضلّلين الذين يصدّون عن سبيل الله فلا يقاتلون، وإنّما عليهم دفع الجزية.

- هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ (33) :

هذه في فضيلة بعثة النبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم. هو سبحانه وتعالى الذي أرسل رسوله محمدا صلّى الله عليه وسلّم (بِٱلۡهُدَىٰ) بالقرآن الذي يحمل كلام الله تعالى وإرشاده ومواعظه وأحكامه، (وَدِينِ ٱلۡحَقِّ) وبشريعة الإسلام، وعقيدة التوحيد، وأفضل العبادات، وأحكام المعاملات، ومحامد الأخلاق، وحسن البشائر، وفضح كفر الكافرين وسوء عاقبة الظالمين.

وإرادة الله تعالى من هذا الإرسال أن (يظهر) هذا الدين على كلّ الديانات على وجه الأرض، والإظهار يعني إعلاءه على كلّ الملل والنّحل، رغم كره المشركين لهذا الدين لأنّه فاضحٌ لكفرهم.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ (34) :

هذه في التحذير من التعامل المالي مع أغلب الأحبار والرهبان، وفي التّحذير من الشحّ بالإنفاق في سبيل الله سبحانه. والمعنى: أيّها المؤمنون، إنّ كثيرا من علماء اليهود، والمعتزلين عن النّاس في دير العبادة عند النّصارى ليجمعون أموالهم من الدّجل، والرشاوي، ومن وجوه غير مشروعة، وإنّهم يجتهدون في إبعاد النّاس عن الإيمان الحقيقي بالله وعن اِتباع هداه وعن الاستقامة على دينه الحقّ، والذين يدّخرون ثرواتهم من المال والذهب والفضة ويبخلون عن

الإنفاق منها فيما أوجبه الله عليهم من وجوه الإنفاق في سبيل الله من مثل الزكاة أو تجهيز الجيش فإنّهم موعودون بعذاب موجع يوم الحساب.

- يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (35) :

وهذه في بيان صنف العذاب الذي سيلقاه مانعو الزكاة، والذين يبخلون بأموالهم ولا ينفقونها في سبيل الله. يحمى على ما كانوا يكنزون من الذهب والفضة في النّار المحرقة، نار جهنّم التي ستأويهم يوم القيامة، فتكوى بها جباههم لتكون علامة لهم على أنّهم الأغنياء البخلاء، وتكوى بها جنوبهم وظهورهم حتى لا يكون لهم جنب أو ظهر يستَلْقُونَ عليه للراحة، فإذا أرادوا نوما أو اِستراحة اِزدادوا ألمًا وعذابا بما نالهم فلا ينعمون براحة، ويقال لهم هذا عذاب اِكتنازكم أموالكم لأنفسكم فتذوّقوا عاقبته.

- إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (36) :

هذه في الأشهر الحرم، وحكم القتال فيها. قضى الله تعالى أن يكون عدد الأشهر في العام اِثني عشر شهرًا فيما كتب ممّا هو كائن في الزمن من يوم خلقه السماوات والأرض، وجعل فيها أربعة أشهر حرم هي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجّة ومحرّم. وهذا من الاستقامة في الدين. ويحرم عليكم اِستباحة هذه الأشهر بظلمكم أنفسكم بالاقتتال، أو غصب الحقوق، أو الاعتداء بالعنف، أو قطع الطريق على المسافرين، وقاوموا الشرك بجميع أشكاله، وقاتلوا المشركين إذا قاتلوكم بجميع طوائفهم، واعلموا أنّ الله نصير المؤمنين المتقّين الذين يطيعون أمره، ولا يعصونه، والذين يخشون عذابه.

- إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (37) :

هذه في حكم النّسيء، وهو تأخير حرمة شهر إلى آخر. كان العرب المشركون في عهد جاهليتهم يعمدون أحيانا إلى هذا الإجراء ليسمحوا لأنفسهم بالاقتتال في أحد الأشهر الحرم كأن يعلن بعضهم بأنّهم يؤخّرون حرمة رجب إلى شهر رمضان مثلا، وهذا من التّلاعب بحرمة الأشهر الحرم، وجاءت هذه الآية بتحريم هذا الذي كان يسمّى عندهم : نَسِيًّا.



وقد عدّ الله تعالى هذا العمل من التّمادي في معصيته وإستحلال ما هو محرّم عليهم تقديرا لمصالحهم، وكانوا يعمدون لهذا التأخير أو الاستبدال (لِّيُوَاطِـُٔواْ) أي ليوافقوا بهذا عدّة الأشهر المحرّمة دون تقدير لتحديدها بعينها دون سواها، وبهذا يحلّلون من أنفسهم ما حرّمه الله عليهم. هذا من سوء أعمالهم، ومن الخطإ في الاجتهاد، والله لا يهدي القوم الكافرين الذين ينتهكون حرماته. اعتبر تعالى النّسيء زيادة في الكفر لما فيه من الزيادة في ارتكاب المعاصي.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ **(38)** إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ**(39)** :

الآيتان في الحضّ على الجهاد، والتحذير من التخلّف عنه. الخطاب في الآية للمؤمنين القادرين على الجهاد إذ ليس على المريض حرج ولا على الأعمى ولا الشيخ المسنّ، وفي هذا تفصيلات تؤخذ من كتب الفقه، إذا دعيتم للخروج للجهاد في سبيل الله، أو لنصرة إخوانكم المحاصرين أو المضطهدين، أو لحماية بلادكم وأنفسكم وأرزاقكم فاخرجوا مسرعين غير متثاقلين، وغير متباطئين تُؤْثِرون ملازمة بيوتكم للاستمتاع بحياتكم الدنيوية وراحتكم، فأُذكروا أنّ نِعَم الدنيا زائلة والاستمتاع بها قليل. إن قعدتم ولم تخرجوا يعاقبكم الله تعالى عقابا أليما بالقتل على أيدي أعدائكم، أو بضياع أرزاقكم، وعندئذ يستغني الله عنكم ويعوّضكم بقوم آخرين يكونون أنصارا لدينه، ولا تضرّون الله ولا دينه بشيء إذا قعدتم وتخلّفتم عن الجهاد، والله على كلّ شيء قدير فيما يعدكم من النّصر على أعدائكم إن أخلصتم له في الدّين، أو فيما يتوعدكم به إن قعدتم عن الجهاد في سبيل الله جلّ وعلا.

- إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ **(40)** :

هذه في هجرة النّبي صلّى الله عليه وسلّم وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه، والمعنى: إن تركتم نصرة الرسول كما فعلتم في غزوة تبوك – فإنّ الله تعالى يتكفّل به، فقد نصره في مواطن كثيرة كانت أشدّ قساوة، وكان وقتئذ في قلّة، وأنقذه الله جلّ وعلا منها وأظهره على أعدائه، وأعزّه من مثل ما حدث معه إذ دفعه الذين كفروا للخروج من مكة مع صاحبه، فلمّا خرجا سترهما الله تعالى منهم، وأوَيَا إلى غار جبل ثور قرب مكة، ولمّا بلغ المقتفون أثرهما في طلبهما لردّهما لمكة للانتقام منهما، ووقفوا عند عتبة الغار أشفق أبو بكر المصاحب للرّسول على نفسه وعلى



الرسول من كشفهما وقد رأى أقدام الأعداء وسمع أصواتهم فطمأنه الرّسول صلّى الله عليه وسلّم على نفسه بأنّ الله تعالى معهما فلن يسلمهما لأعدائهما، وستر الله عليهما، وأنزل الله تعالى على الصاحب سكون القلب وطمأنينته، وأنقذهما ممّا كانا فيه، وجعل (كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) وقد تمثّلت في اِتّفاقهم على قتل النّبي صلّى الله عليه وسلّم، جعلها (ٱلسُّفۡلَىٰ) أي لم يقع هذا القتال، وكانت (وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَا) أي تحقّق وعده بالنّجاة والنّصر لنبيّه وصاحبه، وجعل كلمته (لا إلاه إلاّ الله) هي العُليا، والله عزيز لا يغلب، حكيم في تدبير إظهار دينه، ونصر أنبيائه وجنده، وهزيمة أعداء الدين. (وأنظر خبر الهجرة النبويّة في كتب السيرة النبويّة التي منها كتابنا : رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم).

- ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ **(41) :**

هذه في الحضّ على الجهاد في سبيل الله، أُخرجوا شبابا ومشاة وفقراء (وَثِقَالا) أي كهولا، وركبانا، وأغنياء، وأُبذلوا أموالكم وأنفسكم في سبيل الله نصرة لهذا الدّين. ستنالون بهذا الجهاد الشرف والنصرة، وسيأتيكم من وراء ذلك الخير العميم، وهذا خير لكم من الضعف والمهانة وتسلّط الأعداء عليكم من حين لآخر لإيذائكم لو كنتم تدركون فضيلة الجهاد، وسوء عاقبة القعود والتخلّف عنه.

- لَوۡ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ **(42) :**

هذه الآية إلى غاية الآية 70 في فضح نفاق قوم اِستقبلوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمجاهدين عند عودتهم من غزوة تبوك، وكانوا يطمعون في الغنائم. هؤلاء لو دُعُوا إلى (عَرَضًا قَرِيبًا) غنيمة قريبة، أو إلى سفر (قَاصِدًا) أي سهل وقريب ومعلوم الطريق لاتّبعوك، ولكانوا معك ولكن بعُدت عليهم (ٱلشُّقَّةُ) أي المسافة التي لا تقطع إلاّ بمشقّة وصعوبة فلم يخرجوا معك. وحين يجالسونك سيحلفون بالله لتصدّقهم – وهم كاذبون في قسمِهم – لو وجدنا قدرة من مال أو سلاح وسعَةٍ من زاد وراحلة لخرجنا معكم. يهلكون أنفسهم بالحلف كذبا، وبالنّفاق والله لا يخفى عليه كذبهم ونفاقهم.

- عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ **(43) :**

لقد محا الله لك ذنبك في إذنك لمن أَذِنْت لهم في التخلّف عن القتال، وكان يمكن لك أن تتمهّل قليلا حتى تظهر لك حقيقة أمرهم، فتعرف من كان منهم صادقا في اِعتذاره ومن كان كاذبا.



- لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ (44) :

المؤمنون بالله وباليوم الآخر حقّا وصدقا لا يعتذرون لك عن الخروج معك للجهاد بأموالهم وأنفسهم، والله يعرف صدق إيمان الذين يخشون عذاب ربّهم، والذين يطلبون بطاعاتهم رضوانه.

- إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ (45) :

إنّما يطلب إذنك للقعود، والتخلّف عن الجهاد معك الذين لا يصدقون في إيمانهم بالله وباليوم الآخر، الذين يملأ الشكّ قلوبهم في أنّ الله يعلم سرائرهم، وهم في هذا الشكّ يذهبون ويرجعون بين مصدّق وغير مصدّق.

- وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ (46) :

ولو رغبوا في الخروج لتأهّبوا له بإعداد الزّادّ والسلاح، ولكن كره الله خروجهم لنفاقهم فحبسهم عنه وأثقلهم، وقيل لهم: أُقعدوا مع أولي الضرر والرخص من مثل العميان والصبيان والنساء. قيل إنّ هذا القول قاله الرسول صلّى الله عليه وسلّم لمّا اِستأذنوه للقعود.

- لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ (47) :

هذه في توضيح ما جاء في الآية السابقة: لماذا كره الله اِنبعاثهم، ولماذا ثبّطهم؟ وتوضيح ما جاء قبلها في الريبة التي كانوا عليها. والمعنى: لو خرجوا معكم للجهاد لزادوكم جُبنا وإحباطا (وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ) أي ولَسَعَوْا بينكم بالنّميمة لإرباك صفوفكم ولتفريقكم عن قيادتكم،(يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ) أي يطلبون لكم ما تُفتنون به بتخويفكم من عدوّكم، وفيكم لهم جماعة عيون عليكم يسمعون حديثكم ويبلّغونه إليهم، فهم سمّاعون لكم لفائدتهم. والله لا يفوته من أمرهم شيء، وهو عليم بما تحدّثه به أنفسهم، وبما يخطّطون له، وبما يُضمرون، فخيرٌ لكم أن يثبّطهم الله عن الخروج معكم.

- لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ(48) :

لقد أرادوا أنْ يثبّطوا عزائم أصحابك كيلا يخرجوا معكم من قبل هذه الغزوة غزوة تبوك، (وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ) وقلّبوا آراءهم على كلّ وجه في إبطال أمرك والتخذيل عنك وفي تدبير المكائد من وَرائك حتى (جَآءَ ٱلۡحَقُّ ) كان النّصر والظّفر، وعلا شرع الله وبرز وغلب دينه وهم كارهون لهذا النّصر والظّفر لأنّه جاء على غير ما أرادوا له.



- وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ (49) :

ومن المنافقين من طلب منك الإذن في التخلّف عن الجهاد للإقامة في المدينة متعلّلا بأنّه يخاف على نفسه من رؤية النّساء الروميات الفاتنات فيقع في المحظور. ألا إنّهم في الإثم والمعصية قد وقعوا، وإنّ جهنّم مُحْدِقَةٌ بهم من كلّ جانب.

- إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ (50) :

إن تغنموا غنائم من ظفركم على الأعداء يحسدوكم عليها، وإن تنهزموا يقولوا قد أخذنا حذرنا وحيطتنا وتجنبنا الخطر من قبل أن نقع فيه، و(يَتَوَلَّواْ) ويتراجعوا عن الإيمان في فرح وسرور.

- قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ (51) :

قل لن ينالنا إلاّ ما قضاه الله لنا من قبل، كلّ شيء بقضاء وقدر، والله تعالى هو ناصرنا، وإلى الله جلّ وعلا يُفَوِّض المؤمنون أمورهم. ويردّد المؤمنون هذه الآية كلّما حدث لهم حادث أليم للتّصبّر، ولتفويض الأمر إلى الله تعالى حتى يجعل من بعد العسر يسرا، أو من بعد الكرب فرجا، أو من بعد المصيبة فتحا على ما هو خير.

- قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (52) :

قل هل تنتظرون لنا إلاّ واحدة من اثنتين: الغنيمة بعد النّصر، أو الشهادة في سبيل الله، ونحن نتربّص بكم أن يأتيكم عذاب من عند الله، أو عذاب القتل بأيدينا، أو عذاب الأسر، فانتظروا إنّا معكم منتظرون العواقب.

- قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ (53) :

قل أنفقوا عن طواعية أو مُكْرَهِينَ فلن تقبل نفقاتكم، ولن تؤجروا عنها، إنّكم كنتم قوما خارجين عن الدين بنفاقكم وكراهيتكم له.

- وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ (54) :

هذه في توضيح مظاهر فِسْقهم. والمعنى: ولا يقبل الله تعالى منهم نفقاتهم ولا يُجْزيهم عليها، لأنّهم كفروا بوحدانية الله، ولم يصدّقوا برسوله، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا إليها متثاقلين. كارهين لها، ولا يبذلون مالا لصدقة أو غيرها إلاّ عن كراهية منهم، إذ يعتبرونها مَغْرَمًا.



- فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ (55) :

الخطاب لكلّ مؤمن حتى لا يظنّن أنّ النّعمة هي في جمع المال واِمتلاك الكثير منه، وفي إنجاب الذرية الكثر الأقوياء، فإنّ الأفضلية للإيمان. والمعنى: فلا تعجبك كثرة أموال المنافقين، ولا كثرة أولادهم واِفتتانهم بهم، فقد سبق في علم الله تعالى أنّهم معذّبون بها لأنّهم لم يكونوا عبادا مؤمنين ولم يكونوا عبادا شاكرين في دنياهم، وستخرج أرواحهم وهم مُتَلبّسون بالكفر.

- وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ (56) :

ومن علامات نفاقهم أنهم يقسمون بالله إنّهم مؤمنون أمثالكم ومناصرون لكم، وفي بواطنهم ليسوا منكم ولا معكم، ولكنّهم (يَفۡرَقُونَ ) يخافونكم فينافقونكم تَقِيَةً

- لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ (57) :

لو وجدوا حصنا ومعقلا يلجؤون إليه لتحصّنوا به وغادروا المدينة، واختفوا عنكم، ولو وجدوا فجوات داخل الجبال للتخفّي فيها لسكنوها، ولو أنّهم وجدوا مداخل في الأرض كالجحور لآوَوْا إليها هاربين منكم ومن مناصرتكم،(وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ) يأوون إليها مسرعين في اِضطراب حتى لا تلقوهم.

- وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ(58) وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ (59) :

وهذه في ظاهرة أخرى من أخلاق المنافقين: ظاهرة السخط والجشع.

من المنافقين من يطعن في اِجتهاد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في توزيع الصدقات، ويعيب عليه تصرّفه فيها لما فيه من طمع وجشع ولا يقنع بما أُوتي، إذا أعطي منها سكت، وإن لم يعطَ منها شيئا غضب وحنق. ولكن خيرا لهم لو أنّهم قنعوا بما آتاهم الله من فضله، وبما أعطاهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم من الصدقات وقالوا: يكفينا فضل الله تعالى علينا وقسمة رسوله صلّى الله عليه وسلّم. وإنّا لنسأل الله الكريم أن يزيدنا من فضله فإنّا لفضل الله راغبون (لكان خيرا لهم).

وكذا يتّضح من هذه الآي الكثير من فضائح نفاق المنافقين، لذلك سمّى بعضهم هذه السورة بـ "الفاضحة". وما تزال الآيات الموالية تفضح مظاهر أخرى من نفاقهم.

- إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (60) :

هذه في بيان مصارف الزكاة. وقد علمنا بأنّها خاصة بالزكاة من قوله تعالى (فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ) والصدقات المفروضة هي الزكوات: زكاة المال، وزكاة الأرض، وزكاة الأنعام... والصدقة

متى أطلقت في القرآن فهي صدقة الفرض: الزكاة، وكذلك في قوله صلّى الله عليه وسلّم: "أمرتُ أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردّها على فقرائكم.." وقد حصر تعالى المصارف بقوله تعالى (إِنَّمَا) التي هي أداة حصر، فلا تعطى الزكاة لغير ما بيّنه الله من مصارفها. تصرف الزكاة (لِلْفُقَرَآءِ) وهم ذوو الاحتياج الذين ليس لهم عمل قارّ، وليس لهم كسب يغنيهم من الجوع ومن الحاجة للكساء والغطاء. وهم أشدّ عباد الله حاجة للعون.

وتصرف للمساكين، سمّوا مساكين على جهة الرحمة والاستعطاف، وهم الذين نُكبوا ببليةٍ بعد عافية، من مثل من كان مستور الحال في كسبه وحياته فحدث له حادث أقعده عن العمل والكسب، فصار محتاجا بعد غناه، أو كان يعمل في دكّانه فأحرق دكّانه بما فيه من سلع فصار بعد غناه مفلسا، أو أصيب بمرضٍ عضال فصار محتاجا لمن يعينه على مصاريف علاجه وأدويته وعلى لوازم أسرته، فهذا رجل يستحق العطف والمساعدة. وقد روي عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم تعوّذه من الفقر، نعوذ بالله منه لأنّه من أشدّ البلاء على العبد، وروي عنه صلّى الله عليه وسلّم دعاءه: "اللّهم أحييني مسكينا وتوفّني مسكينا". وبهذا الدعاء يطلب رحمة الله تعالى وعطفه.

وتصرف على (وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا) وهم السعاة والجباة حتى يتعفّفوا عن الأكل من موارد الزكاة بغير وجه الحقّ، فيجب أن يكون للعامل عليها مورد واضح ومحدّد تعيّنه له الدولة، ويكون بهذا على ذمّة عمل جمع الزكوات، وحسن توزيعها على مستحقّيها على مدار السنّة، ويكون الرّاتب الشهري غير مبالغ فيه حتى لا يُحرم المستحقّون للمال الذي فُرِض لهم من نصيب وافر.

وتصرف على (وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ) هم صنف من غير المسلمين يُعطَوْن من مال الزكاة ليتألّفوا على الإسلام، وكانوا لا يسلمون بالقهر والسيف، ولكن يسلمون بالعطاء والإحسان، كما يُفعل حاليا مع الأفارقة ممن لم تبلغهم الدعوة للإسلام، ولم يسمعوا عن هذا الدين بسبب الأمية، وبسبب سكناهم بعيدين عن العمران.

واِختلف العلماء في بقائهم، والمشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأي: اِنقطع هذا الصنف بعزّ الإسلام وظهوره. وقد جاء في تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن ج8 ص 181): "اجتمعت الصحابة رضوان الله أجمعين في خلافة أبي بكر رضي الله عنه على سقوط سهمهم". وقد قطعه عمر بن الخطّاب رضي الله عنه.

وكانوا محقّين في هذا الاجتهاد في عصرهم ذاك، ولكنّنا اليوم مع نشاط حركة التبشير بالنصرانية في البلدان الإفريقية القصية، وفي قارة أمريكا الجنوبية فقد يكون من الأصوب الاستئناف بالعمل بهذا الصنف من المصارف إذا رأى العلماء أن لا يتخلّفوا عن نشاط موازٍ لنشاط أولئك المبشّرين.

وتُصرف الزكاة في عتق رقاب العبيد، وما عاد في عصرنا شراء وبيع للعبيد. ولذا سقط هذا السهم بتحريم الرقّ.

وتصرف للغارمين: وهم الذين ركبهم الدَّيْن، ولم يكن لهم مال للوفاء بدينهم لأسباب طارئة وعائقة للوفاء به، شريطة ألاَّ يكونوا من السفهاء الذين يتداينون وهم يعلمون أنّهم غير قادرين على الوفاء بدينهم، أو كالذين ينفقون الدَّيْن في غير وجه ضروري، كالذي يتداين من أجل إقامة حفل زفاف فاخر على غرار حفلات الموسرين، وهو ضعيف الدّخْل.

وتصرف الزّكاة في سبيل الله، وهو السهم الموجّه لتجهيز الجيش، والمرابطين بالحدود والثغور للمحافظة على أمن البلاد من الغزاة. وهناك اِجتهادات في صرف هذا السهم على طلبة العلم الفقراء لمواصلة دراستهم تقديرا للعلم وأهله: وفي صرفه في بناء المساجد في البلدان غير الإسلامية نشرا للإسلام، وتأطيرًا لطائفة المسلمين المغتربين. ولا يجوز إنفاق هذا السهم في بناء المساجد داخل البلدان الإسلامية أو في تجهيزها، لأنّ هذا الأمر موكول للدولة وللعمل التطوّعي في الصدقة الجارية.

وتصرف لأبناء السبيل : من مثل ما نراه في عصرنا الحالي من طوائف المهاجرين من بلدانهم بسبب الحرب الدائرة في وطنهم، أو بسبب حدوث كارثة طبيعيّة فظيعة أجبرت سكّان المنطقة على الهجرة منها، وأجبرتهم على الإقامة في خيام عارية وفي ظروف حياتيّة قاسية تستدعي العطف والإحسان والمؤازرة.

هذه الزكاة (فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ) تعالى : وتعتبر لهذا السبب ركنا أساسيا من أركان العبادة في الإسلام، وهي عبادة مالية. من أنكرها لم يكن مؤمنا تمام الإيمان، ولم يكن عابدا صادقا وإن كان يصلّي ويصوم ويحجّ.

والله عليم بحالكم، وبمدى اِستجابتكم لأوامره، وحكيم في تدبير الأحكام الصالحة لتدعيم أواصر الأخوة الإيمانية بينكم، ولتدعيم عناصر وحدتكم بتعاونكم ومؤازرتكم لبعضكم: "والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض". وفقه الزكاة باب واسع لا يستوعبه تفسير هذه الآية فارجعوا لكتب الفقه لمعرفة الكثير من تفاصيله.

- **وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (61) :**

ومِن المنافقين مَنْ يؤذي النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالغيبة والنّميمة ويقول فيه (هُوَ أُذُنٌ) هو يسمع كلّ ما يقال له ويصدّقه. ويقصد بهذا وَصفه صلّى الله عليه وسلّم بأنّه من الذين ينطلي عليه الكذب ويسهل خداعه. وجاءهم الردّ من عند الله عزّ وجلّ بأنّه يستمع لما يعود عليكم



بالخير، وهل من سماعٍ أفضل من سماع وحي الله تعالى سبحانه. وعموما فإنّ الصادق الصدوق لا يخطر بباله أنّ مخاطبه يمكن أن يكون كذّابا لأنّه لا يعرف الكذب، وعادة فإنّ الكذّاب لا يستطيع أن يصدّق قول القائل – وإن كان صادقا– لأنّه لا يتصوّر أن يكون المرء صادقا لأنّه غير معتاد على الصدق. والرسول صلّى الله عليه وسلّم يصدّق بالله وبوحيه وبوحدانيته، ويصدّق للمؤمنين ولا يكذّبهم لأنّهم يصدقونه، ولا يكذبون عليه، وهو صلّى الله عليه وسلّم القائل فيما يروى عنه: "لا يكون المؤمن كذّابا". والرّسول صلّى الله عليه وسلّم رحمة للعالمين، ناهيك عن المؤمنين لأنّه يتعهدهم بإرشادهم لما فيه خير لهم في دينهم ودنياهم، ويرفع عنهم العذاب والشقاء.

(وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ) هذه الجملة في تهديد الذين يتكلّمون في الرسول صلّى الله عليه وسلّم بما يعيبه أو بما يؤلمه ويغتابه فإنّ الله تعالى يتوعدهم بالعذاب الموجع لأنّه من عباده الذين اصطفاهم عن العالمين، ومن عاب رسوله بعيب فكأنّه يعيب على الذي اِختاره لرسالته، سبحان الله تعالى عمّا يصفون.

- يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ (62) :

هذه في محاولة المنافقين مخادعة المؤمنين. يقسمون بالله كذبا لتصدّقوا أعذارهم لترضوا عنهم، خوفا من أن لا تخالطوهم، والمفروض أن يصدقوا مع الله ومع رسوله، وأن يعملوا بطاعة الله، والسمع لرسوله ليرضى عنهم ربّهم لو كانوا صادقين في إيمانهم.

- أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ(63) :

الاستفهام هنا للتوبيخ، والمعنى: ألا يعرفون أنّ كلّ من يخالف أمر الله تعالى ويحاربه بالكذب والكفر والمعصية، أو يكذّب بالرسول صلّى الله عليه وسلّم، أو يكذب عليه مخادعة، أو يهزأ به فإنّه سيعاقب بحشره في نار جهنّم ليقيم فيها أبدا لا يخرج منها، وهذا هو الإذلال الكبير المهين.

- يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ (64) :

ويخاف المنافقون أن ينزل الوحي بكشف حقائق ما يخفون في أنفسهم ويظهرها، قل تمادَوْا في هزئكم وفي محاولاتكم الفاشلة في المخادعة، إنّ الله تعالى مظهر ما تخافون أن يُكشف من أمركم.

- وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ (65) :

ولو سألهم سائل: لماذا كنتم تقولون على الرسول صلّى الله عليه وسلّم هو أذن، وكنتم تتحيّلون عليه في ما تعتذرون به حتى لا تخرجوا معه، وكنتم تطعنون في عدالته في توزيع الصدقة أو الغنائم؟ لو سئلوا هذه الأسئلة لقالوا: لم نكن نقصد مكروها أو طعنا، وإنّما كنّا نتفكّه، وكنّا نتلهى بالحديث لنقطع به الطريق، أو لنمضي به الوقت. قل أبطاعة الله تعالى، وبالتّنزيل، وبالتحيّل على الرسول صلّى الله عليه وسلّم، والاستهزاء به كنتم تمرحون وتتفكّهون وتسخرون؟ والاستفهام للاستغراب الذي يفيد التوبيخ، وتشنيع العمل والقول. وهذه من فضائح المنافقين كذلك.

- لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ (66) :

لا تعتذروا عمّا قلتم على أنّه من الخوض واللعب. قد ظهر كفركم باستهزائكم بآيات الله تعالى وبما قلتم في رسوله صلّى الله عليه وسلّم. إن يغفر لمن أنكر منكم بعض ما سمعه منكم تعذّب الطائفة الأخرى التي كانت تقصد إيذاء الرسول صلّى الله عليه وسلّم، والتشكيك في رسالته، وفي الوحي، وهذا من الجرم المفضوح.

- ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ (67) :

المنافقون والمنافقات يساندون بعضهم بعضا في الكيد للمسلمين، أو في الاستهزاء بهم، أو في محاولاتهم لمخادعتهم، ويشتركون في الأمر بالمعاصي، والنهي عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله خاصة في شأن القتال، والإنفاق على الجند أو على الفقراء يمتنعون عن الإنفاق في وجوه البرّ شحًّا ومعصية. تركوا طاعة الله جلّ وعلا والرغبة في رضوانه فتركهم الله تعالى لأنفسهم وحرمهم من الهداية والثواب. إنّ المنافقين هم الخارجون من دين الله، والمارقون عنه إلى المعاصي.

- وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (68) :

هذه في توعد المنافقين والمنافقات بسوء العاقبة، والعياذ بالله تعالى، هم والكافرون سواء إقامتهم ستكون دائمة في نار جهنّم. هي كافيتهم، لا يجدون عنها بديلا، وأبعدهم الله سبحانه من رحمته، ومع هذا فإنّهم يعذّبون عذابا دائما لا يزول. إذا كان هذا الوعيد الشديد لا يردعهم عن نفاقهم، ولا يردع الكافرين عن كفرهم، فقد أعذرهم الله تعالى، وقد اِستحقّوا بعد هذا البلاغ الذي جاءهم في حياتهم قبل مماتهم سوء العاقبة، ورضوها لأنفسهم عن علم.

- كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ **(69) :**

وهذه في الاتّعاظ بما حدث للأمم السالفة للاعتبار. كان الذين من قبل هؤلاء المنافقين والكفّار أقوامًا أشدّ قوّة من هؤلاء وأكثر منهم أموالا وأرزاقًا وأكثر منهم بُنْيَانًا، وتمتّعوا في حياتهم الدنيوية بكلّ الملذّات، وأنتم هؤلاء تنعمون في دنياكم بالملاذ وبحياتكم وبما أنعم الله به عليكم بمثل ما اِستمتع الذين من قبلكم بحياتهم وأرزاقهم وقوتهم المالية والبدنية، وقد تكلّمتم في الدين وفي الرّسول كما تكلّموا مثلكم بالباطل، واستهزأتم بما جاءكم من عند الله من شرع ودعوة للاستقامة كما اِستهزؤوا. أولئك قد ذهبت أعمالهم وأقوالهم معهم، وبطلت في دنياهم لأنّ الله تعالى أظهر دينه ورسله، وبطلت في آخرتهم لأنّهم سيعاقبون عليها، وكذا كانوا قد خسروا دنياهم، وخسروا آخرتهم.

- أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ**(70) :**

وهذه لتذكيرهم بما أصاب أقواما كانوا قبلهم وكانوا أشدّ منهم قوّة وبطشا فهلكوا بعذاب الاستئصال. عذّب قوم نوح بالغرق بالطوفان، وقوم عاد هلكوا بالريح الصرصر العقيم، وهلك قوم ثمود بالصيحة الصاعقة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، وهلك قوم إبراهيم بالقحط فماتوا جوعا، وهلك أصحاب مدين وهم قوم شعيب بعذاب يوم الظلّة: سحاب أسود خانق، وهلك أصحاب المؤتفكات وهم قوم لوط بردمهم تحت أنقاض بيوتهم، وهو الخسف، أتتهم رسلهم بالحقائق القائمة على الحجج والدلائل ومؤيّدين بالمعجزات فكذّبوهم، فلذلك أهلكهم الله بما فعلوا، وما ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بالكفر والتكذيب والاستهزاء والتحدّي والمعاصي.

- وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ **(71)** وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ **(72) :**

الآيتان في مقابلة وصف المنافقين والمنافقات والكفّار بأوصاف المؤمنين والمؤمنات، وفي مقابلة وعيد أولئك بوعد هؤلاء وبشائرهم في عاقبتهم.

المؤمنون والمؤمنات أنصار لبعض وأعوان يجمعهم الإيمان على صدق المحبّة والإخلاص، يأمرون بالمعروف لهدي الناس لصراط الله المستقيم، وينهون عن المنكر وإتيان المعاصي لإرشاد الناس لمنهج الاستقامة على الفضائل من الأخلاق والمعاملات، ويؤدّون صلواتهم في أوقاتها، ويؤدّون زكوات أموالهم، ويعملون بالطاعات طلبا لرضوان الله، ويقتدون بسنّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم، هؤلاء يبشّرهم الله تعالى برحمته، والله عزيز في ملكه كريم، وحكيم في تدبير شؤون عباده المؤمنين رحمةً بهم.

وعد الله المؤمنين والمؤمنات الإقامة في بساتين رائقة جميلة المنظر، كثيرة الخيرات، إقامتهم المريحة ستكون دائمة، ومساكنهم طيّبة في بساتين عدن، و(عَدۡنٍ) هي الإقامة الدائمة السعيدة، ولهم من الله تعالى ما هو أعظم من ذلك وأفضل، وهو رضوانه الذي لا يعقبه غضب، وهذا هو الفوز الكبير الذي لا يماثله أيّ فوز وربح.

فما أسعد المؤمنين والمؤمنات بهذه البشرى، وهذا الوعد الحسن! وما أعظم فضل الله تعالى على عباده المؤمنين وإمائه المؤمنات المتّصفين بتلك الصفات! اللّهم اِجعلنا من هؤلاء المبشّرين برحمتك وبجنانك وبرضوانك، نحن وآباءنا وأمهاتنا وأبناءنا وبناتنا وخلاّننا يا كريم. (آمين).

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ (73) :

الخطاب للنّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم ومن ورائه وليّ أمر البلاد الإسلامية، أبذل جهدك في مقاومة شرّ الكفّار والمنافقين حتى لا يفسدوا على النّاس عقيدتهم السليمة، واِستقامتهم على الدين وعلى العمل الصالح، وللحدّ من شرورهم ومعاصيهم، قاومهم بالحجّة، أو أغلظ عليهم بالتّعزير أو بالقتل لردعهم، ومأواهم في آخرتهم جهنّم، وما أسوأ مصيرهم فيها.

- يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ(74) :

يقسمون بالله أنّ ما بلغك عنهم من السبّ والاستهزاء ما قالوه، ولقد قالوا (كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ) ولكنّهم يكذبون فلقد قالوا في هذا الدّين ما لا يجب ذكره تنزيها للوحي ولكلام الله ولكتابه ولدينه. قد اِرتدّوا عن الإسلام إلى الكفر بما قالوا. ولقد همّ بعضهم بالفتك بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأرادوا قتله ليلة العقبة عند رجوعه من غزوة تبوك، فضرب عمّار بن ياسر وجوه الرواحل لمّا غَشَوْا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فرُدُّوا إذ اِنزعج منها الكائدون فهربوا ، وحفظ الله رسوله ولم ينل المنافقون من الرسول صلّى الله عليه وسلّم شيئا(والحادثة في كتب السيرة). وما كره المنافقون الرّسول صلّى الله عليه وسلّم كلّ هذا الكره إلاّ لأنّ الله تعالى أغناه عنهم، وأغنى المؤمنين كذلك عنهم بفضله

تعالى وسعته عليهم وبإظهارهم على أعدائهم والغُنم منهم. (فَإِن يَتُوبُواْ) وبهذا يفتح الله تعالى لهم باب الرجاء كي لا ييأسوا من رحمة الله جلّ وعلا، فإن يتوبوا ينجوا من عذاب الله ونقمته وهذا خير لهم من المهلكة وعذاب الله، وإن أصرّوا على ما هم عليه ورفضوا التوبة عن النّفاق يعذّبهم الله تعالى بقتلهم على أيدي المسلمين بعد فضحهم في دنياهم، ثمّ يتلقّاهم عذاب الآخرة بعد موتهم يوم الحساب، ولن يجدوا إذا فُضِحُوا من ينقذهم من قتلهم، أو من ينصرهم، أو من يجيرهم على وجه الأرض، سيتبرّأ جميع الخلق منهم.

- **وَمِنۡهُم مَّنۡ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (75) فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ (76) :**

ومن عادة المنافقين خُلف العهد. فمنهم من عاهد الله وأقسم لئن آتاه خيرا ليصدقنّ. وقد جاء في السيرة النبويّة أنّ ثعلبة بن أبي حاطب قد جاء الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وطلب منه أن يدعو له بسعة الرّزق وأقسم لو أنّ الله تعالى رزقه من فضله ليكوننّ من الصالحين ومن المتصدّقين، فدعا له الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بالرّزق، ورُزق غنما ونمت وكثرت حتى ضاقت على ثعلبة المدينة فخرج بها إلى واد من أوديتها، ولمّا جاء موعد زكاة الأنعام بعث الرّسول صلّى الله عليه وسلّم رجلين على الصدقة، وقال لهما: "مُرَا بثعلبة وبفلان – رجل من بني سليم – فخذا صدقاتهما". فأتيا ثعلبة، وأقرآه كتاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: ما هذه إلاّ أخت الجزية، ولم يدفع الصدقة. وهذا مصداق قوله تعالى (فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ)، وأعرضوا عن طاعة الله تعالى، وعن طاعة رسوله صلّى الله عليه وسلّم، وعن العبادة، وعن الإسلام.

- **فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ (77) :**

فصيّر الله تعالى النّفاق ثابتا في قلوبهم إلى يوم القيامة بإخلافهم وعودهم وبسبب كذبهم. وتشير الآية إلى أنّ خلف الوعد والكذب لا يجتمعان إلاّ في المنافق. وحاشا المؤمن المسلم أن يكون كذّابا، ومخلفا لوعده، وخاصّة إذا أقسم على البرّ به.

- **أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلۡغُيُوبِ (78) :**

الاستفهام هنا للتوبيخ، ويدلّ على ضعف الإيمان، فالمؤمن موقن بأنّ الله عليم بالسرائر، وبخفايا الصدور، فلذلك لا يستطيع أن يكون كذّابا، ولا منافقا، ولا ماكرا، والمؤمن موقن بأنّ الله سميع لا يفوته من أمر عباده ما يجهرون به، ولذلك لا يكون المؤمن إلاّ صادقا، وذاكرا، ويعلم المؤمن بأنّ الله جلّ جلاله كثير العلم بعواقب الأمور، ولذلك يخشى المؤمن عاقبة أمره، فلذلك



يدعو ربّه دوما يسأله السلامة وحسن العاقبة، ويزكّي نفسه خوفا من أن تحدّثه بمعصية، والله تعالى عليم بسرّه.

- **ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ (79) :**

الّذين يعيبون ويغمزون ويطعنون في المتطوّعين بالصدقات ويتّهمونهم بالمراء، ويغمزون في الذين يتطوّعون بأبدانهم وأعمالهم وجهدهم لأنّه لم يكن لهم مال، ويسخرون منهم اِحتقارا ومهانة، (سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ) دعاء عليهم ليكونوا مَوْضِع سخرية النّاس وإهاناتهم، ولهم في آخرتهم عذاب موجع.

- **ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ (80) :**

هؤلاء المنافقون لا ينفعهم الدعاء لهم بالمغفرة. سواء عليك – يا محمد – إن طلبت لهم المغفرة، أو لم تدعُ لهم بالمغفرة فلن يغفر الله تعالى لهم، ولو اِستغفرت لهم سبعين مرّة، فلا ترهق نفسك بالدعاء لهم، فقد أبعدهم الله عن رحمته لأنّهم كفروا بالله وعصوه وكفروا برسوله وكذّبوه، والله لا يهدي القوم الخارجين عن دينه وعن طاعته.

- **فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ (81) :**

فرح المتخلّفون عن الجهاد في غزوة تبوك، الذين بَقُوا في المدينة على عكس رسول الله الذي خرج للقتال، ولم يتّبعوه، وكرهوا أن يجاهدوا في سبيل الله بأموالهم شحّا، وبأنفسهم خوفا من أذى الطعان، وقد قالوا لبعض المجاهدين: لا تسارعوا في الخروج للجهاد في هذا الحرّ، (قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ) وهذه الجملة للوعيد بسبب محاولتهم تثبيط عزائم المجاهدين، والمعنى: تهرّبتم من حرّ الشمس فليس لكم مهرب من نار جهنّم الأشدّ حرّا لو كنتم تعلمون.

- **فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ (82) :**

فليفرحوا، ولْيُسَرُّوا بقعودهم قليلا بمَنَعتِهِمْ من حرّ الشمس، وليبكوا كثيرا على عاقبتهم السيّئة بما كانوا يفعلون.

- **فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ (83) :**

فإذا أعادك الله إلى المدينة، وقابلت طائفة من المنافقين، وطلبوا إذنك ليخرجوا معك للجهاد فلا تقبل خروجهم معك مستقبلا، وقل لهم لا تخرجوا، ولا تقاتلوا معي عدوّا، قد تخلّفتم عنّي عند الحاجة الماسّة إليكم فاقعدوا مع النّساء والولدان والعجائز.



- ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ (84) :

وامتنعْ منعًا باتًّا وقاطعا – يا محمد – عن الصلاة على أحد من هؤلاء المنافقين صلاة الجنازة، (وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِ) ولا تحضر جنازته ودفنه، والدعاء له. هؤلاء المنافقون خرجوا عن الدين وماتُوا على الفسق، وكفروا بالله بإتيان معاصيه، وكفروا برسوله بالاستهزاء به وبالكذب عليه، ومحاولة تثبيط عزائم أتباعه، ومحاولة مخادعته، وما أشدّ هذه الآية على المنافقين لو كانوا يعلمون!

- ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ (85) :

هذه كالآية 55، جاءت للتّأكيد على أنّ الخير ليس في الثّراء وكثرة البنين إذا كان المرء سيعذّب بما أوتي في دنياه ثمّ يموت على الكفر. المفخرة في الإيمان وفي طاعة الله تعالى وطاعة رسوله، وفي شكر الله تعالى على نعمه بأداء حقّها بالبذل في وجوه البرّ.

- ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ (86) :

وإذا أنزلت آيات قرآنية للحضّ على صدق الإيمان بالله، وفي الحضّ على الجهاد مع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم تقدّم (أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ) وهم أصحاب الثروة المالية وذوو القدرة على الجهاد من المنافقين بطلب إذنك للقعود مع الخالفين، ولإعفائهم من الخروج معك كالنّساء والعجّز، وذلك لضعف إيمانهم، وللحرص على مصالحهم، ولكراهيتهم للجهاد.

- ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ (87) :

رضي هؤلاء المنافقون بأن يكونوا مع النّساء والأطفال والعجز الذين لم يُفرض عليهم الجهاد، وخُتم على قلوبهم بالنّفاق، فهم لا يدركون سوء ما يفعلون.

- ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ (88) ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ (89) :

الآيتان في تبشير المؤمنين الذين خرجوا مجاهدين مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لغزوة تبوك بأموالهم وأنفسهم طاعة لله ورسوله، ونصرة لدين الله تعالى. يبشّرهم الله جلّ وعلا بالخيرات، ومنها النّصر والغنيمة والعودة للبلد والأهل بالفوز والفخر وسلامة الأرواح، وهم مفلحون، والمفلح هو الذي عمل واجتهد في عمله ففاز بثمرة طيّبة ووافرة من نتاج عمله، كالذي فلح الأرض



وخدمها وغرسها أشجارا مثمرة أو زرع فيها زرعا فأخصبت الأرض، وأخرجت له ثمرا طيّبا أو زرعا وفيرا.

ويوم القيامة يثيبهم الله تعالى بإيوائهم في بساتين طيّبة الإقامة، ورائقة المنظر لا يخرجون منها أبدا، وهذا هو الفوز الكبير بالنّعيم المقيم.

ومن أغراض الآيتين حَفْزُ هِمَمِ المؤمنين للاستجابة لدعوة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم للخروج للجهاد كلّما دعاهم إليه، ومن أغراضهما كذلك إغاضة المنافقين المتخلّفين عن الجهاد لأنّهما جاءتا بعد الوعيد بسوء عاقبتهم.

- **وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (90) :**

هذه مع جملة من الآيات الموالية في فضح الأعراب، وهم سكّان البوادي خارج المدينة. وسكّان الأغوار، وضفاف الأودية، وهم قوم صلاب جلاف في أغلبهم، وقليل منهم من كان مؤمنا ويعمل الصالحات. والآية في الذين كانوا يدّعون الإيمان، وعاهدوا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم على نصرته، ولكنّهم حين مُحِصُوا في غزوة تبوك جاؤوا إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم يعتذرون إليه عن الخروج معه بالكذب، وأذن لهم الرّسول في القعود، ولم يخرجوا معه، فتوعد الله تعالى الكافرين منهم الذين لم يصدقوا في إيمانهم بالله تعالى، ولم يصدقوا في إعتذارهم للرسول صلّى الله عليه وسلّم بأن يصيبهم في مستقبل أيامهم عذاب موجع حين يُفْتضح كفرُهم ونفاقهم.

- **لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (91) وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ (92) :**

وهاتان في إعذار (ٱلضُّعَفَآءِ) وهم الشيوخ المسنّون، والأطفال، والنّساء، وكذلك المرضى، والذين لا يجدون زادا، ولا راحلةً، ولا عتادا ليخرجوا به للجهاد بسبب فقرهم، هؤلاء لا إثم عليهم في قعودهم، وخاصة (إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ) وذلك بتشجيع الخارجين للجهاد على الثّبات وعلى الصبر، وبنصحهم بالسمع والطاعة لله ورسوله. هؤلاء هم من المحسنين القول والإيمان، وهؤلاء لا يُلامُون على عدم خروجهم. والله غفور رحيم بهم، لا يؤاخذهم على القعود. ومثلهم من كانوا راغبين في الخروج مع الرّسول، وطلبوا منه رواحل ليركبوها، فلم يجدوا ما يركبون، فرجعوا لبيوتهم في حزن، وأعينهم تدمع لأنّهم قعدوا مع الخوالف بسبب فقرهم، فهؤلاء من المحسنين كذلك، وهم من أصحاب الأعذار الحقّة.

- إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (93) :

إنّما المؤاخذة على الذين يستأذنون الرسول صلّى الله عليه وسلّم للقعود مع الخوالف، ورغم أنّهم أغنياء فإنّهم لم يساهموا في تجهيز جيش الغزاة. رضوا بأن يقعدوا مع الضعفاء والفقراء، وختم النّفاق على قلوبهم، وهم لا يعلمون ما ينتظرهم من العذاب على نفاقهم وكذبهم وعصيانهم.

- يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (94) :

هذه الآية من الإخبار بالغيب. سيتقدّم إليكم المعتذرون عن الخروج عند رجوعكم إلى المدينة ظافرين بغنائمكم بأعذار أخرى كاذبة. إذا جاؤوكم ثانية معتذرين قل لهم لا فائدة في تقديم إعتذاراتكم (لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ) لن نصدّقكم، قد أعلمنا الله عزّ وجلّ، وأخبرنا بما في أنفسكم، وبما أخفيتم عنّا من شؤونكم وتدبيركم، وسيرى الله تعالى عملكم مستقبلا، وسيرى رسوله مستقبلا مواقفكم من نداءاته، فإن تبتم، وصدقتم فيما تقولون وما تعملون، وأصلحتم شأنكم فستلقونه في صحائف أعمالكم يوم تصيرون إلى الله للحساب بعد البعث، فإن لم تفعلوا وبقيتم على ما أنتم عليه فحين ترجعون إلى الله الذي لا يفوته العلم بظواهر أعمالكم، وبما تخفيه نفوسكم وبواطنكم سيخبركم بما عملتم من آثام وبما دبّرتم من مكر، وبما أخفيتم من الحقائق، وبما كذبتم.

وفي هذه الآية من الترغيب في التوبة وإصلاح العمل، بمثل ما فيها من الوعيد من المداومة على النّفاق والكذب.

- سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ (95) :

وحين ترجعون إلى المدينة من تبوك، فسيقسمون بالله لكم كذبا بأنّهم لو كانوا قادرين على الخروج معكم لخرجوا (لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡ) لكيلا تعاتبوهم أو تلوموهم على قعودهم، فاتركوهم لشأنهم، ولا تخالطوهم، قلوبهم ليست نقيّة ولا طاهرة من الخُبث، والكذب، وسيأوون في آخرتهم في جهنّم بسبب ما كانوا يعملون، وبما كانوا يخادعون به من الكذب، والحَلِف بالله تعالى كذبا للمخادعة.

- يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ (96)

الآية في بيان قصد المنافقين من الأعراب بالحلف بالله تعالى كذبا. قصدُهم أن ينالوا رضى المسلمين عنهم حتى لا يلوموهم أو يقاطعوهم. والله سبحانه يحذّر المسلمين من أن يميلوا إليهم

ومن أن يخالطوهم وذلك ببيان أنّ الله تعالى لا يرضى عن القوم الخارجين عن دينه وعن طاعته، وعن طاعة رسوله، وعن الذين يقسمون باسمه الأعظم كذبا.

- ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ **(97)** :

سكّان البوادي والصحاري ومغاور الجبال وضفاف الأودية البعيدون عن الحياة الاجتماعية المكثّفة كالتي في المدن أكثر جحودا بتوحيد الله تعالى، وأكثر نفاقا من سكّان الحضر وذلك لأنّ تعايشهم في صراع مع الوحوش الضارية والسوامّ، إضافة لعيشهم في ظروف مناخية قاسية شتاءً أو صيفا جعلتهم شديدي المراس، وأشدّ صلابة وقسوة وعنادا من سكّان المدن الحضرية، وهم أبعد النّاس عن معرفة شرع الله تعالى وأحكامه والانضباط لها، أو الانضباط لدعوات رسوله، والله عليم بطباعهم وصفاتهم وحكيم في تمييز طيّبهم عن خبيثهم.

- ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ **(98)** :

من هؤلاء الأعراب من يعتبر ما يُطلب منه من نفقة في سبيل الله غرامة، ويعتبر ما ينفقه خسارة لماله، وينتظر فيكم فرصة تقعون فيها في مصيبة ليسرّ بها ويشمت بسبب ما يتملّكه من الحسد والبغض (عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ) هو دعاء عليهم بالشرّ حتى يصيبهم الضرّ والمكروه، ولا يصيب المسلمين المجاهدين في سبيل الله، والله سميع لما يقولون لبعض، وعليم بما في أنفسهم، وبما يُضمرون.

- ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ **(99)** :

ومن الأعراب مَنْ جُبِل على فعل الخيرات وعلى المثل العليا من مثل الوفاء والكرم والصدق والإيثار، ومنهم من يصدق في إيمانه بالله تعالى واحدًا أحَدًا، ويصدق في طاعته وخشيته، ويوقن بيوم الحساب، وينفق في سبيل الله للتقرّب إلى الله تعالى زلفى، ويرجو بنفقته أن يدعو له الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالخير والمغفرة والبركة. مثل هذا الأعرابي يبشّره ربّه بقبول نفقته وتقريبه، ويبشرّه بإدخاله في رحمته. والله تعالى غفور رحيم بعباده المؤمنين الصادقين والمنفقين الذين يرجون من ربّهم مغفرته ورحمته والقربى.

وفي هذه الآية ترغيب للأعراب لأن يكونوا على ما ذكر من هذه الصفات ليغفر لهم ويرحمهم.



- **وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (100) :**

هذه في أفضلية أوائل المسلمين والمهاجرين والأنصار. (وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ) هم الذين سبقوا النّاس إلى الإيمان بوحدانية الله تعالى، ونبذوا الشرك، وصدّقوا برسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم، وبنبوّته وبالوحي الذي يأتيه، وسبقوا النّاس لطاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلّى الله عليه وسلّم وحمايته من أذى المشركين، وذلك في أوّل عهد دعوته. وأمّا (المهاجرون) فهم المؤمنون المسلمون الذين خرجوا من مكّة إلى المدينة المنوّرة حفاظا على أمنهم وأمانهم في ممارسة شعائر دينهم بعيدا عن أذى المشركين. وأمّا (الأنصار) فهو اِسم أطلقه القرآن على سكّان المدينة المنوّرة الذين بايعوا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم على نصرته في بيعة العقبة الأولى، والعقبة الثانية، وفي بيعة الرّضوان بالحديبية، وهم الذين آووا المهاجرين وآزروهم. وأمّا (وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ) هم جميع المؤمنين المسلمين الذين سلكوا سلوك هؤلاء في صدق الإيمان، وفي الهجرة بدينهم إذا تعرّضوا للاِفْتتان في دينهم في بلاد إقامتهم كالذي حدث في عهدنا في (بُورْما)، أو آزروا المضطهدين في دينهم وأعانوهم على تجاوز محنتهم. هؤلاء يبشّرهم الله تعالى برضوانه عن طاعاتهم، وعن أعمالهم، ومن رضي الله عنه أعطاه من الخير والنّعيم ومن التكريم ما يسّره حتى لم يُعد يطلب مزيدا من الخير.

ويبشّرهم جلّ وعلا بإيوائهم بساتين مرفّهة، أُعدّت لهم خاصّة ليقيموا فيها إقامة أبدية، وهذا هو الفوز العظيم بحسن العاقبة في الآخرة.

- **وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ (101) :**

الآية في الحذر من المنافقين من الأعراب الذين (مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ) طُبعوا عليه، واعتادوا عليه، ولا يقدرون على تركه، وفي الحذر من طائفة من أهل المدينة أمثالهم في النّفاق وفي الاعتياد عليه. لم تكشفهم بعد، ولكنّ الله يعلمهم لأنّه تعالى عليم بما في بواطنهم وبما جُبِلت عليه نفوسهم وطباعهم. هؤلاء يتوعدهم الله عزّ وجلّ بعذابين: الأول في دنياهم بإصابتهم بالفضائح لإذلالهم، والآخر عند موتهم، ثمّ إذا قاموا للحساب في آخرتهم حُكِمَ عليهم بالعذاب الكبير.

- **وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (102) :**

هذه في الذين تخلّفوا عن الجهاد في غزوة تبوك، وكان هذا عملا سيّئا منهم، لكن لم يكونوا من المنافقين الذين مردوا على النّفاق، ولكنّهم كانوا خاطئين، وكانت لهم أعمال صالحة سابقة،

وقد تابوا عن ذاك التّخلّف، وهؤلاء مُرْجَوْن لأمر الله تعالى، فعسى أن يتوب الله تعالى عليهم، فالله جلّ وعلا غفور رحيم بعباده التّائبين.

- خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103) :

اختلف المفسّرون في هذه الصدقة المأمور بها، أهي صدقة الفرض= الزكاة، أم هي صدقة مخصوصة بمن ورد ذكرهم في الآية السابقة: الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيّئا، فتكون صدقة كفّارة للتكفير عن ذنبهم. وعموما فأيًّا كان المقصود بهذه الصدقة : صدقة الفرض، أو صدقة الكفّارة، فقد أُمِرَ الرسول صلّى الله عليه وسلّم أن يأخذها منهم لتطهيرهم من ذنوبهم ولتكفّر عنهم سيّئاتهم، وهي الصدقة تزكية لمن يخرجها، إذ ترفعه عن خسيس منازل أهل النّفاق، وتنمّي حسناتهم. (وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ) أي أُدعُ لهم بالمغفرة وقبول العمل الصالح الحسن، فإنّ دعاء الرّسول صلّى الله عليه وسلّم لهم يثبّتهم على أعمال البرّ، وتطمئن قلوبهم، وتريح أنفسهم، والله سميع للأدعية، وعليم بما يفعله عباده، وبما يصلح لهم لكسب الأجر والثواب، ويجلب لهم المغفرة والرحمة.

- أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ(104) :

هذه في حضّ المتخلّفين عن القتال للإسراع بالتوبة. ألا يعرفون أنّ الله جلّ وعلا يقبل توبة التّائبين من عباده، ويقبل منهم صدقاتهم للكفّارة عن سيّئاتهم ليسرعوا للإنابة إلى الله تعالى وللاستغفار، وللتكفير عن سيّئاتهم، فإنّ الله تعالى كثير التوبة عن عباده الراجعين إليه بالاستغفار، وكثير الرّحمة بهم.

وفي ما جاء في هذه الآية من الربط بين التوبة والصدقات هو ما يجعلنا نذهب إلى أنّ الصدقة التي أُمر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بأخذها في الآية السابقة هي صدقة الكفّارة، وما يزيدنا تأكّدا من هذا التوجّه هو أنّ الآية السابقة لم ترِد عقِب آية مصارف صدقة الفرض، وإنّما جاءت بين آيتين تخصّان توبة المتخلّفين عن غزوة تبوك، ولم يكونوا من المنافقين.

- وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (105) :

هذه الآية في ترغيب المؤمنين في الأعمال الصالحة بعد قبول التّوبة لتدارك ما فاتهم من الأجر والثواب. والمعنى: اِجتهدوا في الطّاعاتِ وأخلصوا فيها، وسيرى الله تعالى ما تعملون من طاعاتكم، وسيرى مدى اِنضباطكم لإرشاده ولأوامره ووصاياه، وسيعرف المؤمنون إخلاصكم في



الإيمان وفي الطاعات، وسترجعون يوم القيامة إلى الذي لا يفوته شيء من أمر خلقه ممّا يخفون، ويستترون به، وما يظهرون ويعلنون، ويخبركم يومئذ بكلّ ما فعلتم من خير أو شرّ.

- **وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106) :**

ومن عباد الله من هم مؤخّرون، وموقوف أمرهم حتّى يأتي أمر ربّهم، إمّا يعذّبهم لنفاقهم وكفرهم، وسوء أعمالهم، أو يتوب على من تاب وأحسن عمله، والله عليم بأعمال عباده، وحكيم في قضائه، وتصريف شؤون خلقه.

- **وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (107) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ (108) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (109) لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110) :**

هذه الآيات في عمل من أعمال المنافقين من تدبيرهم السيّئ ومكرهم للاندساس في أوساط المصلّين لإفساد عقيدتهم وعبادتهم. لقد بنى بعضهم مسجدا حول قباء قُبيل ذهاب الرّسول صلّى الله عليه وسلّم إلى تبوك للأغراض التي ستذكرها هذه الآي، وفي المقابل تبيّن فضل المسجد النّبويّ أو مسجد قباء، وقد روي أنّ أبا عامر الرّاهب الذي سمّاه الرّسول صلّى الله عليه وسلّم الفاسق قد تنصّر في الجاهليّة، وترهّب، وطلب العلم، وعلم ممّا تعلّمه من التّوراة والإنجيل أنّ نبيّا مبشّرا به في هذه الكتب، فلمّا بُعث الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بالرّسالة أعلن معاداته للنّبيّ لأنّ أمانيه قد ضاعت عنه، وشارك مع المشركين في غزوة حنين، ولمّا اِنهزمت هوازن خرج إلى الشّام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدّوا بما اِستطعتم من قوة وسلاح، واِبنوا لي مسجدا فإنّي ذاهب إلى قيصر الرّوم، وسآتي من عنده بجُنْدٍ لأحارب بهم محمّدا وأصحابه، وأُخرجهم من المدينة فَبَنَوْا هذا المسجد ليكون مقرّا لأبي عامر إذا دخل المدينة، وكانوا اِثني عشر رجلا من المنافقين، ولمّا أتمّوا بناءه أَتَوْا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو يتجهّزُ إلى تبوك فقالوا له: يا رسول الله قد بنينا مسجدا لذي العلّة، والليلة المطيرة، ونحبّ أن تصلّي لنا فيه، وتدعو بالبركة لتباركه، وقد أرادوا أن يُكسبُوه شرعية الاجتماع فيه، مع القاصدين إليه للصلاة، وكان هذا المكان خارج المدينة قليلا، وبعيدا عن الأعين. (ما أعظم دهاءهم! وما أشدّ مكرهم) فاعتذر النّبي صلّى الله عليه وسلّم قائلا: "إنّي على سفر، فلو قدمنا لأتيناكم وصلّينا لكم فيه". ولمّا رجع من تبوك

جاؤوه لنفس الغرض، وهمّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بالاستجابة لهم فنزل عليه الوحي بخبرهم، فدعا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أربعة من أصحابه وأمرهم بهدم المسجد وإحراقه، والله تعالى هو الذي سمّاه "مسجدا ضرارا". (أنظر أسباب النزول للقاضي المصري، وتفسير القرطبي ج8 ص 253 وما بعدها، وتفسير محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، وكتب السيرة).

والمعنى: المنافقون الذين بنوا مسجدا ضرارا قرب مسجد قباء ليدبّروا فيه الكيد للمؤمنين قصد الإضرار بهم، وتفريق جموعهم، وزرع الشكوك والفتنة فيهم، وهذا هو الكفر بعينه، وبَنَوه ترقّبا، وانتظارا لقدوم أبي عامر الرّاهب الذي حارب المسلمين بجيش من الرّوم صدّا عن سبيل الله تعالى، ومحاربة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولأتباعه. ومن غريب أمرهم أنّهم يحلفون بالله تعالى بأنّ قصدهم من بناء المسجد فعل الخير للتّسهيل على المؤمنين المقيمين خارج المدينة الصلاة فيه في جماعة، وكانوا كاذبين في حلفهم، وفيما يقولون عن قصدهم، والله تعالى يشهد إنّهم لكاذبون، لأنّه تعالى مطّلع على نواياهم، وقد سمع منهم ما دبّروه، وعليم بما يفعلون.

(108) لا تصلّ فيه –يا محمد– أبدا. وقد أرسل الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أربعة من أصحابه لهدمه، فأحرقوه، وبهذا أبطل تدبيرهم، وكشفت نواياهم، وكشف نفاق من بناه الإثني عشر.

(لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ) هو مسجد قباء الذي صلّى فيه صلّى الله عليه وسلّم أوّل صلواته في جماعة حين قدم المدينة. وربّما يكون المسجد النّبويّ لأنّه المسجد الذي اِستقرّ فيه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأقام فيه صلاة الجمعة. وقد أسّس هذا وذاك على التّقوى من أوّل يوم حفر أسسه وإقام عرصاته، هذا المسجد هو الأحقّ لأن تقوم فيه للصلاة وللدعوة ولموعظة المؤمنين ولجمع المصلّين، فيه رجال مؤمنون يحبّون التطهّر من كلّ جنس من الخبث البدني أو الخبث النفسي الباطني للقيام بين يدي الله تعالى للصلاة أو لمناجاته بالدعاء في طهر، (المطهّرون) الذين يحبّهم الله تعالى وهم الموحّدون الذين لا يشركون بالله أحدا، طهّروا أنفسهم وقلوبهم من رجس الشرك والإلحاد والنّفاق والمكر السيّئ بالمؤمنين وبالنّاس.

(109) (أَفَمَنۡ أَسَّسَ ) الاستفهام في الآية يفيد عدم التّساوي. لا يتساوى الذي أُسِّس بنيانه على طاعة الله تعالى وخشيته، وطلبا لرضوانه بصدق، والذي أُسِّس على حافة بئر أو واد وعلى أرض غير مستقرّة، وتربة جارفة وزاحفة، وقائمًا على دعائم آيلة للسقوط، تسقط بالقائمين فيه في نار جهنّم. والله تعالى لا يهدي القوم الظالمين أنفسَهم بالكفر والنّفاق.

(110) ما يزال البنيان الذي بنوه ممّا تحمله قلوبهم من شكوك في صدق الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وصدق دعوته قائما وحاضرا في أذهانهم لا يزول إلاّ إذا تمزّقت قلوبهم قطعا، ولا يُشفيها إلاّ الموت والهلاك، والله عليم بما يصنعون وبما يرغبون، وحكيم في تدمير تدبيرهم وفي فضحهم.

- إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ **(111)** :

هذه في فضيلة الجهاد، وفيما أعدّ الله تعالى من الخير للمجاهدين. إنّ الله تعالى قَبِل عرض المؤمنين لأنفسهم ولأموالهم بَيْعًا في سبيل الله مقابل إيوائهم بالجنّة. يقاتلون في سبيل الله فيقتلون أعداء الله تعالى وأعداء الدين، ويُقتلون دفاعا عن دين الله، وطاعة لأمره وأمر رسوله. وعد الله تعالى المجاهدين في سبيله طاعةً له ونصرة لدينه في التوراة وفي الإنجيل وفي القرآن بأن تكون لهم الجنّة في الآخرة وعدا صادقا ثابتا. ومن يكن أوْفَي بعهده من الله تعالى؟ لا أحد. فافرحوا وسُرّوا ببيعكم وبربحكم الوفير مقابله: وهذا هو الربح العظيم والفوز الكبير.

- ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ **(112)** :

هذه في الصفات التي يحبّها الله تعالى في المؤمنين. (ٱلتَّٰٓئِبُونَ) هم الذين أقلعوا عن الشّرك حين بلغتهم دعوة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى الإسلام. (ٱلۡعَٰبِدُونَ) هم الذين عبدوا الله تعالى في خشوع وتذلّل خوفا وطمعا. (ٱلۡحَٰمِدُونَ) المداومون على شكر الله تعالى على نعمه في السرّاء والضرّاء. (ٱلسَّٰٓئِحُونَ) هم الغزاة في سبيل الله عزّ وجلّ، وهم المغادرون لأوطانهم للحجّ والعمرة، وهم الذين يصلّون في أكثر من مسجد. (ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ) المداومون على الصلاة المفروضة وعلى النّوافل والرّغائب طرفي النّهار وزُلَفا من الليل. (ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ) هم الذين يرشدون النّاس لأعمال البرّ، وفعل الخيرات، والذين ينصحون العصاة بترك معاصيهم، والاهتداء للبعد عن السيّئات. (وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ) هم الذين لا ينتهكون حرمات الله، ولا يأتون ما نهى الله عنه. وبشّر – يا محمد – المؤمنين الصادقين في إيمانهم، والمتّصفين بهذه الصفات بأنّ لهم من الله تعالى فضلا كبيرا.

- مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ **(113)** :

هذه لبيان غضب الله تعالى على المشركين، والمعنى: لا ينفع المشركين اِستغفار النّبيّ لهم، ولا اِستغفار المؤمنين لأنّهم لا يؤمنون بالله تعالى، وإنّما يؤمنون بأرباب أخرى لا تخلق ولا تسمع ولا تبصر ولا تنفع بشيء، ولأنّ الله غاضب عليهم. فلا فائدة من اِستغفاركم لهم، ولو كانوا من ذوي قرابتكم، وقد علمتم، ووضح لكم أنّهم من أهل النّار يوم يرجعون إلى الله الحقّ سبحانه.



- وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ **(114) :**

وأمّا إستغفار إبراهيم لأبيه فقد كان تنفيذًا لوعدٍ وعده به حتى لا يُخلف وعده، ولولا هذا الوعد ما إستغفر له، ولما تبيّن له أنّ أباه مصرّ على شركه، وعلى عداوته لله تعالى بمواصلته في صناعة الأوثان وبيعها للنّاس تبرّأ إبراهيم عليه السلام من عمله ومن إصراره على عداوته لدين الله تعالى فتركه وهجره وترك الاستغفار له. إنّ إبراهيم عليه السلام كثير التأوّه في دعائه، وفي مناجاته لربّه، وكان لا يقابل السيّئة بالسيّئة، وإنّما يقابلها بالعفو.

- وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ **(115) :**

تشعرنا الآية بأنّ الإخبار عن فضائح المنافقين وسوء عاقبتهم وعاقبة المشركين قد خلُص للإخبار عمّا يجب على المهتدين اِتّقاؤه، والمعنى: إنّ الله تعالى لا يدع الذين هداهم ليزيغوا عن دينه دون أن يبيّن لهم ما يجب عليهم اِتّقاؤه، والحذر منه، واِجتنابه. إنّ الله سبحانه عليم بشأن عباده، فلذلك يرسل إليهم من يرشدهم لدينه الحقّ، ويترك بين أيديهم كتابه الذي فيه الهدى.

- إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ**(116) :**

هذه في اِفتتاح العنصر الموالي من السورة، الخاص بإرشاد المهتدين لما يجب عليهم الحذر منه، وقد بُدِئت بالتّذكير بوحدانية الله في ملكوت كلّ ما في السماوات والأرض، وليس لأحد غيره ملكية شيء في هذا الملكوت، وليس له شريك فيه، وفيها تذكير بوحدانيته في الخلق، فإنّه سبحانه يحيي الخلق ثمّ يميته، وما من أحد غيره سبحانه يحيي خلقا ثمّ يُميته بقدرته، ويكون هذا الخلق تحت سيطرته ومخلوقًا بمشيئته، وتذكّر الآية بأنّه هو وحده المُعْتَمدُ والنّصير، وليس لأحد غيره قدرة على نصرة مخلوق من مكروه يصيبه أو إذا أصابته مصيبة الموت له قدرة على إعادة الحياة له، وليس لأحد قدرة على نصرة أحد في بأسائه إلاّ هو سبحانه.

وهذه الآية مدخل لتجنّب الخوف من الموت، فإنّ الموت بالأجل، وللتّوجّه إلى الله تعالى لطلب النّصرة دون سواه، ولاتّخاذ الله تعالى وليّا إذا دُعِي المؤمن للجهاد.

- لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ **(117) :**

قد رغب جماعة من أصحاب الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من المهاجرين والأنصار أن يتأجّل الخروج إلى تبوك إلى موعد آخر يذهب فيه شدّة الحرّ والقيظ، وتتيسّر فيه أحوالهم المادية



ليجدوا ما ينفقون على تجهيزهم للخروج لأنّهم في الزمن الذي عيّنه الرّسول صلّى الله عليه وسلّم لخروجهم كانوا في ضائقة مادية وشدّة، وربّما مالت نفوسهم إلى التخلّف عن الخروج، ولكنّهم لم يفعلوا، وخرجوا مع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم للجهاد وتوكّلوا على الله تعالى، فنزلت هذه الآية تبشّرهم بعدم مؤاخذتهم على ما حدّثته به نفوسهم، وقد أُرْفِقَ معهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في التّبشير بالتوبة، وما أذنب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وما حدّثته نفسه بشيء من التخلّف عن الخروج أو تأجيله، وإنّما جاء ذكره معهم لشرف الصحبة. وتوبة الله تعالى على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم تعني رضوانه تعالى عليه، وتوبته تعالى على المهاجرين والأنصار الذين اِتّبعوه في ساعة الشدّة والضنك وقلّة المال والجهاز والتجهيز والطعام، وساعة الحرّ الشديد في صحراء جافّة تعني رضوانه تعالى عليهم وعدم مؤاخذتهم على شيء ممّا حدثّته به نفوسهم. ﴿مِن بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي أوشكت نفوس بعضهم أن تميل إلى التخلّف عن الخروج، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ للتأكيد على المغفرة الربانية ورضوانه تعالى. إنّ الله تعالى رفيق بعباده المؤمنين، وبهؤلاء المهاجرين والأنصار وبالذين خرجوا معه من غيرهم كذلك فيسّر لهم بلوغ تبوك رغم الظروف القاسية والعسرة، ونصرهم، ولم يردّهم خائبين، ورحيم بهم في آخرتهم وذلك بتكريمهم.

- وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ **(118) :**

كان من بين المتخلّفين عن الخروج في غزوة تبوك ثلاثة من الصحابة هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن ربيعة المعروف بأبي لبابة الأنصاري المتوفّى بمدينة قابس ببلادنا، والذي كان قد جاءهم في بعثة الدعوة للإسلام، هؤلاء الثلاثة بعد خروج قافلة المجاهدين شعروا بالنّدم الشديد لتخلّفهم حتى ﴿ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ أي شعروا بالغمّ إلى حدّ الضيق بأنفسهم، وعندئذ علموا أن لا ملجأ لهم من الضيق والغمّ إلاّ باللجوء إلى الله تعالى ليرفع عنهم الكابوس الذي هم عليه، وتاب الله تعالى عليهم لما علم بما في أنفسهم قبل أن يعلنوا توبتهم، وذلك ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أي ليحافظوا على صدق لجوئهم إلى الله الغفور، وليداوموا على الاستغفار. إن الله هو الذي يقبل التوبة عن عباده، وهو كثير المغفرة لعباده التّائبين، وهو الرّحيم بهم في آخرتهم، فلا يؤاخذهم بما اِستغفروا الله تعالى منه.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ **(119) :**

هذه في موعظة المؤمنين كافّة لما ينجيهم من عذاب الله تعالى، ولما يضمن لهم الفوز العظيم في آخرتهم. الأمر هيّن لا يكلّف المؤمن إلاّ عنصرين اثنين: تقوى الله تعالى، واِلتزام الصدق. فأمّا تقوى الله تعالى فتقوم على عنصرين فحسب: اِمتثال، واِجتناب، الامتثال لطاعته

سبحانه، واجتناب نواهيه والمحرّمات. وتقوى الله تعالى تعني أمرين اِثنين: الطمع في رحمته ورضوانه، والخشية من عذابه وعقابه ومن معصيته. وأمّا الصدق فيعني الإخلاص في القول والعمل، ويكون الصدق مع ثلاث، يكون الصدق مع الله تعالى بتزكية النّفس من الشّرك، وبالإخلاص في العبادات والطاعات وفي الدعاء خوفا وطمعا، وبالثبات على الإيمان. ويكون الصدق مع النّاس، وذلك بحسن التعامل معهم خُلقا ومعاملة، ويحفظ الأمانات في المهام والأعمال، مع الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. ويكون الصدق مع الذات بتنقية السريرة والمحافظة على سلامة القلب وصفائه، وبأن لا يكذب، فإنّ المؤمن لا يكون كذّابا.

- مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (120) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (121) :

الآيتان في عتاب المخلّفين عن غزوة تبوك من الأنصار ومن الأعراب ممن لم يكونوا من المنافقين، ولكنّهم كرهوا الخروج بسبب شدّة الحرّ، وبُعد المسافة وصعوبتها، وبسبب الضائقة المادية، وفي غضون العتاب ترغيبٌ في الخروج للجهاد أيًّا كانت الصعوبات، لأنّ الأجر على تحمّل الشدائد كبير، وهو من مظاهر صدق الإيمان وحسنه. والمعنى: ما كان ينبغي لأهل المدينة القادرين على الجهاد بأنفسهم وبشيء من أموالهم، ومَنْ جاورهم من الأعراب من قبائل جُهينة، ومُزْيِنة، وغِفار، وأشجع أن يتخلّفوا عن الاستجابة لدعوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للنّفير إلى تبوك، وأن يبخلوا بأنفسهم عن نفسه، فيتركوه مع قلّة قليلة من أصحابه الصادقين، ذلك بأنّهم لا يصبهم عطش في الطريق بسبب الحرّ وقلّة الماء (وَلَا نَصَبٌ) أو يصيبهم تعب شديد من طول السفر والمسافة، (وَلَا مَخْمَصَةٌ) ولا مجاعة من قلّة المؤونة وطول المدّة في سبيل الله تعالى إلاّ كُتب لهم بها أعمال صالحة، وإنّهم لا يدخلون قرية أو مكانا ينزعج الكفّار بدخولهم إليها، ويغضبون، ويغتاظون، ويصيبهم الغمّ إلاّ كتب لهم بدخولهم ذاك عمل صالح، وكذلك إذا أخذوا منهم غنيمة، أو قتلوا بعضا من أشرافهم، أو أسروا منهم بعضهم. والله تعالى يثيب المحسنين على إحسانهم ويُؤْجرهم خيرا.

ويجازي الله تعالى الذين ينفقون على الجهاد والمجاهدين نفقة صغيرة، أو كبيرة، وكذلك الذين يخرجون إليه يتحمّلون من أجل الزّحف مشقّة الطريق ومخاطره، ولا يضيّع لهم من أجرهم شيئا، بل يجازيهم بأجر أحسن ممّا عملوا ثوابا من عند الله ، وكرما.

- ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ **(122)** :

ويعتبر العلماء هذه الآية أصلا في وجوب طلب العلم. والمُستفاد منها أنّ الجهاد فرض كفاية، وليس فرض عين، فلابدّ أن يظلّ في المدينة نَفَرٌ من الأعيان لرعاية العيال والمتخلّفين من أصحاب الأعذار، ولإقام الصّلوات والسّهر على مصالح المدينة. والمعنى: ليس على المؤمنين أن ينفروا جميعا للخروج للجهاد، فهلا مكث مع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم جماعة ليسمعوا منه ما ينزل عليه من القرآن ومن الأحكام ليؤدّوا دورهم في تبليغها لمن خرج للنّفير إذا رجعوا للمدينة ليعظوهم، وليحذّروهم من إتيان المعاصي رجاء الحذر من جهل أحكام دينهم، وما نزل من التّنزيل. فهذه الآية ترفع من مكانة القرّاء والعلماء بشرع الله تعالى.

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ **(123)** :

الملاحظ أنّ الخطاب في الآيات السابقة كانت موجّهة للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليحرّض المؤمنين على القتال، وأمّا في هذه الآية فقد وُجّه الخطاب للمؤمنين عموما، وخُتمت بأنّ الله مع المتّقين فكأنّ فيها أمرًا لهم بقتال الكفّار بعد وفاة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وليس في الآية دعوة لنصرة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم أو لطاعته إذا دعاهم للنّفير، كان الخطاب عامّا بما يشعر المؤمنين بأنّهم مكلّفون بعد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بتبليغ دعوته بداية بالأقرب منهم في المدن، وليس في الآية إشعار بقتال الأعراب والمنافقين بما يفيد بأنّ المقصود قتال الكفّار من سكّان الشام والرّوم.

والمعنى: أيّها المؤمنون قاتلوا الكفّار القريبين من المدينة، الأقرب فالأقرب إذا واجهوا دعوتكم للإسلام بالتّكذيب والتّكفير، ولْتظهروا لهم شدّتكم عليهم وخشونةً لينْصاعُوا إليكم سريعا بلا قتال مُمْتَدٍّ، واِعلموا أنّ الله مع المتقّين بتأييده ونَصْرِهِ وتوفيقه.

- ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ **(124)** ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ **(125)** :

الآيتان في موقف المنافقين ممّا ينزل من القرآن. والمعنى: وإذا ما أنزلت سورة من القرآن على النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ من المنافقين من يقول لبعض اِستهزاءً : مَنْ منكم زادته هذه السورة إيمانا وتصديقا. إنّ ما ينزل من السور القرآنية يزيد الّذين آمنوا إيمانا. وهم



يسرّون بكلّ ما يأتيهم لما فيها من بشائر لهم. وأمّا المنافقون فزادتهم نفاقا وكفرا على ما هم عليه، ويموتون على الكفر.

- أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126) وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (127) :

أَوَلاَ يَرى هؤلاء المنافقون أنّهم يُمتحنون بالبلايا والشدائد في كلّ عام مرّة أو مرّتين، أفلا يتوبون من نفاقهم؟ أوَلاَ يعتبرون؟ ألا يتّعظون؟ وإذا نزلت فيهم سورة تفضح نفاقهم، وتكشف ما يضمرون في قرار أنفسهم، نظر بعضهم إلى بعض نِظْرَةَ تَفَحُّصٍ ليستشعروا هل يراهم أحد حين يتسلّلون من المسجد حتى لا يسمعوا ما نزل فيهم، فإذا اِطمأنّوا أن لا أحد يتابعهم تسلّلوا من المسجد خارجين منصرفين. (صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم) دعاء عليهم حتى لا تهتدي قلوبهم للإيمان ليموتوا على الكفر لأنّهم قوم لا يدركون سوء عاقبة أعمالهم، وسوء عاقبة اِنصرافهم عن الإيمان اليقيني الصادق.

وكذا تنوّع ذكر فضائح المنافقين في هذه السورة وتنوّعت في أكثر من موضع، فهي بحقّ السورة "الفاضحة" لنفاق المنافقين.

- لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (128) فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (129) :

بعد تلك المقدّمة بإعلان تلك "البراءة"، وما جاء في هذه السورة من الأمر بأشقّ التّكاليف: الجهاد، ومن التّحذير الشّديد من التّخلّف عنه، وما جاء فيها من فضائح المنافقين جاءت هاتان الآيتان لفتح باب الرّجاء بالثّناء على نبيّ هذه الأمّة ورسولهم في وصف رِقَّتِهِ على أتباعه وحرصه صلّى الله عليه وسلّم، وخوفه عليهم من العنت فنزلت بردًا وسلامًا بعد تلك الشّدائد.

(لَقَدْ جَآءَكُمْ) المجيء هنا لا يعني فقط البعثة، وأنّ المخاطب هم أصحابه في زمانه، وإنّما هنا بمعنى الإرسال، والخطاب هنا لجميع أتباعه، وإن جاؤوا بعده بِقُرون. (مِّنْ أَنفُسِكُمْ) من ذوي نسبكم، وممن تعرفون. (عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ) يصعب على نفسه الرقيقة صلّى الله عليه وسلّم ويشقّ عليها أن يحصل لأتباعه مكروه ومشاقّ. (حَرِيصٌ عَلَيْكُم) شديد الرّغبة في هداكم وتوبتكم، كثير الرّأفة بالمؤمنين به، المصدّقين برسالته، والمتّبعين لمنهجه في طاعة ربّه وكثير الرحمة بهم والشفقة عليهم. قال ابن عباس: سمّاه تعالى باسمين من أسمائه الحسنى: رؤوف رحيم. فإن أعرض جماعة من النّاس عن الاستجابة لدعوتك – يا محمد – فقل كفاني الله، هو

معيني لا إلاه إلاّ هو، لا إلاه غيره، عليه اعتمادي، وهو ربّ الملكوت الكبير العظيم سبحانه جلّ وعلا.

ملاحظات هامّة بشأن هذه السورة:

هذه السورة إذا تناولها أيّ واحد بتفسير بعض آياتها دون حسن اِطلاع على مركّبات الحياة الاجتماعية في المدينة في فترة غزوة تبوك فإنّه يخرج بها حتما عن فهم معناها الحقيقي، ويخرج بها عن سياقها، وعن غرضها. وعندئذ يقع في ما وقع فيه البعض من الخلط: من مثل اِتّهام الدين الإسلامي بأنّه دين قتال، وفرض العقيدة بالعنف والتّهديد والسلاح، أو يوظّف بعض آياتها توظيفا سيّئا في غسل أمخاخ شباب غضّ جاهل مشرّد، أو مسيّس لتوريطه في قضايا الإرهاب، وتوجيهه لقتال من يكفّرون النّاس ولو كانوا من أهاليهم وذويهم. لابدّ لمن أراد أن يستشهد بآي هذه السورة في قضايا الجهاد، وفي تحديد مفهوم الجهاد والنّفير أن يدرس السيرة النبويّة في الوسط المدني حتى لا يحرّف معاني الآي، أو يخرجها عن سياقها، فقد كان في عهد نزولها خرق للمعاهدات التي كانت بين الرسول صلّى الله عليه وسلّم وبعض الأعراب والأحابيش الذين قتلوا جماعة من الصحابة ظلما واِنتقاما، وسطوْا على بعض الأرزاق لسكّان المدينة، وكان المنافقون من أشراف المدينة، وجماعة من أهل الكتاب، وجماعة من العرب والأعراب يكيدون للإسلام والمسلمين ويدسّون فيهم الدسائس، ويتآمر بعضهم على قتل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم على غرّة، وأرادوا شقّ صفوف المسلمين وإرباكهم في عقيدتهم ببناء مسجد أرادوه لهذه الغاية، وكانوا يهزؤون بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وبالتنزيل، وكانوا يثبطون العزائم. فقد أحاطت بذاك العهد ظروف سياسية ومادية واجتماعية قاسية، وفيها اِضطرابات كثيرة، فنزلت هذه السورة في البراءة من العهود، وفي فضح المنافقين، وفي التبرّؤ من الأعراب الأحباش الفاسدين، وفي تنبيه المؤمنين ليكونوا أولياءَ لبعض وحتى لا يتّخذوا أعداءهم أولياء. فوجب الانتباه لهذه الأسباب والأغراض قبل اِقتطاع الآيات عن مساقها وعن ظروفها وعن أسبابها وأغراضها حتّى لا يخطئ المرء في الحكم على هذا الدين ليرميه بالإرهاب، وحتى لا يستغلّها الفاسدون في إقحام الشباب الغضّ في أتّون الإرهاب.

| رقمها | سورة **يونس** — مكيّة — | آياتها |
|---|---|---|
| **10** | | **109** |

هذه سورة مكية، ولذلك جاء موضوعها في تركيز أركان العقيدة السليمة، ذكرت بعضا من دلائل الخلق وآيات الإنعام لإثبات عقيدة التوحيد. وأُفتُتِحت بالدعوة للتّصديق بالوحي والكتاب، وبرسالة الرّسول، وأنّ الرّسول لا يكون إلاّ بشرا. وأنذرت من يوم الحساب. وتخلّلتها مواعظ للتّرغيب في الإيمان، وللتّرهيب من الشّرك والتّكذيب.

وعرضت ما أصاب قوم نوح من العذاب لتكذيبهم بنبيّهم، وما أصاب فرعون وآله الكافرين المكذّبين من هلاك للحذر من الكفر، وأشارت لنجاة الذين آمنوا من بني إسرائيل بموسى واتّبعوه ونجاتهم من بطش فرعون وظلمه نعمةً من الله تعالى وفضله جزاءَ إيمانهم ترغيبا في الإيمان واِتّباع الرسول. واِنفردت هذه السورة بذكر ما كاد يُصيب قوم يونس عليه السلام من عذاب الاستئصال لولا أنّهم اِستغفروا ربّهم وصدّقوا برسولهم فأنقذهم الله تعالى من العذاب ترغيبا للعرب في الاستغفار والإيمان برسولهم محمد صلّى الله عليه وسلّم.

وسمّيت هذه السورة بسورة يونس لانفرادها بذكر نعمة الله تعالى على قوم يونس بإنجائهم من العذاب.

- **الٓر ۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ (1) :**

(الٓر) قد سبق الحديث عن هذه الحروف المقطّعة في مفتتح سورة البقرة، وكأنّ هذه الحروف قد جاءت للقسم بها للتأكيد على أنّ هذا الذي نقرأه من القرآن الكريم هي آيات الله تعالى التي أحكم بيانها لعباده للانتفاع بذكرها، وبتدبّرها، وبحكمتها

- **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ (2) :**

بعد التقديم للقرآن بأنّه الكتاب الحكيم جاءت هذه للتّصديق بالوحي. والمعنى: أيعجب النّاس من أن يوحي الله تعالى لواحد منهم ليحذّرهم من معصية ربّهم، وليبشّر الذين يصدّقون بالوحي بأنّ لهم سابقة فضل عنده تعالى توجب لهم ثوابه ورحمته. قال الكافرون المكذّبون: هذا سحر واضح بيّن، وذلك لأنّهم لم يتصوّروا أنّ الله تعالى يوحي لإنسان مثلهم مواعظ وأحكاما يغيّر بها معتقدهم وشرعهم.



وتصوّروا أنّ ما يأتي الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من الوحي من رُؤَى السحر، فهو رجل مسحور في ظنّهم. والملاحظ أنّ في هذه الآية تبشيرا للذين آمنوا دون الجمع بين الإيمان والعمل الصالح على نحو ما يأتي في جميع آي القرآن من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، لأنّ العمل الصالح هو الذي يُعرف به صدقُ الإيمان، وذلك لأنّ هذه الآية قد نزلت قبل تشريع العبادات من صلاة وصيام وزكاة، وكان العهد وقتئذ عهد الدعوة للإيمان بالرّسالة ثمّ بالتّوحيد لأنّه أسّ الدعوة والرّسالة. ويأتي الإيمان بالتّوحيد حين يقع التّصديق بالرّسالة، وبالوحي.

- إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ **(3)** :

بعد الدعوة للتّصديق بالكتاب الحكيم، وبالرّسول صلّى الله عليه وسلّم والوحي، جاءت هذه للتّعريف بعمل الله الحقّ الحقيق بالتّقديس والعبادة. والمعنى: إنّ سيّدكم صاحب الرّبوبية هو الذي خلق السماوات التي تعيشون تحتها وترونها فوقكم حيثما كنتم، والذي خلق الأرض التي تعيشون عليها، خلقهما في ستّة أوقات من الزّمن، ثمّ اِستوى في ملكوته العظيم، والاستواء معلوم، ولكنّنا لا نعرف كيفيته، (يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ) يقضي لكلّ شيء خلقه أجل ظهوره، ودوره عند إيجاده، وأجل اِنقضائه وموته، ولا أحد غير الله خلق السماوات والأرض، ولا أحد غيره يحدّد أجل خلق الموجودات والكائنات الحيّة والجامدة، وأجل اِنقضائها أو فنائها إلاّ هو، فلذلك هو الربّ الحقيقي. (من شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ) لا أحد يتدخّل في قضاء أمره، أو في تغيير حُكْمٍ حَكَم به إلاّ إذا شاء هو أن يأذن له بالتّدخّل، فسلطانه نافذ، ولا يُرَدُّ أمرُه أو يُعَدَّلُ إلاّ إذا أَذِنَ هو بتعديله. (ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ) هذا هو الله سيّدكم، وأُستعمل اسم الإشارة للبعيد قصد التّعظيم، فهو الله العظيم، (فَٱعْبُدُوهُ) الأمر لجميع الخلق من العباد لتخصيصه وحده بالتّقديس والخضوع لأمره، والسجود له. (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) اِستفهام للحضّ على النّظر والتّدبّر والتّعلم لمعرفة الله الحقّ تجنّبا لكلّ اِنحراف عن معرفة الحقّ والاهتداء إليه.

- إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ **(4)** :

وهذه في ركن آخر من أركان العقيدة: الإيمان بيوم القيامة للحساب للجزاء أو العقاب. والمعنى: إلى الله تعالى وحده سترجعون جميعا بعد مماتكم، ولا ترجعون لغيره، فهو الأحق بالسمع له وبالطاعة. (وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ) رجوع النّاس جميعهم إليه ببعثهم بعد مماتهم للحساب أمر واقع حتما بلا شكّ. إنّه يخلق الخلق ويوجدهم من عدم بتقديره، ثمّ يميتهم، ثمّ يعيدهم بعد موتهم

إليه، يجزي المؤمن المصدّق بوحدانيته، والعامل بأحكامه وطاعته بالعدل، وبما يستحقّ من الجزاء حسب درجة الإيمان وحسن العمل والإخلاص فيه، وأمّا الذين كذّبوا بوحدانيته وعصوا أمره وكفروا بتشريعه فإنّه يذيقهم يوم رجوعهم إليه شرابا بالِغًا في حرارته، وعذابا موجعا بسبب ما كانوا يكذّبون به ليعلموا أنّه الحقّ من ربّهم.

- هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ (5) :

وهذه في آية من آيات الفضل والإنعام، هو الله سبحانه الذي جعل الشمس تُضيء من تلقاء نفسها كلّ شيء يقع تحت إشعاعها، وجعل القمر منيرًا بأشعة الشمس المنعكسة عليه، وجعل للقمر في كلّ ليلة منزلة يحلّ فيها ليعرف النّاس بمنزلته حساب الأيّام والشهور والأعوام. ما خلق الله ذلك إلاّ (بِٱلۡحَق) بحكمة في التّقدير، والترتيب، ولم يخلق شيئا عبثا، ولا بالمصادقة. ونوضّح دلائل القدرة وحسن الخلق لمن يحبّ العلم والمعرفة.

- إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ (6) :

إنّ في تعاقب الليل والنّهار خلْف بعضٍ في نظام دقيق، وإنّ في كلّ ما خلق الله تعالى في السماوات وفي الأرض من كائنات دلائل وحججا وبراهين تدلّ على وحدانية الصانع وحسن إبداعه وحسن تدبيره وتقديره لقوم يؤمنون بالله وحده ويخافونه لعظمته ويعرفون قدرته على الذين يعصونه.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ (7) أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ (8) :

وهاتان في عاقبة المكذّبين بالبعث. إنّ الذين ينكرون البعث ولا يعتقدون في الحساب الأخروي، ولا يتوقّعونه، وأحبّوا الحياة الدنيوية وظنّوا أنّ بالموت نهايتهم، فسكنوا للدنيا وارتاحوا لها، وعاشوا حياتهم غير مؤمّلين في حياة أخرى للحساب عن أعمالهم، وكانوا لدلائل قدرة الله غير ناظرين، وغير مهتمّين، وكانوا تاركين لأحكام الله تعالى ومواعظه، هؤلاء سيقيمون في آخرتهم في نار جهنّم بسبب إنكارهم للبعث والحساب.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (9) دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (10) :

بعد ذاك النذير، جاء هذا التّرغيب والتّبشير. والمعنى: والذين آمنوا بالله وحده وبرسله وكتبه واليوم الآخر، وعملوا بالطاعات، وإجتنبوا المحرّمات، فإنّ الله تعالى يهديهم بسبب تصديقهم به



وبأحكامه والعمل بها، ويوم يرجعون إليه يكرمهم الله جلّ وعلا بإيوائهم في بساتين مرفهّة ليجدوا فيها كلّ مظاهر النّعيم، فتسمعهم في جنّاتهم يسبّحون الله تعالى لكثرة ما أنعم عليهم من النّعم، ويتلقّون تحية الأمن والسلام من الملائكة، وآخر قولهم وكلامهم: الحمد لله، لشكر الله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفضل.

- وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (11) :

وهذه في الإمهال، ولو يعجّل الله للنّاس العقوبة كما يحبّون اِستعجالهم للاستجابة لأدعيتهم، وللحصول على الخير الذي يطلبونه لهلكوا جميعا (فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ) والله تعالى لا يعجّل للنّاس الشّر فربّما يتوب بعضهم، ويترك المكذّبين بلقاء الآخرة في تكبّرهم على الله تعالى وفي كفرهم متحيرين، غير متبصّرين.

وعلّق المفسّرون السابقون على هذه الآية بإرشاد النّاس للحذر في حالة غضبه أن يدعو بالشرّ على نفسه أو على ابنه، أو على زوجه، أو على ماله، أو عمله فيصادق وقتها ساعة اِستجابة، فإذا اُستجيب له أضرّ بنفسه وهلك، وخير من ذلك أن يستعيذ بالله من الشيطان إذا غضب، وعليه أن يدعو بالهداية لمن أثار غضبه، أو بإصلاح شأنه في العمل والكسب.

- وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (12) :

وإذا أصابت الإنسان شدّة أو بلاء وسوء حال اِستجار بالله تعالى واِستغاثه لرفع الضّرّ عنه، وكشف البلاء وهو يتقلّب في فراشه على جنبيه، أو قاعدا أو قائما مستعجلا الاستجابة لدعائه، ولمّا كشف الله عزّ وجلّ عنه ضرّه جحد سريعا فضل ربّه عليه، وعاد لما كان عليه من الغفلة عن شكر الله تعالى وعن الثبات على طاعته. كذلك يغفل المتجاوزون حدودهم في الإعراض عن ذكر نِعَمِ الله تعالى عليهم، ويزيّن لهم الشيطان الغفلة عن ذكر ربّهم زمن الرّخاء.

- وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ (13) :

هذه في وعيد أهل مكة للاعتبار بهلاك الأمم السالفة. والمعنى: ولقد أهلكنا أمما سابقين بعذاب الاستئصال مثل قوم نوح، وعاد، وثمود لمّا كفروا وظلموا أنفسهم بالإصرار على الكفر والتكذيب برسلهم رغم أنّهم قد جاؤوهم بدلائل صدق ما يبلّغونهم به. ولقد علمنا أنّهم لن يؤمنوا بما جاءهم فأهلكناهم، وكذلك نجزي كلّ المجرمين أمثالهم، فاحذروا سوء العاقبة.

- ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14) :



والخطاب في الآية عامّ لكلّ أمّة في كلّ زمن. ثمّ جعلناكم – أيها النّاس – خلائف من بعد تلك الأمم السالفة، وأورثناكم الأرض لنختبر أعمالكم من بعدهم، ونختبر إيمانكم، وطاعاتكم، واتّعاظكم بما سلف.

- **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) :**

هذه في بيان موقف مشركي مكة من التّنزيل. لقد جاء القرآن الحكيم بتسفيه آلهتهم ومعتقدهم، وبوعيدهم، وجاءهم بِتَعْيِيبِ جملةٍ من أخلاقهم وعاداتهم، وكلّما سمعوا ما ينزل منه فيهم اِغتاظوا، وقال الذين لا يؤمنون بالآخرة للرّسول صلّى الله عليه وسلّم اِئْتِ بقرآن غير هذا لنؤمن لك، أو غيّره من عند نفسك حتّى لا نسمع منه ما يعيب آلهتنا ومعتقدنا وجهلنا وعاداتنا، وحتّى لا نسمع منه تحريم ما نحبّ تناوله، أو ما نحبّ أن نفعله. أخبر – يا محمد – كلّ من يحبّ منك تغيير ما ينزل عليك من الوحي أنّك لا تغيّر شيئا من عند نفسك ممّا ينزل عليك، وأنّك أمين في تبليغهم ما يوحى إليك كما ينزل، وأنّك لا تعصي ربّك لأنّك تخاف إن فعلت عذابه العظيم يوم الحساب.

- **قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (16) :**

وأخبرهم أن لو شاء الله ما قرأته عليكم، ولا أرسلني به إليكم، ولا دَرَيْتُ شيئا منه ولا علمته، ولا أعلمكم به، فقد مكثت بينكم أربعين سنة قبل تنزيله لا أخبركم بشيء، ولا آمركم بشيء، ولا أنهاكم أو أتوعدكم بشيء. (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) وأنّ هذا لا يمكن أن يكون من عندي، أو لا تدركون بما تعرفون عني من صدق وأمانة بأنّ هذا ليس من كلامي، وإنّما هو وحي من عند الله حقّا.

- **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ (17) :**

ليس من أحد أظلم لنفسه ممن كذب على الله تعالى فنسب له ندا، أو شريكا، أو صاحبة وولدا، أو كذّب بدلائله وحججه، أو بأحكامه وتنزيله، إنّه من المجرمين في حقّ الله تعالى، ولا ينجح المجرمون من الإفلات من العقاب.

- **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (18) :**

الّذين يدّعون لله تعالى شركاء، إنّما يعبدون ما لا يستطيع لهم شيئا من الضرّ، ولا من النّفع، فلِمَ تصلح لهم عبادتهم؟ يقولون عنها بأنّها تشفع لهم عند الله عزّ وجلّ من العذاب. اِسأل هؤلاء:

أتخبرون الله تعالى بما لا وجود له في السماوات، ولا في الأرض؟ والاستفهام هنا للإنكار والتّوبيخ على الجهل والادّعاء الباطل الذي لا أساس له من الصحة. تنزّه الله تعالى عمّا يدّعون له كذبا من الشركاء.

- وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19) :

وما كان النّاس بعد الطوفان في عهد نوح عليه السلام، أو بعد اِستئصال الأمم السالفة من الكافرين إلاّ على ملّة واحدة، ودين واحد، ثمّ بعد زمن تفرّقوا مِلَلاً وشيعا ومذاهب، وصاروا ذوي أديان مختلفة في المعتقد والتوجّه بالعبادة. ولولا وعد الله تعالى الذي سبق إثباته في اللوح المحفوظ بالإمهال إلى يوم الحساب للعقاب لفصل بينهم بأخذ الكافرين واِستئصالهم، والإبقاء على المؤمنين.

- وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ (20) :

ويقولون هلاّ نزلت على هذا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم آيةُ عذاب من عند ربّه كما يهدّدنا به. قد جاء في كتاب السيرة النبويّة أنّ النضر بن الحارث قد قال: اللّهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء. أجبهم –يا محمد – لا أحد يعلم ما في الغيب إلاّ الله تعالى، وترقّبوا قضاء الله جلّ وعلا، وأنا معكم من المترقّبين لحُكمه للفصل بيننا. وقد قتل النّضر في غزوةٍ.

- وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (21) :

يُقصد بالنّاس هنا القوم الكافرون. إنّهم إذا جاءهم فَرَجٌ أو رخاء بعد كرب، أو نائبة، أو جوع، أو قحط إذا هم يستهزئون بوعيد الله تعالى، وبدلائل القدرة على الأخذ بعذاب، ولا يشكرون. أخبرهم بأنّ الله عزّ وجلّ يعجّل بالعقوبة، وما كان هذا إلاّ من الاستدراج والإمهال، وإنّ الملائكة الكاتبين المسجّلين لأعمالكم وأقوالكم يُوَثِّقون كلّ ما تقولون وما تهزؤون به، وستردّون إلى الله تعالى فينبّئكم بما كنتم تمكرون.

- هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (22) فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (23) :



الآيتان في مظهر من مظاهر الجحود، والجحود من مظاهر الغفلة، والآيتان في التّرغيب في حمد الله تعالى وشكره، والقليل من عباد الله الشكور. والمعنى: هو الله تعالى الذي يحفظكم في سيركم في البرّ والبحر. ويحدث أن تكونوا راكبين سفينة فتجري بكم على سطح البحر تدفعها ريح طيّبة إلى غايتكم، وتكونون مسرورين برحلتكم فإذا بالريح تنقلب إلى ريح عاصف وأنتم في عمق البحر فيُثير الموج المرتفع من حول مركبكم، وفي لحظاتِ شعوركم بأنّكم مُهْلكون تتوجّهون إلى الله الحقّ القادر بأدعيتكم طلبا للنّجاة من الغرق وطلبا للعودة لبيوتكم سالمين، وطلبا لرحمته بإنقاذكم من الهلاك. وقتئذ لا تدعون آلهتكم التي تدّعون طلبا للنّجاة، وإنّما تدعون الله صاحب القدرة والعظمة وتدعونه بجوارحكم، وتَعِدُونَهُ بأن تكونوا له شاكرين إذا أنجاكم من كربكم وممّا يحدق بكم من الخطر.

فلمّا أنجاهم الله تعالى إلى البرّ، وسلموا من الموت الذي أحدق بهم، تجاوزوا حدودهم في الجحود، نسُوا ما وعدوا الله تعالى به من الشكر والعرفان بالفضل، وعادوا للشرك والعصيان والظلم. (إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ) إنّ ما تفعلون وَبَالٌ عليكم، وفساده عائد عليكم. اِنعموا بحياتكم مادمتم أحياء، فإذا حضرت آجالكم، وقامت القيامة فإنّكم سترجعون إلى الله جلّ وعلا وسيخبركم يومئذ بما كنتم تعملون من إخلاف الوعد، ومن البغي ليحاسبكم على أعمالكم بما تستحقّون من العقاب.

- إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (24) :

الآية في موعظة النّاس حتّى لا يغترّوا بزينة الحياة الدنيا. والمعنى: مَثَلُ الحياة الدنيا في زخرفها وجمالها وسرعة زوالها مثل نبات غذّتهُ السماء بالماء فأينع وأزهر وأخرج حبّا وثمرا ممّا يأكل النّاس والأنعام، وجَمُلت الأرض بما نبتَ فيها من زرع وشجر، وبهاء في المنظر بأشكال ما نبت فيها وألوانه، وسُرَّ بها أصحابها وحسبوا أنّهم سَيُمَتَّعُون بها زمنا طويلا، فاجتاحتها آفات وعاهات في وقت مُفاجِئٍ من ليل أو نهار، وجعل ما عليها مقطوعا من أصله هَالِكًا، وذهبت زينتها وخربت كأنْ لم يكن بها نبات ولا زهر ولا شجر ولا ثمر بالأمس القريب. زال كلّ شيء، وذهب كذلك نوضّح المثل عن الحياة الدنيا لقوم يفهمون ويَعُونَ، ويتدبّرون.

- وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (25) :

والله سبحانه يدعو عباده إلى دار السلامة من العذاب، وهي الجنّة، ويهدي من يشاء الاهتداء لربّه إلى صراطه المستقيم الواضح الموصل إلى دار الأمن من العقاب.

- ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (26) :

(لِّلَّذِينَ) اللام هنا لام الاستحقاق. والمعنى: الذين صدقوا في إيمانهم وأحسنوا في طاعتهم لربّهم، ولرسوله يستحقّون (ٱلۡحُسۡنَىٰ) هي الجنّة، (وَزِيَادَةٞ) هي رضوانه تعالى عليهم، وربما النّظر إلى وجهه الكريم في الجنّة، وربّما إكرامهم بالإذن لهم ليشفعوا في من يحبّون، والله أعلم بها، وهو فضل عظيم، لا حدّ له، ومع هذا التّكريم فإنّهم عند الوقوف للحساب لا تغشى وجوهَهم كآبة أو حزن أو خوف شديد من شدّة المحاسبة ودقّتها، ولا تظهر عليهم الذلّة. هؤلاء هم سكّان الجنّة المقيمون فيها أبدا، لا يخرجون منها.

- ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (27) :

والذين عملوا المعاصي، وأساؤوا للنّاس، وظلموا أنفسهم بالكفر يلقون في آخرتهم ما يكرهون من سوء العقاب على قدر ما أساؤوا، ويغشى وجوههم الانكسار، ومظاهر الذلّة. ليس لهم منجاة، أو منقذ، أو مانع من وقوع العذاب عليهم، كأنّما أُلْبِست وجوههم أغطية سوداء ممّا يعلوها من دخان أسود كسواد الليل المظلم الأدهم. أولئك سكّان النّار في جهنّم لا يخرجون منها أبدا.

- ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ (28) :

هذه في تبرّؤ آلهة الشّرك مما كانوا يعبدونها. ويوم يُحشر المشركون وآلهتهم التي كانوا يدّعون، ثمّ يُنادى على المشركين وآلهتهم التي يدّعون ويقال لهم اِلزموا مكانكم، لا تفرّوا، فلا مفرّ لكم اليوم من مناقشة الحساب، فتراهم يتخاصمون مع آلهتهم والملائكة تزيّل بينهم، أي تفرّق بينهم في مخاصمتهم، وتقول لهم آلهتهم ما كنتم إيّانا تعبدون، وما كنّا لكم آلهة، فيختصمون.

- ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ (29) :

وفي هذه المخاصمة تحتجّ آلهتهم بالاكتفاء بشهادة الله لهم للفصل بينهم وبين الذين كانوا يعبدونها بأنّها كانت غافلة عن عبادتهم لها، أي ما كانت تعلم بعبادتهم لها، وما كانت تشعر بها، وما كانت قد أمرتهم بها. وبهذا تتبرّأ ممّا كانوا يعبدون، وممّا كانوا يدّعون، وممّا كانوا يفعلون.

- ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾(30) :



هنالك في ذاك الموقف، وفي ذلك المكان والزّمان تعلم كلّ نفس حقيقة عملها، وينكشف ضلالها فيما عملت في دنياها من سوء، وما كانت عليه من غفلة، وعادوا إلى الله مولاهم الحقّ، وانكشفت لهم الحقيقة وغاب عنهم ما كانوا يدّعون، وما كانوا يأملون، واختفى.

- قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31) :

هذه لتوعية المشركين ليعرفوا ربّهم الحقّ، وقد جاءت في صيغة الاستفهام الذي يحفّز العقل للتدبّر وللعلم، وإنّ أول العلم السؤال. اِسأل هؤلاء من يرزقكم من السماء ماءً، ومن يرزقكم من الأرض نباتا وزرعا وثمرا وطعاما؟ ومن الذي أوجد لكم السمع والأبصار وخلقها لكم لتنتفعوا بحاستي السمع والبصر وما يتبعها من العلم والانتفاع بها لحياتكم.

واِسألهم، من يخرج النبات الحيّ من حبّ ميّت، والشجر الكبير المثمر من نواة، ومن يخرج الحبّ الميّت من زرع حيّ؟ واِسألهم من يسيّر الأفلاك ويدبّر لكم تعاقب الليل والنّهار، ويدبّر آجال الخلق؟ إذا سألتهم هذه الأسئلة فسيقولون الله تعالى لأنّ بِدَلائلِه يعرفونه ولا يذكرون أحدا من آلهتهم. فإذا صرّحوا بذلك وعلموه فَعِظْهُم بأن يتّقوا الله جلّ وعلا، وبأن لا يشركوا معه أحدا.

- فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (32) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) :

ذلكم الله تعالى ربّكم الحقّ الثّابتة ربوبيته ثبوتا لا ريب فيه، إذا كان هذا الحقّ الذي اعترفتم به لم تؤمنوا به، ولم تطيعوه، فماذا تتّبعون وماذا تطلبون غير الضلال، والبعد، والزّيغ عن الصواب، فكيف تحيدون عن عبادة الله الحقّ، وتنصرفون عنه إلى الكفر؟

هكذا وجب وصدق ما كُتب في اللوح المحفوظ الحكم عن الذي خرج عن طاعة ربّه لطاعة غيره بأنّه فاسق، والفاسق لا يؤمن بالحقّ مهما قامت عليه من حجّة على ضلالته.

تعتبر الجملة (فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ) مَثَلاً يُضرب في كلّ من يرفض الحقّ، وينصرف عنه، ولا يحبّ اِتّباعه، فماذا يريد غير الضلال؟ وهذا سبيل كلّ معاند، ومتكبّر متجبّر.

- قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ(34) :

هذه في محاجّة المشركين. قل هل من شركائكم الذين تعبدون من يخلق شيئا من الخلق ثمّ يميته ويحدّد له الأجل؟ أخبرهم أنّ الله تعالى وحده هو الذي يخلق الخلق ثمّ يميته فكيف تؤمنون بمن لا يخلق شيئا ولا يميت وتعبدونه؟ والاستفهام للتّوبيخ قصد بيان تناقض العمل مع الحق الواجب.



- قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ (35) :

واسألهم: هل ممّا يعبدون من الآلهة من يرشدهم للصواب والدين الصحيح الثابت، ويبيّن لهم أحكامه وشرعه؟ أخبرهم أنّ الله وحده هو الذي يرسل رسله لهدي النّاس لدينه الحقّ، وينزّل إليهم كتبه ليعرّفهم بأحكامه وشرعه، وليبيّن وجوه الضلالة ليحذروها. فمن أحقّ بالاتّباع والإيمان والتقديس والعبادة، الذي يهدي النّاس ويرشدهم للصواب، أم الأخرس الذي لا يهدي لشيء؟ فكيف تتركون من يرشد للحقّ، وتعبدون آلهتكم التي لا تهدي لشيء؟ وكيف تفكّرون؟

- وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ (36) :

هؤلاء المشركون بعبادتهم لآلهتهم المزعومة أسْرَى لتخمينهم ينقادون للظنون التي لا تقوم على أسس ثابتة من العلم الثابت، والظنّ لا يقوم مقام الحقّ الثابت، ولا يعوّضه. والله سبحانه مطّلع عمّا يفعلون من ضلالاتهم، وسيحاسبهم عليها.

- وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (37) :

وهذه لتثبيت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بتصديق ما يوحى إليه من ربّ العالمين. لا يمكن أن يكون هذا القرآن مختلقًا من عند غير الله تعالى. هذا القرآن يصدّق بالكتب السماوية، ولو كان من عند غير الله تعالى ما صدّق بالكتب السابقة، ولكن مصدرها واحد هو الله تعالى. وإنّ بيانه يدلّ على أنّه من ربّ العالمين بلا شكّ.

- أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (38)

هذه في تحدّي المكذّبين بالوحي، والغاية من هذا التّحدّي أنّهم في حال عجزهم أن يأتوا بسورة مثل ما ينزل أن يُذْعِنُوا للحقّ فيؤمنوا به وحْيا من عند الله ويصدّقوا بالرّسول ورسالته. والمعنى: قُل للّذين يتّهمونك – يا محمد – بأنّك تختلق هذا القرآن: اِئتونا بسورة مثل ما ينزل عليّ من كلام الله تعالى مستعينين بمن شئتم من إنسكم وجنّكم من فصحائكم وبلغائكم لتثبتوا بأنّ ما أقوله كلام مختلق إن كنتم صادقين في ادّعائكم.

- بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ (39) :

بل كذّبوا بالوحي غير مدركين بالوعيد الذي يحيط بالمكذّبين به (وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ) ولم يَقَعْ فيهم بعدُ ذاك الوعيد. وحينما يأتيهم سيتبيّن لهم أنّه الحقّ من عند ربّهم. ولقد كذّب من كان قبلهم بالرّسل وبكتبهم وبشرع الله فتأمّل في عاقبتهم التي بلغوها بسبب ظلمهم لأنفسهم بالتّكذيب

والعناد، وغير بعيد عن هؤلاء أن يصيبهم مثل ما أصاب سابقيهم، وهذه الآية في التّحذير من سوء العاقبة بعد ذاك التّحدّي. والغاية تثبيت الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وإثبات صدق الوحي، وردّ كيد الكائدين الذين يتّهمونه بالكذب عنادًا.

- وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ **(40)** :

ومن غريب أمر هؤلاء الذين يتّهمون الرّسول صلّى الله عليه وسلّم باختلاق ما يبلّغهم ممّا ينزل عليه من الوحي، أنّ قِسْمًا منهم يصدّق بأنّه وحي في قرارة نفسه،ولكنّه يكتم تصديقه به في نفسه، وفيهم من لا يصدّق به وحيا اِستكبارا وعنادا، وحسدا من عند أنفسهم، والله سبحانه وتعالى يعرف مفسديهم، والذين يشيعون على الرّسول صلّى الله عليه وسلّم صفة الافتراء، وهو الصادق الأمين صلّى الله عليه وسلّم.

- وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ **(41)** :

وهذه في تسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، والمعنى: فبعد هذا التّحدّي وهذا التّحذير لهؤلاء، فإن اِستمرّوا في تكذيبهم بك فلا تَأْبَهْ بهم، وقل: أنا مستمرّ في تبليغ ما يُوحَى إليّ به، واستمرّوا – أنتم – في تكذيبكم. أنتم تتبرّؤون ممّا أدعوكم إليه من الاهتداء إلى دين الله الواحد الأحد وشرعه وهدْيه، وأنا أتبرّأ من شرككم وجحودكم وتكذيبكم واِستخفافكم بالوعيد.

- وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ **(42)** :

وممن حولك من يستمعون إلى ما تتلوه عليهم من الوحي، ولكنّهم لا يَأْبَهُون بما تتلوه عليهم، ولا يُصغُون إليك كأنّهم لا يسمعون، وكأنّ بهم صَمَمًا، وهل كنت تستطيع أن تُسْمِع أصمّ لا يبلغه شيء ممّا تقول؟ وهل كنت تستطيع أن تبلّغ أمرًا لجماعة تعطلت عقولُهم عن الفهم والإدراك من ضعفها وعجزها عن الانتفاع بما تسمع؟

- وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ **(43)** :

ومن هؤلاء من يبصر بعينيه الدّلائل القاطعة على نبوّتك ولكنّه كالأعمى لا ينتفع بما يرى. أفَكُنتَ تستطيعُ أن تجعل الأعمى يبصر طريقه وهو لا يبصر ولا يرى؟ والجواب عن الاستفهام هنا: كلاّ. وهذا من مظاهر العناد والغفلة، ولذلك لا يؤمنون.

وما أشقى الإنسان الذي يسمع أن يصمّ أذنيه، وما أشقاه إن أغمض عينيه حتّى لا يبصر! وهذا هو ظلم الإنسان لنفسه من كبريائه وعناده، فهل يستحقّ رحمةً وهو لا يرتضي لنفسه أن يهتدي، وقد أرسل الله إليه رسولا لهديه، وأرسل إليه كتابا ليقرأه ليهتدي به فكذّب به، وأعرض عنه، وسمع الوعيد فهزأ به، وكذّب بهذا وذاك.

- إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ **(44)** :

وهكذا يتبيّن أنّ الله تعالى لا يعاقب أحدا من عباده بغير حجّة، وأنّه تعالى لا يفعل بخلقه ما لا يستحقّونه، ولا يعاقب قبل أن يحذّر ويُنذِرَ، ولكنّ النّاس هم الذين يظلمون أنفسهم بالكفر والعناد وعمى البصيرة وصمم الآذان والإصرار على التكذيب.

- وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ (45) :

ويوم القيامة حين يساق هؤلاء المكذّبون إلى الحساب يشهدون من أهوالها ما يجعلهم يشعرون بأنّ حياتهم في دنياهم لم تَدُمْ غير ساعة بسبب طول الانتظار، وشدّة المحاسبة على النّفس، ويومئذ يتعرّف بعضهم على بعض، ويتقابلون جميعا. ولقد خسر آخرته كلّ من أنكر يوم القيامة للحساب، وكذّب بالوعيد. والذين كذّبوا بلقاء الله تعالى في آخرتهم لم يكونوا من الذين اِهتدوا للطريق الذي ينقذهم من العذاب.

- وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ (46) :

فإن لم تَرَ – يا محمد – بعضا من عذابهم في حياتك، وسبقك الأجل قبل أن ترى ما سيحلّ بهم من العقوبة، فسيعودون إلى الله تعالى ليحْكُمَ فيهم بحكمه، والله تعالى هو الشهيد على ما كانوا يفعلون معك لأنّه تعالى مطّلع على كلّ فعل من أفعالهم.

- وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ (47) :

وما يجري معك ومع أمّتك يجري على كلّ أمّة أرسلنا إليها رسولنا.. ويوم القيامة حين تقوم كلّ أمّة يأتي معها رسولهم في ذاك الموقف ليشهد عليهم، ويقضي الله تعالى يومئذ بحكمه بينهم بالعدل ويفصل بينهم بما يستحقّون.

- وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (48) :

والمكذّبون في كلّ أمّة إذا أنذروا بالوعيد قالوا مستهزئين متى يأتي هذا الوعيد إن كنتم صادقين فيما تتوعدون، ومتى يأتي يوم الحساب الذي تحذّروننا منه. والاستفهام في الآية يدلّ على إستبعاد هؤلاء المكذّبين وقوعَ يوم الحساب.

- قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ (49) :

أخبرهم – يا محمد – أنّ القضاء بيد الله تعالى، وأن لا أحد يملك العلم بما سيناله من خير، أو بما سيصيبه من سوء وضرر، وحتى أنت لا تملك لنفسك شيئا ممّا سيصيبك أو بما ستناله إلاّ



إذا شاء الله تعالى أن يخبرك به قبل حصوله. ولكلّ قوم موعد هلاكهم إذا قضى الله تعالى أن يهلكهم، وإذا حان الأجل فلا يتأخّر عنهم تنفيذ الوعيد ولا يتقدّم عن موعده.

- قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ (50) :

قل لهؤلاء المكذّبين الذين يستعجلون عذابهم من اِستهزائهم، ومن اِستبعادهم لوقوعه، إذ حلّ بكم العذاب ليلا – وأنتم نائمون – أو إذا فاجأكم بالنّهار، ما غايتكم من اِستعجاله؟

- أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ (51) :

أئذَا ما وقع عذابكم، وحلّت بكم المصائب تؤمنون بالوعيد، وتصدّقون به حينها، عندئذ ماذا سينفعكم التّصديق به وقد كنتم تستعجلونه وتطلبونه؟

- ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ (52) :

ثمّ بعد عذابهم في دنياهم يُستقدمون للحساب في آخرتهم، ويُقضى فيهم بالعذاب الذي كانوا يكذّبون به، وحين يشهدونه يقال لهؤلاء المكذّبين المستهزئين بالوعيد ذوقوا عذابا أبديا، وهل تجزون على غير ما كنتم تعملون؟ هذا ما كسبتم لأنفسكم فذوقوا جزاء كسبكم.

- وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ (53) :

ويستخبرونك عن حقيقة العذاب: أصحيح واقع هذا العذاب التي تتوعدنا به؟ (واِستفهامهم هذا إنكاري للاستهزاء والاستخفاف) أجبهم: نعم، أقسم بربّي إنّه لواقع، ولستم بِمُفْلِتِينَ منه، ولا فائتين، ولا هاربين.

- وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ (54) :

هذه للتّحذير من الشعور بالنّدم في الآخرة، فالآخرة دار الحسرة، ولا ينفع فيها فدية. والمعنى: وفي الآخرة حين تكشف الحقائق للغافلين عنها من الكافرين والمشركين والمكذّبين، تودّ كلّ نفس من هؤلاء لو كانت تملك جميع خيرات الأرض لتفتدي ذاتها ممّا يقابلها من العذاب لفعلت. وحين يرى كلّ واحد من هؤلاء ما ينتظره من عذاب النّار في جهنّم قبل الوقوع فيها يخفي ندامته من كبريائه، ولا يظهر حسرته. ويومئذ يُقْضى بين رؤساء هؤلاء الكافرين والمكذّبين والمشركين وبين أتباعهم بما تستحق كلّ طائفة منهم من العذاب بالعدل، ولا يظلم أحد في حقّه، ولا يُعَذَّبُ أحدٌ بأكثر ممّا يستحقّ.

- أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (55) :

(أَلَآ) للتّنبيه، والمعنى: اِنتبهوا، يا عباد الله، فإنّ كلّ ما هو مخلوق وموجود في السماوات وما في الأرض ملك لله وحده فأطيعوه وعظّموه، هو صاحب الفضل عليكم فأشكروا له. وانتبهوا

فإنّ وعيد الله حقّ ثابت فخافوه، واعملوا بطاعة ربّكم للنّجاة منه، ولكنّ الجاهلين الغافلين والمعاندين لا يدركون الكثير من الحقائق.

- هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (56) :

وهو الذي يبعثكم للوجود، ويمنحكم الحياة إلى أجل معيّن، فإذا حضر الأجل أماتكم، فحياتكم ومماتكم بأمره وقدرته، فإذا متّم رجعتم إليه تعالى لأنّكم من مُلكه، ولأنّه هو الواجد لكم والمدبّر لحياتكم وآجالكم، فمن حقّه أن ترجعوا إليه، فلا تعبدوا غيره ولا تطيعوا غيره.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ(57) :

بعد أن بيّن تعالى أسباب اِستحقاقه وحده للألوهية وللطاعة جاءت هذه في موعظة النّاس عامّة وكافّة، وفي كلّ زمن. والمعنى: يا أيّها النّاس كافّة قد جاءكم من الله تعالى الخالق المحيي المميت تحذيرٌ، وإنذارٌ، وتذكيرٌ برجوعكم إليه بعد مماتكم كيلا تكون لكم على الله حجّة في غفلتكم، وعلى جهلكم، وجاءكم ما يشفي صدوركم بما يرشدكم إلى الخير، والعمل الصالح، ويرفع عنكم الجهل، وجاءكم بيان لما يرشدكم للطريق السويّ الذي يبلّغكم للحصول على رضوانه، وما جاءكم عن طريق رسوله من كتاب هو رحمة لكلّ من صدّق به واِتّبع إرشاده لأنّه ينقذهم من غضب الله تعالى وعذابه.

وصفت هذه الآية كلام الله تعالى المحفوظ بين دَفّتي القرآن الكريم بأربع صفات: هو موعظة، وشفاء، وهدًى، ورحمة، فلا يغفل عن ذكره والانتفاع به إلاّ غافل محروم، أو مستكبر معاند ومكذّب فحقّ عليه حرمانه من الرحمة والهدى والانتفاع بالموعظة، وتزكية نفسه من مرضها ودَرَنِهَا.

- قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (58) :

يا محمّد قُلْ للمؤمنين الذين يقرؤون ما نزل عليك من الوحي، اِفرحوا بنعمة الله عليكم إذ هداكم للإيمان وللعمل بطاعة الله عزّ وجلّ، وأبشروا برحمته، ومن يرحمه الله تعالى فلن يعذّب، وهذا خير لكم من متاع الدنيا، وممّا يجمع فيها من مال وأرزاق لأنّ هذا ممّا يُنتفَع به لأمدٍ قصير، وما عند الله خير وأبقى.

- قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ (59) :

هذه لبيان أنّ الوحيد الذي يحقّ له أن يشرّع للبشر ما يحلّ لهم وما يحرُمُ عليهم هو الله سبحانه، وما عداه فتشريعُه من تجاوزه لحدوده، وهو تشريع باطل.



والمعنى: أخبروني من أَذِنَ لمن يُنَصِّبُ نفسه مشرّعا للنّاس فجعل أصنافا من الأنعام محرّما أكلها، وهي ممّا أحلّها الله تعالى لهم، وجعل أخرى مباحة لهم وقد حرّم الله تعالى طعامها؟ هل أعلمه الله تعالى بهذا التحليل والتحريم؟ أم على الله تعالى يكذبون؟ وفي الآية إشارة لتحريم العرب طعام الوصيلة والحام، وأباحوا لأنفسهم الأكل ممّا ذبح على النّصب، وقد سبق ذكر هذه الأصناف من الأطعمة المحرّمة عندهم والمباحة في سورة (الأنعام).

وإنّ بعضا من النّاس في عصرنا الحاضر يُبِيحُون باسم الاجتهاد في الدين بعضا ممّا حرّم الله تعالى من المعاملات المالية من مثل : أكل الرِبا، وإعطاء الرشاوي، وليتهم يتركون لأهل العلم من أهل الذِّكْر الفَضلَ والنَّظَر في مسائل الإفتاء بالتّحريم والإباحة...

وإنّ بعضهم يقيس قياسا خاطئا في مسائل متعلّقة بالزكاة، كالذي يفتي في مقدار زكاة الأرض بالقياس على زكاة التجارة، وذلك بخصم مصاريف اليد العاملة لجمع المحصول، ومصاريف تسميد الأرض لتنمية إنتاج الشجر من الثّمر، وخصم مصاريف التصنيع للتحويل والتعليب، ومصاريف أخرى، ومعلوم أنّ زكاة الأرض غير زكاة التّجارة. وباسم الاجتهاد وإعمال العقل يجادلون فيما جاء فيه نصّ واضح (وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ (البقرة الآية 267)).

- وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ (60) :

وماذا يتوقّع الذين يكذبون على الله تعالى منه جلّ وعلا حينما يقفون بين يديه للحساب؟ إنّ الله تعالى كثير الإنعام على النّاس، ولكنّ أكثرهم لا يقابلون إنعامه وهديه بالحمد والشكر والطاعة.

- وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٍ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٍ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (61) :

هذه في تنبيه النّاس لمراقبة الله تعالى في أنفسهم في كلّ ما يعملون، وفي كلّ ما يقولون، والمعنى: وما تكون – أيّها الإنسان – في أمر مهمّ وعمل إلاّ كنّا مطّلعين عليك، وما تتلو ممّا تيسّر من القرآن إلاّ كنّا على علم بما تقرأ، وبما تدبّر منه، وبما تدعو به، وبما ترجوه من الله عزّ وجلّ، وما تعمل من عمل إلاّ كنّا عليك شاهدا إذ تشرع فيه وحتى تنجزه على قدر ما تخلص فيه وتتقنه، أو تتحيّل فيه وتغشّ. وما يغيب عن الله تعالى شيء ممّا صغر ودقّ ممّا يجري في الأرض، ولا يبعد عن علمه، وكلّ صغير وكبير مسجّل ومضبوط بدقائقه في سجّل واضح يلقاه

صاحبه بين يديه يوم الحساب ليعرف فعله، وليحاسب عليه إن كان خيرا فخير وجزاء، وإن كان شرّا فإنّه يلقى ما يقابله من عقاب دون ظلم.

- أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ **(62)** :

هذه في تبشير المؤمنين العاملين الصالحات بحسن الخاتمة. والمعنى: ألاَ إنّ الذين وَالَوْا ربّهم بالطاعة، وصدَقُوا في إسلام أنفسهم إلى أمره، فإنّهم مُبَشّرون بأن لا خوف عليهم من فتنة الدنيا، ومن عذاب الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من زينة الدنيا ونعيمها فما أعدّ الله لهم من الخير والنّعيم أعظم فضلا وأدوم ممّا فاتهم.

- ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ **(63)** لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ **(64)** :

المؤمنون العابدون الذين يخشون ربّهم بطاعتهم له، وباجْتناب محرّماته طمعا في رحمته وخوفا من عذابه، يبشّرهم الله تعالى بحفظهم من المكروه في دنياهم، وباستغنائهم عن النّاس، وبالاستجابة لأدعيتهم، ويبشّرهم بالنّعيم الدائم في آخرتهم، وبالنّجاة من أهوال يوم القيامة. (لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ) لا تغيير لوعد الله عزّ وجل، وذلك هو الفوز الكبير الحقيقي: نعيم مقيم، ونجاة من العذاب.

- وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ **(65)** :

هذه لتسلية النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن ما يلقاه من قومه من تكذيب وهو الصادق الأمين. والمعنى: ولا تحزن – يا محمّد – بما يتّهمك به قومك بما يقولون فيك بأنّك ساحر، أو مجنون، أو كاذب تأتي بالقرآن من عندك. إنّ الغلبة لله تعالى، وإنّ القوّة كلّها له وحده، وهو السميع لما يقولون فيك، والعليم بما سيجري فيهم من العقاب بما يستحقّون ليعلموا أنّ ما جاءك من الوحي ومن الوعيد هو الحقّ من ربّهم.

- أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ **(66)** :

هذه لتسفيه عبادة المشركين. (أَلَآ) للتنبيه، والمعنى: اِنتبهوا – أيّها النّاس – فإنّ كلّ من في السماوات، ومن في الأرض من خلق من مُلْكِ الله تعالى. هو الذي أوجدهم وخلقهم ووهبهم نعمة الوجود، الله وحده هو المنفرد بالملك والألوهية، وهو صاحب الفضل والقدرة، وكلّ ما يُتَّبَعُ من إلاه غير الله هو من الادّعاء الباطل، ليس لله تعالى شركاء في الملكية والخلق، وما يتّبعه المشركون وما يدعون هو من الوهم، يعبدون ما لا حقيقة له في الألوهية، (وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ) أي إنّهم يكذبون فيما ينسبون إلى الله تعالى.

- هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ(67) :

إنّ الله تعالى هو الذي قدّر ليكون في الوجود زمن لترتاحوا فيه، وتهدؤوا بعد تعب النّهار، فأنشأ لكم ظلمة الليل، وجعل لكم النّهار مضيئا لتبصروا الأشياء، ففي خلق الليل والنّهار وفي تعاقبهما دليل على حسن تقديره، ودليل على ألوهيته، وفي ذلك حجّة قويّة لمن يسمع القول ويتفهّمه على إبطال وَهْمِ المشركين، وزعِمهم الباطل لأنّ آلهتهم التي يدّعون لم تخلق في هذا الوجود أيّ خلق، وفي ذلك دليل قويّ وبيّن على اِستحقاق الله وحده للألوهية للذين يسمعون وَيَعُونَ.

- قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (68) :

وينسب بعضهم لله الولد بغير علم، ومن وَهمه الباطل. تنزّه الله تعالى على أن يكون له زوجة وولد وهو المستغني عن الولد وعن الخلق جميعهم. يملك كلّ ما في السماوات، وكلّ ما في الأرض فهو الغنيّ عن الحاجة للولد. (إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ) هل عندكم حجّة ودليل، أو كتاب على ما تقولون وتدّعون. (أَتَقُولُونَ) اِستفهام للتّقريع والتّوبيخ على الكذب على الله تعالى عن جهل، وبغير حجّة وبرهان.

- قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (69) :

وهذه في وعيد المفْترين على الله الكذب، فإنّهم لا ينجحون في تماديهم في كذبهم لأنّ الحقّ سيظهر، وسيعلو على الافتراء، ولن يفوزوا في آخرتهم بشيء من النّعيم، أو بإفلاتهم من العذاب.

- مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ (70) :

سينعمون زمنا بحياتهم في دنياهم وبمتاعهم وممتلكاتهم، ثمّ بعد موتهم سيرجعون إلى الله تعالى ليحاسبهم على اِفترائهم عليه تعالى، ويذيقهم في آخرتهم أشدّ العذاب بسبب شركهم وكفرهم بوحدانية الله تعالى واِفترائهم عليه.

- وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ(71) :

هذه الآية مع الآيتين اللتين تليانها في خبر إنقاذ نوح عليه السلام وأتباعه من الهلاك بالغرق، وفي إلحاق العذاب بالكافرين، وهذا قصد تحذير كفّار العرب من أن يصيبهم مثل ما



أصاب الكافرين من قبلهم من عذاب الاستئصال. والمعنى: وِاقرأ – يا محمّد – على الكافرين خبر نوح عليه السلام إذ قال لقومه: إن كان قد عظم عليكم وجودي بينكم، وثقلت عليكم إقامتي بينكم دهرا طويلا، وشقّ عليكم وعظي لكم وإنذاركم بعذاب الله حتى ضقتم بي، ولم تعودوا تحتملونني، فعلى الله تعالى إعتمدت في مواصلة الموعظة والتّذكير، وإذا عزمتم على أمر وتدبير ضدّي سواءً بالطرد أو القتل فلا تجعلوا قراركم الذي عزمتم عليه سِرّيا مُبْهما، أو مكتوما، ثمّ اِمضوا في تنفيذ ما دبّرتم وأردتم بشأني، ولا تمهلوني ولا تتأخّروا في التّنفيذ. وهذا من أقوى التّحدّي للكافرين للتّأكيد على ثقته بتأييد الله لنبيّه والمؤمنين معه، ونصرته، ومن عمق إيمانه بأنّ العبد لا يصيبه شيء إلاّ بقضاء الله تعالى. وفي هذا المعنى يروى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال لابن عمه العبّاس: "... واِعلم أن لو اِجتمعت الإنس والجنّ على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بما قدّر الله لك، وأن لو اِجتمعت الإنس والجنّ على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلاّ بشيء قد قدّره الله لك، وأنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك..." (من حديث مطول رواه الترمذي).

- **فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (72) :**

فإن أعرضتم عن الإيمان، ورضيتم بكفركم، وأعرضتم عن سماع الموعظة، فإنّي لم أطلب منكم مالاً عمّا أدعوكم إليه من الرّشاد، إن أجري وثوابي وجزائي إلاّ على الله تعالى، ولقد أمرتُ بأن أكون من الذين يوحّدون الله تعالى ومن الذين يطيعونه ومن الذين لا يعبدون سواه، ومن الذين يُسلمون أمرهم كلّه لله عزّ وجلّ، ولا يدعون غيره، ولا يخشون أحدا غيره.

- **فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ (73) :**

وأصرّ قومه على التّكذيب به رسولا، والتّكذيب برسالته، فأمرناه بأن يركب هو والذين آمنوا معه الفلك الذي أمرناه بصنعه، ولمّا حدث الطوفان أغرقنا المكذّبين بهدي الله تعالى وبرسالته وبرسوله، وأنجينا ركّاب الفلك وجعلناه‌م يخلفون المُغْرقين، فاعتبرْ بسوء عاقبة الذين أنذروا بعقاب الله فاستخفّوا به، وكذّبوا به. والمقصود بالأمر بالاعتبار كلّ مكذّب برسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم.

- **ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ (74) :**

ثمّ بعثنا من بعد نوح عليه السلام عددا من الرّسل فجاؤوا أقوامهم بدلائل صدقهم فيما يدعونهم إليه من عقيدة التّوحيد، ونبذ الشّرك، ومن الدعوة لخشية الله تعالى ووعيده إن لم يؤمنوا،

وجاؤوهم بالمعجزات ليؤمنوا ويصدّقوا بهم، ورغم ذلك لم يصدّقوا بما جاءتهم به رسلهم، ولم يصدّقوا بالتّوحيد الذي كذّبوا به من قبلُ، وكانوا مشركين. وكذلك نختم على قلوب المجاوزين حدّهم في التّكذيب، وفي رفض التّصديق بالرّسل، وفي إصرارهم على الاعتداء على حقّ الله تعالى في توحيده، والإقرار له وحده بالألوهية.

- **ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (75) :**

هذه الآية إلى غاية الآية 93 في خبر موسى عليه السلام مع فرعون وملئه من جهة وكانوا قد كفروا به، ومن جهة أخرى مع قومه من بني إسرائيل الذين آمنوا به، وفي خبر ما أصاب الكافرين من سوء بسبب تكذيبهم بموسى، وفي إنجاء موسى وهارون والتابعين لهما من ظلم فرعون وملئه. والغاية: بيان تأييد الله تعالى لعباده المؤمنين، ولإنذار الكافرين المكذّبين برسل الله، وخاصة النّبيّ الرّسول الخاتم صلّى الله عليه وسلم. ويفيد الحرف (ثُمَّ) التّراخي في الزّمن. والمعنى: وبعد زمن من بعثة أولئك الرّسل أرسلنا موسى وهارون إلى حاكم مصر: فرعون، وملئه برسالتنا مُؤَيِّدِينَ موسى بالمعجزات، ولكنّهم اِستكبروا عن الإيمان بالله تعالى وعن التّصديق برسالة موسى، وكانوا مجرمين في حقّ بني إسرائيل، وفي ادّعاء فرعون الرّبوبية لنفسه.

- **فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (76) :**

ولمّا بلغت فرعونَ وملأه رسالةُ موسى لتوحيد الله تعالى، ورأوْا المعجزات ليعلموا أنّ ما جاءهم به موسى في رسالته هو حقّ من عند ربّه اتّهموا رسول الله موسى بأنّه ساحر، ورموا المعجزات بعمل السِّحر الواضح.

- **قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ (77) :**

واِستغرب موسى عليه السلام من اِتّهامه بالسّحر، وبادّعائهم عليه بأنّ المعجزات التي أظهرها لهم هي من أعمال الشعوذة، والحال أنّ إتيان السّحر وأعمال الشّعوذة هو في كلّ دين من المعاصي، ولا يفلح الساحر في خداع جميع النّاس.

- **قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (78) :**

وجادلوا موسى فيما دعاهم إليه من عبادة الله تعالى وحده، فقالوا له: أجئتنا بدعوة لتصرفنا بها عن عبادة ما كان يعبد آباؤنا من آلهة (وكان للمصريين حسب زعمهم آلهة عدّة أعظمها إلاه الشمس وإلاه الحرب، وعندهم إلاهة الجمال، ويعتبرون فرعون من سلالة الآلهة)، وظنّوا أنّ ما جاءهم به موسى يريد به أن يكون له ولأخيه شأنٌ من الملك والعظمة في بلادهم الواسعة. وعبّروا لهما عن رفضهم لدعوتهما وأنّهم لن يصدّقوا بهما رسولين من عند الله تعالى، ولا برسالتهما.



- وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ (79) :

ودعا فرعون جنده لأن يجمعوا له كلّ ساحر ماهر في فنّ السحر ليناظر بهم موسى وأخاه في فنون السحر، وكان قصده إبطال سحرهما، وكشف اِدعائهما الباطل – في ظنّه – وفضحهما على رؤوس الملإِ حتى لا يَعُودَا لمثله.

- فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ (80) :

فلمّا جمعوا له السحرة من أنحاء البلاد، واِنتظمت المناظرة، قال موسى للسحرة أظهروا ما عندكم، وألقوه على أعين النّاس.

- فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ(81) :

فلمّا ألقى السحرة عصيهم وحبالهم، وجعلوها بسحرهم تتحرّك كأنّها ثعابين، قال لهم موسى: ما فعلتم هو السّحر والشعوذة، وإنّ الله تعالى سيذهبه، إنّ الله لا يُوفّق المفسدين في أعمالهم.

- وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ (82) :

ويُثبت الله تعالى الحقّ الذي جئتكم به بحججه وبالدلائل والمعجزات رغم أنف المجرمين الكارهين للحقّ وظهوره.

- فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٍ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ (83) :

ولم يؤمن بموسى ويصدّق برسالته إلاّ جماعة من شباب قومه من بني إسرائيل مع خوفهم من بطش فرعون وأعوانه الذين كرهوا لدعوته أن تظهر وأن تنتشر، والذين كانوا يعذّبون كلّ من يعلمون أنّه آمن بموسى ليجبروهم على الكفر به، وإنّ فرعون متطاول على النّاس ومُستَعْلٍ عليهم، وجبّار في الأرض، وإنّه لَمِنَ المتجاوزين حدودهم في ظلم النّاس وقهرهم، والبطش بهم بالتّعذيب.

- وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ (84) فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (85) وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ (86) :

وقال موسى لأتباعه لشدّ أزرهم ولتثبيتهم على الإيمان، وحتّى لا يترتدّوا عن عقيدة التوحيد واِتّباع نبيّهم موسى خوفا من فرعون وترهيبه: لا تخشوا فرعون إن كنتم صادقين في إيمانكم بالله تعالى وبرسالته، وعليه اِعتمدوا، وضَعُوا ثقتكم به جلّ وعلا إن كنتم قد أسلمتم أنفسكم لأمر الله تعالى بحقّ. فقال القوم: على الله اِعتمادنا، وبه ثقتنا. ربّنا لا تتركنا موضع عذاب بين أيدي القوم الظالمين للنّاس لإجبارهم على الكفر بالإكراه، وبالبطش. وأُكتب لنا يا ربّنا النّجاة من القوم الكافرين بفضيلة رحمتك.



- وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ **(87) :**

وأمر الله تعالى موسى وأخاه هارون أن يتّخذا لقومهما بيوتا بمصر، وينزلاهم فيها، وأن يجعلوا بيوتهم مساجد لهم ليصلّوا فيها سرّا ليأمنوا فتنة فرعون وملئه، وقبلتهم في أيّ ركن من أركان بيوتهم، وقال بعضهم وقبلتهم كانت إلى بيت المقدس، وبشّر المؤمنين – يا موسى – بأنّ الله مُظْهرهم على أعدائهم، ومفرّج عليهم كربتهم.

- وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ**(88) :**

وقال موسى مناجيا ربّه: إنّك منحت فرعون وملأه خيرات كثيرة، ذهبا وفضّة ولباسا وبساتين ورياشا وقصورا في الحياة الدنيا لينحرفوا بها عن طاعتك وشكرك ويزدادوا بها كبرياء، وجورا على المستضعفين، فأهلك عليهم أموالهم، وانزعها منهم بالتَّلَفِ، واطبع على قلوبهم وزدها تحجّرا حتّى لا تلين للإيمان إلى أن يشهدوا العذاب الأليم حسرة وقهرا على ما ضاع منهم، وذهب عنهم وهلك.

- قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ **(89) :**

وأوحى الله تعالى إليهما بأنّه مستجيب لدعائهما، وعليهما أن يمضيا في الدعوة، وأن يقيما شرع الله تعالى على نحو ما نزل عليهما، وأن لا يتّبعا منهج الذين يجهلون حقيقة وعيد الله، فيستعجلان قضاء الله في فرعون وملئه.

- وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ **(90) :**

ولمّا حان قضاء الله تعالى للفصل بحكمه بين المؤمنين والكافرين الظالمين، أوحى الله تعالى لموسى بأن يخرج ببني إسرائيل من مصر، وأن يسير بهم على الأقدام ليلا ليشقّ بهم نهر النّيل لدفته الأخرى، ولمّا تخطّى موسى بقومه البحر بقدرة الله تعالى، وبلغ فرعونَ خبرهم، خرج إليهم في جمع من جنده يطلبهم طغيانا وظلما، وقد عزم على الاعتداء عليهم بالفتك والتّقتيل، ولمّا بلغ فرعون الطريق الذي سلكه المؤمنون من بني إسرائيل مع نبيّهم ومع هارون وتوسَّطه مع جمعه أطبق عليهم الموج وأحاط بهم فغرقوا في يَمِّه، وحين أدرك فرعون الغرق قال حينها لينجو بنفسه من الموت وقد شهد علاماته: آمنت أنّه لا إلاه إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنا من الذين أسلموا أمرهم لربّ موسى.

- ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (91) :

أفي هذا الحين وأنت تغرق وقد شعرت بهلاكك تؤمن بالله الذي دعاك موسى للإيمان به، ولعبادته وطاعته، وحين كنت في عافيتك وقوّتك كفرت به، وأنكرت ألوهيته، وكنت من الذين يصدّون عن سبيله، وتعذّب المؤمنين لتكرههم على الكفر.

- فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ (92) :

فاليوم نلقي بجسدك على مرتفع من الأرض جثّة هامدة لتكون محلّ عبرة لكلّ كافر وطاغية من بعدك، وإنّ كثيرا من الكافرين المعاندين عن دلائل الله وآيات قدرته غير معتبرين غفلةً وكبرياء.

- وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ (93) :

وأمّا المؤمنون من بني إسرائيل فقد أنزلناهم بعد نجاتهم من فرعون وجنده بعد أن جاوزنا بهم البحر أرضا صالحة مرضية هي أرض فلسطين، وأنعمنا عليهم بالطيّبات من الرّزق. (فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ) ولقد كانوا يؤمنون بمجيء نبيّ أمّيّ خاتم كما أنبأهم به نبيّهم موسى، فلمّا جاءهم هذا النّبيّ الذي كان لهم به علم بمجيئه اِختلفوا بين مؤمن ومصدّق من مثل عبد الله بن سلاّم، ومنهم من تجاهل العلم به، ولم يصدّق به. إنّ ربّك – يا محمد – يقضي بينهم حين يحاسبهم يوم القيامة عمّا علموا به ثمّ لما جاءهم ما علموا به إختلفوا عليه.

- فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ (94) :

الخطاب موجّه لكلّ من يشكّ في التّنزيل: أهو حقّا وحي من عند الله تعالى. والمعنى: فإن كنت في شكّ ممّا أنزلنا على محمّد ليكون بين يدي كلّ مؤمن ليقرأه لينتفع بمواعظه وهديه وأحكامه فاسأل أهل الكتاب الذين أنزل عليهم كتبٌ من قبل هذا القرآن لتعلم وتتأكّد بأنّه قد جاءك الوحيُ الحقّ الثّابتُ من عند الله تعالى، فلا تكوننّ من الشاكّين أو المتردّدين.

- وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (95) :

فإذا تأكّدت من ثبوت الوحي والتّنزيل فلا تكن من الذين يكذّبون بالقرآن وبالوحي فتكون من الذين يخسرون آخرتهم، ويخسرون رضوان الله جلّ وعلا.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ (96) :

إنّ الذين وجبَ عليهم سخط الله تعالى لا يهتدون للإيمان.

- **وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ (97) :**

وهؤلاء هم المعاندون الذين لا يصدّقون بأيّ معجزة تأتيهم إلاّ حين يحلّ عليهم العذاب الموجع.

- **فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَـٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٍ (98) :**

لمْ تَنْجُ أية قرية من الأمم السالفة من الذين كذّبوا رسلهم من العذاب حين ظهرت أماراته إلاّ قوم يونس عليه السلام. قيل إنّ القوم لمّا فقدوا يونس شعروا أنّ العذاب آتيهم، فخافوا من الهلاك، وجعلوا يبتهلون إلى الله تعالى يسألونه الرّحمة والتوبة، ويستغفرونه. قيل: ظلّوا على هذه الحال أربعين ليلة فكشف الله عنهم العذاب، وأبقاهم الله زمنا ينعمون فيه بالحياة إلى آجالهم.

- **وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ (99) :**

تفيد الآية أنّ الإيمان أمر اِختياري لا يكون بالجبر ولا بالإكراه، كلّ إنسان مسؤول عن نفسه لأن يتديّن بدين ينضبط لشرعه وتعاليمه طلبا لسلامة نفسه من غضب ربّه، أو لأن يكون رافضا للتديّن عنادا، أو اِستكبارا، أو عن جهالة، أو تكذيبا، أو اِتّباعا لهواه حتى يتحلّل من كلّ اِنضباط لحكم أو طاعة، ولا يخشى في هذا عقابا ولا عذابا، ولا يصدّق بهما. شأنه في هذا الاختيار: بين الاتّباع للدين والإيمان، وبين التولّي عنه ورفض التّصديق، كشأنه في اِختياره لمنهجه في عمله في حياته. فمن النّاس من يجتهد في أن يعمل صالحا على ما يُعتَبَرُ في الدّين، وفي العرف الاجتماعي والأخلاقي، وفي الأحكام والقوانين الوضعية من أعمال البرّ، ومنهم من لا يعمل إلاّ ما يراه صالحا لنفسه، وما يحقّق به مصالحه وإن كان في ما يعمله يخالف به الأحكام الشرعية والقوانين الوضعية والعرف الاجتماعي والأخلاقي.

كلّ إنسان مسؤول عن نفسه في اِختياره لمنهج حياته في عنصري الإيمان والعمل. وما جُعِلَ الحسابُ لجميع الخلق يوم القيامة إلاّ ليسألوا عن إيمانهم وعن عملهم وذلك بعد أن يستوفوا آجالهم في حياتهم الدنيوية.

وجاءت الآية لتدلّ على أنّ الإيمان يجب أن يكون إراديا، وعن قناعة ثابتة في القلب والعقل ليكون مجزيًّا عنه أو معاقبا عن الكفر به إن كفر، ولو شاء الله لجعل النّاس جميعهم مؤمنين، ولكن شاء الله تعالى أن يجعله من مسؤولية كلّ إنسان لاختباره في اِختياره. ومن رحمة الله تعالى أن أرسل لكلّ أمّة رسولا ليرفع عنهم جهالتهم بالدّين، وليرشدهم للصواب في الدّين والعمل وليحذروا الضّلالات، وليعرفوا الحقّ ويهتدوا إليه، وليخرجهم من الظلمات إلى النور، وأنزل إليهم



كتبه ليعرفوا بها شرعه، وهداه، ومواعظه، ولينذرهم من عاقبة الكفر وعمل السيّئات لئلاّ تكون لهم على الله تعالى حجّة بعد الرّسل.

وكلّف الله تعالى رُسُلَه بالتّبليغ، وحَصَر مهمّة كلّ رسول في البلاغ المبين، ولذلك جاءت الجملة (أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ) لتخفيف المعاناة على الرّسول محمد صلّى الله عليه وسلّم الذي كان حريصا على أن يؤمن جميعُ النّاس من حوله، فقد أحزنه كفر قومه وتكذيبهم له، فأنزل الله تعالى سكينته عليه بهذه الجملة ليعلم أنّ الإيمان لا يكون بالإكراه ولا بالجبر، وإنّما يكون عن إرادة حقيقية وعن قناعة، وعن يقين، وعن خشية من الله تعالى، وعن رغبة في رضوانه ونعيمه، وعن طمع في السلامة من أليم عذابه وعقابه. كذا يجب أن يكون اِختيار الإنسان للإيمان واتّباع دين الله سبحانه.

ومن غريب أمر بعض النّاس محاربتهم لعقيدة الإيمان بالله تعالى في أقوامهم، كالذي فعله نمرود، الذي ادّعى الربوبية في الكنعانيين: قوم إبراهيم، وزعم أنّه يحيي ويميت، كره لقومه أن يتّبعوا دعوة إبراهيم عليه السلام، فأهلكه الله جلّ وعلا. واِستكبر فرعون في أرض مصر، وادّعى لنفسه الألوهية، وكذّب بموسى وهارون، وبالآيات التي جاءته، وفتن بني إسرائيل أتباع موسى في دينهم، وآذاهم، فأغرقه الله جلّ وعلا في اليمّ على أعين النّاس. وكذّب زعماء قريش بدعوة محمد صلّى الله عليه وسلّم لنبذ الشّرك، وقاوموا دعوته للإسلام وللتوحيد، وشاقّوه، وآذوا المستضعفين من أتباعه، وما كان هذا منهم إلاّ عنادا، وإصرارا على الكفر فقُتلوا يوم بدر على أعين الأشهاد.

وفي عصرنا الحديث نشهد بعضا من المنتسبين لمَا يسمّونه بالتّيار اليساري، أو لما يعتبرون أنفسهم حداثيين يدعون للتحرّر من الأحكام الدينية الشرعيّة لاستبدالها بقوانين مدنية وضعية، ويرمون دعاة المحافظة على هوية البلاد الإسلامية والرافضين لتوجّهاتهم بالتّعصّب والتّزمّت أو التخلّف. ومن عجيب أمر هؤلاء أنّهم يدعمون آراءهم التي تقوّض أركان الإيمان بالاستشهاد بقوله تعالى: (فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ (الكهف الآية 29)) وبقوله تعالى : (لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ (البقرة الآية 256)) في غير موضعهما، وفي غير القصد الذي جاءت به الآيتان، ويتّهمون الداعين للمحافظة على أركان الإيمان بأنّهم ضدّ "حرية المعتقد"، وضدّ "حرية الضمير". وكأنّ هذين المصطلحين لا يعنيان أن يحترموا المؤمنين بأن لا يطعنوا في معتقدهم، ولا في مقدّساتهم، وبأن يكفّوا عن إيذائهم. لقد عمد بعض الرؤساء الجبابرة الطغاة لأن يشرّعوا في مجتمعهم الإسلامي الإفطار في رمضان باسم الاجتهاد، باعتماد قياس باطل، واِجتهاد في غير محلّه، بل أجبروا الأمنيين والجند ومن والاهم من المسؤولين على المجاهرة بالإفطار في شهر الصيام، وعمد آخرون لغلق المساجد ومتابعة المصلّين متابعة لصيقة ملصقا تهمة الانقلاب على النظام

كلّ من عارض هذا الإجراء، وعمد لمراقبة الخطب الجمعية لتمييعها، وأفرغ البرامج التعليمية الخاصة بالدروس الدينيّة من جوهرها، كلّ ذلك لتقويض أركان الإيمان في المجتمع، فما كان من أثر ذلك إلاّ زرع الفتنة في النّاس وقيام الثورات، وانقسام المجتمع لطوائف، وتفشّي الظلم، والتفسّخ الأخلاقي في أوساط جمهور من الشباب، وتقوّضت أركان الإسلام، وضُرِبَت القيم في المعاملات بين النّاس، وفي مجال التثقيف، وانحدر المستوى التعليمي. فهلا علموا أنّ في تدعيم أركان الإيمان الصحيح القائم على أساس العدل والعمل الصالح والإخلاص فيه وفي الطاعات صلاحا للنّاس ولوحدة المجتمع، والنّشأة على القيم النبيلة، فما لهؤلاء يحاربون ما ينفع، ولا يضرّ بوسائل تضرّ، ولا تنفع، ولا تتأتّى منها إلاّ المهالك؟

- **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (100) :**

إذن الله تعالى هو هديه. ومن الأنفس من تتقبّل هدي الله تعالى فتؤمن، ومنها من لا تتقبّله ويطغى عليها حبّ الهوى والشهوات وترفض الانضباط لأيّ شرع أو أيّ حكم، فهذه يقع عليها رجس الله، وهو غضبه وسخطه، وهؤلاء لو كانوا يعقلون لآمنوا، ولكنّهم قوم قد غاب عن عقولهم الوعيُ.

- **قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (101) :**

قل – يا محمد – لهؤلاء الذين يطلبون منك المعجزات ليصدّقوك: تأمّلوا في ما خلق الله في السماوات وما في الأرض وستعرفون الكثير من الآيات المعجزة. وما ينفع الإتيان بالمعجزات، وجميع آيات النُّذُرِ، والمواعظ مع قوم معاندين لا يصدّقون إلاّ ما تهوى أنفسهم.

- **فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ (102) :**

هل ينتظرون عذابا وعقابا كالذي حدث مع أمم سالفة سبقتهم بالكفر والتكذّيب برسلهم ليؤمنوا؟ قل فانتظروا وتربّصوا إنّي معكم من المنتظرين لما سيكون مستقبلا لنعرف ماذا ستفعلون، ومن كان منّا أصدق حديثا.

- **ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (103) :**

وقضى الله تعالى – حين ينزل عذابه على القوم الكافرين – أنْ ينجي رسله والذين آمنوا معهم من فتنة العذاب، ويحفظهم منه ومن أهواله: كذا قضى الله جلّ وعلا أن يحفظ المؤمنين جميعهم من كلّ عذاب، ومن كلّ أهواله، ويقيهم من كلّ شرّ. وهذا وعد حقّ أمانًا لهم.

- **قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (104) :**



هذا قول فصل لحسم الخلاف بين الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وبين المشركين، وهذه وما يليها آية تنبئُ باختتام السورة للردّ على ما جاء في أولها: (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ) وفيها ردّ على التّشكيك، وكلّ اِتّهام بالتّكذيب وكذا يتمّ الربط بين المقدمة والخاتمة. والمعنى: قل – يا محمّد – لمن يشكّك في نبوّتك ورسالتك، ويكذّب بدينك: إن كنتم لا تصدّقون بما أدعوكم إليه من نبذ الشرك لاتّباع دين الله: الإسلام الذي جئتكم به من عند ربّي، فإنّي لا أعبد ما تعبدون من الآلهة المزعومة غير الله تعالى.

إنّي لا أعبد إلاّ الله وحده الذي قضى أن يتوفّى كلّ الأنفس ليردّها إليه لمحاسبتها على ما كانت تؤمن به، وعمّا كانت تعمل، وقد أمرتُ أن أكون ضمن عباده المؤمنين المصدّقين بوحدانيته والعابدين له، والمطيعين له سبحانه.

- وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (105) :

لئن كان الخطاب في هذه الآية موجّها للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأنّه في صيغة المخاطب المفرد، إلاّ أنّ كلّ مؤمن مسلم معني به، وكذا الأمر في الآيتين المواليتين. والآيات الثلاث في تركيز عقيدة التّوحيد. والمعنى في (وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا) اِصرف ذاتك، وأسلمْ نفسك للدين المستقيم الذي لا اِعوجاج له، وهو دين التّوحيد: دين الإسلام الحنيف المائل عن الشّرك، واحذر أن تكون من المشركين، فالمشركون في ضلال.

- وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (106) :

ولا تعبد غير الله، فإنّ عبادة غير الله لا تنفعك بشيء، ولا تردّ عنك سوءا ولا ضرّا، فإنّك إن فعلت دعوت أصمّ وعاجزا، وعندئذ تظلم نفسك باتّخاذ الطريق البعيد عن الصواب، والمائل عن الحقّ.

- وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (107) :

إذا أصابك سوء ومكروه، أيّها الإنسان، فلا دافع له إلاّ الله سبحانه لأنّه هو كاشف الضرّ وهو اللطيف، وإذا أراد الله بك خيرا، وأن يسوق إليك نِعمَه الظاهرة الوفيرة فلا أحد من الخلق يقدر أن يحول بينك وبين وصول نِعَمه إليك، وإنّ فضل الله تعالى يبلّغه لمن يشاء من عباده، لا يردّه أحد، والله هو الغفور لعباده التائبين يعفو عن سيّئاتهم ويسترها عليهم، وهو الرحيم بعباده المؤمنين يوم الحساب بأن يؤمنّهم عن أنفسهم من أهوال يوم القيامة.

- قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (108) :



موعظة عامّة للنّاس جميعا. قد جاءكم من الله تعالى (ٱلۡحَق) هو القرآن بما فيه من هدى وشرائع ومواعظ وحجج وأدلّة، فمن اهتدى فقد نفع نفسه باهتدائه، ومن أعرض عن سماعه واِبتعد عن الاهتداء به فقد جنى على نفسه، وليس الرّسول صلّى الله عليه وسلّم حفيظا عليكم، وأمركم ليس موكولا إليه، كلّ إنسان مسؤول عن نفسه وعن اِختياره لمنهج حياته في إيمانه وعمله.

- وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ **(109)** :

وهذه لتثبيت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم. والمعنى: واصل في تبليغ ما يوحى إليك من كلام الله تعالى، واِعمل بما جاءك فيه من أمر. واِصبر عمّا يقولون فيك من تشكيك وتكذيب واِتّهام باطل حتى يقضي الله أمرا قدَّره، وهو خير الحاكمين بالعدل والقسط ولا يردّ قضاؤه وحكمه.



| رقمها | سورة هود | آياتها |
| --- | --- | --- |
| 11 | ـــــ مكيّة ـــــ | 123 |

روي عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: "شيبتني هود وأخواتها". ولم يعلّل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عمّا هَالَهُ فيها حتى يكاد يشيب الرّأس حين يقرؤها ويقرأ أخواتها التي هي السور التي تفتتح بالأحرف : "ألر" وهي سور: يونس، يوسف، الرعد، إبراهيم، والحجر.

ولعلّ من أهمّ ما يَجمع بين هذه السّور هو : وصف عناد الكافرين المشركين بالله تعالى، الذين يكذّبون بالتّوحيد، وبالرّسل، وكتبهم، ويستخفّون بالوعيد، ويصدّون عن سبيل الله، ويؤذون المؤمنين، ولم يكونوا من الشاكرين الله على نِعَمه، وقد هلك هؤلاء بعذاب الاستئصال للاعتبار بسوء عاقبتهم.

- وفيها أنّ الله تعالى ناصرٌ رسله وعباده المؤمنين، وواعدهم بالتي هي أفضل في آخرتهم.
- وجاء في هذه السور الكثير من البراهين والحجج التي يستدلّ بها على التّوحيد وآيات القدرة لمن نظر في الآيات الكونية بعين البصيرة، ولمن ألقى السمع، وتدبّر من الذين يعقلون.
- وفيها ما يبشّر المؤمنين العاملين الصالحات بالنّصر المبين على أعدائهم وبالفوز بالنّعيم الدائم في جنان التكريم في آخرتهم وعدًا حقّا، وترغيبا فيما عند الله من الخيرات.

وفي سورة "هود" إضافة للعناصر المذكورة :

- تحدّي المكذّبين بالقرآن والذين يتّهمون الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالافتراء بأن يأتوا بعشر سور مثله لإبطال زعمهم.
- وفيها اِجتماع الرسل الذين ورد ذكرهم في هذه السورة على دعوة أقوامهم "للاستغفار" بما يدلّ على أهمية هذا الدعاء للظّفَر بالأمان من عذاب الله عزّ وجلّ. وجميعهم بلّغوا أقوامهم أنّهم يريدون الإصلاح ما اِستطاعوا.
- وفيها آيات ترغيب وآيات ترهيب شأن كلّ السّور المكية تبشيرا، وإنذارا.

• الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2) :

(الٓر ) حروف مقطّعة لا يعلم مدلولها إلاّ الله تعالى: وتأتي مُفْتَتِحَةً لبعض السور القرآنية. والكتاب في هذه الآية هو القرآن الكريم، وصف بأنّه قد (أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ) أي نُظّمت تنظيما



مُحكمًا ليس فيها اِضطراب أو تناقض. (ثُمَّ فُصِّلَتۡ) أي نزلت واضحة ومبيّنة ما يشكل على النّاس فهمُه من عند (حَكِيم) يحسن الإرشاد للهدى، ولما يبعد عن الضلالات، (خَبِير) بما ينفع النّاس لدينهم ومعاشهم ونظام حياتهم، ولما يحقّق لهم سعادتهم.

وقد جاء هذا الكتاب ليدعو النّاس جميعا لأن لا يعبدوا إلاّ الله وحده، وما سواه من الآلهة هي من الزّعم الباطل. (إِنَّنِي) أنا الرّسول النّبيّ محمّد قد أرسلت إليكم أيّها النّاس من عند الله الواحد الأحد صاحب هذا الكتاب لأحذّركم من عقابه وعذابه إذا تولّيتم عنه لغيره من الآلهة الباطلة، ولأبشّر المؤمنين به، والمطيعين لأمره بالفوز برضوانه وفضائله.

- وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ (3) إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (4) :

الآيتان في ما جاء في رسالة النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم لقومه في أول عهد البعثة. وقد جاء فيها دعوة القوم لطلب مغفرة ربّهم عمّا كان منهم من شرك بربّهم الحقّ، ودعاهم للتوبة ممّا كانوا يفعلون من تقديس لآلهتهم المزعومة، وعمّا كانوا يشرّعون لأنفسهم من شرائع ما أنزل الله من سلطان، وهذا لَيمُنَّ الله عليهم بالرخاء والخيرات الحسان والبسط في الرّزق إلى حين حضور الأجل المحتوم الذي قدّره الله تعالى لهم. وإنّه تعالى يعطي كلّ عامل وكلّ مؤمن طائع خيرًا جزاء إيمانه وطاعته. وإن أعرضوا عن سماع الوحي، وعن الإيمان بالتّوحيد، وعن نبذ الشّرك، وأعرضوا عن الاستجابة لدعوتك يا نبيّ الله فأنذرهم بأنّك تخاف عليهم من أن يحلّ عليهم عذاب الله في يوم عظيم شديد الهول. أخبرهم بأنّهم راجعون إلى الله تعالى لمحاسبتهم عن إيمانهم وعن طاعاتهم لأمره وشرعه، وأنّ الله قادر على إعادة الحياة لهم بعد مماتهم بمثل ما كان قادرا على إيجادهم وإحيائهم.

- أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (5) :

هذه في وصف عجيب موقف الرّافضين لدعوة الرّسول محمد صلّى الله عليه وسلّم. من عجيب أمرهم أنّهم حين يرونه في مجلس يُطأْطِئُون رؤوسهم حتى يكادوا يطوونها مع صدورهم ليتحاشوا رؤيته، ويعمدون لفعلهم هذا للتخفّي عنه صلّى الله عليه وسلّم. وأحيانا يعمدون إلى تغطية رؤوسهم بلِحَافهم حتّى لا يراهم الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ويتعرّف إليهم، ولا يدرون أنّ الله تعالى عليم بما يفعلون وبما يحدّثون به أنفسهم، وبما يتحدّثون به مع بعضهم جهرا من رفضٍ لدعوته للتوحيد ونبذ الشّرك، ومن رفضٍ للاعتراف له باصطفائه بالرسالة إليهم.



ولا يدركون أنّ الله تعالى لا يخفى عليه شيء ممّا تخفي صدورهم من حسد، وعناد، وإصرار على الشّرك عنادا وجهلا.

- **وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ(6):**

آية تدلّ على فضل الله تعالى على خلقه، وعلى سعة اِطّلاعه بخلقهم وفنائهم، فهو سبحانه الذي يسوق لكلّ ما يدبّ على الأرض – إنسيًّا كان أو غير إنسيّ – رزقه وطعامه ليحيا إلى أجله، ويعلم ببدء نشوئه في الرّحم، أو في البيض قبيل أن يخرج حيّا يسعى في الأرض، ويعلم سبحانه مستقرّه في الأرض إذا مات، ومَدْفنه. كلّ شأن من شؤون خلقه مُسَطَّرٌ في سجل الخلق بوضوح، وببيان دقيق مفصّل.

- **وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ (7) :**

هو سبحانه الذي خلق السماوات والأرض، وما من إلاه غيره قد خلقهما، لذلك فهو الأحقّ بالألوهية والعبادة والتقديس والطاعة، خلقهما في ستّة أزمنة – واليوم هنا يعني فترة زمنية لا يعلم حصرها بالزّمن الذي نحسب به يومنا على الأرض إلاّ الله تعالى، فقد يبلغ هذا اليوم عند الله تعالى مليون سنة من سنواتنا على الأرض. اليوم المذكور هنا هو الزّمن الذي نشأ فيه الكون قبل خلق الأرض، لم تكن هناك أرض ولا زمن.

(وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ) هذا ممّا يغلق على كلّ إنسان فهمه، فالجملة تتحدّث عن شيء كان مخلوقا قبل خلق السماوات وقبل خلق الأرض، والكون عموما. ويُستشار فيها أهل العلم المتخصّصون في دراسة نشأة الكون كما يتصوّرون تصوّرا نسبيا، وحتما فإنّ العلم بهذا عند الله تعالى وحده. (لِيَبۡلُوَكُمۡ) الخطاب في الفعل للنّاس جميعهم، ويفيد سياق الآية الّذي يتحدّث عن الخلق، أنّ الله تعالى خلق البشر منذ آدم عليه السلام إلى أن يأذن بالقيامة ليُختَبَرُوا في إيمانهم وأعمالهم في حياتهم الدنيوية.

(وَلَئِن قُلۡتَ) الخطاب هنا للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم للإخبار. والمعنى: وحين تبلّغ قومك – يا مجد – بأنّهم مبعوثون بعد موتهم بين يدي ربّهم لمحاسبتهم عن إيمانهم وعن أعمالهم، فإنّ الكافرين بيوم البعث سيكذّبونك، ويصفون البعث بعد الموت من عمل السحر الواضح إذا وقع، وهم لا يتوقّعون حدوثه، ولا يصدّقون به.

هذه الآية تضمنّت أربعة عناصر: الاستدلال بخلق السماوات والأرض على ألوهية الله تعالى ووحدانيته، والعنصر الثاني في علم لا نعرف كُنْهَهُ، والعنصر الثالث في غاية خلق البشر،



والرابع في الإخبار عن موقف المكذّبين بالبعث. وجاءت العناصر الأربعة المختلفة في الموضوع اِختلافا بيّنا في الغرض والزمن والمخاطب، وفي أسلوب متناسق في التّعبير واِنتقال سلس من عنصر لآخر، فهل يستطيع أيّ كاتب فصيح بليغ أن يأتي بمثل هذه الآية في مفردات معدودة، وفي جمل قصيرة، وفي سطرين يعبّر فيهما عن الشيء وغرضه. أليس في هذا من الإعجاز البياني الذي لا يمكن الإتيان بمثله؟

- وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (8) :

هذه في تأكيد وعيد المكذّبين به وإنذارهم، والمعنى: وإذا أخّرنا العذاب الذي توعدنا به المكذّبين من الكفّار إلى أمَدٍ، وزمن، وأجل معيّن محدّد فإنّهم يقولون – اِستهزاءً وتكذيبا له – ما بال هذا العذاب قد تأخّر، ما الذي أعاقه ومنعه من النّزول؟ (ألا) للتنّبيه، ألا إذا حان أجل نزوله فإنّه لا يُرفع عنهم حتى يهلكهم جميعا، ولا يُفْلِتُ منهم أحدا، وعندئذ سيحيط بهم ما شكّكوا في وقوعه، وتندّروا به سخرية، واِستبعادا لحدوثه.

- وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10) :

الآيتان في مظهرين من مظاهر جحود النّاس. إذا كان الإنسان في نعيم وسعة من الرزق والرّفاه، ثمّ أصيب فيما تفضّل به الله تعالى عليه فقدر عليه رزقه، وذهب عنه ما كان فيه من رخاء وسَعة ورفاه فإنّه يَرْكَبُه القنوط من رحمة الله، ويتحوّل إلى إنسان كثير السخط والكفر، وينسى ما كان عليه من فضل الله تعالى، ولم يكن قد قيّد النّعمة بالشكر. وحين يكون الإنسان في فاقة وعسر ثمّ يتفضّل الله تعالى عليه بالخير والرّزق والسّعة يُسَرّ بزوال النّوَائب عنه وزوال البؤس، ويبطر بالنّعمة، ويتكبّر على النّاس بما آتاه الله جلّ وعلا، ويغترّ، ولا يشكر. وكلاهما جاحد، لا يذكر رحمة ربّه في ضرّائه بعد يسره، ولا في سرّائه بعد بؤسه.

- إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (11) :

وأمّا المؤمنون فعند عسرهم وشدّتهم يصبرون حتى يفرّج الله عنهم كُرَبهم، ويداومون في جميع أحوالهم على طاعة ربّهم ودعائه، وهؤلاء يبشّرهم الله تعالى بالمغفرة، وبأن ينعم عليهم بالثواب الجزيل جزاءً لهم على صبرهم وعلى طاعتهم لربّهم.

- فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (12) :

هذه في تثبيت النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم حتى لا يتأثّر بما يضايقه به زعماء قومه.

كانوا يكذّبونه، ويشاقونه بمجادلته بالهزء من الوعيد وإنذاره، أو بتحدّيه لأن يأتيهم بما يطلبون من معجزات، وكانوا يرجون بمواقفهم هذه منه أن ينصرف عمّا يدعوهم إليه من عقيدة التّوحيد، ونبذ الشّرك، ويتوقّف عن قراءة ما يوحى إليه على مسامعهم. وكانوا يقولون له: لولا أنزل عليك كنز فأغناك من فقرك وبسط عليك الرّزق لكان خيرا لك من هذا الوحي الذي ينزل عليك كلاما، ولولا جاء معك ملك من السماء ليصدّقك وينصرك، وكانوا يريدون بما يقولون أن يضيق به صدره فيكفّ عن الدعوة لدينه الجديد. وجاء هذا الوحي ليسلُوَ عنه وليعلم أنّما هو محذّر العصاة من عقاب الله تعالى، والله جلّ وعلا قيّمٌ على كلّ شيء، وحافظ لما أنزل، وإليه التّدبير.

- أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ **(13)** :

الآية في تحدّي الذين يتّهمون الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بافتراء القرآن للتّكذيب برسالته وبالوحي والكتاب، ومن وراء هذا التّكذيب: رفض دعوة التّوحيد، والتّشكيك فيها، ورفض العمل بشرع الله تعالى، والتّكذيب بالبعث ويوم الحساب. ولذا فإنّ للتّحدّي أهميته للتّصدي للتّكذيب إذا عجزوا على الإتيان بعشر سور مثل سور القرآن في بلاغته وفي الموعظة وفي نقد عقيدة الشّرك، وفي قصص الأنبياء والأمم السالفة وشرائعهم.

والمعنى: أم يتّهمونك بالكذب على الله تعالى فيما تقرأه عليهم من الوحي، فقل لجميعهم آتوني بعشر سور من مثل هذه السور التي أقرأها عليكم، واِستعينوا بمن استطعتم من إنسكم وجنّكم وبلغائكم وشرائعكم لتأتوا بمثل ما يوحى إليّ من عند الله تعالى إن كنتم صادقين في اِدّعائكم بأنّ هذا الذي جئتكم به هو من اِفترائي.

- فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ **(14)**:

فإن عجزتم، وقامت عليكم الحجّة بأنّ ما يقرأ عليكم يستحيل على البشر مهما أوتوا من بلاغة وفصاحة أن يأتوا بمثله في فصاحته وبيانه وأحكامه ودلائله ومواعظه فصدّقوا بأنّه من تنزيل الله تعالى، وأنّ ما جاءكم هو بعلم الله عزّ وجلّ، واعلموا علم اليقين حينئذ بأنّ الله واحد لا إلاه غيره. (فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ) الاستفهام هنا للتقرير، بمعنى: إذا قامت عليكم الحجّة فهل ستسلمون؟ أم ستتمادّون في عنادكم، وتستكبرون عن اِتّباع الدّين الحقّ.

- مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ **(15)** :

من كان يرغب في الحياة الدنيوية: زينتها ولهوها ومشاغلها وهبناه ما يرغب منها وزيادة على قدر جهده وعمله، وبأكثر ممّا يستحق على عمله، ودون بخس أو نقص.



• أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ(16) :

الذين كانوا يرغبون أن ينالوا حظّهم من الرّفاه في دنياهم، وحصلوا عليه وافيا غير منقوص، لن يكون لهم في آخرتهم نصيب من الخير، ليس لهم في آخرتهم إلاّ النّار لأنّهم لم يكونوا يأملون في الآخرة، ولم يكونوا يعملون لها، وما عملوا من أعمال الإحسان في دنياهم قد نالوا عنها ما يستحقّون من الفخر والمديح وحسن الذّكر في حياتهم الدنيوية، وأمّا في آخرتهم فلا يجازَوْن عن شيء منها لأنّهم لم يكونوا يريدون بها جزاء بعد مماتهم، فهي أعمال في حساب الآخرة بدون ثواب.

• أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ (17) :

هذه الآية سمّاها محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره (التحرير والتنوير): "آية الضمائر"، وعقّب عليها "بأنّه قد أشكل على العلماء فهمها" وذلك لتحديد الأسماء التي تعود عليها الضمائر العديدة التي في الآية، والأمر كذلك عند إمام النّحاة "الزمخشري" في تفسيره، وعند غيرهما، لذلك فإنّي أقول في بيانها ما هداني الله تعالى إليه – وأسأل الله جلّ وعلا أن لا أكون قد أخطأت، وقد اعتمدت في بيانها ما قاله : "القرطبي والزمخشري وابن عاشور" فيها، ورأيي كذلك.

والمعنى: (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ) الاستفهام هنا للتخيير بين أمرين، ولم يأت في الآية الجزء الثاني للتخيير بين هذا وذاك، وعموما فإنّ العنصر الثاني معلوم من السياق على النحو التالي: أفمن كان على بيّنة من ربّه كمن لم يكن على بيّنة؟ والمعنى: أفمن كان على يقين بألوهية الله تعالى ووحدانيته كمن كان كافرا به؟ أو : أفمن كان على يقين من أنّ القرآن الكريم هو وحي من عند ربّه كمن يكذّب به؟ أو: أفمن كان على يقين من أنّ الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم هو رسول من عند ربّه كمن يكذّب برسالته ويطعن في صدقه؟ (وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ) قد يكون المعنى: ويتلو شاهد من الله وهو جبريل عليه السلام على محمد صلّى الله عليه وسلّم القرآن وحيا بأمرٍ من ربّه.

وقد نزل قبل نزول القرآن كتاب موسى: التوراة (إِمَامٗا) أي معلّما بني إسرائيل شرعهم، ومرشدهم لمنهج الحقّ، ولوجوه العمل الصالح، (وَرَحۡمَةً) لمن آمن به، واتّبع أحكامه طلبا للنجاة من عذاب الله تعالى. ( أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ) الذين جعلوا كتاب موسى إماما لهم يؤمنون بالقرآن، أو يؤمنون بمحمد نبيّا ورسولا على ما جاءهم في كتابهم من أوصاف النّبيّ الخاتم الذي أخبرهم به نبيّهم.



(وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ) ومن يكفر بالقرآن، أو بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من أهل الملل كلّها غير ملّة الإسلام، ومعهم الكفّار الذين يتحزّبون على مقاومة دعوته، فإنّ النّار ستكون مقرّهم يوم الحساب. (فَلَا تَكُ) فلا تكن – يا أيّها الإنسان – في شكّ من تنزيل القرآن من عند الله تعالى. (إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ) إنّه وحيّ من عند ربّك حقّا لا شكّ في ذلك، ولكنّ أكثر النّاس لا يؤمنون لأنّهم للحقّ كارهون، لأنّ الحقّ قد جاءهم بإبطال ما كانوا يفعلون.

- **وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (18) :**

ليس أحد أظلم لنفسه ممن اِفترى على الله كذبا بادعاء شريك له. أو ندّ، أو صاحبة وولد. يوم يعرضون على الله تعالى ليسألوا عن آلهتهم التي كانوا يدّعونها فينكرون، ويؤتى بالأشهاد الذين هم الملائكة الكتبة، والأنبياء الذين جاؤوهم بعقيدة التوحيد فكذّبوهم، وتشهد عليهم يومئذ جوارحهم وأنفسهم بما كانوا يعبدون وبما كانوا يفترون. (أَلَا) للتبيه فإنّ الله تعالى يطرد من رحمته الظالمين لأنفسهم بالكذب على الله تعالى.

- **ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ (19) :**

ومن المطرودين من رحمة الله تعالى الذين يفتنون المؤمنين ليردّوهم إلى الكفر بعد إيمانهم، ويحاولون مع المؤمنين بتأويلاتهم الباطلة، وبالتّشكيك بالوعد والوعيد، وبالتّكذيب بالإحياء بعد الممات أن ينفّروهم من الدّين والإيمان ليردّوهم إلى الزّيغ والباطل بعد اِستقامتهم، والذين لا يصدّقون بالآخرة ولا بيوم الحساب.

- **أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ (20) :**

هذه في وعيدهم. والمعنى: أولئك المبعدون عن رحمة الله تعالى لن يفلتوا من عذاب الله تعالى، فإنّهم لا يعجزونه للنيل منهم دون إفلات، وذلك في دنياهم، وليس لهم من أنصار ليحولوا بينهم وبين عقاب الله جلّ وعلا في دنياهم، وفي آخرتهم كذلك ليكون عقابهم مضاعفا لأنّهم كانوا يرفضون أن يسمعوا للحقّ لما جاءهم، وكانوا يرفضون أن ينظروا في الدلائل والحجج الدالّة على الله تعالى ووحدانيته، فحال موقفهم هذا الرافض للسمع والإبصار بينهم وبين الإيمان.

- **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ (21) :**

أولئك المبعدون من رحمة الله لكفرهم، وصدّهم عن سبيل الله، ولموقفهم الرافض للإيمان قد خسروا حظّهم من رحمة الله تعالى ورضوانه وهديه وحظّهم من فضله في دنياهم، وحظّهم كذلك



من نعيمه في آخرتهم، وضاع عنهم كذبهم على الله تعالى واِنكشفت أباطيلهم ومزاعمهم وذهبت سُدًى.

- لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ (22) :

لا محالة إنّهم في الآخرة هم الأكثر خسارة لحظّهم منها، فما أسوأ عاقبتهم.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ(23)

وعلى عادة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد، جاءت هذه الآية في وعد المؤمنين بجنّة الخلد بعد وعيد الكافرين بخسران آخرتهم. والمعنى: إنّ المؤمنين العاملين الصالحات والمخبتين، وهم الذين أنابوا إلى الله عزّ وجلّ، واِطمأنّت قلوبهم بذكره، وخشعت لجبروته وعظمته خوفا منه، (أُوْلَٰٓئِكَ) اِسم إشارة للدلالة على رفعة مقامهم ومكانتهم، مأواهم في آخرتهم الإقامة الدائمة في الجنّة جزاء لهم على إيمانهم وعملهم الصالح.

- مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (24) :

هذه في ضرب المثل بالمؤمن والكافر، فالمؤمن مبصر لطريقه المستقيم، ويسمع الحقّ فيهتدي به، وينتفع، ويستفيد، والكافر أعمى لا يدلّ على طريقه، ولا يعرف توجّهه إلى الخير، وهو أصمّ منقطع عن العلم والمعرفة والاهتداء لما ينفعه في دينه وآخرته ودنياه. (هَلْ يَسْتَوِيَانِ) كلاّ لا يستويان، هما على طرفي نقيض. فهلاّ اِنتفعتم يا عباد الله بضرب هذا المثل!

- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (25) :

هذه الآية إلى غاية الآية 49 في نبذة من قصّة نوح عليه السلام مع قومه، وقد جاءت لتثبيت النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم، لأنّ في بعض ما لقيه نوح مع قومه شبيها بما كان يلاقيه محمد صلّى الله عليه وسلّم مع قومه في عناصر: الاستهزاء بأتباعهما من المؤمنين، وفي الاتهام بالافتراء على الله تعالى الكذب، وفي التحقير بسبب قلّة المال، وفي السخرية من الوعيد. وقد اِنفرد هذا الجزء من قصة نوح بخبر غرق اِبنه العاق الذي تحدّى وعيد أبيه، وبخبر صناعة الفلك الذي حمله مع أتباعه المؤمنين على الموج كالجبال، ثم اِستوائه على الجوديّ.

والمعنى: ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فأخبرهم بأنّه قد جاءهم ليحذّرهم من عذاب الله تعالى إذا تمادوا في شركهم به.

- أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) :

أمرهم بأن لا يعبدوا إلاّ الله وحده. وبيّن لهم أنّه يخاف عليهم من أن يأتيهم عذابه في يوم يكون شديدا عليهم، ويكون موجعا لهم إن أشركوا به.



- فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ (27) :

فكذّب قومه برسالته، لأنّه لم يكن يخطر ببالهم أن يكون رسول الله للنّاس بشرا مثلهم. واِحتقروا أتباعه من المؤمنين لأنّهم لم يكونوا من أشرافهم وزعمائهم، ورأوْا أنّهم من غير ذوي الرأي والرّشد لذلك اِتّبعوه، وذكروه بأنّه لم يكن ذا فضل يستحقّ به أن يكونوا تابعين له، بل صارحوه بأنّهم يعتقدون أنّه كاذب فيما آتاهم به، وفيما يدعوهم إليه.

- قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ (28) :

وقال لهم نوح: يا قوم أرأيتم إن كنت على علم وبيان من الله تعالى، وآتاني النّبوّة والرّسالة من لدنه فضلا وتكريما فلم تهتدوا بما جئتكم به من هدي وشرع، وخفيت عنكم غاية الرسالة وفضائلها عليكم أكنت أفرضها عليكم بالقوة والجبر والإلزام وقد أعماكم الله عنها، وأنتم كارهون لها وللحقّ فلا إكراه في الدّين.

- وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) :

وقال لهم لحضّهم على الإيمان، ودفاعا على أتباعه، لا أطلب منكم أجرا وجزاء على النّصيحة والدعوة إلى الهداية، إنّما أجرى على الله وحده، وإنّي لن أبعد المؤمنين من حولي ولن أقْصِيهم إرضاءً لكبريائكم، إنّهم سيلاقون ربّهم وسيجدون عنده تعالى الحظوة والتكريم، وإنّي أراكم غير مدركين لعاقبة أمركم، ولهول ما ستلاقون عند ملاقاة ربّكم.

- وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30) :

ويا قوم إن طردت من حولي هؤلاء الذين تزدرون، وهم عند الله تعالى من المكرمين لأنّهم مؤمنون فمن يحميني منكم من عقاب الله تعالى، أفلا تنظرون في عواقب الأمور. والاستفهام للتّنبيه والتوبيخ معا.

- وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (31) :

ولا أدّعي أنّي أملك خزائن رزق الله والثروات المالية – كما تريدون وتتصوّرون – ولا أدّعي علمَ ما خصّ الله تعالى ذاته العلية به، وجعله من علم الغيب الذي لا أحد من خلقه يعلمه إلاّ بما يشاء أن يطلعه عليه. ولستُ ملكًا من السماء، وإنّما أنا بشر مثلكم، ولا أقول للذين تحتقرون من المؤمنين لن ينالوا خيرا وفضلا وتكريما من لدن الله تعالى لفقرهم، واِفتقارهم للوجاهة كما



تزعمون. الله تعالى عليم بما في قلوبهم من صدقٍ في إيمانهم، أو ضعف وشكّ، لو ادّعيتُ شيئا ممّا لا علم لي به، وممّا لا حقّ لي فيه أكون عندئذ من الظالمين لأنفسهم.

- قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (32) :

قال القوم لنوح: قد خاصمتنا كثيرا فيما لم تقتنع به، وبالغت في مناقشتنا وتوعدنا، فأنزل علينا العذاب الذي تتوعدنا به إن كنت من الصادقين في الوعيد.

- قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (33) :

قال إنّما الأمر لله إن شاء أصابكم بعذاب متى شاء، وما أنتم بمفلتين منه إذا حضركم.

- وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34) :

وقد رأى نوح من قومه عنادا وإصرارا على الشّرك والتكذّيب حتى شعر باليأس من اِهتدائهم للصواب فقال: أعلم أنكم لا تحبّون نصحي، وأنّكم لا تحبّون سماع موعظتي وإرشادي كلّما أردت أن أنصح لكم وأُرشدكم إذا قدّر الله تعالى أن تتمادّوا على ضلالتكم لعنادكم، هو ربّكم وسترجعون إليه ليحاسبكم على غوايتكم.

- أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (35) :

أم يتّهمونك بافتراء ما تدعوهم إليه من التّوحيد ونبذ الشّرك، قل إن اِفتريته فإنّي أتحمّل ذنبي وإثمي، وأنا برئ من شرككم وكفركم وتكذيبكم.

- وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (36) :

وأوحي إلى نوح أنّه لم يَعُدْ يتّبعك ويستمع إليك غير الذين هم معك من المؤمنين، فلا تحزن ولا يثقلنّ عليك الأمر بما كانوا يكفرون ويكذّبون وبما كانوا يستهزئون.

- وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (37) :

وجاءه أمر الله بأن يصنع سفينة برعاية من الله وتوجيهه أوحى له بأن لا يسأله معذرة لقومه الكافرين أو مغفرة أو رحمة. فقد قُضِيَ فيهم أن يُهلكوا غرقا.

- وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (39) :

واِنشغل نوح بصنع السفينة، وكلّما مرّ عليه جمعٌ من قومه الكافرين، ورأوه منهمكا في عمله سخروا منه، وتندّروا، وضحكوا عليه، وكان نوح يقول لهم: إن كنتم تسخرون منّي ومن معي



اليوم وممّا نصنع فإنّا نسخر من غفلتكم ممّا ينتظركم من العذاب. ويوم يأتيكم العذاب فسوف تعلمون من سَيُذَلُّ، وسيُهان، ثمّ يحلّ عليه عذاب دائم لا رحمة بعده.

- حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ (40) :

ولمّا حان أمر الله تعالى بحلول العذاب بالقوم الكافرين، وكانت علامة ذلك على ما جاء في جملة من كتب التّفسير أن يفور تنّور نوح الذي كان يخبز فيه خبزه للطّهي فورانا قويّا، وقيل كانت علامة ذلك أنّ نبْعًا من الماء كان نوح يملأ منه ماء شربه يفور ماؤه بشدّة، وجاءه الوحي بأن يحمل في مركبه ما يجتمع بين يديه من كلّ زوجين اِثنين من جنس الحيوان، وأن يحمل أهله إلاّ ابنه العاقّ وزوجته التي كانت عيْنًا لقومها عليه، كانت تنقل إليهم خبره، وما يعمله، وتفشي لهم أسراره، وهذا ضرب من الخيانة الزوجية، ولا يُقصد بالخيانة الزوجية اتّهامها بخيانة فراش الزوجية، وذلك لأنّه قد سبق عليها قضاء الله تعالى بتعذيبهما غرقا وجاءه الأمر بأن يحمل معه في الفلك الذين آمنوا به، وقد كانوا قلّة.

- وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ (41) :

وقال نوح للرّاكبين في الفلك، اِركبوا السفينة بأمر الله إبحارُها، وبأمره تعالى وقوفُها ورُسُوُّهَا واستقرارُها. إنّ ربّي كثير المغفرة بعباده التائبين المؤمنين، ورحيم بهم في دنياهم وأخرتهم يُؤَمِّنهُم من العذاب.

- وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (42) :

ولمّا ظهرت بوادر الطوفان حين هاج البحر وماج موجه حتى علا كلّ شيء، وغدا في ارتفاعه كارتفاع الجبال لم ييأس نوح من مواصلة دعوة اِبنه للاهتداء لربّه، وقد صار ابنه بعيدا عنه، ورأى نوح فيما يجري من حوله ما ينذر بالهلاك، فناداه ليركب الفلك معه ومع المؤمنين، وأن لا يكون من الكافرين، وأن لا يكون معهم في سوء المصير.

- قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ (43) :

ومن عقوق الابن، ومن شدّة عناده، ومن تكذيبه بالإنذار وتحدّيه له أجاب والده الّذي كان يحرص على اِهتدائه للحقّ إشفاقًا عليه من عذابَي الدنيا والآخرة، أجابه بأنّه سيأوي إلى جبل مرتفع لا يبلغ ماء الطوفان اِرتفاعه ليحتمي به فيمنع من الغرق. وأجاب الوالد بأن لا أحد يمنع



من أمر الله إذا قضاه إلاّ من شاء أن يرحمه من عباده المؤمنين. وفصل الموج بين الاثنين ولم يعد أحدهما يرى الآخر، أو يبلغ إليه صوته، وغرق الولد في الماء ولم يحمِهِ الجبل من الغرق.

- وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (44) :

وحين تطهّرت الأرض من الظالمين لأنفسهم بالكفر والعناد وتحدّي الوعيد، أُمِرَتْ الأرض بأن تبتلع في باطنها ماءها الذي أفرزته العيون، وأمرت السماء بأن تمسك عن إنزال المطر، وأمرت بأن تنقشع وتصحو، فنقص الماء وذهب، وقضي الأمر الذي أنذر به القوم ونفذ فيهم فلم ينجُ من الغرق أحد منهم، واِستقرّت سفينة نوح بركّابها على جبل، قيل الجوديّ هو جبل بالعراق قرب الموصل، وهلك الظالمون واِنتهوا.

- وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ (45) :

ولما اِستقرّت السفينة على اليابسة واِنقشعت السماء توجّه نوح لربّه بالدعاء يتوسّل إليه لينقذ اِبنه من عذاب الآخرة، ذلك لأنّه من أسرته، وهو من صلبه، قال: إنّ قضاءك كان ناجزا فيه، ونافذا بغرقه، ولم يفلت منه، وأنت يا الله أعدل الحكّام، وحكمك هو العدل والإنصاف بل وكان يطلب بهذا التوسّل أن يرحم اِبنه في آخرته.

- قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ (46) :

وأوحي إلى نوح إنّه ليس من أهل طاعتك ودينك ووَلايتك، إنّه صاحب عمل غير صالح: أعاقك ولم يتّبعك، ولم يستجب لدعوتك ولا لتوسلاتك، وأصرّ على عصيانك، فلا تطلب من الله ما ليس لك به علم ودراية ومقصد، ونهاه الله تعالى فيما أوحى إليه عن هذا السؤال كراهة أن يكون من (ٱلۡجَٰهِلِين) أي من الذين يسألون الله تعالى ما لا حقّ لهم فيه، لأنّه من علم الغيب، أو لأنّه من القضاء النّافذ الذي لا يُردُّ.

وممّا يستفاد من الآية أنّ عقوق الإبن لأبيه المؤمن الصالح عملٌ غير صالح، وأنّ عقوقه يخرجه من أهْلِيةِ أبيه وإن كان اِبنه من فراشه، وأن ليس لأبيه أن يسأل له الله تعالى الرّحمة، وهذا من أقسى العقوبة، لأنّ الامتناع عن الدّعاء له بالرّحمة يدلّ على التّبرّؤ من عمله غير الصالح، وهذا حين يكون الابن ملحدا وكافرا ومكذّبا بالوعيد وبيوم الحساب. ولا يدخل في هذا الباب العقوق من الطيش، وقلّة الوعي والرّشاد، فهذا عقوق يُستتاب منه، ويُطلب من الوالدين في حياتهما الصفح عنه. وقد نهى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن عقوق الوالدين وحذّر منه تحذيرا شديدا.

- قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (47) :

وأسرع نوح بالإنابة فاستعاذ بالله تعالى أن يسأله شيئا ممّا اِختصّ الله تعالى بعلمه، وجعله من قضائه وتدبيره النّافذ الذي لا يُردّ وسارع بطلب المغفرة له والرحمة حتى لا يكون من الذين خسروا رضوان ربّهم ورحمته تعالى.

- قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ (48) :

وأوحى إلى نوح حين اِستقرّ الأمر على الأرض: اِنزل بسلامة وأمن على الأرض (وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ) أي ونِعَم ثابتة وخيرات تنعم بها أنت ومن معك من الأمم المؤمنين، قيل في (وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ) دخل في هذا كلّ مؤمن إلى يوم القيامة. (وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ) وكلّ كافر إلى يوم القيامة، فيلقى الكافرون عند لقائهم بربّهم يوم القيامة عذابا موجعا.

- تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ (49) :

هذه الآية موجّهة للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولقومه للاعتبار بما جاء من ذكرٍ من خبرِ نوح في قومه. والمعنى: هذه من الأخبار الماضية التي لم يكن لديك ولا لأحدٍ من قومك علم بها من قبل أن نوحيها إليك لتكون آية من آيات تصديقك بالنّبوّة والرّسالة والوحي، وليتّعظ بها المؤمنون. فاصبر – يا محمد – على ما يتّهمك به قومك من الافتراء على الله، وعلى ما يسخرون به منك، وعلى اِستهزائهم بالوعيد كما صبر نوح الذي سبقك على أذى قومه. إنّ الفوز وحسن الخاتمة من نصيب المتّقين دوما.

- وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ (50) :

هذه الآية وما بعدها إلى الآية 60، في نبذة من خبر هود مع قومه عاد. وقد اِشتركت هذه النبذة من قصته مع قومه في دعوتهم للتوحيد، ونبذ الشّرك، ودعاهم للتّوبة والاستغفار، ورغّبهم في الإيمان، وحذّرهم من عقاب الله جلّ وعلا، ولكنّهم كقوم نوح أصرّوا على الشرك، واِتّهموا نبيّهم بالجنون، وسخروا من الوعيد، ثمّ هدّدوه حتى جاءهم أمر الله تعالى فهلكوا وما هذا العرض إلاّ لتسلية النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم عمّا يلاقيه من قومه من إصرار على الكفر، والسّخرية ومن الوعيد، ومن التّهديد، والتّكذيب.

والمعنى: وقد أرسلنا إلى عاد، (وهي عاد الأولى) واحدًا منهم رسولا إليهم هو (هود) عليه السلام. وقد دعاهم لأن يعبدوا الله الواحد الأحد، لا إلاه غيره، ودعاهم لنبذ الشّرك، لأنّ اِدعاء آلهة أخرى غير الله تعالى اِفتراء، وكذب على الله عزّ وجلّ.

- يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (51) :

وظنّ القوم أنّه يطلب بدعوتهم للتّوحيد زعامتهم، فنفى هود عن نفسه هذا الظنّ الواهم فقال لهم: لا أطلب مالاً ولا زعامة ولا أجرا على ما أدعوكم إليه من الإيمان الحقّ، إنّي أدّخر ثوابي وأجري عند الذي خلقني على الفطرة السليمة، أفلا تُعمِلون عقولكم فيما أدعوكم إليه لتعلموا أنّه هو الحقّ، وأن ما تدعون هو الباطل. والاستفهام هنا للتّوبيخ.

- وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ (52) :

ودعا هود عليه السلام قومه لأن يطلبوا من الله تعالى مغفرته عمّا كانوا يفترون ويدّعون من آلهة أخرى غير الله عزّ وجلّ، ولأن يتداركوا أمرهم بالتوبة عمّا كانوا يفعلون وذلك بالإقلاع عنه، وأخبرهم أنّه بتوبتهم واِستغفارهم يتفضّل الله تعالى عليهم بنِعَمِه بأن ينزل عليهم قطر السماء متتابعا رحمة به، ولتكثر به خيراتهم، وليزيدهم قوة ومنعة على ما هم عليه من قوّة في الأبدان والبُنيان (كان قوم عاد يسكنون قصورا عالية محصّنة)، وحذّرهم من الإعراض عن طاعة ربّهم حتّى لا يكونوا مجرمين في حقّ أنفسهم، لأنّ كلّ من يعرض عن طاعة خالقه يُعَرِّضُ نفسه للعقاب في دنياه، وللعذاب في آخرته.

- قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ(53) :

وقال القوم لنبيّهم هود لم تأتِنا بمعجزة قاهرة لنصدّقك، ونحن لا نترك عبادة آلهتنا اِستنادا لقولك بدون دليل وبرهان، لذا فإنّا لا نصدّقك.

- إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ (54) مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (55) :

ولا نقول فيما تدعونا إليه إلاّ أنّ آلهتنا قد أصابتك بالجنون والخبل اِنتقاما منك. وردّ هود عمّا قالوا: إنّي أشهد الله تعالى على أنّي صادق فيما دعوتكم إليه، وإنّي أتبرّأ من شرككم، وممّا تدعون من دون الله جلّ وعلا، فاحتالوا كما شئتم لتلحقوا بي الضرّ، ونفّذوا فِيَّ ما عزمتم عليه دون إمهال.

- إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ(56) :

إنّي أستعين بالله تعالى الذي هو ربّي وربّكم فيما أدعوكم إليه. إنّ كلّ ما يدبّ على الأرض من خلق الله جلّ وعلا خاضع لإرادته تعالى، ومسخّر لأمره، وإنّ الله عزّ وجلّ قادر على التمكّن منه، إنّ الله على المنهج الحقّ، يجازي المحسن على إحسانه، ويعاقب المسيء على إساءته، ولا يظلم أحدا.

- فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ (57) :

فإن أعرضوا عن الإيمان، وعن التّصديق فقل لهم: قد أوصلتُ إليكم رسالة ربّي، ويستبدل ربّي القوم العُصاة بآخرين مؤمنين، وإنّكم بمعصيتكم لا تضرّون الله تعالى بشيء، وإنّما تضرّون أنفسكم بالإعراض عنه. إنّ ربّي على كلّ شيء رقيب، يحفظ عبده المؤمن، ويقيم الحجّة على الكافر.

- وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58):

ولمّا حلّ قضاء الله تعالى بالعصاة المذنبين أمر هود ليخرج من القرية صحبَةَ أتباعه المؤمنين وبخروجهم منها أنجاهم الله سبحانه برحمته من العذاب الشديد الذي حلّ بالقوم الكافرين.

- وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (60) :

هذا خبر قوم عاد كفروا بوحدانية ربّهم، وأنكروا دلائل خلقه ووحدانيته، وعصوا رسل ربّهم، واتّبعوا أوامر زعمائهم وقادتهم المتعاظمين المستكبرين المعاندين للحقّ البيّن القائم على دليل، فأطردهم الله من رحمته في دنياهم، وفي آخرتهم يوم الحساب. (أَلَا) للتنبيه فإنّ قوم عاد قد كفروا بوحدانية الله سبحانه وأشركوا به، (أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ) هو دعاء عليهم بالبعد عن الخير ليحقّ فيهم الهلاك.

- وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (61) :

هذه لغاية الآية 68 في خبر صالح عليه السلام في قومه ثمود، دعاهم لعبادة الله وحده، وذكّرهم بفضل الله جلّ وعلا في خلقهم وإنشائهم وبعثهم للحياة والوجود، وجعلهم عمّارا للأرض، ومن سكّانها، ومن المنتفعين بخيراتها. ودعاهم لأن يستغفروا ربّهم ليغفر لهم سيّئاتهم حين عبدوا آلهة أخرى غيره. ونصحهم بالتّوبة، وذلك بالإقلاع عن الشّرك، والإكثار من الطاعات لربّهم خالقهم فإنّه سبحانه وتعالى قريب من عباده المؤمنين الطائعين يسمع دعاءهم فيجيبهم لما يدعون، ويعرف حاجاتهم فييسّر لهم أسباب قضائها.

- قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ (62) :

وقال له أشراف القوم حين سمعوا ما يدعوهم إليه من تغيير لمعتقدهم، يا صالح كنّا نرجو أن تكون لنا سيّدا لشرفكم فينا ورجاحة العقل، أتنهانا اليوم أن نترك دين آبائنا فنُسَفِّهَهُم، ونترك عبادة ما كنّا نعبد من قبل، والآن صار أمرك عندنا يدعو للحيرة، ويغيّر رجاءنا فيك، وإنّنا لفي شكّ ممّا تدعونا إليه من توحيدٍ لمعبودنا، وترك آلهتنا.

- قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ (63) :

وقال صالح: يا قوم، أرأيتم إن كنت على علم ودراية بربّي المعبود الحقّ، وخصّني بالنّبوّة والرسالة فمن يجيرني من عذاب الله تعالى وسخطه وينقذني من غضبه إذا عصيته وتركت تبليغ رسالته إليكم، ومواعظه، وشرعه: إنّكم بدعوتكم لي لترك ما أدعوكم إليه لا تريدون لي إلاّ الخسران الكبير والهلاك.

- وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ (64) :

وطلب القوم من صالح معجزة ظاهرة من عند ربّه تدلّ على صدقه فأخرج الله تعالى لهم على أعينهم وهم ينظرون ناقة ضخمة من صخرة عظيمة في جبل من غير تناسل من ناقة وبعير. وقال صالح للقوم: هذه ناقة الله لكم معجزة تدلّ على قدرته على الخلق والإبداع، وجاءتكم للشهادة لي بصدقي على ما يدعوكم إليه بأمره، وأُتركوا هذه النّاقة ترعى في أرض الله حرّة، ولا تتعرّضوا لها بالضرب أو القتل أو المنع من الشرب أو الرّعي فيصيبكم عذاب عاجل.

- فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ (65) :

فتعرّض جماعة من العصاة الذين تحدّوا وصية صالح وأمره وتحذيره للنّاقة فعقروها. وحينما بلغ الأمر صالحا قال للقوم اِنعموا بحياتكم ثلاثة أيام في دياركم، ثمّ آتيكم عذاب الله، وهذا موعد صادق ثابت.

- فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ (66) :

ولمّا حلّ أجل تنفيذ وعيد الله عزّ وجلّ، أوحى الله إلى صالح لأن يخرج صحبة المؤمنين معه من القرية لحفظهم ممّا سيصاب به القوم ورحمةً منه تعالى لينقذهم من عذاب الذلّ والمهانة. إنّ الله تعالى قويّ في أخذ العصاة المذنبين، وعزيز لا يُغلب ولا يردّ أمره.



- وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ (67) :

وفي اليوم الرابع نزل من السماء صوت شديد أفزع القوم إلى حدّ الهلاك، فأصبحوا في بيوتهم وأماكنهم ميّتين جلوسا على الرُّكَب هامدين من شدّة ما أصابهم من هول الصوت وهول المفاجأة.

- كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ (68) :

وصارت المدينة خالية منهم ومن أنشطتهم كأنّها لم تكن عامرة بالسكّان، وخلت الديار والحصون والقصور من عمّارها. كان قوم ثمود كافرين فلا عادوا للحياة ولا للخير الذي كانوا فيه.

والغرض من هذا العرض الاعتبار بسوء عاقبة المشركين المصرّين على شركهم، المكذّبين بالتّوحيد، الذين يشاقّون الرّسول بالتكذيب بالرّسالة وبالإنذار، والمستهزئين بالوعيد، ومن المستفاد من هذا العرض ومن سابقيه أنّ حسن العاقبة هي دوما للرّسول وأتباعه المؤمنين.

- وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ(69) :

هذه الآية إلى غاية الآية 89 في خبر لوط عليه السلام، وهو ابن أخ إبراهيم عليه السلام مع قومه. ومعنى الآية: ولقد جاءت الملائكة عليهم السلام، – رسل الله – إلى إبراهيم عليه السلام بالبشارة بحمل إسحاق. تبادلوا التحية بالسلام، ولم يُبْطِئْ حتى جاءهم بعجل مشويّ على الحجارة المُحْمَاةِ بالنّار، وكان من عادة القوم في عهده إكرام الضيف بتقديم الطعام للأكل منه جميعا قبل البدء في أيّ حديث، وكان تناول الطعام عندهم في جماعة كالعهد على أن لا يكون بين المضيّف وضيوفه غدرٌ أو خيانة.

- فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ (70) :

فلمّا رأى إبراهيم إمساكهم عن الطعام إذ لم يمدّوا له أيديهم توقّع منهم شرّا، وأنّهم لم يأتوا بخير، كذا كانت العادة عند قومه في عرفهم، فإذا رفض الضيف أو الزائر تناول طعام المضيّف فهذا يعني عندهم أنّ بينهم خلافا كبيرا، وأنّهم يرفضون التّعاهد على الأمن والسلام، ويعني كذلك إعلان الحرب بينهم، وأوجس إبراهيم من الزائرين خيفة وإن كانوا قد حيّوا بعضهم بالسلام، والسلام عندهم إعطاء الأمان. عندئذ أمّنه الزائرون على نفسه وأهله، كاشفين بأنّهم ملائكة، وقد حضروا في هيأة بشر، والملائكة لا تُطعم طعام البشر ولا يشربون ماءً وأعلموه بأنّهم قد أرسلوا إلى قوم لوط، لأنّ الملائكة لا تنزل إلاّ بالعذاب.

- وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ (71) :

وقد كانت (سارّة) زوجة إبراهيم قائمة على إعداد ما يلزم للضيافة (فَضَحِكَتۡ) فحاضت عندها، الضحك هنا لا يعني القهقهة، وإنّما هو تعبير قرآني على وقوع الحيض، كقولنا نحن عند وقوعه قد (ازيّنت)، وعجبت ممّا جاءها في وقتها فبشّرتها الملائكة بأنّها ستحمل (بِإِسۡحَٰقَ)، وأنّها ستعيش حتى ترى ابنا لإسحاق يسمّى (يَعۡقُوبَ) حفيدا لها.

- **قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ (72) :**

قالت زوجة إبراهيم حين سمعت من ضيوفها البشرى في اِستغراب وتعجّب: كيف ألد صبيا وأنا عجوز، وزوجي شيخ متقدّم في السنّ، هذا أمر غير عادي، يثير العجب.

- **قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ (73) :**

قال لها رسل الله كيف تعجبين من أمر الله، إنّه سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء. وقد تفضّل عليكم بهذا الفضل رحمة منه وتكريما، وإنّه من تنزيل بركاته عليكم أهل بيت إبراهيم. إنّه سبحانه وتعالى يشكر لعباده الشاكرين، و(مَّجِيدٞ) كثير الإحسان والفضل.

(رَحۡمَتُ) رسمت بتاء مفتوحة من الرّسم القرآني التوقيفي.

- **فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ (74) :**

فلمّا ذهب عن إبراهيم الخوف حين علم بأنّ ضيوفه رسل الله، ولمّا علم بالبشرى، وسُرَّ بها علم من رسل الله الغاية التي أنزلوا إليها، علم أنّ غايتهم قوم لوط عليه السلام، وفي علمه أنّ الملائكة لا تنزل على قوم إلاّ لهلاكهم فصار يدافع عنهم، ويبحث لهم عن معاذير، ويطلب إمهالهم.

- **إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ (75) :**

هذه في وصف خلق إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم، إنّه (لَحَلِيمٌ) أي لا يغضب، ولا يتعجّل في طلب الانتقام ممن أساء إليه، وهذه صفة العظيم المترفّع عن الصغائر، وصفة الشهم والوديع. (أَوَّٰهٞ) وهو كثير التأوّه في دعائه وصلاته من فرط تذلّله لله تعالى وخشوعه. (مُّنِيبٞ) وهو كثير التّوبة والاستغفار.

- **يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ (76) :**

فقالوا له: يا إبراهيم أترك الجدال عنهم، قد قضي فيهم الأمر، وأمر الله تعالى لا يُراجع ولا يردّ، وإنّهم مهلكون بعذاب لا يُردّ عنهم، ولا نجاة لهم منه.

- **وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ (77) :**

ولمّا بلغ رسل الله عليهم السلام بيت لوط، ودخلوا عليه ساءه قدومهم عليه وحزن، وضاقت نفسه بزيارتهم، واِغتمّ بمجيئهم خوفا عليهم من قومه، كانوا ذوي وجوه حسان وهيأة حسنة، ولا

يحبّ لوط لضيوفه أن يتأذّوا بصنيع قومه، وقال في نفسه: هذا يوم عظيم البلاء، وشديد السوء والشرّ.

- وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ (78) :

وعلم قومه بقدوم رجال حسان الوجوه وذوي همّة على لوط، فجاؤوه مهرولين ومسرعين، وهم قوم اِعتادوا على فعل الفاحشة، يأتون الذكران دون النّساء، وخرج إليهم لوط يستعطفهم في أن يطلبوا الزّواج من بنات أُمَّتِه، فذلك أعفّ وأطهر وأكرم لإنسانيتهم، ودعاهم لأن يتّقوا الله فيه وفي ضيوفه، واِستعطفهم في أن لا يلحقوا به العار والمذلّة بالتسلّط على ضيوفه، وطلب منهم أن يتعقّلوا وأن يرشد بعضهم بعضًا ليدعوه وضيوفه من غير أذى. والاستفهام في (أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ) للاستعطاف، ولحفز الهمم ليغلّبوا الرّشد والوعي والتعقّل على إتيان الرذيلة مع الضيوف.

- قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ (79) :

فكان ردّهم إنّك تعرف أن لا حاجة لنا ببناتك اللائي من صلبك، ولا اللائي من قومك، وإنّك تعرف ما نريد، فدعْنا لما نشاء ونرغب.

- قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ (80) :

وقال لوط في حسرة وألم وتأوُّهٍ: ليتني كنت أملك قوّة لأدفعكم عنّي، أو كانت لي عشيرة قوية ألجأ إليها لتنصرني عليكم، وتمنعني من تجرّؤكم عليّ وعلى ضيوفي.

- قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ (81):

وحينما رأى رسل الله عليهم السلام حرج لوط، وما أصابه من غمّ وضيق من موقف قومه، ومن جزعه على ضيوفه كاشَفوه بحقيقتهم، أخبروه بأنّهم ملائكة رسلٌ من عند الله تعالى، وطمأنوه بأنّهم لن يبلغوا أن يصيبوه بشيء من الأذى، وأمروه بأن يسير بأهله آخر الليل خارج القرية، وأمروه بأن لا يلتفت أحد منهم خلفه مهما سمع أو شعر بشيء من ورائه إلاّ زوجته. وقد كانت اِمرأة غير مطيعة لزوجها، وكانت تنقل أخبار زوجها لأقربائها من أهل القرية وتفضح أسراره، وكانت على خلاف معه، فإنّها سيصيبها ما يصيب أهل القرية، وأخبروه بأنّ موعد هلاك أهل القرية سيُصَبِّحهُم عند انبلاج صباحهم. ( أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ) أي كلّ آتٍ قريب، وقد ذهبت هذه الجملة على ألسنة العرب مَثَلاً يدلّ على قرب الموعد المنتظر، وقد كتب الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور كتابا في نظريته في إصلاح التعليم الزيتوني وجعل له عنوانا (أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ) ولذلك لأنّه كان يأمل أن تكون المبادرة بإصلاح التعليم الزيتوني قريبة الإنجاز لمواكبة التطوّر العلمي الحديث.

- فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ **(82)** مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ **(83)** :

ولمّا خرج لوط بأهله آخر الليل من القرية مهاجرا منها حتى إذا أدركه الصبح كان قد اِبتعد عنها مسافة كبيرة، وفي هذا الوقت نَفَّذَتْ رسلُ الله من الملائكة عليهم السلام في قوم لوط أمر الله عزّ وجلّ، قلبوا البيوت على رؤوس سكّانها فجعلوا عاليها سافلها، وأمطروا على رؤوسهم وبيوتهم ومزارعهم وممتلكاتهم حجارة من طين طبخ بالنار كأنّه الفخّار الصلب وكانت حجارة تنزل ثقيلة وحارقة ومتتابعة وصلبة تدمّر كلّ شيء تأتي عليه، كانت هذه الحجارة (مُّسَوَّمَةَ) أي عليها علامة لتكون أداة عذاب التّدمير. (وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ) هذه للتحذير والوعيد وهذه الحجارة ليست بعيدة عن المشركين لتنزل على رؤوسهم إذا أمر الله تعالى بها. والمقصودون بهذا الوعيد هم مشركو قريش ليعتبروا.

وأمّا اِمرأته فقد اِلتفتت خلفها لمّا سمعت أصوات القرقعة العظيمة فهالها ما رأت فصعقت وماتت من حينها، وباِلتفاتها خلفها خالفت الأمر الذي أمرت به فأصابها المكروه، وما كان من حقّ لوط وبناته أن يتوقّفوا عن السير، وما كان من حقّهم أن يلتفتوا خلفهم ليروا ما لحقَ بالمرأة الهالكة.

وقد هلك قوم لوط لكفرهم، ولأنّهم شاقّوا نبيّهم، ولأنّهم كانوا يأتون الفاحشة المنكرة التي هي من فعل الشواذ، والتي لا تناسب تكريم جنس الإنسان، والتي تخالف غريزة التّناسل، ولأنّهم كانوا لا يصدّقون بالوعيد.

- وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ **(84)** :

هذه الآية إلى غاية الآية 95 في خبر شعيب عليه السلام مع أهل مدين. ولقد أرسل شعيب عليه السلام إلى أهل مدين، ومدينُ مدينة بين الحجاز والشام كان أوّل من بنى فيها وسكنها (مَدۡيَن) من نسل إبراهيم. دعاهم شعيب لعبادة الله وحده، ونبذ الشّرك لأنّه ليس للخلق جميعهم إلاه غير الله الواحد سبحانه جلّ وعلا. ودعاهم لأن يعدلوا في الكيل والميزان حتّى لا يظلموا النّاس في حقوقهم، وحتى لا يغشّوهم، وذكّرهم بأنّ الله تعالى قد أنعم عليهم بسعةٍ في الرّزق، وبوفرة الخيرات، وحذّرهم من عذاب الله إن لم يشكروه على فضائله ونعمه، وإذا تمادوا في الشرك، وفي ظلم النّاس في حقوقهم، وحذّرهم من أن يحيط بهم العقاب، فإذا أحاط بهم هلكوا جميعا دون إستثناء.

• وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ (85) :

وأعاد شعيب دعوة قوم مدين لأن يتعاملوا بالقسط عند الكيل والميزان، و(القسط) يعني إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، مع الترغيب في إيفاء الكيل والوزن للتحرّي من التّطفيف، ودعاهم بأن لا ينقصوا من حقوق الناس عند البيع والشراء للسلع أو الأرزاق بالتحقير من شأن عروض البيع. كما دعاهم لأن يكفّوا أيديهم عن الإفساد في الأرض. والإفساد في الأرض يعني قطع الطريق عن المسافرين في تجارة خاصّة، ويعني الإغارة للسلب والنّهب، وهذا من صفات قطّاع الطرق والصعاليك، ومن الإفساد في الأرض تسلّط الأقوياء وذوي النّفوذ على الضعفاء لتسخيرهم لخدمتهم كما كان يفعل فرعون وملؤه مع بني إسرائيل، أو لغصب ممتلكاتهم، والظاهر أنّ أهل مدين كانوا من هؤلاء وهؤلاء. وفي ذكر النّهي عن الإفساد في الأرض تلميح لما كان عليه الأعراب والصعاليك في بوادي الجزيرة العربية وكهوفها وجبالها وصحرائها.

• بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ (86) :

ودعاهم شعيب ليكونوا قنوعين بما آتاهم الله تعالى من نِعَمه وفضله، فهو خير لهم وأفضل من الكسب الحرام عبر الإفساد في الأرض. ونبّههم بأنّه لا يحميهم من شيء إن أراد الله تعالى بهم سوءًا عقابا لهم على ما يأتون من المعاصي.

• قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ (87) :

وكان من ردّ فعل القوم على ما دعاهم إليه شعيب من معتقد، ومن طاعات: أهو دينك أم هي عبادتك التي تأمرك بأن نترك عبادة آلهتنا أو أن نتصرّف في أموالنا كيفما نشاء. واِستفهامهم هذا للاستغراب وللاستخفاف معا. (إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ) اِستفهام في ظاهره المديح، وفي باطنه الاستخفاف والسخرية، والمعنى: إنّك لأنت أسلوب لتأكيد التّعيين (ٱلۡحَلِيمُ) المتسامح الذي يتجاوز عن معاقبة المسيء (ٱلرَّشِيدُ) صاحب الرّأي السّديد، والعقل الرّاجح كما تزعم، وصفُوه بهذا هُزُوًا.

• قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ (88) :

وردّ شعيب على اِحتجاجهم – متجاوزا عن هزئهم به – أرأيتم – يا قوم – إن كنت على هداية من ربّي وعلى بصيرة، ووهبني النّبوّة والحكمة، والرزق الواسع أفكُنتُ أدلّكم على ضلال؟



وإنّي لا أنهاكم عن أمر وأفعل خلافه، إنّي آمركم بما أفرضه على نفسي، لا أريد بما أعظكم به، وبما أدعوكم إليه إلا إصلاح حالكم على قدر ما أملك من قدرة وإقناع، ولا أُوَفَّقُ في أمر، أو أصيب الحقّ في قول إلاّ بفضل من الله عزّ وجلّ وهداية، على الله تعالى أعتمد في جميع أموري، وإليه أرجع ليحاسبني عمّا فعلت.

- **وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ (89) :**

وحذّرهم شعيب من عاقبة سيّئة مؤلمة، ونهاية مهلكة من مثل ما أصاب أقوامًا سابقين كفروا بالله وحده، ولم يَدَعُوا شركهم وكذّبوا رسلهم، منهم قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وبمثل ما نزل على قوم لوط من العذاب، وهم حديثو العهد به، ونصحهم بأن لا يحملهم بغُضُهم له ومعاداته على أن يصرّوا على ما هم عليه من الشرك حتى لا يعاقبوا بعذاب الاستئصال.

- **وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ (90) :**

ودعاهم شعيب لطلب مغفرة ربّهم عمّا سلف من معاصيهم ومن شركهم، وأن يُقْلِعُوا عمّا كانوا عليه من تعظيمٍ لآلهتهم، ومن أعمال الظلم والإفساد في الأرض، ورغّبهم في هذا بذكر صفتين من صفات الله الحسنى فإنّه (رَحِيمٞ) بعباده المؤمنين لا يعذّبهم، وهو (وَدُودٞ) أي محبّ لأوليائه المنيبين التائبين الطائعين، ومن أحبّه الله تعالى قرّبه إليه زُلْفَى.

- **قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ (91) :**

قالوا يا شعيب لا نفهم كثيرا ممّا تقول، ولا نعلم حقيقته – وما كان قصدهم أنّ دعوته لم تكن بيّنة وواضحة، ولكنّ قصدهم أنّهم غير مقتنعين بما جاءهم به، وإنّهم يرفضون دعوته. وقالوا له: (وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗا) كان شعيب كفيفا لا يبصر، واعتبروا عماه ضعْفًا، ولذلك عبّروا له عن تسامحهم معه رحمة به للإعاقة التي كان عليها، ولولاها ولولا مكانة عشيرته عندهم لرموه بالحجارة رَجْمًا حتى يُقتل، وأكّدوا له ضعفه بقولهم ( وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ) أي ولا تستطيع غلبتَنا ولا الإفلاتَ منّا لو أردنا قتلك، وهذه الجملة لتحذيره حتى يكفّ وينتهيَ عن دعوته.

- **قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ(92) :**

قال شعيب : أعشيرتي أعزّ عليكم وأجلّ من الله تعالى؟ والاستفهام للاستغراب والتّوبيخ. تراقبون قومي وتخافونهم ولا تخافون الله تعالى فتتركون طاعته وخشيته وراء ظهوركم للغفلة والنّسيان وقلّة الاهتمام. إنّ ربّي عليم بأحوالكم، وقادر على أخذكم، وهذه للإنذار.



- وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ (93) :

ويا قوم داوموا على ما تحبّون عمله من الأعمال، وأنا مواصل في الدعوة لما أنهاكم عنه، وثابت عليها، وسوف تعلمون في مُستقبل الأيّام من سيناله عذاب الإذلال والمهانة، وستعرفون يومئذ من هو كاذب في معتقده وهديه، وانتظروا ما سيأتيكم إنّي منتظر يوم الحسم فيما سيكون من أمري وأمركم، وهذه للوعيد.

- وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ (94) كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ(95)

ولمّا قضى الله تعالى فيهم أمره أخرج شعيبًا والذين آمنوا معه من القرية بأمرٍ منه رحمةً بهم حتى لا ينالهم العذاب، ولا يشهدوه، ونزلت على القوم رجفة شديدة سمع لها قرقعة شديدة بسبب هدم البيوت والمباني، أو نزلت عليهم صاعقة ذات صوت شديد مهلك فمات القوم وهلكوا صرعى على ركبهم هامدين من شدّة الفزع. وخلت منهم القرية كأنّها لم تكن يوما عامرة بأهلها وبمبانيها وأسواقها والحركة الدؤوبة فيها. ألا الهلاك لمدين كما هلكت ثمود من قبلهم، وبُعْدًا لهم من رحمة الله تعالى.

- وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ (96) إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ (97) :

هاتان مع الآيتين المواليتين في عاقبة فرعون وملئه للاعتبار بها. والمعنى: ولقد أرسلنا موسى عليه السلام برسالتنا لدعوة فرعون ووزرائه وأشراف قومه لإصلاح معتقدهم وإصلاح عملهم مدعما بالمعجزات الواضحة للدلالة على صدقه، فكذّبوه وشاقّوه، واتّبع القوم أمر سلطانهم فرعون في اتّخاذه إلاها والسمع له والطاعة، وما أمر فرعون بسديد، ولا يؤدّي إلى الصواب، ولا إلى الخير.

- يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ (98) :

يتقدّم فرعون يوم القيامة قومه، فيمضي بهم إلى النّار في جهنّم ويدخلهم فيها وهو رئيسهم، وبئس المدخل أو المستقرّ الذي أدخلهم فيه، ومضى بهم إليه.

- وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ (99) :

اتّبع القوم أمر فرعون في دنياهم فاتّبعتهم اللعنة، وذلك بإصابتهم بآيات من العذاب التي منه القمّل والضفادع والدم...ويوم القيامة ينالهم عذاب أشدّ، (بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ) بئس العطاء والزيادة المتحصّل عليها باتّباعهم فرعون، وتولّيهم عن موسى ودعوته.

- ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ﴾ (100) :

هذه إلى غاية الآية 119 في موعظة النّاس: ترغيبا وترهيبا وللاعتبار بما سبق للأمم السالفة. والمعنى: كلّ ما تقدّم من أخبار قوم نوح، وأقوام هود وصالح ولوط، وفرعون نعرضها عليك – أيّها الإنسان – لتعتبر بها، وإنّ آثار هذه القرى المدمّرة فيها ما بقي من الآثار التي تدلّ على ما أصابها من هول التّدمير، ومنها ما اِمَّحَى فلا ترى له أثرا باقيا.

- ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ (101) :

وما ظلمهم الله تعالى بإهلاكهم ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بإلاههم الحقّ الذي خلقهم، وبتكذيبهم برسلهم الذين جاؤوا من عند ربّهم لهديهم للحقّ وإبعادهم عن ضلالتهم، ولكنّهم تولّوا عنه، وأصرّوا على شركهم واتّخاذهم آلهة أخرى للعبادة. ولمّا جاءهم العذاب لم تنصرهم آلهتهم التي كانوا يدعون من دون الله بشيء من الإنقاذ، ولم تَحْمِهم منه، بل ما زادتهم عبادتهم لها إلاّ تخسيرا، وهلاكا، وتدميرا لقراهم.

- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ (102) :

في هذه اِلتفات لكفّار قريش، وكلّ الكافرين المكذّبين المشركين للتّحذير والإنذار، والمعنى: وهكذا يكون عذاب الله تعالى إذا قضى أن يأخذ بالعذاب القرى التي تصرّ على الكفر بالله وبوحدانيته، وتكذّب برسوله، إنّ عذاب الأخذ مُهلك وموجع الوجع الأليم الشّديد، لا يُبقي ولا يَذَر.

- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ (103)

إنّ في ذلك الذي حصل للأمم السالفة المُهلكة بعذاب الاستئصال لعبرة لمن خاف على نفسه من الهلاك في دنياه، وعذاب الآخرة حين يقوم النّاس لربّ العالمين للحساب. ذلك يوم يُجْمع فيه جميع الخلق من آدم إلى آخر مَنْ ولد يوم القيامة، وذلك يوم يشهده الجميع، ويحضرون أهواله المفزعة، فاحذروه.

- ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾ (104) :

وإن كان الكافرون يستبطئونه، فإنّما نؤخّره لموعده الذي حدّده الله تعالى ووقّته، فلا يقع إلاّ في زمنه المعيّن.

- ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ (105) :

يوم تقوم الساعة، ويقوم النّاس للحساب، ففي ذلك الموقف لا تتكلّم أيّ نفس إلاّ بإذن الله تعالى حينما تُسأل، وفي ذلك الموقف يكون النّاس على طائفتين : (شَقِيٌّ ) كُتب عليه العذاب



لأنّه من أهل الكفر والمعاصي، و(سَعِيدٌ) كتب له الأمنُ والنّعيم والنّجاة من العذاب لأنّه من أهل الإيمان والطاعات.

- فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (106) خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (107) :

فأمّا الذين كفروا وعصوْا فمأواهم في نار جهنّم، لهم فيها أنفاس تخرج من الصدر بشدّة من الضيق والإعياء، وأصوات أنفاسهم التي تدخل لصدورهم مرتفعة لضيق صدورهم، وحرقة الهواء، وهم في سوء هذا الوضع ماكثين فيه أبدا مخلّدين على اِمتداد بقاء السماوات والأرض إلاّ إذا قضى الله تعالى لهم أمرا آخر بالانفراج وغيره، فإنّه سبحانه وتعالى يفعل ما يريد وما يشاء. وهذا يدلّ على أنّ الحكم على العصاة المذنبين بعذاب النّار في جهنّم متفاوت الدرجات في زمن بقائهم فيها.

- وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٍ (108) :

وأمّا المؤمنون الطائعون عاملو الصالحات فهم السعداء، مقرّهم في الجنّة يقيمون فيها إقامة دائمة على نحو ما قامت السماوات والأرض إلاّ إذا شاء الله تعالى أمرًا آخر، وعطاؤهم من الخيرات في الجنّة غير منقطع عنهم. والحديث عن مشيئة الله تعالى في هذه الآية يخرج بنا إلى تأويلات غير محمودة.

- فَلَا تَكُ فِى مِرۡيَةٍ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٍ (109) :

إسم الإشارة (هَٰٓؤُلَآءِ) يشير لكفّار قريش وأمثالهم من عبدة الأصنام، والمعنى: فلا تكن في شكّ من خطإ هؤلاء المشركين في زَلَلِهم بعبادتهم الأصنام، واِتّخاذ آلهة أخرى غير الله تعالى، فإنّهم يعبدون ما لا يستحقّ العبادة كما عبد آباؤهم من الأمم السالفة آلهة أخرى غير الله الحقّ. وإنّا سنعطيهم حظّهم من خير أو شرّ حسب أعمالهم من غير نقص. وفي هذه الآية إنذار لهم ليقلعوا عن الشرك.

- وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِى شَكٍّ مِّنۡهُ مُرِيبٍ (110) :

وفي هذه اِلتفاتة لأهل الكتاب، فلمّا جاءهم موسى من قبل بالتوراة اِنقسم القوم بين مصدّق ومكذّب، ولولا قضاء الله تعالى بأن لا يعجّل على خلقه العذاب إمهالا لهم عساهم يؤمنون لأهلك



الكافرين منهم وعجّل لهم العذاب بقضائه، وإنّ المكذّبين ما يزالون في شكّ يحيّرهم : أحقّ هو كتاب من عند الله أم باطل؟

- **وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَـٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ (111) :**

وإنّ كِلاَ الفريقين : المصدّقين والمكذّبين سيعطيهم ربّهم جزاء أعمالهم غير منقوص بكلّ تأكيد، إنّه سبحانه مطلّع على أعمالهم اطّلاعا دقيقا، وهو خبير بتقديره حقّ التقدير.

- **فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ (112) :**

بدأت الآية بتوجيه الخطاب للنّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ تحوّل الخطاب لجموع المؤمنين، والمستفاد من ذلك أنّ الأمر بالاستقامة على أمر الله تعالى لا يعني النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وحده، وإنّما هو خطاب لكلّ مؤمن، وإنّما جاء هذا الخطاب تكريما للتائبين، فإنّ كلّ تائب عن معصيته هو مع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم. والمعنى: فأَقِمْ نفسك وألْزِمْها بطاعة ربّك وبالدعاء له، وادعُ كلّ من تاب وأقلع عن شركه، وصدّق بك لأن يستقيم على دين ربّه. ولا تتجاوزوا – أيّها المؤمنون – وقد إستقمتم على طاعة الله عزّ وجلّ – حدود ما نهى الله تعالى عن تخطّيها. إنّه تعالى مطلع على أعمالكم، ورقيب عليكم فاخشوْا مخالفته في سرّكم وعلانيتكم.

- **وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (113) :**

ولا تميلوا للكافرين المشركين فتعذّبوا بالنّار مثلهم، وما لكم من دون الله من نصير، ولا تستعينوا بهم، فإن فعلتم فلن تنصروا، وإنّما النّصر من عند الله عزّ وجلّ.

- **وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَـٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّـٰكِرِينَ (114) :**

وحافظو على أداء صلواتكم في أوقاتها، صلّوا أوّل النّهار وآخره، وصلّوا نوافل في جزء من الليل صلاة القيام في أوله، أو صلاة التّهجّد آخر الليل بعد نومكم وقبل بزوغ الفجر. إنّ طاعاتك الواجبة ونوافلك من حسناتك التي تمحو سيّئاتك. هذه موعظة للمتّعظين الرّاغبين في الثّواب.

- **وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (115) :**

وهذه موعظة أخرى للمؤمنين فيها دعوة للصبر على الطاعات، ومقاومة هوى النّفس، وللمثابرة على الإخلاص في العمل، فإنّ الله تعالى يثيب المحسنين في طاعاتهم وأعمالهم وفي سلوكهم مع النّاس، ولا يضيع أجرهم، بل يزيدهم من فضله. هذه الآيات الأربع في موعظة المؤمنين تحدّد لهم المنهج القويم ومسالكه ليكونوا من المحسنين.



- فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ **(116)** :

هذه في فضيلة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وهي من مسؤولية الوعّاظ وذوي العقول والأفهام. والمعنى: فلولا كان في ما مضى من الزمن في الأمم السالفة ذوو عقول واعية، وأفهام، ووعّاظ من أهل العلم ينهون المفسدين عن الإفساد في الأرض، وينهون المشركين عن الشّرك لسلمَ النّاس من الانحراف والضلال ووقوع العذاب فيهم، ولقد أفسد في الأرض المترفون الذين كسبوا من التّعيم ومظاهر الرّخاء وسعة العيش ما جعلهم يظلمون أنفسهم بالكفر والطغيان فكانوا مجرمين في حقّ أنفسهم.

- وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ **(117)**

هذه الآية في الإمهال. وهي من دلائل رحمة الله عزّ وجلّ بأقوام فيهم الصالحون، يمنحهم الله تعالى الأمان من العذاب مادام فيهم أهل الصلاح، وهذا من أعظم مظاهر التّكريم الذي يَهَبُه الله عزّ وجلّ للصالحين من عباده. وفي هذا ترغيب للنّاس ليسمعوا لِنُصح الصالحين فيهم. والصالحون أو المصلحون هم أهل العقل الرّشيد: إذا قالوا صدقوا، وإذ نصحوا أرشدوا، وهم أهل حفظ وعلم: لا يسألون الناس عن نصحهم أجرا إلاّ المودّة في القربى، وتحقيق الخير لذويهم، ولا يطمعون في مقام كريم فيهم، هم أهل علم وخبرة وتجربة، وهم ذوو نوايا صادقة وحسنة من اِستقامتهم على التقوى والعمل الصالح، ومن رغبتهم في الإرشاد للصلاح.

ومعنى الآية: والله سبحانه لا يعجّل بإهلاك أقوام فيهم المصلحون الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ماداموا فيهم تكريما لأهل الصلاح.

ويعجب المرء من قوم تفشّى فيهم الفساد في الدّين وفي الرّأي وفي العمل وتدبير المكائد بسبب خلافهم على السلطة وتنازعهم على كراسي الحكم حتى أضرّوا بأنفسهم وبمحكوميهم، وضيّعوا خيرات بلادهم، وعطّلوا مشاغلهم ومصالح العباد إلى أن فَقَّرُوهم، ثمّ كان فيهم أهل الحكمة والرّشاد وأهل الخبرة والعلم والنّزاهة فلم يلتفتوا إليهم، ولم يدعوهم ليسترشدوا منهم لما ينفعهم وينفع البلاد، ولِمَا يردّهم إلى التعقّل والمصالحة، وللكفّ عن الصراع والخلاف حتى لا ينتهي بهم الأمر لخراب العمران والاقتصاد.

أي ليس من شأن الله تعالى أن يُهلك أقواما بغير حق، وهم مصلحون غير مفسدين، تنزيها لذاته تعالى عن الظلم، فلا ينزل الله عذاب الاستئصال لأجل كون القوم مجرّد كونهم معتقدين للشرك والكفر، وإنّما ينزل بهم العذاب إذا أشركوا بالله تعالى وكذّبوا الرسل وتجرؤوا على الله ومكروا بالأنبياء وصدّوا عن سبيل الله وأضلّوا المستضعفين وأذلّوهم وأساؤوا المعاملات وجاهروا

بالمعاصي وسكت عنهم الأشراف واتّبعوهم في إسرافهم في إتيان الشهوات المحرّمة، ولم يقم فيهم أولو الرّشاد يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر، وإذا كثر ظلمهم وتمادوا فيه، فهؤلاء حقّ عليهم عذاب الاستئصال.

فأهل الصلاح في كلّ مجتمع حصنٌ لقومهم من نزول العذاب فيهم رحمة من الله وفضلا وجودا من لدنه، وتكريما لأهل الخير والمعروف.

- **وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119) :**

الآية الأولى شبيهة بالآية 99 من سورة يونس في موضوع الأولى منهما، ولكنّهما مختلفتان فيما عدا ذلك. والمعنى: لو شاء الله جلّ وعلا لجعل النّاس أجمعين مؤمنين عند خلقهم، ولجعلهم مستقيمين على طاعته وتنفيذ أمره على نحو خلقه تعالى للملائكة، ولكنّه سبحانه قد شاء أن يجعلهم مخيّرين ليتحمّل كلّ مخلوق من بني الإنسان مسؤوليته في اِختيار منهجه في حياته، ولذلك جعل الإنسان مخيّرا غير مجبر على الإيمان وعلى الاستقامة عليه وعلى طاعة ربّه، ولأجل ذلك قدّر الله تعالى أن يحييه بعد موته ليحاسبه عن اِختياره، ومن رحمة الله تعالى بخلقه أن أرسل لهم رسلا من حين لآخر لهديهم لسبيل الله وشرعه، ولإنقاذهم من الحيرة والضلالات، وأنزل لهم كتبا للاهتداء بها. ولايزال الناس أجمعين مختلفين في المعتقد وفي الاستقامة على دين الله تعالى إلى يوم القيامة (إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ) أي ولن يكون جميع النّاس ضالّين غير مؤمنين، ففي كلّ أمّة، وفي كلّ زمان، وفي كلّ قرن هناك أقوام اِنتفعوا برحمة ربّهم فآمنوا واِهتدوا للعمل بطاعته واِستقاموا على شرعه. والرحمة الرّبّانيّة التي اِنتفعوا بها هي اِهتداؤهم بالبلاغ الذي جاءهم عن طريق رسل الله، وحوته الكتب التي جاؤوا بها وخلّفوها من بعدهم ليقرأها النّاس ويعرفوا بها ربّهم وشرعه الذي يقيمهم على صراط الله القويم. فهؤلاء لا يختلفون على دين الله وطاعته، بل ينتظمون عليها ولا يتفرّقون. وأمّا الذين تولّوْا عن الانتفاع برحمة الله التي نزلت عليهم من عند ربّهم عن طريق رسله، والكتب التي أنزلت عليهم فإنّ مأواهم في آخرتهم صحبة شياطينهم من الجنّ الذين زيّنوا لهم التشكيك في الدين والاختلاف على رسل الله سيكونون في جهنم أجمعين.

- **وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (120) :**

تشعرنا هذه الآية باختتام السورة لأنّها جاءت في بيان الغرض من عرض ما سبق من قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم، ولأنّها تعرض عناصر فضيلة القرآن الذي جاء التمجيد به في مقدمة السورة، وبهذا يحتكم الرّبط بين المقدمة والخاتمة، ويتّضح الغرض من عرض مضمونها.



الخطاب في الآية للنّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم ومن ورائه كلّ مؤمن ليتّعظ، وليعلم ما جهل من قصص الأنبياء. والمعنى: وكلّ ما أخبرنا به من قصص الرّسل مع أقوامهم ذكرناه لك لنثبّت به فؤادك لتعلم أنّ ما تلقاه من قومك من إعراض عن السماع لك، ومن تكذيب برسالتك وبكتابك، وما تلقاه أنت ومن معك من المؤمنين من أذى وسخرية واِستخفاف بالوعيد، قد لقي مثله جميع الرسل من قبلك. ولقد جاءك في هذه السورة القصص الحقّ الثابت للاتّعاظ بها وللاعتبار ليعلم المؤمنون أنّهم منصورون بأمر الله تعالى، وأنّ المكذّبين الكافرين الذين يؤذون رسول الله والمؤمنين معه مُهلكون حين يأتيهم قضاء الله، وفي هذه القصص ما ينفع المؤمنين من الاستشهاد به في بعض المواقف ليصبروا ويتصبّروا، وليثبتوا، وليثقوا بنصر الله تعالى ونجاتهم من العذاب.

- **وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ (121) وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ (122):**

وقل للذين يرفضون التصديق بالوحدانية، وبالرّسالة اِبقوا على ما أنتم عليه من الشّرك والتكذيب وتحدّي الوعيد، إنّا باقون على إيماننا وعلى العمل بما ينزل على رسولنا من الوحي للاهتداء به لصراط الله المستقيم، واِنتظروا إلى ما سيؤول إليه أمركم وعاقبتكم وإنّا منتظرون رحمة ربّنا، وإظهار دينه، ونصرة رسوله.

- **وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ (123) :**

وتختم هذه السورة بهذه الموعظة لكلّ مؤمن، وعند الله تعالى علم بما يجري في السماوات وما في الأرض، وما سيحدث فيهما ممّا لا أحد من الإنس والجنّ يعلمه، أو يتنبّأ بحدوثه. وكلّ تدبير وكلّ عاقبة يعود إلى الله تعالى بالعلم والتّقدير، فثابر – يا عبد الله – على عبادة الله وحده، وعلى طاعته، واِلجأ إليه عند حاجتك، وثق به، والله يجازي كلّ إنسان عن عمله إن عمل خيرا، ويعاقب المذنب ما يستحقّ من العقاب عمّا اِقترف من السيّئات لأنّه تعالى مطلع على ما تعملون، وليس بغافل عما تفعلون.

ذكر القرطبي في تفسيره أنّ كعب الأحبار قال عن هذه الآية التي أُختتمت بها سورة هود هي التي اختتمت بها التوراة في نفس الموعظة.

وبهذه الموعظة تختم هذه السورة : نسأل الله تعالى الهدى والتّقى والسلامة وحسن العاقبة.



| آياتها | ســـــورة يوســـف | رقمها |
|---|---|---|
| 111 | ـــــ مكيّة ـــــ | 12 |

اِنفردت هذه السورة بعرض قصّة حياة يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، فهو نبيّ بن نبيّ، جدّه نبيّ، ووالد جدّه. شريف في نسبه، وفي سلالة النّبوّة. ومع هذين الشرفين فقد تعرّض لابتلاءات قاسية وأليمة. دلّ هذا أنّ الابتلاء بالشدائد لا يكون دائما من الضرّ، ومن الحظّ المنكود. فهذا النّبيّ، وجميع الأنبياء من قبله ومن بعده، وكذلك الرسل والصلحاء ابتلُوا بالشدائد وهم المصطفون الأخيار، والأقربون إلى الله تعالى بالرعاية والعناية والاطلاع، وفُتِنُوا في أقوامهم ومن الأقربين، ولكنّهم قابلوا كلّ بلوى بالصبر، واِستعانوا عليها بالدعاء والصلاة، واِنتظار الفرج من عند الله تعالى. وهذا ممّا يجب أن يُعتبر به عند قراءة هذه السورة.

وأمّا ما يُصاب به المجرمون والطغاة من شدائد فهو من الإنذار للإسراع للتّوبة والإنابة، أو من العقاب ليعتبر به المعتبرون.

تآمر على يوسف إخوتُه، واِجتمعوا على الكيد له، وكانوا راشدين، تعدّى بعضهم عتبة الخامسة والعشرين من العمر، ولم يتجاوز يوسف الستّ سنوات، وقد فقد أمّه بعد ولادة أخيه الأصغر بنيامين فصار يتيم الأم، هذا الصغير الأحوج للعطف والحنوّ والرعاية حُسِدَ على مكانته الأثيرة عند أبيه، وحبّه له لصغره ويُتمه فألقوا به في جبّ ليهلك، فلمّا مرّت قافلة تجارية بالبئر أخرجوه منها، واتّخذه دليل القافلة الذي رفعه من الجب عبدا مستعبدا وهو الحرّ الشريف في قومه. وحرموه بهذا من أبيه وصحبة إخوته والعيش مع ذويه بعد أن فقد أمّه. ثمّ عُرِضَ في سوق النخّاسين وبِيعَ لعزيز مصر بثمن بخس، فأكرمه الله تعالى بهذا ليعيش في قصرٍ عزيزا مكرّما. وفي هذا القصر يُبْتلى في شبابه لسحر جماله بتهمة مراودة اِمرأة العزيز، وهو من هذه التّهمة بَرَاء، فيُلْقَى به في السجن فيشهد فيه حياة قاسية ضنكى، ويعيش في ضيق وكرب مع المساجين المتّهمين والمجرمين صابرا، وداعيا إلى الخير، فينقذه الله تعالى منه بعد زمن، ويخرجه بإعلان براءته، ويُعْلَى من شأنه تكريما له لحسن علمه بتأويل الرّؤى، ويقرّب من الملك ويُعيّن وزيرا للمؤنة لأنّه الأمين، ويَلقى في عزّه وجاهه إخوته فيكرمهم ويصفح عنهم ويسامحهم، ويلتقي بعد ذلك بأبيه وقومه ويكرم وِفادتهم بمصر، وبذلك انتقل القوم من كنعان إلى مصر في عهده.

وفي باب العقيدة، فإنّ في السورة إشارة لفضيلة إتّباع ملّة إبراهيم القائمة على عقيدتي: التوحيد والإيمان بالآخرة، وفيها إشارات لدلائل الخلق الدالّة على القدرة والعظمة، ودلائل دحض الشرك.

وفي باب الموعظة فقد دلّت على أنّ مكر الإنسان بأخيه الإنسان لن يبلغ شيئا إلاّ بما قدّره تعالى لعبده، وأنّ الله تعالى غالب على أمره، وناصر عباده المؤمنين ولو بعد حين.

- **الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (1) :**

(الٓر) سبق الحديث عن هذه الحروف، في آيات هذا القرآن بيان الهدى والرّشاد والحلال والحرام بوضوح، وجاء اسم الإشارة (تِلۡكَ) للبعيد لأنّ هذه الآيات بعيدة عن قدرة الخلائق ليأتوا بمثلها.

- **إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ (2) :**

إنّا أنزلنا هذا القرآن بلغتكم العربية لتفهموه ولتُدرك به عقولُكم وأفهامُكم الحقَّ الذي جاء به.

- **نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ (3) :**

وُصفت هذه السورة بأنّها تقصّ أحسن القصص، وحُقَّ لها ذلك لأنّ قصة يوسف عليه السلام قصة عجيبة في أحداثها وأطوارها وتقلّباتها، وإِختلاف الأمكنة.

هي أحسن القصص لأنّها قصة حقيقية لحياة رجل واحد إِجتمعت في مسيرة حياته تناقضات عديدة متضادّة، وعجيبة وغريبة في تقلّباتها العكسية.

رماه إخوته الكبار في جبّ للخلاص منه كيدا وحسدا منهم، وقد كان أصغرهم سنّا وأضعفهم، فلمّا كبر، وقابل إخوته قابلهم بالتكريم والصفح والتّسامح، وكان وقتها مقتدرا عليهم، فصار بفعله هذا أكثر منهم رشدا، وأرجح عقلا، وأحسن خلقا، وأكرم نُبلا، وأصفاهم قلبا، وأوسعهم حِلْمًا.

بيع في سوق النخّاسين عبدا بثمن بخس، دراهم معدودة، فغدا بعد ذلك في قصر العزيز في كفالته مكرّما وأثِيرًا، ولمّا كبر صار عزيزا لمصر، أي وزيرا، مؤتمنا على خزائن مصر، وصار له الجند والأعوان خَدَمًا.

حقد عليه إخوته وحسدوه في صغره لحنوّ أبيه عليه ليُتْمِهِ من أمّه، ولمّا إِستدارت الأيام سجد له الإخوة صاغرين، وجاؤوه معتذرين، فصار من كان قويّا ضعيفا ذليلا، ومن كان ضعيفا غدا قويّا.

عاش ردحا من الزّمن في قصر العزيز الواسع في عزّ ورفاه ودلال، ثمّ خرج منه إلى السجن الضيّق القذر، وشرّ الطعام مُتّهما مع المتّهمين والمحكوم عليهم من المجرمين.

دخل السجن مُتّهما، ولبث فيه زمنا، ثمّ خرج منه مُبَرَّأً ومكرّما، وحظي بصحبة الملك.



اِتّهمته اِمرأة العزيز، وأُدخل السجن بدُعائه اِتّقاء فتنة نساء الأشراف، وهي التي برأته علانية في محاكمة نسائية فريدة في بلاط الملك بشهادة نساء الأشراف، وبحضور الملك والأشهاد، فصارت المدّعية جانية وكاذبة، وغدا المدّعى عليه بريئا وصادقا، ومؤتمنا. وانتهت هذه المرأة إلى اِمرأة مقرّة بالحقّ، تائبة ومؤمنة تطلب من الله تعالى المغفرة والرحمة بعد أن كانت غانية وماكرة..

في هذه السورة عرض لحياة القصر والأشراف وحياة الملك والخدم والوزير، عزيز مصر، وسلطان الكهنة، وفيها مقابل ذلك وصف لحياة السجناء في سجنهم.

فيها عرض لعنجهية الكهنة التي اِنتهت عند فشلهم في تفسير رؤيا الملك بالذلّة والخزي وكشف جهلهم، وفي المقابل اِنتصر عليهم يوسف بعلمه وغلبهم بتأويله لرؤيا الملك فقهرهم بالغلبة، وأضعف قدرهم، بينما اِرتفع قدر يوسف وكثر أنصاره، وقرّبه الملك إليه واِختاره لأن يكون أمينا على خزائن أرض مصر. ومن غريب المتناقضات أنّ السّجين الذي رأى نفسه في منامه يعصر خمرا يُبرَّأ ويصبح ساقيا خاصّا لفرعون ومقرّبا منه، وهي أعلى درجة يبلغها الخادم، وأمّا الذي رأى نفسه يحمل خبزا تأكل الطير منه يُحكم عليه بالإعدام صلبا، من عصر خمرا اِرتقى، ومن حمل طعاما صُلِبَ!

كلّ هذه المتناقضات عُرِضت في أسلوب سلس، لا اِستطراد فيه، ولا إطالة، وفي اِنتقال لطيف من الحزن والألم إلى السّرور والزّهو، أو على العكس من ذلك.

أسلوب هذه السورة في سرد قصّة يوسف وفي التّصوير الإشاري والبياني يستحيل على القصّاصين البارعين في هذا الفنّ الأدبي أن يأتوا بمثله، وأن يجمعوا بين كلّ هذه المتناقضات في شخصية واحدة مهما وَسِعَت تجربتُهم في ما خطّت أقلامُهم من القصص. والأكثر صعوبة، والأشدّ عسرا في كتابة مثل هذه القصة هو في الإتيان بمثلها في الإيجاز لتكون على مثلها في عدد الصفحات والأسطر، وفي البيان، وفي الفواصل.

لهذا ولذاك فهذه السورة عند أهل الفنّ القصصي أحسن القصص على الإطلاق.

ومعنى الآية: نحن نروي لك أحسن الأخبار وأصدقها عبر الوحي ليكون قرآنا يُتْلَى، وإن كنت من قبل هذا الوحي لا تعلمها.

- إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ (4) :

وأُذكر إذ قال يوسف لأبيه: يا أبتِ رأيت في منامي أحد عشر نجما والشمس والقمر يسجدون لي، ففسّرها لي. أن يرى طفل صغير، عمره أقل من ستّ سنوات رؤيا كهذه هي من بشائر التكريم والتعظيم التي لا يؤتاها إلاّ نبيّ مكرّم.

- قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ (5) :

ونصحه أبوه بأن لا يخبر أحدا من إخوته عن رؤياه وليكتمها في نفسه، وأشعره بأنّه إن أخبرهم فسيتآمرون على هلاكه حسدا، وإنّ الشيطان لا يترك فرصة لأن يفسد بين الإخوة حسن علاقتهم ببعض، فإنّه عدوّ ظاهر للإنسان، لا يحبّ له الخير. ونصحه أبوه بهذا الكتمان لأنّه رآها من مبشّرات النّبوّة.

- وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (6) :

وأردف يعقوب قائلا لابنه: وكما أكرمك ربّك بهذه الرؤيا عظيمة الدلالة فكذلك يختارك لأمر عظيم، ويعلّمك تعبير الرّؤيا وتفسيرها، أو يعلّمك أحاديث الأمم وأخبارها وأخبار الكتب ودلائل التوحيد، ويزيدك من فضله فيعطيك النّبوّة كما سيعطيها لأبناء من نسل يعقوب، وكما آتاها لأبويك: إبراهيم وإسحاق. إنّ ربّك عليم بما يعطيك، وحكيم في فعله وفي اِصطفائه لبعض من خلقه بهذا الفضل والتكريم.

- لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ (7) :

لقد كان خبر يوسف مع إخوته موضع سؤال المستفسرين للعلم لما في خبرهم من غرابة. وأسماء إخوة يوسف: روبيل وهو أكبرهم، وشمعون، ولاوى، ويهوذا، وزيالون، ويشجر، وأمهم لِيَابنت ليان، وهي بنت خال يعقوب، وليعقوب من اِمرأتين أخريين كانتا أَمَتَيْنِ وكانتا أُختين أربعة أبناءهُم: دان، ونفتالي، وجاد، وآشر، ثمّ توفيت ليا فتزوّج أختها راحيل، فولدت له: يوسف، وبنيامين. وراحيل ماتت في نفاس بنيامين. وتزوّج بعدها أخرى هي التي سجدت ليوسف من بعدُ.

- إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ (8) :

واُذكر إذ اِجتمع الأخوة فقالوا فيما بينهم إنّ أبانا يحبّ يوسف وأخاه بنيامين أكثر ممّا يحبّنا، وهو يعتمد علينا في الرّعي والخدمة لأنّا (عُصۡبَة): جماعة قويّة يُعتمد عليهم، إنّ أبانا في هذه الحال لفي خطإٍ واضح في إيثارهما علينا.

بعض هؤلاء الأخوة في سنّ الرّشد، منهم من تخطّى في عمره الخامسة والعشرين، ويوسف وقتئذ في سنّ الطفولة في سنّ الستّ سنوات وأمّا أخوه فرضيع، وأمّهما ماتت في نفاس الوليد بنيامين. والأب يعقوب نبيّ، وحاشاه أن يكون في ضلال مبين، وقد رأوه غير منصف في حبّهم كحبّه للطفلين الصغيرين يتيمي الأم. أليس هذا من المستغرب في القول والرّأي؟ ما أكثر ما يفعله الحسد من عمى البصيرة! إنّ كثرة الإنجاب مع تعداد الزّيجات بالنّساء، والفارق الكبير في



السنّ بين الذرّية مع البطالة لأنّ الأولاد جميعهم يشغلون في الرّعي، وكان يوسف في البيت لا يخرج معهم للرّعي، ولا يتعرّض إلى ما يتعرّضون إليه من تأثير الطبيعة وعمل الرّعي لعلّ كل ذلك هو الّذي أثار في هؤلاء غيرتهم، وهذا ممّا يُعتبر به حتى لا تُثار بين الإخوة أحقاد، ونحن لا نعلم إن كان ليعقوب ذريّة إناث.

- ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ (9):

قال أكبر إخوته اقتلوا يوسف فنستريح من وجوده، وقال آخر: أَلْقُوهُ من عَلٍ يسقطْ ميّتا جريحا يرجع إليكم اِهتمامُ أبيكم بكم، ولا ينشغل عنكم، وتكونوا من بعد موت يوسف عند أبيكم أبناء صالحين يشكر لكم أعمالكم.

- قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ(10) :

وقال آخر: لا تقتلوا يوسف، وارْموه في أعماق بئر لا يستطيع أن يصعد منها فيغيب خبره، فإذا مرّت بالبئر قافلة للمسافرين اِلتقطوه وأخذوه معهم فنستريح منه دون أن نرتكب جريمة قتل، إذا أردتم أن تخلصوا منه.

- قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ (11) أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (12) :

واِجتمع الإخوة المتآمرون على أخيهم الأصغر على هذا الرّأي، فراحوا إلى أبيهم ليسترخصوا منه ليأخذوا يوسف معهم حين يخرجون للرّعي خارج منطقة سكناهم. قالوا له: ما لك لا تثِق بنا ولا تؤمنّنا على أخينا ونحن له (لَنَٰصِحُونَ) نقوم برعايته ونحفظه، ولا ندعه في الأماكن الخطرة، دَعْه يخرج معنا ليأكل ما طَاب له من نبات البرية، وليتفسّح فيها، وإنّا سنرعاه ونحميه من المخاطر والمهالك. كلام معسول لِغَدْرٍ مُبَيَّت، وخيانة مدبّرة!

- قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ (13) :

قال لهم الأب : إنّي لا أكون مطمئنّا إذا خرجتم به، وأخاف عليه أن يَفْجَعَنِي فيه ذئب شرس بافتراسه وأكله حينما تكونون منشغلين عنه برعيكم وعملكم.

- قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ (14) :

فردّوا عليه قائلين: إذا بلغه ذئب وأكله ونحن في جماعة وفي قوّتنا، إنّا حينئذ عاجزون وهالكون إن كنّا غير قادرين على حفظه، وهكذا طمأنوه ليخونوا أباهم ويفجعوه في اِبنه الصغير، يتيم الأم.



وما هذا من فعل البرّ بالوالدين، وما هذا من فعل الإخوة بالأخ الصغير الضعيف مهما امتلأت صدورهم غيظا عليه، وحسدا منه، وما هذا من فعل الوفاء بالعهد، وما أعجب من هذا إلاّ فعل اِبن آدم بأخيه... وما هكذا تكون علاقة الأخ بأخيه.

- فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (15) :

ولمّا خرجوا به، وقد عزموا على إلقائه في الجبّ كما سبق لهم أن اِتّفقوا عليه، ثمّ نَفّذُوه، ولمّا وقع يوسف في الجبّ – كما شاء له إخوته – أوحي إلى يوسف وَحْيَ الإلهام، وليس وحي النّبوّة لأنّه كان صغيرا، وغير راشد، بأنّه سيلقى إخوته يوما، وسيخبرهم يومها عمّا فعلوه به، ويوبّخهم عمّا صنعوا معه (وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ) أي سيخبرهم بما فعلوه به، وهم لا يشعرون أنّهم أمام أخيهم يوسف بسبب تغيّر الملامح، وعظم المكانة، وبسبب ذهولهم. وكان هذا الوحي لتقوية قلبه، وتبشيرا بسلامته.

- وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ (16) :

ولمّا رجع الأخوة عندما أظلم اللّيل إلى منزلهم بادروا بالشهيق وذرف الدمع من العين من التّباكي، ولمّا رآهم أبوهم على هذه الحال خرّ مغمًى عليه. وما كان تباكيهم إلاّ للمخادعة!

جاء في تفسير القرطبي: "قال علماؤنا: هذه الآية دليل على أنّ بكاء المرء لا يدلّ على صدق مَقَالِهِ، لاحتمال أن يكون تصنّعا، فمن الخلق من يقدر على ذلك، ومنهم من لا يقدر، وقد قيل: إنّ الدمع المصنوع لا يخفى، كما قال حكيم: إذا اِشتبكتْ دموعٌ في خدودٍ... تبيّن مَنْ بكى ممن تباكى" (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج9 ص 145).

- قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ (17) :

ولمّا أفاق يعقوب قالوا له قولا واحدا اِتّفقوا عليه وتعاهدوا: إنّا ذهبنا نستبق رياضةً وترفيها، وقد تركنا يوسف مع شياهنا فهجم عليه ذئب وأكله، ونحن نعلم أنّك لن تصدّقنا رغم أنّنا صادقون فيما قلنا. وجاؤوا بهذا ليصدّقهم حتى لا يلحّ في السؤال عمّا حدث وكيف حدث؟

- وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (18) :

وجاؤوه بقميصه ملطّخا بدم غير دم يوسف، ولم يكن القميص ممزّقا من أثر ما يفعله الذئب بجسم مكسو قتله وأكله. أدرك يعقوب لمّا رأى القميص على حاله غير ممزّق أنّ في الأمر مؤامرة، وأنّ اِتّهام الذّئب بأكل يوسف تهمة ملفّقة قال: بل زيّنت لكم أنفسكم شيئا وحسنّته لكم



للخلاص من يوسف، فصبرٌ جميلٌ، لا تبرّمَ فيه ولا سُخط حتّى يأتي الله بأمره، ويحدث أمرا، والله المعين ليظهر حقيقة ما تدّعون. وقد قيل في المثل العربي: برئ براءة الذئب من دم يوسف.

- وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ (19) :

ومرّت قافلة تجارية بالجبّ، فبعثوا إليه الذي يتقدّم الجماعة المسافرين ليستقي لهم منه، فلمّا أرسل دلوه في الجبّ ليملأه ماءً تعلّق بالحبل الصبيّ الملقى فيه –وكان عندها جاثما على صخرة فيه – ورُفع فإذا بالرّجل يفاجأ به، ويُسَرُّ، ويرفع صوته في الجماعة مبتهجا بما رُفع له مع الدلو: يا بشراي قد لقيت فيه غلاما، واجتمع حوله القوم، ورأوا أن يتّخذوه عبدا يبيعونه في سوق النخّاسين بمثل ما يبيعون بضاعة في سوق، والله مطّلع على ما فعلوا، وعلى ما عزموا عليه.

- وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ (20) :

وبِيعَ يوسف صبيا على أنّه من السَّبْي بثمن قليل وناقص عن القيمة الحقيقية لهذا الطفل لأنّ بائعه لم يكن يعرف قدره ولا مكانته ولا نسبه، لو علم هذا لردّه إلى أهله مكافأةً بأغلى ممّا باعه، فقد كان بائعه زاهدا فيه لأنّه لم يتعب في تحصيله، ولم يشتره، ولم يدفع فيه ثمنا، فقد حصل عليه مصادفة، فكلّ ما يحصل عليه مقابلا له هو من الرّبح الذي جاءه من غير مشقّة. فسّر هذه الآية بعضهم أنّ الذي باعه هم إخوته، باعوه بثمن بخس لصاحب القافلة وهذا وجه مستبعد، فلو حصل أن لقي الإخوة القافلة وتفاجؤوا بصعود يوسف من الجبّ لكشف أمرهم ومكرهم وافتُضحوا ولَرُدَّ الصبيّ لأهله.. ثمّ إنّ الآية الموالية تُشير إلى أنّ الذي اِشتراه كان عزيز مصر، فالبيع كان في سوق النّخاسين بمصر، والجبّ كان في أرض كنعان.

- وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (21) :

وقال عزيز مصر الذي اِشترى الصبيّ لامرأته أحسني تربيته والعناية به، واِجعلي مكان إقامته كريما مرضيا غير مكان العبيد والخدم فربّما ننتفع بوجوده بيننا، أو نتبنّاه ولدا لنا، ولم يكن لعزيز مصر أولاد. وهكذا قضى الله تعالى أن يجعل ليوسف مكانة وقدرا ومنزلة في قصر العزيز، ويحظى بعناية زوجته، وينتقل من ظلمة الجبّ وضيقه إلى سعة قصر وضيائه. وقضى الله تعالى أن يعلّمه تأويل الرّؤيا، ويخصّه به، وهذه فضيلة من عند الله عزّ وجلّ خصّه بها، (وَٱللهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِ) أي إذا قضى أمرا فإنّه ينفّذ، ولا يردّه أحد، وما قضاه الله تعالى ليوسف في هذا العلم لا يغلبه فيه أحد مهما أوتي من حظّ في العلم والفطنة والدهاء. ولكنّ أكثر النّاس لا

يدركون حكمة الله في قضائه، ولا يعرفون أهمية الفضيلة التي يؤتيها عبده حتّى تظهر في إبّانها.

- وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (22) :

ولمّا بلغ يوسف رشده، ومنتهى القوّة الجسمية والعقلية آتاه الله سبحانه (حُكۡمٗا) أي حكمة ومعرفة أسرار الأشياء وتأويل الأحلام، وكيفية الخروج من المآزق، (وَعِلۡمٗا) هو العلم بشرع الله تعالى ودلائل وحدانيته، وهكذا يكرم الله تعالى عباده المؤمنين المحتسبين المستقيمين، ذلك لأنّ الإحسان هو أن يعبد العبد ربّه كأنّه يراه، ومن العبادة الاستقامة على شرعه.

- وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (23) :

ولمّا شبّ يوسف وبرز حسنه وجماله عشقته اِمرأة العزيز، وطمحت فيه فطلبته لنفسها لمواقعتها، غلّقت عليه وعلى نفسها الأبواب حتى لا يفتضح أمرها، ودَعته ليُقْبِلَ عليها بسرعة، فاستعصم يوسف، واِستعاذ بالله تعالى واستجارَ به أنْ يصبُو إليها، وأن ينفّذ ما تريده منه، واِعتذر لها إكراما لزوجها – سيّده – الذي أكرمه، فلن يخونه في عرضه وشرفه، إنّ هذا من عمل الخيانة، وهو من أبشع أعمال الظلم، ولا ينجح الظالمون في حياتهم.

- وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ (24) :

(وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِ) ودفعته بقوّه إليها. (وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِ) هناك تقديم وتأخير في التركيب اِقتضاه جمال التّعبير والتشويق، والمعنى: لولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها، أي لقد ألهمه الله تعالى أن يهرب منها إلى الباب ليعصمه من وقوع الفاحشة، ذلك لأنّ الوقوع في الفاحشة من الكبائر، والله تعالى يعصم أنبياءه من الوقوع في الكبائر. وهكذا أبعده الله تعالى عن الخيانة وعن الزّنى. إنّ يوسف من عباد الله المخلصين له في العبادة والطاعة والاِستقامة على شرعه.

- وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (25) :

وسارع يوسف إلى الباب يريد الهروب فلحقت به (زليخا) زوجة العزيز تريد منعه من الخروج، ومسكته بقوّة من قميصه من خلفه فتمزّق من شدّة المسك وشُقّ، وفاجأهما سيّد البيت عند الباب حين فتحه، وحين سألهما عمّا يحدث اِتّهمت المرأة يوسف بمحاولته الاعتداء عليها، وطلبت أن يُسْجن عقابا لهُ عمّا أراده بها، أو أن يعاقبه بالعقاب الموجع تعذيبا له.



- **قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (26) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (27) :**

قال يوسف يردّ التّهمة عن نفسه: هي التي راودتني لمواقعتها وقد رفضت واِستعصمت. وتمهّل العزيز في أخذ القرار لما يعرفه عن يوسف من حسن الإستقامة، فاستشار في الأمر من يثق في رأيه وحكمته، وكان هذا الرجل من أهل زوجته فنبهّه للنظر في قميص يوسف فإذا شقّ من حيث الصدر فالمرأة صادقة وهو من الكاذبين، وإن وجد القميص قد شقّ من الخلف فذاك يعني أنّه كان هاربا، وكانت هي اللاّحقة به، فهي الكاذبة في اِدّعائها واِتّهامه، وهو من الصادقين في تبرئة نفسه من التّهمة.

- **فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ (28) :**

فلمّا رأى العزيز قميص يوسف قد شقّ من خلف برّأ يوسف، واِتّهم زوجته بالكيد له، وبالتّدبير للمواقعة، وأقرّ بأنّ صنيع النّساء في تدبير الكيد عظيم الأثر. وقد جرت الجملة الأخيرة مَثَلاً على لسان العرب في قولهم : "إنّ كيدهنّ عظيم".

- **يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ (29) :**

وأمر سيّد البيت يوسف بأن يستر الأمر، وبأن لا يذكره لأحد، ودعا زوجته لطلب المغفرة عن عملها من زوجها لأنّها كانت خاطئة في تصرّفها، وفي اِتّهام البريء بتهمة باطلة وكيدية.

- **وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (30) :**

وأبى الخبر إلاّ أن ينتشر عبر خدم القصر حتى بلغ نساء الأشراف في المدينة فصِرْنَ يتحدّثن به، ويتَنَدَّرْنَ قائلات: اِمرأة العزيز تراود عبدا لها وخادما عن نفسه، ملأ حبّه قلبها وأخرجها عن صوابها، يا للفضيحة! قد فضحت نفسها وأخطأت الخطأ الكبير، وزلّت الزلّة العظيمة الواضحة، الفاضحة التي لا تأتيها شريفات القوم.

- **فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ (31) :**

فلمّا سمعت اِمرأة العزيز ما يدور بين نساء الأشراف من تعليقاتهنّ الهازئة، ومن الطعن في أخلاقها وشرفها دعتهنّ للضيافة، وأعدت لهنّ مقاعد ذات متكآت لإسناد ظهورهنّ، وحين حضرن اِستجابة لدعوتها قدّمت لكلّ منهنّ غلالا لا تؤكل إلاّ باستعمال السكّين، وآتت كلّ واحدة سكّينا، وأمرت يوسف الذي ألبسته لباس الزّينة أن يخرج عليهنّ، ذلك لأنّه كان خادما في بيتها، فلمّا



رأينه في حسنه وجماله وزينته في لباسه وهيأته أعظمن جماله وأجْلَلْنَ حُسنه وبهاءه، واِشْرأَبّت إليه أعناقهنّ، وأشْخصْنَ فيه أبصارهنّ وكانت السكّاكين بأيديهنّ فجرحن أيديهنّ بدون شعور منهنّ من كثرة تأملهنّ فيه، وقُلن لبعضهنّ: سبحان الله تعالى ليس هذا بشرا، إن هو إلاّ في صورة ملك من الملائكة الكرام ذي الحسن والجمال.

- قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ (32) :

فلمّا رأت (زليخا) ما أصابهنّ، والذي كانت قد قصدته من هذه الضيافة، ومن إتيانهنّ سكاكين بأيديهنّ، قالت لهنّ: ما أصابكنّ من ذهول وشرود هو الذي أصابني من قبلكنّ، وقد عبتنّني صنيعي، فماذا صنعتنّ بأنفسكنّ، ولقد راودتُه عن نفسه حقّا فأبى واِستعصم، وإن أصرّ على الرّفض والامتناع لأكيدنّ له فألقي به في السجن، وليكوننّ عندئذ من الذّليلين.

- قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ (33) :

يفيد سياق الآية باستعمال ضمير النّسوة للجمع أنّ نساء الأشراف صرن يدعونه للضيافة، وصرن يغرينه بأساليبهنّ لإغوائه لتحقيق رغبتهنّ الجامحة ممّا دفع يوسف أن يدعو ربّه ليخلّصه منهنّ وإن كان يإيوائه في السجن، فدخول السجن يحميه من مراودتهنّ ومن الوقوع في الفاحشة، وخشي إن بقي على حاله دون أن يُبعد الله تعالى عنه كيدهنّ أن يسقط في فعل الزّنى وعندئذ يكون من (الجاهلين): السّفهاء الطائشين. يَا لَتقْواه! ويا لاستقامته! فضّل السّجن وظلمته على أن يميل لما تطلبه منه نساء الأشراف على رفعة قدرهنّ ومكانتهنّ! وهذا ممّا يجب أن يعتبر به المؤمن.

- فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (34) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ (35) :

سياق الآيتين يفيد بأنّ موضوع مراودة يوسف اِنتشر في القوم، وصار حديثهم، وقد خرج من قصور الأشراف عن طريق من كان بداخله، فرأى سادة القوم لما ذاع الخبر أن يسجنوا يوسف وذلك من قوله تعالى (ثُمَّ بَدَا لَهُم) أي رأى السادة والأشراف، (مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ) من بعد ما ظهرت لهم دلائل محاولات نسائهم وصدق الخبر أن يسجنوه، وبهذا يكون الله تعالى قد اِستجاب لدعوته، فكانت الإشاعة والآيات من قضاء الله لييسّر له ما دعا به، وليقضي الله أمرًا آخر، وبهذا يتحوّل يوسف من الإقامة في القصر المرفه إلى السجن الوسخ الضيّق. والمعنى : وأجاب الله تعالى دعاءه فأبعد عنه ما ترغب فيه النّسوة من إيقاعه في الفاحشة، والله سميع لدعاء عبده المؤمن، وعليم بما يصلح له، وقد ظهر لأشراف القوم وللعزيز أن يسجنوا يوسف لفترة من الزّمن



من بعدما ظهرت لهم دلائل صدق يوسف، ودلائل أفعال نسائهنّ في التحيّل عليه لإيقاعه فيما اِستعصم به، ورفض الوقوع فيه.

- وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (36) :

ودخل مع يوسف خادمان من خدم قصر فرعون متّهمان بتسميم فرعون في طعامه في اِنتظار محاكمتهما، فرأى أحدهما نفسه في منامه يعصر خمرا، ولم يفهم تأويل رؤياه، وأمّا صاحبه فرأى نفسه في منامه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه، فعرضا على يوسف أن يُؤَوّل لهما رؤيتهما وكانا يعرفان مقدرة يوسف في تأويل الرّؤى، ويعرفان أنّه لا يردّ طلب راغب لأنّه من المحسنين.

- قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (37) :

قال يوسف: أخبركما بأنّه سيأتيكما طعام طيّب ترزقانه من خارج السجن، وليس من طعام هذا المكان، وكلّ ما سيأتيكما من خارجه أعلمكما به، وهذا من علم الغيب الذي علّمني إيّاه ربّي. إنّي لا أتّبع دين قوم لا يؤمنون بالله وحده، ويكفرون بيوم للحساب في آخرتهم بعد مماتهم، ويوم بعثهم.

- وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38) :

واِتّبعت ملّة الإسلام: دين آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب. ما كان ينبغي لنا أن نشرك بالله تعالى أحدا. (ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ) إعتبر يوسف الاهتداء للإيمان بوحدانية الله تعالى، وللعمل بشرعه في طاعته، وللوقوف عند حدود نهيه وتحريمه من أجَلّ نِعَمِه تعالى عليه وعلى كلّ المهتدين لهذا، لأنّ عاقبة هذا الاهتداء الفوز برضوانه. ولكنّ أكثر النّاس لا يعرفون هذه الفضيلة وعاقبتها فلا يؤمنون.

- يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (39) :

يا ساكني السجن والمصاحبين: أيّهما أفضل أن يعبد الإنسان إلاها واحدا قهّارا بقدرته، أمره نافذ وغالب أم أن يجعل له أسيادا عديدين يعبدهم وهم لا يقدرون له على شيء، وهم متفرّقون ومختلفون؟

- مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (40):



ما تعبدون من دون الله تعالى إلاّ أوهاما سمّيتموها من عندكم ومن عند آبائكم أسماء مختلقة على غير مسمّى، وليس لها أدلّة على وجودها ولا حجّة ولا برهان، وجعلتموها سلطانا عليكم تطلبون منها ما لا تملك له شيئا، وتدعون ما لا يسمع، ولا يبصر، إن الحكم الحقيقي والألوهية الحقّ هي لله الواحد عزّ وجلّ. أمر الله تعالى أن لا تعبدوا إلاّ إيّاه. هذا هو الدين القويم الثابت بالأدلّة والبراهين، ولكنّ أكثر النّاس غافلون عن الحقّ، وعن الصواب، ولا يعلمون أنّهم على باطل وعلى ضلالة في عبادتهم.

- يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ (41) :

يا مصاحبَيّ في السجن أمّا أحدكما فيسقي سيّده خمرا، سيكون له ساقيا، وأمّا الآخر فسيحكم عليه بالإعدام صلبا، ويُمثّل بجثّته فتأكل الطير دماغه. وجب حكم الله الذي فيه تسألانّني عنه.

- وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ (42) :

وقال يوسف لمن علم أنّه سينجو من عقاب السجن، وسيُبَرّأ، وسيعود إلى سيّده المنعم عليه مكرّما، وسيكون له ساقيا ومقرّبا منه، وهذه أعلى درجة يبلغها الخادم في القصر، لا ينالها إلاّ أمين موثوق به، قال له: حين تخرج من سجنك وتعود إلى قصر سيّدك، وكان فرعون سيّده أُذكرني عند سيّدك بخير، وذكّره بي بأنّي ما أزال في السجن، ونسي الرّجل ما أوصاه به يوسف ليذكّر به سيّده فرعون، فبقي في سجنه مدّة تزيد عن ثلاث سنوات قابعا فيه لا يسأل عنه أحد. والعبرة المستفادة من الآية : أنّ على الإنسان أن يسأل الله تعالى إذا شاء أمرا، ولا يسأل أحدا غيره.

- وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ (43) :

ورأى الملِك رؤيا: رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات ضعاف مهازيل، ورأى سبع سنابل حبّ خضراء يانعة، وسبع سنابل جافّة ليس فيها حبّ من القحط، وطلب من حاشيته ومن الكهنة أن يفسّروا له هذه الرؤيا التي أرّقته إن كانوا بحقّ قادرين على تعبير الرؤى وتفسيرها.

- قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ (44) :

(الأضغاث) هي الحِزَم من الحشيش. والمعنى: قال المعبّرون من الكهنة: إنّها أخلاط من الصور والمشاهد الباطلة التي ترى للإنسان، ولا تدلّ على رؤيا معبّرة، وعموما فما نحن من المفسّرين للأحلام ولا من الذين يعرفون ألغازها.

- وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ (45) :



عندئذ تذكّر الساقي الذي خرج من السجن بريئا يوسف بعد اِنقضاء مدّة من الزّمن، فقال: أنا أخبركم بتأويل هذه الرؤيا فأرسلوني إلى العليم بتفسير الرؤى وتأويلها، وأوصلوني إليه.

- يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46) :

وأوصل الساقي إلى يوسف في سجنه، فأخبره بخبر قدومه قائلا: أيّها الصّديق الصدوق في كلامه والثابت في علمه أوِّلْ لنا رؤيا رأى فيها صاحبها سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع بقرات ضعاف مهازيل، وسبع سنبلات خضراء وأخر يابسات جافّة عساي أرجع للنّاس بتفسيرها فيعلمون تعبيرها وتأويلها.

- قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49) :

قال يوسف: تزرعون سبع سنوات مداومين على الزّراعة على عادتكم، فما حصدتم فأُتركوه في سنابله حتى يقوم المحصول على التقوّت من السنابل، ولا تذروه حبّا إلاّ ممّا تأكلون، واِدّخروه، ثمّ يأتي من بعد ذلك على القوم سبع سنوات جفاف شديدة الجدب يعرفون فيها القحط، فيأكلون ما يدّخرون لهذه السنوات إلاّ ما يُدَخَّرُ للبذر والزراعة. ثمّ يأتي عام خصب تكثر فيه الزّروع والثّمار حتى تُعصر مثل العنب والزيتون.

- وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) :

فلمّا أخبر الساقي الملك بتأويل رؤياه على ما أخبره به يوسف قال الملك ائتوني بهذا المعبّر. ولمّا جاء يوسفَ رسولُ فرعون ليأخذه للملك، اعتذر يوسف عن الاستجابة لدعوته طالبا من الرّسول أن يرجع إلى سيّده فرعون ليسأل النّسوة اللاتي قطّعن أيديهنّ عن سبب هذا القطع وعن حقيقة ما حصل لهنّ، وإنّ عزيز مصر بكيد هؤلاء النّسوة وبأمر قطع أيديهنّ عليم، وعليم بسبب دخولي للسجن.

- قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (51) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ (52) :

وجمع فرعون نساء الأشراف ومعهنّ اِمرأة العزيز، وعلم من عزيز مصر خبر مراودة النساء ليوسف ولذلك أودع السجن اِتّقاءً للفتنة والفاحشة، فسأل الملك النساء عن حقيقة ما حصل لهنّ، وعن شأنهنّ وأمْرهنّ في مراودة يوسف عن نفسه، وكانت محاكمة ثقيلة على الأنفس وفاضحة،



فقلن: حاش لله، ما علمنا على يوسف أنّه أتى فاحشة أو منكرا، عندئذ نطقت اِمرأة العزيز وأقرّت بالحقّ قالت: الآن ظهر الحقّ واتّضح، حقّا لقد راودته عن نفسه، وكان صادقا في تبرئة نفسه، وهذا ليعلم زوجي أنّي لم أخنه في غيابه، وإنّ الله لا يسدّد صنيع الخائنين والغادرين، ولا يجعله يدوم، فلابدّ أن يعلو الحقّ ويظهر يوما ولو بعد حين.

- **وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ (53) :**

وأردفت اِمرأة العزيز قائلة في وسط الجموع، وكان زوجها من بين الحاضرين: إنّي لا أزكّي نفسي من الخطإ والزّلل فإنّ النّفس أمّارة بالسوء إلاّ ما هدى الله وحفظه ووقاه من الوقوع في السّوء. إنّ ربّي كثير المغفرة لمن تاب وأقلع عن المعصية وأصلح عمله، ورحيم بعباده المؤمنين. كانت في شبابها غانية ومراودة وماكرة ومدّعية بالباطل على البريء، واِنتهت إلى اِمرأة مؤمنة تقرّ بالحقّ وتدفع التّهمة الباطلة عمّن اِتّهمته بطلانا، وتقرّ بالخطإ وتطلب من الله تعالى المغفرة والرّحمة. يا للمقابلة بين سلوكين متضادّين!

- **وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ (54) :**

ولمّا علم الملك ببراءته، وعرف عفّته وأمانته في المحافظة على شرف سيّده في بيته، أعجب به فطلب إحضاره إليه ليجعله من أعوانه المخلصين، ومن خلصائه، ولمّا جيئه به وتحاور معه أعجب بكلامه وحكمته وبتقواه وحسن أحدوثته وعيّنه معه من أهل بلاطه، وقال له: إنّك اليوم عندنا ذو مكانة رفيعة وأمر نافذ، وأمين على أسرارنا وقراراتنا وعلى حماية بلادنا.

- **قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ (55) :**

واِقترح يوسف على الملك أن يعيّنه متصرّفا في فلاحة البلاد والمؤونة وقد وعده بأن يكون حفيظا على خيرات البلاد ومداخيل الأرض وراعيًا لها، وهو العليم بما يجب فعله وتدبيره لتحقيق مصالحها العامّة لفائدة أهل البلاد. ما أحوج كلّ بلد أن يكون كلّ مسؤول فيها متّصفا بهاتين الصفتين: أن يكون حفيظا لخيرات البلاد ولمصالحها العامّة، لا يَفْسُد، ولا يُفْسِد، أمينا ومُؤْتمنا، وأن يكون عليما بما يجب فعله لحفظ حياة النّاس وأرزاقهم وضمان أمنهم الغذائي وعيشهم الكريم، ويحسن التّدبير اِتّقاء للأزمات.

- **وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (56) وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (57) :**

وهكذا وهب الله تعالى ليوسف المكانة الرّفيعة بعد سجنه، وجعل أمرَه نافذا بعد أن كان خادما في قصر العزيز، وبعد أن بيع عبدًا في سوق النّخّاسين بثمن زهيد، وصار حيثما حلّ في أيّ مكان من أرض مصر حظي بالتّقدير والاحترام والسّمع والطاعة له، وصار يوسف بهذا يتّخذ من



أرض مصر منزلا حيثما يشاء. هكذا يُكْرِمُ تعالى المحسن من عباده برحمته، ويرفع قدره ومنزلته، ويمكّن له في الأرض، وينصره على أعدائه. والمحسن هو من أحسن في إيمانه وفي طاعته لربّه جلّ وعلا وكان تَقِيًّا يخشى معصية الله تعالى وعقابه، هذا المحسن لا يضيع له أجره وثوابه في آخرته، فإنّ ما يلقاه في آخرته خير ممّا أوتي في دنياه من الفضل.

- وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ (58) :

وذات يوم قدم إخوة يوسف إلى مصر للتزوّد بالمؤونة، فقد أصابهم القحط في بلادهم، ودخلوا عليه يطلبون شراء الغذاء بالمقايضة بما عندهم من طعام فعرفهم إخوته، ولكنّهم لم يعرفوه بملامحه التي تغيّرت. الصغير تتغيّر ملامحه إذا شبّ ثمّ إذا صار كهلا. ولم يعرفوه لرفعة مقامه، أكانوا يستطيعون أن يتخيّلوا – ولو وهْمًا – أن يصبح وزيرًا ذلك الصغيرُ الّذي رموه في مهلكة ليهلك، ولم يعرفوه لحسن بزّته وللحاشية التي أحاطت به.

- وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ (59) فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ (60) :

قول يوسف(وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ) يدلّ على أنّه اِستضافهم ضيافة كريمة فإنّ النُّزل هو مقرّ الضيافة والتكريم، وفي هذه الضيافة يجري المضيّف حديثا حول الخوان مع ضيوفه، ويجري حديث التّعارف، ولاشكّ أنّ يوسف قد جرّهم للحديث عن أبيه وعن أخيه الأصغر (بنيامين)، ولاشكّ أنّهم قد حدّثوه عنهما، وهم لا يشعرون أنّهم يحدّثون أخاهم يوسف، ولمّا قضيت حاجتهم، وحان موعد رحيلهم، وقد جهّزهم بالطعام الذي طلبوه دعاهم لأن يأتوه في مجيئهم المقبل للتزوّد بالطعام بأخيهم الأصغر الذي حدّثوه عنه، وأغراهم بأنّه يوفي لهم الكيل كما رأوا، وبأنّه يكرم ضيوفه كما عاشوا ضيافتهم، وصَاحَبَ هذا الإغراء اللطيف تحذير شديد فإن لم يحضروه معهم فلن يصيبوا طعاما، وحذّرهم من الاقتراب منه ومن الدخول للبلاد، وهو تحذير العزيز القاهر، وهو ذو السلطان، فلا مفرّ من الإذعان لأمره، وهم بالنّسبة إلى المصريين أجانب يأتمرون بأمر سلطان البلاد.

- قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ (61) :

قالوا عندئذ سنحاول إقناع أبينا ليسمح لنا بأن نحضره معنا في الزيارة القادمة، وإنّا لفاعلون ذلك بكلّ تأكيد. قالوا هذا قول الواثقين بوعدهم.

- وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ (62) :

وأمر يوسف أعوانه لأن يردّوا البضاعة التي جاء بها إخوته للمقايضة بها لشراء طعامهم من مصر في رحالهم على غير علم من أصحابها، وبدون إشعارهم بذلك ليعلموا أنّ عزيز مصر –



الذي هو يوسف – قد بالغ في إكرامهم وإستضافتهم فمنحهم طعامهم مجانا بدون مقابل وذلك حين يفتحون رحالهم عند عودتهم لأهلهم بأرض كنعان، فيزيد بهذا من إغرائهم للعودة لمصر للتزوّد لمؤونتهم، وقد علموا أنّهم لن يتزوّدوا بما يطلبون إلاّ إذا أحضروا معهم أخاهم الأصغر، الأخ الشقيق ليوسف من الأب والأم.

- فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (63) :

هناك إيجاز لبعض الأخبار في هذه الآية لا يعسر على القارئ إدراكه بفهمه ليجعل الأحداث مترابطة. لاشكّ أنّ إخوة يوسف لمّا عادوا من مصر إلى قريتهم قد حدّثوا أباهم وأهليهم عمّا لقوه من كرم الضيافة من عزيز مصر وأعوانه، ولاشكّ أنّهم رغبوا في الاستزادة من المؤونة وقد أصيبوا في عامهم ذلك بالقحط، فلمّا قرّ عزمهم على العودة لمصر للتزوّد بها حاولوا مع أبيهم أن يسمح لهم بمصاحبة أخيهم الأصغر إلى مصر، وقد أخبروه أنّه بدون سفره معهم فإنّهم لن يكتالوا شيئا من الطعام وسيردّون على أعقابهم خائبين، لن يكتالوا طعاما إلاّ إذا أرسل معهم أخاهم، ووعدوا أباهم بالمحافظة عليه محافظة مؤكّدة.

- قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (64) :

ورفض يعقوب أن يسمح لهم بأن يأخذوا معهم (بنيامين) فقوله (هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ): إستفهام يفيد النّفي، أي إنّي لا آمنكم عليه بمثل ما أمنتكم من قبل على أخيه يوسف فجئتموني بدونه، فالله يحفظنا من المجاعة ومن الحاجة إلى عزيز مصر وطعامه، وهو أرحم الرّاحمين، فالرّحمة من الله تعالى، وليست من العباد، فلا تأخذوه معكم.

- وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡ ۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِي ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٌ يَسِيرٌ(65) :

ولمّا أنزل الأخوة أوَانِيَهم التي حملوا فيها بضاعتهم التي أرادوا المقايضة بها، وجدوها ثقيلة فلمّا فتحوها وجدوا بضاعتهم قد ردّت إليهم لم يؤخذ منها شيء، سارعوا لأبيهم ليؤكّدوا له صدقهم فيما أبلغوه به من كرم عزيز مصر، فاستدلّوا ببضاعتهم التي ردّت إليهم، وقالوا: ماذا نطلب من إحسان أكثر من هذا الإحسان، أرسل معنا أخانا لنجلب لأهلنا قوت عامنا، (الميرُ) هو قوت العام المدّخر، يسمّى عندنا: "العَوْلَة"، ونؤكّد لك أنّنا سنحفظ أخانا، وبسفره معنا نزداد كيل بعير، وإن كان كيل بعير كيلا يسيرا إزاء ما يلزمنا من طعام لعامنا.



- قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (66) :

ولم يرغب يعقوب أن يرسل معهم أخاهم (بنيامين) وحتى الإلحاح الشديد، وربّما بسبب الحاجّة الأكيدة للطعام إشترط الأب على أبنائه أن يعاهدوه العهد الموثوق باليمين المغلّظة بأن يرجعوه إليه معافًى عند عودتهم إلاّ إذا هلكوا جميعا وأصابهم مكروه أو إعترضهم عدوّ ولم يجدوا منه سبيلا للنّجاة، وأقسموا له بين يديه على ذلك وحلفوا بالله تعالى بأن يحافظوا عليه، وأشهدوا الله على أنفسهم وعلى نواياهم وخفاياهم بأنّهم لا يريدون به مكروها، ولا تفريطا.

- وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (67) :

عندئذ إستسلم يعقوب لرغبتهم ونصحهم بأن يتفرّقوا بين السُّبُل عندما يدخلون مصر اِتّقاءً للحسد، وللمعاينة لكثرتهم وقوّتهم، وأرشدهم للحيطة والحذر، وأخبرهم أنّه لا يقدر لهم على شيء إذا أراد الله تعالى بهم أمرا، فالحكم حكم الله، والقضاء قضاؤه، وبأنّه توكّل على الله تعالى واعتمد في حمايتهم، وفي تحقيق رجائهم من سفرهم، وعلى الله فليتوكّل العاملون العازمون على تحقيق أيّ أمر من أمورهم.

- وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (68):

ودخل أولاد يعقوب صحبة أخيهم الأصغر إلى مصر من سبل مختلفة متفرّقين – كما أمرهم أبوهم – ولكنّ دخولهم هذا – على ما نصحهم به أبوهم – لم يكن ليدفع عنهم قضاء الله تعالى ويردّه إلاّ رغبة في نفس يعقوب شاء الله أن يقضيها له، وهي أن يسترهم عن أعين النّاس والانتباه إليهم، وإنّ يعقوب ذو علم بما علّمه الله إيّاه فحسب، وأمّا ما يكون من أمر الغيب ممّا يشاء الله أن يقضيه دون علم النّاس، فلا أحد يعلمه، ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون أنّ ما يَسْتَأْثِرُ الله بعلمه يغيب علمه عن كلّ النّاس ولو كان نبيّا.

- وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ(69) :

ولمّا دخل أبناء يعقوب على يوسف، ضمّ يوسف أخاه الشّقيق (بنيامين) ضمّا، ولا يعرف بنيامين أنّ الذي ضمّه ذاك الضمّ هو أخوه يوسف، ثمّ سارّه يوسف في خلوةٍ بأنّه أخوه يوسف، وطمأنه على نفسه، وأرشده بأن لا يحزن، وبأن لا يجزع لما سيحدث من عمل مع الإخوة.



- فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ(70) :

ولمّا تمّ تجهيز القافلة بما تحتاج إليه من الطعام ومن (ميرة)= العولة، دِيسَتْ (السقاية) وهو وعاء من الذهب أو الفضّة يتّخذ للكيل، في راحلة بنيامين، ثمّ نادى منادي العزيز في عير أبناء يعقوب إنّكم لسارقون.

- قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ (71) :

وهرع أبناء يعقوب لقافلتهم وسألوا المنادي وأعوانه، ماذا أضعتم؟

- قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ (72) :

قال الأعوان: أضعنا مكيال الملك الذهبي الذي نَكِلُ به الصاع، ونحن نتعهّد لمن جاءنا به حمل بعير من الطعام هدية، وقال كبيرهم: وأنا ضامن وكفيل بأن لا يؤذيه أحد، وسنستر عليه فِعلته.

- قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ (73) :

قالوا للأعوان أنتم تعلمون ما نكون، وما جئنا من أجله، ولم نأت لبلدكم لنخرّب فيها، أو لنظلم فيها أحدا، ولسنا سرّاقا، لا نسرق أحدا.

- قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ (74) :

فقال الأعوان فبماذا تحكمون على أنفسكم إذا ظهر كذبكم في ادّعاء براءتكم من السرقة؟

- قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ (75) :

قالوا: من وُجد صواع الملك في رحله يؤخذ صاحب البعير عبدا لصاحب الشيء المسروق، هذا هو حكم السارق في شريعة يعقوب.

- فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ(76) :

فبدأ يوسف بتفتيش أوعيتهم حتّى اِنتهى إلى راحلة أخيه، ثمّ اِستخرجها على أعينهم من وعاء أخيه بنيامين – هكذا دبّرنا ليوسف أمر أخذ أخيه إليه، ما كان ليأخذه إليه على شريعة فرعون وحكمه، فلم يكن في قانونه أن يستعبد السّارق إلاّ بعلّة قضاها الله تعالى لتحقيق مشيئته، يرفع الله تعالى قدر من يشاء من عباده ومنزلته، والله العليم بتصريف الأمور، وهو فوق كلّ عالم. العالم يكون له علم بهذا الاختصاص وذاك، والآخر عالم باختصاص آخر من غير اِختصاص الأوّل، والله فوق كلّ عالم لأنّ علمه محيط بكلّ شيء وبدقائق الأمور وعواقبها.

- **قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (77) :**

وقال الإخوة عن أخيهم البريء: إن يسرق فقد سرق أخ له – ويقصدون يوسف – من قبلُ، وكأنّهم يقصدون أنّ اِبني (راحيل) المتوفاة قد جُبِلا على السّرقة، وقالوا هذا للتّبرّؤ من سرقة أخيهم، وذكروا أخاه ليدلّوا على أنّه قد جَذَبَهُ عرقُ أخيه!.. اِتّهم يوسف في صغره بسرقة منطقة عمّته بنت إسحاق، وهي تهمة باطلة. يا لهؤلاء الأخوة فيما شُحِنَتْ به قلوبهم من حقد على أخويهما من (راحيل)! لمّا سمع يوسف مقالهم أسرّ قولهم في نفسه حتى لا يكشف عن حقيقة نفسه، ولم يناقشهم فيما قالوا، وترك ما قيل يمرّ، وقال في نفسه، ولم يظهره، بل أسرّه، أنتم شرّ منزلة وقدرا من يوسف وأخيه، وجهر لهم بقوله (والله أعلم بما تصفون) أي الله أعلم بما تذكرون من التّهم: أهي صادقة أم كاذبة؟

- **قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (78):**

ثمّ اِنتقلوا إلى مرحلة الاستعطاف بعد الاتّهام فقالوا: يا أيّها الوزير رحمةً بأبيه وهو شيخ مسنّ فخذ أحدنا عوضا عنه فإنّك من أهل الإحسان، ونعرف إحسانك من قبل.

- **قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ (79) :**

واِستمسك العزيز باحترام العدالة فقال: نعتصم بالله أن نظلم أحدا فنعاقب أحدا بجريرة آخر، إنّا لا نحتفظ إلاّ بمن وجدنا متاعنا في رحله، لو فعلنا ما تقولون لكنّا حينئذ من الظالمين، ولا نحبّ أن نظلم أحدا.

- **فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ (80) :**

ويئس الإخوة من إقناع العزيز بالتّعويض اِستجابة لطلبهم، فانفردوا ببعض يتحدّثون فيما بينهم فيما سيفعلون، وفيما سيقولون لأبيهم عند الرجوع إليه وكيف سيواجهونه عائدين بغير أخيهم، وقال أحدهم: كيف ستواجهون أباكم وقد أخذ عليكم العهد الموثوق باليمين المغلّظة لتحافظوا على أخيكم، وها أنتم قد فرّطتم فيه مثلما فرّطتم في يوسف من قبل؟ أنا لن أرجع معكم، سأبقى هنا في مصر ولن أفارق أرضها حتى يأذن لي أبي بعد أن يعرف ما حدث، ويجد لي العذر، فإن لم يفعل فسأمكث هاهنا حتّى يتصرّف الله تعالى في أمري ولو بالموت، وحكمي بيده تعالى يعلم كلّ شيء من أمرنا وهو خير الحاكمين الذي لا يظلم عباده.

- ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ (81) :

عودوا إلى أبيكم وأخبروه بحقيقة الأمر أنّ اِبنه سرق، وقولوا ما قلنا إلاّ بما علمنا ورأينا بأعيننا، وما كنّا نعلم أنّ هذا سيحدث من ورائنا، وفي غيبتنا وغفلتنا، ولم نكن نعرف ما يُخَبّئُه لنا الغيب، وما كنّا نعلم ما سيحدث.

- وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (82) :

واِسأل المسافرين معنا، واِسأل أصحاب القافلة الذين صاحبونا، واِنّا فعلا قد حدّثناك بما صار واِنّا لصادقون معك، ولم نَكْذِبْكَ.

- قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ (83) :

وعاد الإخوة لأهلهم بدون الأخوين: الأصغر وأحد الكبار، وأخبروه بما حدث، وأشهدوا أصحاب القافلة الذين رجعوا معهم، وفوجئ الأب بالخبر، ولم يصدّقهم بما حدّثوه به وقال بل لقد حدّثتكم أنفسكم بشيء، وحسّنت لكم كيدا فبالله أستعين على الصبر الذي ليس فيه سُخط ولا تبرّم، راجيا من الله تعالى أن يعيد إليّ أبنائي الثلاثة إنّه تعالى هو العليم بحالي، والحكيم في تصريف الأمور.

- وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ (84) :

وأعرض عنهم، واِعتزَلَهم بركن خاص، وأغلق على نفسه الباب وتذكّر يوسف وغيابه عنه، واِشتدّ أسفه على ضياعه وفَقْدِهِ، وظلّ يبكي حتى اِبيضّت عيناه فلم يعد يُبصر من شدّة حزنه على ما أصابه في أبنائه من أبنائه أنفسهم، نكبتهم ونكبته من أبنائه، وهو يمسك نفسه بشدّة ليكتم غيظه وحزنه حتى لا يظهرهما لأحد، وفوّض أمره إلى الله تعالى.

- قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ (85) :

قال له أهله جميعهم: قسما بالله: لا تزال تذكر يوسف حتى بعد هذه السنوات الطويلة حتّى تصير مريضا هزيلا مشرفا على الهلاك أو تهلك.

- قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (86) :

فقال يعقوب: إنّي أرفع أمري إلى الله تعالى أشكو إليه غمّي وهمّي، وعمق ألمي النّفسي، وإنّي على يقين من أنّ الله عزّ وجلّ يعلم حالي وما سيكون من أمري وأمر أبنائي الثلاثة، وأنا موقن بأنّ الله جلّ وعلا سيجعل بعد عسري يُسرًا، فإنّي أعرف ما لا تعرفون عن ربّي عزّ وجلّ.



- يَـٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ (87) :

وأمر الأب أبناءه بأن يخرجوا باحثين عن أخبار يوسف وأخبار بنيامين، ويتتبّعوها بدون يأس من رحمة الله تعالى وفرَجه، فإنّه لا ييأس من فرج الله ورحمته إلاّ الكافرون غير المؤمنين به، الذين لا يعرفون قدرة الله تعالى وفضله على عباده المؤمنين الصابرين.

- فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَـٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ (88) :

وعاد الأخوة إلى مصر، ودخلوا على الوزير للمؤونة فقالوا له في ذلّة واِنكسار وضعف واِستعطاف: قد أصابنا ونساءنا وأطفالنا الهزال من شدّة الجوع، وجئنا ببضاعة رديئة كاسدة رخيصة لم نجد غيرها، فأوفِ لنا الكيل رحمة بنا – ونحن في عام قحط كما تعلم – وأحسن إلينا من فضلك وجودك فإنّ الله تعالى يتفضّل على المحسنين المتصدّقين بالخير العميم وبالتّعويض لهم.

- قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَـٰهِلُونَ (89) :

لمّا رأى يوسف حالهم من الضعف والذلّة والاستعطاف، وعلم بحالهم من الفقر والمجاعة والخصاصة اِستدرجهم في الحديث ليذكّرهم بما صنعوا به من قبلُ وسألهم: هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وبنيامين حينما كنتم في عنجهيتكم وقوّتكم وطيشكم؟

- قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (90) :

لمّا فاجأهم يوسف بما فعلوا به سابقا أخذهم الذّهول فقد ذكّرهم بما لا يعلمه أحد غيرهم فسألوه: أتكون أنت يوسف؟ فأجابهم قال : نعم أنا يوسف، وأخرج لهم أخاه بنيامين من المكان من خلفه وقال: وهذا أخي: قد مَنَّ الله تعالى بجمعنا ببعض، وبحفظنا، إنّ كلّ من يتّقي الله تعالى، ويصبر على بلواه فإنّ الله سبحانه يحفظه ويفرّج كربه فإنّ الله لا يضيّع عباده المؤمنين الصابرين المتعلّقين برحمته، والجملة الأخيرة للاتّعاظ والموعظة وللتّصبّر.

- قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ (91) :

حينذاك، وحينما اِستفاقوا من ذهولهم أقسموا بالله بأنّ الله عزّ وجلّ قد فضّله عليهم، وأقرّوا بذنبهم وخطئهم وتعمّدهم الإساءة له، واِعتذروا له ولأخيه، وطلبوا صفحه، وبعدما كانوا سابقا أقوياء إزاء أخيهم الضعيف صاروا في موقفهم هذا صغارا صاغرين قد فعلوا فعل الطيش، ومن كان بالأمس صغيرا غدَا كبيرا في هذا الموقف، بفضل الله تعالى وتقديره، غدا الأقوى والأقدر على أن يفعل بهم ما يشاء... وذُلّوا وضعفوا وأقرّوا بخطئهم...



- قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ **(92)** :

وازداد من كان بالأمس صغيرا، وصار بملكه عزيزا منيعا قويا مقتدرا، إزداد في ذاك الموقف الذي اِشتدّ على إخوته كِبَرًا في أعينهم حين قال لهم: لا لوم عليكم اليوم ولا تأنيب. يغفر الله تعالى لكم خطاياكم وهو أرحم الرّاحمين، فلم يزدد بهذا التّسامح إلاّ عظمة وجلالا في قدره وحلمه على إخوته، وما أحوج الإخوة المتنازعين والمختلفين فيما بينهم على حطام الدنيا بعد موت آبائهم لمثل هذا الدرس في الحلم والتّسامح والتّغافر والعودة لبعض... وما أحوج البعض لردّ حقوق أخواتهم الإناث إذا حُرِمْن من إرث آبائهنّ قصدا، أو ظُلِمْن فيه تحيّلا... وإنّ القطيعة بين الإخوة من قطيعة الأرحام، وهذه من الكبائر فاتّقوا الذين تسّاءلون به والأرحام.

- ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ **(93)** :

وَصَفَتْ القلوب بين الإخوة، واِطمأنّت النّفوس بالاعتذار من جهة وبالتسامح من جهة، وعرف يوسف ما حدث لأبيه من إصابة في عينيه، فحمّل القافلة طعاما، وأعطى لأحدهم قميصه وأوصاه إذا بلغ به أباه أن يلقيه على وجهه فيرتدّ بصيرا ويذهب عنه بياض عينيه. وأمرهم بأن يعودوا إلى مصر مصحوبين بأهليهم جميعا: الأب وزوجته وأزواجهم وأبنائهم ومن معهم.

- وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ **(94)** :

وما أن خرجت القافلة من مصر متّجهة إلى ديار يعقوب، قال يعقوب لمن حوله من الأحفاد وغيرهم: إنّي لأشمّ رائحة يوسف وإن كنتم لا تصدّقون.

- قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ **(95)** :

فقال له من كان حوله: قسما إنّك ما تزال تعيش في حلمك القديم بيوسف، تنتظر رجوعه.

- فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ **(96)** :

فلمّا وصل رسول يوسف بقميص يوسف ليبشّره بلقائه وبوجوده حيّا، وألقاه على وجه يعقوب تفتّحت العينان اللّتان كانت قد اِبيضّتا، وأبصرتا، فقال لمن حوله: ألم أقل لكم إنّ فضل الله تعالى على عباده المؤمنين عظيم، وأنّه قد جعل لكلّ شيء قدرا مقدورا، ولكنّكم لا تعرفون من الله تعالى: فضله وتقديره بمثل ما أعلم.

- قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ **(97)** :

ولمّا وصل أبناء يعقوب لديارهم اِجتمعوا بأبيهم، ولاشكّ أنّهم سردوا عليه ما فعلوا بأخيهم يوسف من قبل، وما فعل هو بهم حينما لقيهم من تكريم، ثمّ من عفو، وأقرّوا له بخطئهم، فطلبوا صفحه وعفوه، ورجوه أن يطلب لهم من الله تعالى مغفرته عن ذنوبهم مقرّين بخطئهم.

- **قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (98) :**

ووعدهم يعقوب بأن يدعو الله لهم ليغفر لهم، فهو سبحانه وتعالى كثير الغفران لمن تاب وأقلع وعمل صالحا، فهو كثير الرّحمة بعباده المؤمنين، وكذا يكون حلم الأب مع أبنائه الخاطئين وحنوّه، لا يأخذهم بالقسوة والشدّة عند إقرارهم بالخطإ وطلب العفو والصفح.

- **فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ (99) :**

فلمّا بلغ يعقوب وعشيرته حدود مدينة إقامة يوسف أسرع إليهم يوسف، ولمّا لقي أباه وخالته: زوجة أبيه لأنّ أمّه ماتت، وزوجة الأب هي في مرتبة الأمّ خاصّة إن كانت خالة، ضمّ إليه أبويه ضمّا، وقال لجميع من كان معهما أُدخلوا مصر للإقامة فيها بمشيئة الله تعالى في أمان من كلّ مكروه، باعتبارهم غرباء على البلاد وأهلها وعاداتهم وطقوسهم.

- **وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ (100) :**

ولمّا دخل الأبوان والإخوة الأحد عشر إلى ديوان العزيز يوسف، رفع يوسف أبويه على السّرير الذي يجلس عليه حين يدبّر شؤون الدّولة، وَضَعُوا جبهتهم على الأرض تعظيما وتحية له، وكان هذا أمرا جائزا في شريعتهم. وقال يوسف عندئذ لأبيه: هذا تحقيق رؤياي التي رأيتها في صغري، قد حقّقها الله اليوم فعليا، وقد أحسن الله تعالى لي إذ أخرجني من السجن بإعلان براءتي وأمانتي وعفّتي، وإذ جاء بكم اليوم إليّ من البادية لتقيموا معي في هذه المدينة معزّزين، من بعد ما أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي بوساوسه الشّريرة. إنّ ربّي لطيف بعباده ورفيق بهم. إنّه سبحانه وتعالى هو العليم بأحوال عباده، والحكيم في تدبير شؤون إصلاح حالهم رفقا بهم ولطفا.

- **رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (101) :**

وحينما خلا يوسف بنفسه في خلوته توجّه إلى الله تعالى بالدعاء فقال داعيا مناجيا ربّه: ربّ قد تفضّلت عليّ بالملك والسلطان، وعلّمتني تأويل الرّؤى، يا مبدع السماوات ومخترعها وموجدها على غير مثال، أنت ناصري في الدنيا والآخرة أَمِتْني على ملّة الإسلام واحشرني في آخرتي ضمن زمرة عبادك الأخيار الأبرار الذين كانوا يعملون الصالحات من الأعمال والطاعات.

- **ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ (102) :**

هذه قصة يوسف مع أخوته ومع اِمرأة العزيز في حياته من الجبّ إلى القصر، ومن القصر إلى السجن ومن السجن إلى الوزارة والقصر، نعرّفك بها – يا محمد – ومن ورائك كلّ مؤمن،



للمعرفة، وللاعتبار، ولم تكن معهم حين اتفقّوا على إلقائه في الجبّ، وحين كانوا يتداولون الآراء للتخلّص من أخيهم كيدا ومكرا به.

- وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ (103) :

وإنّ كثيرا من أهل مكّة مهما كنت حريصا على إيمانهم، ومهما اِجتهدت في ترغيبهم فيه، فإنّهم لا يؤمنون، فعليك البلاغ، ودع أمرَ هدايتهم، وأمر إظهار هذا الدّين لتقدير الله تعالى.

- وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ (104) :

وما تسألهم عمّا تدعوهم إليه أجرا، إنّ هذا القرآن موعظة للنّاس كافّة.

- وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ (105) :

هذه في تحفيز الفكر لتدبّر آيات الكون ليعرف الإنسان ربّه ووحدانيته ممّا يبصره ويعاينه. والمعنى: وكم من الدلائل الكونية في السماوات والأرض الدالّة على وجود الله تعالى ووحدانيته ليعرفوه ويقدّسوه ويسبّحوا بتعظيمه، وإنّهم يعاينون هذه الدلائل والشواهد ويشاهدونها، ولكنّهم لا يتفكّرون فيها، يمرّون عليها مرورا بدون أن يتأمّلوا كيف خلقت، وكيف وجدت، أو كيف ظهرت ونمت، أو كيف اِنتهت؟

- وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ (106) :

إنّ الإنسان بفطرته يقرّ بأنّ الله خلقه، وبأنّ لهذا الكون خالقا، وحين يصاب بمكروه يلتجئ لخالقه ويدعو ربّه، ومشركو العرب قبل مجيء الرسول صلّى الله عليه وسلّم بدعوته إليهم للإسلام كانوا يطوفون بالبيت ويقولون: لبيك اللّهم لبيك: فهم في قرارة أنفسهم يؤمنون بالله، ولكن في تقديسهم وطاعاتهم يشركون بالله فيدعون غيره، ويقدّمون له قرابينهم، ويقسمون به صدقا، ويكفرون بوحدانية الله جلّ وعلا، وهذا من الغفلة، ومن العمل بما يتنافى مع الفطرة والتّعقّل.

- أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (107) :

هذه الآية في تحذير مشركي مكة من عذاب الله سبحانه. والغاشية هي العقوبة التي تغمر القرية بأكملها بِمَنْ فيها، وتنبسط عليها وعليهم فلا تترك منهم أحدا. ومعنى الآية: هل أَمِنَ مشركو مكة بشركهم ودعائهم لآلهتهم وتوكّلهم عليها مِنْ أن ينزل الله تعالى عليهم عذابا يغشاهم فلا يفلت منه أحدٌ إلاّ هلك، أو من أن يفاجئهم باستئصالهم على حين غفلة ومن حيث لا يتوقعون وبدون أن يشعروا بحلوله. والاستفهام في الآية للتحذير الشديد من الاستمرار في الكفر وفي الشرك وفي الغفلة ومن الاستمرار في الصدّ عن سبيل الله والإعراض عن الاستجابة لدعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم للتّوحيد وللإسلام.

- قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ(108) :

بلّغ – يا محمد – قومك بأنّك ستمضي في سبيلك في دعوتهم لتوحيد الله، وعبادته وحده، والإخلاص له وحده بالطاعة، وبأنّك أوّل المؤمنين بذلك، وأوّل المسلمين عن قناعة ويقين وعن معرفة وعلم، وهذا هو المنهج الحقّ متبرّئا من الشّرك أنت ومن معك من المؤمنين الذين صدّقوا بك وبرسالتك وبالقرآن، وتنزّه الله عن الشّرك وعن النّدّ، وعن اِتّخاذ الصاحبة والولد، فإنّه إلاه واحد، لا إلاه إلاّ هو.

- وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (109) حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (110) :

الآيتان في تحذير المكذّبين برسالة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وذلك بالاعتبار بعاقبة المكذّبين بالرّسل من قبلهم. والمعنى: ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى مجموعة من الأقوام، ولقد أوحي إليهم بمثل ما يوحى إليك من الدعوة لنبذ الشّرك ولتوحيد الله بالعبادة والطاعة. أفلم يكونوا يسافرون في الأرض، وينظرون في آثار من سبقهم من أهل القرى المدمّرة ليعرفوا كيف كانت عاقبة الذين كذّبوا برسلهم ليعتبروا وليذّكّروا وليخافوا عاقبة مثل عاقبتهم.

ما أحوج المكذّبين برسولهم للاعتبار بعاقبة أسلافهم، وهم يبصرون آثارهم. وإنّ دار الآخرة بإقامتها ونعيمها خير من دار الدنيا وحياتها الفانية، وهي من نصيب الذين اتّقوا ربّهم وأطاعوه (أَفَلَا تَعۡقِلُونَ) اِستفهام للتعجّب بمعنى عجبا لكم كيف لا تدركون ما هو أنفع لكم وأصلح؟

إنّ الرّسل حينما يبلغ بهم اليأس من اِهتداء أقوامهم إلى دين الله الحقّ، بإصرارهم على كفرهم وشركهم وتكذيبهم برسلهم ويعلمون أن لا أحد سيسمع لهم ويتّبعهم، يأتيهم نصر الله فينجيهم ومن اِتّبعهم من الهلاك بإخراجهم من القرية التي كانوا فيها ليأمنوا من العقاب، ويرسل على الكافرين المكذّبين بأسه، ولا أحد يقدر على ردّ بأس الله إذا أصاب قوما مجرمين. وبأس الله هو عقابه والعياذ بالله.

- لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (111) :

هذه لبيان الغاية من عرض قصّة يوسف عليه السلام، وبهذا تُختم السورة، ويتمُّ حسنُ الرّبط مع ما جاء في مقدّمتها وفي بيان أهمية تنزيل القرآن لقوم يعقلون، وما جاء في قوله تعالى: (نَحۡنُ



نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ). والمعنى: لقد كان في عرض قصة يوسف وإخوته وقصّته مع من عاش معه في القصر والسجن والوزارة موعظة وتذكرة لأصحاب العقول الواعية، والقلوب المؤمنة، وأصحاب البصيرة النافذة ليعلموا أنّ مكر العباد ببعضهم مهما بلغ من درجة الكيد والتّآمر فإنّه لا يتحقّق إلاّ بما شاء الله أن يقدّره، ثمّ يعود عليهم مكرهم وكيدهم وَبَالاً عليهم، وأنّ أمر الله تعالى نافذ ولو بعد حين كشأن رؤيا يوسف في صغره، وأنّ الله تعالى ينجي عباده المؤمنين الصابرين وينصرهم على أعدائهم، ويردّ عنهم ما يكاد لهم. (مَا كَانَ حَدِيثًا يُفۡتَرَىٰ) إنّ هذا الذي جاءك وحيًا ليكون قرآنا يُتلى ما كان حديثا مختلقا، ولا مكذوبا، وإنّما هو حديث قد وقع وجرى على أصحابه المذكورين. وما جاءك في هذا هو مصدّق لما جاء في الكتب السّماوية السابقة، ليعلم أهل الكتاب أنّ هذا القصص من عند الله تعالى حقّا، وأنّه وحيٌ، وأنّك – يا محمد – رسول الله حقّا وفي هذا الكتاب بيان لكلّ ما يحتاج إليه المؤمن لمعرفة عقيدته السليمة، وليعرف منه الحلال والحرام في شرع ربّه، وما عليه من واجبات نحو ربّه، ونحو محيطه، وفيه ما يهديه للاستقامة في دينه وعمله وخُلقه. وإنّ هذا الكتاب لهو رحمة للمؤمنين إذا تدبّروه، واِحتكموا إليه في تعاملهم مع بعضهم البعض، وإذا اِمتثلوا لأحكامه، واِتعظوا بمواعظه، والحمد لله على نعمة الإسلام والإيمان.

| رقمها | سورة الرّعد | آياتها |
| --- | --- | --- |
| 13 | مكيّة | 43 |

هي سورة مكيّة عند جمع من المفسّرين لأنّ مواضعها في العقيدة.

عرضت السورة بعضا من دلائل وجود الله تعالى ووحدانيته الكونية، ومن دلائل القدرة والعلم، وفيها الدعوة للتّفكر والتدبّر لبلوغ اليقين في الإيمان باللّه وحده، ونبذ الشّرك. وتحدّثت عن إعادة الخلق للبعث، ودعت لتصديق الرّسول محمد صلّى الله عليه وسلّم، وذكرت فضيلة القرآن، وفيها التحذير من الصدّ عن سبيل الله، ومن الاستهزاء بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وفيها مواعظ للترغيب والترهيب. ولا أرى أنّ من صائب القول تصنيف هذه السورة مع السور المدنية، لأنّ مواضيع هذه السورة مماثلة لمواضيع السور المكية، وليس في هذه السورة التعريض بأهل الكتاب أو أيّ ذِكر لهم كما هو الشأن في السور المدنية، وفي السور المدنية أحكام، وليس في هذه السورة حكم من أحكام المعاملات أو المعاش.

- الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ **(1)**

(الٓمٓر) تلك الآيات المذكورة في هذه السورة هي بعض آيات القرآن المنزَل إليك – يا محمد– وكلّ ما أنزل إليك من الوحي في هذا الكتاب هو من عند ربّك، وهو الحقّ الثّابت الذي لاشكّ فيه، ولكنّ أكثر النّاس لا يصدّقون به لأنّ الشّرك قد غلّف قلوبهم فأصابهم به الصمم، وتعطيل العقل عن الفهم والتّدبّر.

- ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ **(2)** :

الله الذي يدعوكم الرّسول محمد صلّى الله عليه وسلّم لعبادته وطاعته، والذي جاء بالوحي ليقيمكم على عبادته دون سواه هو الذي رفع السماوات التي خلقها عالية فوق رؤوسكم بغير أعمدة أو دعائم تقيمها وترفعها لتحفظها من السقوط عليكم، وأنتم تشاهدون بأعينكم بأنّها مرفوعة بغير أعمدة، ثمّ إستوى على العرش إستواء يليق بجلاله وعظيم سلطانه، وهو أمر يستحيل عليكم إدراك ماهيته وكيفيته، وهو الذي أجرى الشمس والقمر لتحقيق مصالحكم بالليل والنّهار، ولتعلموا قدرته وفضله عليكم، وعظيم خلقه وإبداعه، وجعلهما لكم لوقت معلوم، فمتى حضر هذا الوقت

ذهب بهما، وعندئذ يأذن بفناء الوجود، وهو تعالى الذي يصرّف الكون وما فيه من الخلائق بمشيئته وقدرته وحكمته كيفما يشاء ويريد.

يوضّح الله لكم هذه الدلائل والبراهين الدالّة على وحدانيته وعظيم قدرته وسلطانه لتؤمنوا بربّكم الحقّ، وعساكم تؤمنون بعد ذلك الإيمان اليقيني الثّابت بأنّكم ملاقوه يوما لأنّكم من خَلْقِه، وذلك لمحاسبتكم على مدى طاعتكم له، وامتثالكم لأمره.

- وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3) :

وهو تعالى الذي بسط لكم الأرض ومهّدها لسعيكم ولغراستها وزراعتها ولمساكنكم واستقراركم عليها، وجعل فيها جبالا ثوابت كيلا تميل بكم الأرض، وجعل لكم الأنهار العذبة لسقيكم والمالحة لتأكلوا منها لحما طريا ولتسيروا فيها على سفنكم، ومن كلّ الثمار جعل نوعين وصنفين، فمن الشجر ما يكون ثمره ذُكَّارًا لا يؤكل وإنّما يعلّق في شجرة أخرى تنتج ثمرة للأكل من مثل شجر التين. وهناك من شجر البُرتقال مثلا صنفان: صنف ينتج الليمون وصنف ينتج برتقالا حلو المذاق. وحتى في النخيل أصناف ثمـره مختلف في اللون والشكل والطعـم واليبـس واللين. ويُلبس اللّيلُ النّهار ظلمته فيصير محيطكم مظلما لتستريحوا ولتأنسوا في بيوتكم. إنّ في هذه الآيات دلائل وبراهين ثابتة ومرئية ومعاشة تعرّفكم بربّكم الحقّ الذي يستوجب عبادتكم له وتقديسكم وطاعتكم له وحده. ليس لكم من إلاه غيره قد تفضّل عليكم بهذه النّعم الذي خلقها لكم ولصالحكم ولتكون براهين لكم تعقلون بها ربّكم حين تتدبّرونها، وتتفكّرون في خالقها ومنشئها.

- وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4) :

وأنظروا في الأرض فإنّ فيها بقاعا مختلفة الصفات وهي متجاورة: هذه خصبة وتلك صحراء جافّة لا ينبت فيها زرع ولا كلأ، وهذه صخرية وتلك ممهّدة، والأنواع كثيرة، وكلّها نافعة لتقضوا بها مصالحكم المتنوّعة، وفيها بساتين من الكروم، وحقول زراعية، وواحات نخيل، هذه واحدة فيها نخيل مجتمع وكثير، وتلك نخلها متباعد وإنتاجها غير كثير رغم أنّها تسقى بماء واحد، والثّمار على أصناف متفاضلة على بعضها في الطعم والمذاق، منها الحامض، ومنها الحلو، وكلّ هذه من الدلائل على حسن الخلق وتنوّعه لتكثر خيراتكم لتعقلُوا بها ربّكم، وعساكم تشكرونه على نِعَمِهِ وفضائله عليكم.

- وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (5) :



وإن تعجب من كفرهم بالله ومن غفلتهم عن الإيمان به، وعن تدبّر آيات خلقه العظيمة المشاهدة فالأعجب من ذلك إستغرابهم من تفعيل قدرته لإعادة خلقهم من جديد بعد مماتهم، يستغربون من إعادة الحياة لهم بعد فنائهم، ولا يصدّقون بذلك، فلا يعجب من هذا الأمر إلاّ الذين لا يصدّقون بقدرة الله، ولا يؤمنون به. أولئك سيطوّقون بأطواق من الحديد تُلَفّ حول أعناقهم يوم رجوعهم إلى ربّهم للحساب يوم القيامة، ويحشرون في نار جهنّم ليقيموا فيها إقامة أبدية لا يخرجون منها.

- وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (6) :

ومن عجيب أمر المكذّبين الكافرين إذا بشّروا بأمر، أو أنذروا به، قالوا ائتنا بما تتوعّدنا به إن كنت من الصادقين، ولا يطلبون ما يوعدون به من الخيرات، كالذين قالوا: (وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ)(الأنفال الآية32) يستعجلون بالوعيد ولا يطلبون ما بشّروا به ليصدّقوا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بما آتاهم به من القرآن ومن الهدى. يتحدّوْن الوعيد، وقد علموا ما أصاب الكافرين من قبلهم من العقوبات الشديدة المدمّرة، ولكنّهم لا يعتبرون لعنادهم. إنّ ربّك لذو رحمة بالنّاس – رغم كفرهم – يُمْهلهم ولا يعجّل لهم بالعقوبة، وحين يقضي بإنزال العقاب عليهم فإنّ عذابه شديد وأليم وقويّ ومدمّر.

- وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ (7) :

ويقول المكذّبون برسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم هلاّ نزلت عليه معجزة حسّية ظاهرة لنصدّقه، إنّما أنت – يا محمد – منذر الكافرين بالعذاب إن لم يؤمنوا، ولكلّ أمّة نبيّ يدعوهم إلى الهدى.

- ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ (8) :

عودة لدلائل الوحدانية والألوهية والقدرة، وهذه في دقائق علم الله تعالى ممّا يغيب على النّاس معرفته وإدراكه وهو واقع تحت أبصارهم. الله سبحانه يعلم ما تحمل كلّ أنثى من جنس البشر أو جنس الحيوان، وعلمه بما تحمل الأنثى من جنس البشر لا يقتصر على معرفة جنس ما تحمله في أحشائها، ذكرا أو أنثى، إنّما علم الله تعالى هو الذي قدّر بأن تحمل هذه الأنثى أو تلك بالذكر أو الأنثى، وأنّ ما تحمله سيكون صالحا وسعيدا في دنياه وآخرته، أو شقيا في آخرته، وهو الذي يحدّد أجله ورزقه وما يكون من شأنه من عمل الخير في دنياه ومن الصلاح، أو على العكس من ذلك، (وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ) وما تنقص الأرحام في الأشهر التسعة بإرسالها دم الحيض مع سلامة الولد فيكون اِبن سَبْع. وكلّ شيء عند الله تعالى بحساب، وبقدر معلوم، وأُنظروا في توازن جنسي المواليد بين الذكور والإناث في النّسبة لتعلموا أنّ كلّ شيء عنده بمقدار.

- عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ (9) :

وعلم الله تعالى بمجريات الأمور في ما يحدث في الكون لا يحدّه الزّمن، وليس مرتبطا بزمن لأنّ كلّ حادثة، وكلّ ما صار في الوجود ومضى قد علم به، ويعلم ما يجري في حاضر الزمن، وما سيكون في ما سيأتي، وفيما سيكون بعد فناء هذا الوجود وقيام الآخرة، وكلّ ما يغيب على الإنسان علمه فيما جرى ماضيا أو فيما سيجري مستقبلا في الوجود، أو في الآخرة يعلمه الله تعالى ومطّلع عليه، وكلّ ما عاشه الإنسان في حياته وما أبصره من الحادثات في حياته أو من حوله أو في عالمه يعلمه الله تعالى ويعلم ما لا يعلمه الإنسان وإن كان حادثا في زمنه وتحت بصره لأنّ علم الله تعالى أوسع من علم البشر لعلمه بالأسباب وبالعواقب والتّبعات.

وهو سبحانه العظيم، ذو الشأن الجليل، وكلّ ما سواه- وإن عظم واتّسع وكبُر – هو دونه. وهو جلّ جلاله المستعلي على كلّ شيء.

- سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ (10) :

وهو تعالى عليم بخفايا صدور النّاس وبما يسرّ به من القول ولا يحبّ أن يسمعه منه أحد ولكن الله تعالى يعلمه ويسمعه لأنّه السميع العليم، وإذا جهر بقوله ورأيه فإنّ الله تعالى قد علمه وسمعه، ويعلم من يتخفّى بمعصيته بالليل إذا سرق أو شرب خمرة أو زنى، ومن خرج من بيته سائرا في طريقه لعمله أو لشأن آخر. كلّ نشاط من أنشطة البشر لله به علم: سواء أجهروا بِهِ أم أخْفَوهُ.

- لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ (11) :

الـ (مُعَقِّبَٰتٞ) هم الملائكة يتعاقبون بين الليل والنّهار، والملائكة حَفَظَةٌ، ومنهم الكتبة، وهم أصناف على قدر المهام الموكولة إليهم. الملائكة الحفظة يحفظون العبد من بين يديه ومن خلفه حتى لا يصيبه مكروه، وخاصة الصبية الرّضع والصغار، وكذلك الشيوخ والعجز، والمرضى وضعاف الحال، والساعي على العيال بالنّهار، فإذا جاءه القدر أو القضاء خلّوا بينه وبين القضاء أو القدر. وقوله تعالى (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ) يفيد بأنّ تغيير حال الأمّة من السّيء إلى الأحسن إذا عملوا وبادروا بتحسين أوضاعهم، إمّا من أنفسهم، وإمّا بقيادة زعمائهم أو مصلحيهم، وبالعلم والعمل، ونبذ الركود والكسل. وإذا أراد الله بقوم هلاكا وعذابا لكفرهم ولفساد أعمالهم، فلا رادّ لأمره وقضائه، ولن يكون لهم من غير الله تعالى (وَالٍ) أي ناصر ومنقذ قادر ليرفع عنهم ما أصابهم من البلاء، وليجلب لهم الخير.

- هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ (12) :

وهو تعالى الذي يغيثكم بغيث السماء، فيريكم البرق المبشّر بنزول الماء، فمنكم من يكون في البحر مسافرا فيخاف منه خشية الغرق، ومنكم من يستبشر به طمعا في نزول الماء ليشرب ويسقي. وهو تعالى الذي ينشئ السحاب المحمّل بالماء النّافع، فاعرفوا فضل ربّكم عليكم، وأُشكروا له.

- وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ **(13) :**

نقول في هذه قول المؤمنين من قبلنا: سبحان من يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، حين نسمع صوت الرّعد، ولا نفهم كيفية تسبيح الرعد، ولا سبب تسبيح الملائكة من خيفة الله تعالى، فهذا من علم الله عزّ وجلّ، نقول به ولا ندرك كنهه، وكلّ ما نستطيع قوله هو أنّ صوت الرعد الشديد يذكّرنا بعظمة الله تعالى وبرحمته حين يعقبه غيث نافع. ويرسل الله تعالى الصواعق القويّة على الكافرين لإنذارهم، أو إذا قضى أن يأخذهم بالعذاب فيحرقهم بها أو يصمّهم ويهلكهم، وهو سبحانه (شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ) أي شديد الأخذ بالعقوبة بالقوّة.

- لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ **(14) :**

(لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ) هي كلمة: لا إله إلاّ الله، هي الدعاء الحقّ، وكلّ كلمة دعاء غيرها لدعاء من هو دونه دعوة باطلة، لا يستجاب لها، ولا تُسمع. والذين يدعون آلهة أخرى غير الله تعالى هو دعاء لا يُستجاب له إلاّ كما يستجاب للّذي يمدّ يديه في فم بئر يطلب شربة ماء فلا يصعد إليه الماء، ولا يصل إلى فمه ليروي عطشه، وهو صورة تمثيليّة تبيّن أنّ كلّ من يدعو غير الله لا ينتفع بشيء ممّا يطلبه، ولن يبلغه، وإنّ دعاء المشركين لآلهتهم المزعومة في ضياع، لا يسمع له ولا يُستجاب له.

- وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ **(15) :**

(وَلِلَّهِ) اللاّم هنا للاختصاص، والمعنى: كلّ من في السماوات وكلّ من في الأرض يجب أن يخصّ الله وحده بالسجود: سجود التّقديس، والتّعظيم، والإقرار له بالألوهية، وسجود الدعاء والشّكر بانقياد وخضوع، أو بالإكراه. وظلال الساجدين عند طلوع الشمس وعند غروبها دالّة على طاعتهم لأمر ربّهم في تخصيصه وحده بالعبادة والطاعة.

- قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ **(16) :**



الاستفهامات في هذه الآية للتّقرير، والإقرار بحقيقة الإجابة السليمة الصحيحة جاء في آخرها في قوله تعالى (قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ). والمعنى : اِسأل من يحبّ أن يعرف إلاهه الحقّ: من سيّد هذا الوجود؟ سيّد السماوات والأرض الذي خلقهما، والقائم عليهما؟ أجبه إن لم يكن يعرف: هو الله الذي خلقهما وهو صانعهما. واِسأل من يحبّ أن يتفكّر ويتدبّر: أتتّخذ إلاها غير الله الخالق السميع الذي بأمره النّفع أو العقاب آلهة متعدّدة لا تستطيع لك إيصال نفع، أو دفع ضرّ، ولا تملك أن تضرّك بشيء؟ اِسأله: هل يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئا، والبصير الذي يعرف طريقه ويرى النّور؟ هل تستوي الظلمات الحالكة التي لا يرى فيها شيء، وهي مخيفة، ولا يُعرف ما تخفيه، والنّور المشعّ الذي يكشف كلّ موجود؟ كلا! لا يستويان. وهذا مثل الكافر الذي هو أعمى لا يبصر حقيقة الأمر، ويعيش في ظلمة الضلالة، ومثل المؤمن الذي يرى الحقّ فيتّبعه، ويعيش في نور الهداية ولا يخشى عذابا ومهلكة. أم أنّ هؤلاء الجهلة يدّعون أنّ آلهتهم قد خلقت سماوات وأرضا وموجودات مثل ما خلق الله تعالى، فتشابه عليهم الأمر، فجهلوا من هو الخالق الحقيقي، ومعلوم أنّ آلهتهم لم تخلق شيئا، فلماذا هذا الالتباس؟ ولماذا هذا الانحراف في المعتقد؟ ولماذا العناد، وتعطيل العقل عن التدبّر؟ أخبرهم وأبلغهم أنّ الله تعالى خالق كلّ شيء ممّا ترون في السماوات وفي الأرض، هو وحده الخالق وهو إلاه واحد، وهو قويّ غالب على أمره، لا يُغلب، وهو القادر الذي يقهر من يعصيه بعقابه. وفي هذه الآية تعريف بالوحدانيّة، وإنذار بالقهر، وفيها توبيخ لمن يعاند ويصرّ على الشرك بدون دليل.

- **أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ (17) :**

هذه في ضرب المثل للحقّ وللباطل لإثبات أنّ الباطل زائل، وأنّ الحقّ هو الباقي دوما، وإذا طمس زمنا فإنّ ما يطمسه زائل يوما ليظهر الحقّ واضحا جليّا من جديد. والمعنى: وإنّه تعالى ينزل من السماء ماء غزيرا حتى يجرى به السيل بالأودية، وتحمل الأودية سيل الماء وتجري به في مجاريها بقوّة حتى تعلو سطح الماء الرّغوة وترتفع عاليا. وإنّ صنّاع المعادن يوقدون النّار الحامية في معادنهم لصناعة الحليّ من الذهب أو الفضّة، أو لصناعة ما ينتفع به النّاس لحياتهم كالقدور والأواني والمحاريث، وحين يحرقون المعادن يحترق الخبث والصديد الذي كان يعلو معادنهم الخام ويزول. وهكذا يضرب المثل في الحقّ والباطل. الباطل هو الزّبد، هو الرّغوة أو الصديد والخبث الذي يعلو الماء أو المعادن، والزبد يذهب (جُفَآء) أي يطرح من المعدن في النّار، وما كان في الماء من الخبث فإنّه يذهب ولا يبقى، وأمّا ما ينفع النّاس وهو الحقّ فيبقى

على الدوام لا يذهب، ولا يتلف، ولا يضيع، وهكذا يضرب الله الأمثال للنّاس ليذّكّروا، وليتخيّروا الحقّ فيتّبعوه.

- لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ **(18) :**

يَعِدُ الله تعالى الذين اِستجابوا لدعوة ربّهم في نبذ الشّرك وتخصيصه وحده بالعبادة والطّاعة بالحسنى، وهي الجنّة. وأمّا الذين أصرّوا على الشّرك والتّكذيب بالوحدانية وبرسالة رسوله إليهم فإنّهم سيَلْقَوْن حسابا دقيقا وعسيرا على شركهم وكفرهم وسيُحشرون في جهنّم في إقامة سيّئة وبائسة، يومئذ يودّ أحدهم لو كان يملك كلّ ما في الأرض من خيرات وأموال مضاعفا ليفتدي بها نفسه من العذاب لفعل، ولكن لا تقبل منه يومئذ أيّة فدية.

- أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ **(19) :**

وفي هذه ضرب المثل بمن لا يصدّق بالقرآن الكريم، فإنّه إنسان لا يبصر الحقّ، فهو أعمى، وليس هو بمثل من أيقن بأنّ ما نزل على محمد صلّى الله عليه وسلّم هو الحقّ من عند الله

- ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ **(20) :**

هذه مع الآيتين المواليتين في صفات أولي الألباب، إنّهم يحافظون على عهد الله الذي أخذ على الخلق كلّهم لقوله تعالى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ) (الأعراف الآية172) وهذا في فطرتهم التي خلقت فيهم، وفي الإلهام الذي خلق في أنفسهم، والعهد الذي أُخذ عليهم هو أن يعبدوا الله الذي خلقهم، وأن يشكروا له. فمن جحد أن يكون له ربّ قد خلقه فقد خان العهد، ومن اِتّخذ إلاها غير الله الذي خلقه فقد خان عهده مع ربّه. ومن صفات أولي الألباب أنّهم لا ينقضون عهودهم التي عاهدوا عليها وأوثقوها بالأيمان المغلّظة، فمن فعل فهو خائن وغدّار، وصاحب العقل الواعي لا يكون خائنا ولا غدّارا.

- وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ **(21) :**

ومن صفاتهم أنّهم يصلون رَحِمَهم ولا يقطعونها، وفي هذا تعريض لعمل أقرباء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الذين آذوه وقاطعوه، ومن صفاتهم أنّهم يخافون ربّهم وغضبه، ويخافون عقابه يوم الحساب يوم القيامة، وهذه الصفة تدلّ على أنّهم مؤمنون بالبعث، وبيوم القيامة، وغير كافرين به، ولا مكذّبين.

- وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ **(22) :**



ومن صفات أولي الألباب محافظتهم على الصبر لتحمّل مشاقّ الحياة وأتعابها، ولامتلاك القدرة على ضبط النّفس عند الغضب، أو الاستفزاز والإثارة، وعند التعرّض للفتنة للمحافظة على الدّين، ولامتلاك القوّة لمغالبة الهوى، وللتجاوز عن الإساءة بالحسنة والتّسامح، وعند المواجهة في الاقتتال، وللمعاشرة بالمعروف مع الزوجة ومع الأرحام، ولحسن تربية الأبناء، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة ترغّب المؤمنين في التّجمّل بالصبر عند الشدائد. ويجب أن يكون هذا التّجمّل اِبتغاء وجه الله تعالى، أي طاعةً لأمر الله جلّ وعلا، وموعظته. ومن صفاتهم المحافظة على أداء الصلاة في وقتها، وحسن البذل في الطاعات، وفي قضاء المصالح العامّة، ومن أجل مؤازرة المحتاجين، وهذا من نفقة التطوّع، أمّا النّفقة الواجبة من مثل الزكاة والإنفاق على العيال، والأبوين فذلك من الطاعات الدالّة على صدق الإيمان ورشاد العقل ولين القلب، وأيّا كانت هذه النفقة سريّة أو علنية فإنّ الله تعالى يعلمها ويباركها ويثيب عليها. ومن صفاتهم أنّهم يتعاملون بالحسنى حتّى وإن أسيء إليهم، فإنّهم لا يتعاملون بالمِثْل، وإنّما هم أهل الإحسان، وأهل التّسامح، وأهل العفو والصفح، وهذا من خلق النُّبْل والكرم ورفعة القدر والمقام، هؤلاء لهم العاقبة المحمودة في دنياهم وذلك برفع قدرهم ومنزلتهم في النّاس، ويُذْكَرون بعد مماتهم ذِكْرًا حسنا، وفي آخرتهم يُثيبهم الله تعالى بإيوائهم في الجنّة.

- جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ (23) سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ (24) :

هاتان في بيان وجوه تكريم أولي الألباب المتّصفين بالصفات المذكورة في الآيات الثلاث السابقة، وهما في توضيح معنى (أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ) والمعنى: أولئك يكرمون بإدخالهم بساتين يقيمون فيها إقامة دائمة، لا يُخرجون منها، ويدخل معهم من صلح من آبائهم، وهم الذين لم يكونوا كافرين ولا مشركين ولا مكذّبين ولا من العُصاة المذنبين، فإذا كانوا مؤمنين وكانوا قد عملوا السيّئات فإنّ الله تعالى يعفو عنهم ويغفر لهم، ليدخلهم مع أبنائهم تكريما لهؤلاء الأبناء الذين كانوا من المؤمنين أولي الألباب، ويدخل معهم أزواجهم المؤمنات وذرّياتهم. والذرّيات اسم يجمع الأبناء والأحفاد وذلك ليكتمل أنسهم وسرورهم، وحتّى لا ينقصهم شيء من فضل الله تعالى عليهم. ثمّ إن الملائكة يدخلون عليهم من كلّ جهة وتحيّتهم فيها السلام تكريما وتقديرا وتشريفا لما كانوا عليه من الصبر على الطاعات من مثل هجر الفراش للقيام لصلاة التّهجّد، ومن مثل الصبر على الإمساك عن الطّعام والشّراب والشّهوة في شهر الصّيام، والصبر على أداء الواجب إزاء ما يتطلّبه العمل لتوفير النّفقة على النّفس والعيال والإنفاق فيما يُدعى إليه للمؤازرة أو تحقيق مصلحة عامّة للبلاد والعباد، والصبر على الثّبات عند الجهاد، ومن الصبر مجاهدة النّفس

وضبطها عند الغضب وعند التّعرّض للإساءة ليقابلها بالحسنة والتّسامح، ومنه الصبر على البأساء والضّرّاء. أولئك لهم العاقبة المحمودة. نسأل الله تعالى السّلامة وحسن العاقبة.

- **وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ (25) :**

وعلى عادة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد، أو البشارة والإنذار، فقد جاءت هذه الآية في إنذار من كان على نقيض صفات سابقيهم في الذِّكْر. فالذين لم يلتزموا بالعمل بما عاهدوا عليه الله باليمين المغلّظة من الإيمان به وحده، وبالسمع له والطاعة، وخالفوا ما عاهدوه عليه، وقطعوا أرحامهم كبرياء ولخلافهم معهم في الدين والاستقامة، ثمّ هم يفسدون في الأرض بإثارة الفتن، وبتدبير المكائد لإيذاء المؤمنين في أنفسهم وأرزاقهم، فإنّهم مطرودون من رحمة الله تعالى وموعودون بسوء العاقبة، وسوء المأوى في آخرتهم. وربما تكون في هذه الآية اِلتفاتة لأهل الكتاب الذين أخذ عليهم العهد لأن يؤمنوا بالرّسول المبشَّرِ به في كتبهم فلمّا جاءهم هذا الرّسول كذّبوا به، وقطعوا به الصلة فلم يصدّقوه، ولم ينصروه، بل كادوا له المكائد وتآمروا عليه وعلى أتباعه، فهؤلاء هم المعنيون بهذا الإنذار. والرّأي عندي أنّ المشركين كانوا أمثالهم، فهم في الإنذار والوعيد سواء.

- **ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ (26) :**

الله تعالى هو الرّزّاق، هو الذي يقسم الرّزق بين عباده، ولم يجعلهم سواء في التحصيل. وزّع عليهم الكفاءات والقدرات والمواهب والرغبات لتتنوّع مطالبهم، وليحتاج بعضهم لبعض، ولكلّ واحد منهم دوره في هذه الحياة، ومن آتاه الله تعالى الرّزق الوفير فلا يجب أن يبطر به أو يستعلي به على النّاس ويزهو بجعله ظالما ومستكبرا في حياته الدنيوية، ذلك لأنّ كلّ ما يملكه في حياته الدنيوية متعة يستمتع بها ما بقي حيّا، فإذا مات ذهب عنه كلّ شيء ولم يبق له إلاّ ما يُحاسب عليه من عمله الدنيوي في آخرته.

- **وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ (27) :**

ويقول الذين يكذّبون بالنبوّة وبالرسالة لولا أنزل على محمد صلّى الله عليه وسلّم معجزة ظاهرة من عند ربّه لنصدّق به رسولا من عنده، أجب هؤلاء  إنّ الاهتداء للدين الحقّ، وإنّ التصديق بالرّسالة لا يخضعان إلى منطق الإتيان بمعجزة، فقد جاءت من كان قبلهم المعجزات وكذّبوا بها، وإنّما هو الاهتداء بسماع ما يأتيهم من كلام الله تعالى، وتدبّر آياته ودلائله لتبلغوا بعقولكم



وأفهامكم إلى حقيقة الأمر. إنّ الله لا يوفّق من يشاء الإصرار على الكفر والشرك إلى الإيمان، وإلى الاهتداء للصواب، ويهدي الله تعالى إلى الإيمان به وطاعته من رجع إليه بالتوبة والإقلاع عن الشّرك.

- **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ (28) :**

الذين آمنوا بالله وحده، وأطاعوه، وصدّقوا بكتابه، وتسكن قلوبهم وتستأنس بذكر الله تعالى ورحمته ووعده بالنّعيم والنّجاة من العذاب للمؤمنين العاملين الصالحات هؤلاء لهم الأمن، وبذكر الله تعالى وتسبيحه وبالتّوجّه إليه بالدعاء وبالشكر، وبالالتجاء إليه بطلب عفوه ولطفه ورحمته ووعده بالحسنى تسكن النّفوس وتأنس القلوب.

- **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ (29) :**

هذه في تبشير المؤمنين الذين يؤدّون الطاعات (طُوبَىٰ لَهُمۡ) أي لهم في الجنّة فرح وقرّة عين، وعيش طيّب، ومرجع حسن إلى الله تعالى ونعيمه.

- **كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ (30) :**

ولقد أرسلناك – يا محمد – في أمّة قد سبقتها أمم أخرى قد أرسلنا إليهم رسلا مثلما أرسلناك إلى هؤلاء لتقرأ عليهم ما نوحيه إليك من الهدى، ومن غريب أمرهم أنّهم يكفرون بالرحمان الذي أراد بهم خيرا بإرسالك إليهم ليهديهم إلى صراط مستقيم، فإن لم يهتدوا فقل الرّحمان هو ربّي، وهو الله الواحد لا إلاه إلاّ هو، عليه توكّلت، وإلى الله تعالى وحده مرجعي بالتّوبة عن المعاصي. وفي الآية إشارة لاستغراب المشركين من دعوة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى عبادة الرّحمان، وإلى الإيمان به إلاها وحده، إذ قالوا له : (وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورًا) (الفرقان الآية60).

- **وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ (31) :**

جاء في أسباب النّزول (انظر كتاب أسباب النزول للقاضي المصري، وكتب تفسير القرطبي وابن عاشور، والطبري، وكتابي) أنّ نفرا من مشركي مكة فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية قد جلسوا خلف الكعبة ثمّ أرسلوا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأتاهم، فقال له أحدهما: إن سَرَّكَ أن نتّبعك فسَيِّرْ لنا جبال مكة بالقرآن، فأذْهِبْها عنّا حتّى نَتَفَسَّح، فإنّها أرض ضيّقة، واِجعل لنا فيها عيونا وأنهارا حتّى نغرس ونزرع، فلستَ بأهونَ على ربّك من داود حين سخّر له الجبال تسير معه، وسَخِّرْ لنا الرّيح فنركبها إلى الشام نقضي عليها مِيرَتنا وحوائجنا، ثمّ نرجع من يومنا، فقد سُخِّرَتْ لسليمان



الرّيحُ – كما زعمت – فلستَ بأهون على ربّك من سليمان بن داود، وأحْيِ لنا قُصَيًّا جدَّكَ، أو مَنْ شئتَ من موتانا نسأله: أحقّ ما تقول أنت أم باطل؟ فقد كان عيسى يحيي الموتى، ولستَ على الله بأهون منه... فأنزل الله تعالى هذه ليدلَ على أنّه لو فعل بكتاب قبل هذا القرآن ما تقولون لفعله هذا القرآن. (بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًا) أي ما شاء الله فعل، ولا يجري أمره وِفْق ما يريده بعضٌ من عباده المعاندين الكافرين. (أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ) بمعنى أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى النّاس جميعا، ولكن شاء أن يجعل أمر الإيمان اِختياريا ليحاسب كلّ عبد عن اِختياره، ويختبر به لينال عنه ثوابه، أو يحصل بكفره عقابه. (وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) هذه في وعيد كفّار مكّة، بمعنى وإنّ الكافرين ليسوا في منجاة من أن تُصيبهم داهية تهلكهم، أو تحلّ قريبا من قريتهم، وذلك إذا خرجوا من حرم البيت الآمن هلكوا بالسيف أو بصاعقة تصيبهم حتى يأتي وعد الله تعالى لرسوله بالنّصر، فيعرفوا عندئذ أنّه الحقّ من ربّهم. إنّ وعد الله آت، والله تعالى وعده ثابت لا يُخْلَفُ في دنياهم، وقد وقع فيهم القتل في بدر، وفي الأحزاب، وفي وقائع أخرى، ويوم القيامة يلقون سوء الحساب، وشديد العذاب والعقاب.

- وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ (32) :

لقد كان طلبهم لتسيير الجبال، وتسخير الرياح لقطع المسافات البرية، وإحياء الموتى للتّعجيز والاستهزاء، ولقد استهزئ برسل من قبلك – يا محمد – فأمهلتُهم في أمن ورغد عيش ومددتُ لهم في زمن هذا الرّخاء ثمّ عاقبتهم فجأة، فانظر كيف كان عقابُهم وكيف كانت نهايتُهم.

- أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ (33) :

الاستفهام في أول الآية (أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ) يفيد عدم التّسوية، والجزء الثاني من الاستفهام معلومٌ بالضرورة، بمعنى: أفمن هو قائم... بما كسبت كمن هو غير قائم؟ ومعنى الآية: إنّ الله تعالى قائم على كلّ نفس خُلقت – آدمية وغير آدمية، بإمدادها بالرّزق، وبتحديد أجلها، أفمن هو قائم عليها بما تحتاج إليه، وتعلم ما كسبت من خير، وما عملت من سوء كمن هو غير قائم لا ينفعها بشيء ولا يدري عنها شيئا؟ وادّعى المشركون لله الواحد أندادا وشركاء وأولادا، قل: سمّوهم، وأُذكروا أعمالهم، وأظهروا أفعالهم، ودلائل وجودهم، أم تخبرون الله تعالى بأنّ هناك آلهة أخرى لا يعلمها، وهو العليم بما يجري في ملكوته في السماوات والأرض، سبحانه وتعالى عمّا يصفون من نقصٍ من علم بما عنده في ملكوته لاسِيَما بما في الأرض، إنّ ما يدّعون هو من ظاهر من القول، أي من القول الباطل، الذي يخلو من الصحة، والذي ليس فيه دليل. بل زيّن

للذين كفروا قولهم الباطل، وتمادوا فيه، وأصمّوا أسماعهم عن سماع الحقّ، وعطّلوا عقولهم عن إدراك الباطل، وقاوموا دعوة الحقّ، وصدّوا النّاس عن اتّباع الطريق السويّ، ومن أصرّ عن البقاء في تِيهِهِ، ورفض أن يتّبع الطريق القويم فماله من هاد يهديه بسبب عناده.

- **لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ (34) :**

هؤلاء الكافرون المعاندون المستهزئون الذين يدّعون لله الواحد آلهة أخرى سينالهم عذاب في الحياة الدنيا، وسيلقون في الآخرة عذابا أشدّ، وأكثر مشقّة وإيلاما، ولن يكون لهم أيّ واحد، أو أيّ شيء يمكن أن يمنعهم من عذاب الله أو يعصمهم منه، أو يردّه عنهم.

- **مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ (35) :**

بعد ذاك الوعيد، جاء هذا الوعد ترغيبا وتبشيرا للمؤمنين. والمعنى: الجنّة التي وعدها الله تعالى لعباده المؤمنين الطائعين: الممتثلين لأمره، والمجتنبين نواهيه، فيها نعيم كبير، وإقامة طيّبة تجري من تحتها الأنهار لتزيدها بهجة ورونقا ولطفا، لا تنقطع ثمارها، ولا ظلالها، ولا مُتعها، ولا حسنها. في هذه الجنّة إقامة المتّقين في عاقبتهم عند رجوعهم إلى ربّهم، وأمّا الكافرون فعاقبتهم في آخرتهم الإقامة في النّار.

- **وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ (36) :**

(وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ) هم الذين أسلموا من اليهود والنّصارى يسرّون بما أنزل إليك من تبشيرهم بوفائهم بعهدهم، وبصدق إيمانهم، وحسن عاقبتهم، (وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ) هم الذين تحزّبوا على النّبي صلّى الله عليه وسلّم مع المشركين من العرب للكيد له، وللاجتماع على تكذيبه، ومشاقّته هؤلاء ينكرون بعض ما جاء في القرآن من كشفٍ لتحريفهم لما جاء في كتبهم، وفي أخبارهم، ومن كتمانٍ لما جاء بالبشارة بالنّبيّ الخاتم – أبلغْهم – يا محمد – بأنّك إنّما أمرت بعبادة الله وحده وبالدعوة له، وبأنّك لا تقرّ بالشّرك، وبأنّك لا تقول إلاّ بالتّوحيد، وبأنّك ترجِعُ في أمورك كلّها إلى الله عزّ وجلّ وحده، لا شريك له.

- **وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ (37) :**

وكما أنزلنا على الرّسل من قبلك كتبهم بلغتهم، فكذلك أنزلنا القرآن بلسان عربي، وبأحكامه، الفاصلة بين الحقّ والباطل بوضوح، ولو اِتّبعت أهواء المشركين الضالّة في عبادة إلاه غير الله الواحد الأحد الذي جاءك به العلم لتكون على صراط الله المستقيم، ولتدعو النّاس لعبادته



ليستقيموا على الحقّ فإنّك لن تجد سواه ناصرا لك ولا من يمنعك من عقابه وعذابه، ولئن كان الخطاب في هذه الآية موجّها للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لما جاء فيه من صيغة الخطاب المفرد، إلاّ أنّ المعني به هو كلّ فردٍ من المسلمين.

- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (38) :

هذه للتأكيد على بشرية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، والمعنى: كلّ الرّسل الذين أرسلوا من قبلك – يا محمد – كانوا متزوّجين، وكان لهم ذرية، وما كان لرسول من قبلك قدرة على أن يأتي بمعجزة من عنده، المعجزة يؤتيها الله تعالى بأمره لمن شاء من رسله. ولكلّ أمر يقضيه الله ويقدّره موعد محدّد ليظهر أو ليتمّ تنفيذه.

- يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (39) :

يمحو الله ما يشاء من الأحكام، أو من المعجزات، ويبقي ما يشاء من المعجزات والآيات والأحكام، ويجعله ثابتا كما هو لا يتغيّر، وعنده اللوح المحفوظ الذي لا يُبدّل ولا يغيّر، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. وقيل: (أُمُّ الْكِتَابِ) هو علم الله تعالى بما خلق، وبما هو خالق، وعموما فإنّه ما يختصّ الله تعالى بعلمه، ولا يُطْلِعُ عليه أحدا من خلقه.

- وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (40) :

هذه لتسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عمّا يلاقيه من معارضيه من مشاقّ وتكذيب وهزء. والمعنى: إنّ مهمّتك هي تبليغ رسالتك إلى النّاس، وأمّا الذين كذّبوا بك وبرسالتك، وشاقّوك فقد ترى تنفيذ وعيد الله فيهم، وترى هلاكهم، فإن مِتَّ قبل أن تعيشه وتراه فإنّ حسابهم عند ربّهم، فثابر على تبليغ دعوتك، ودع شأنهم إلى الله عزّ وجلّ.

- أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (41) :

أو لم يَرَ هؤلاء المكذّبون ما حدث لقرى من حولهم كيف خرّبت وهلك أصحابها لكفرهم، وتكذيبهم برسلهم، وانحسرت دولة الشّرك وضاقت على أصحابها، والله يقضي بقضائه، فإذا قضى حكما في قوم فإنّه لا رادّ لقضائه ولا مبطل له، وهو سبحانه سريع الحساب للمجرمين الضالّين الذين يصدّون النّاس عن سبيل الله.

- وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42) :



وقد دبّر المكذّبون أمثالهم من قبلهم من الأمم السّالفة المكائد للرّسل ولأتباعهم المؤمنين لصدّهم عن سبيل الله، ولم يفلحوا، وإنّ التّدبير النّافذ والواقع الحاصل هو تدبير الله عزّ وجلّ، والله تعالى لا يخفى عليه شيء ممّا تدبّره النفوس الماكرة من الكيد. وسيعلم الكافر المكذّب بالرسالات لمن تكون له العاقبة الحسنة في الآخرة.

- وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ**(43)** :

ويتّهمك الكافرون بادّعاء النّبوّة، ويكذّبون مَا جئتهم به في رسالتك – يا محمد – قل لهم : تكفيني شهادة الله تعالى بتصديقي، والله شهيد بيننا وحَكَمٌ، وإنّ المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب يعرفون صدقي.

وبهذا التّصديق تختم السورة، ويحتكم الرّبط مع الآية الأولى في مقدّمتها: (الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ).



| رقمها | ســــــورة **إبراهيـــــــم** | آياتها |
|---|---|---|
| **14** | ـــــ مكيّة ـــــ | **52** |

هذه سورة مكية، ولذا فإنّ مواضعها في تركيز عناصر العقيدة السليمة، شأن كلّ السور المكية. تحدّثت عن فضيلة القرآن لإخراج النّاس من ظلمات الكفر إلى نور الهدى، وعرضت آيات ودلائل من دلائل الخلق لإثبات وحدانية الله تعالى وأحقّيته بالألوهية والطاعة، وتحدّثت عن بشرية الرّسل، وعرضت جوانب من سوء عاقبة الكفر للإنذار، وأتبعت ذلك بحسن عاقبة المؤمنين لتبشيرهم بالحسنى، وسمّيت سورة إبراهيم لأنّها عرضت أدعية له للاقتداء به في حسن الأدعية للبلاد، وللأولاد، وللتبرّؤ من الشّرك، وقد ذكرت وديعته: ابنه إسماعيل بواد غير زرع. وفي السورة مشهد من مشاهد الآخرة في تبرّؤ الشيطان والرؤساء من أتباعهم وخُتِمَتْ السورةُ بآية جامعة: (هَـٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا ٱلْأَلْبَـٰبِ).

- الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (1) :

هذه في بيان فضل القرآن. إنّه كتاب أنزل على محمد صلّى الله عليه وسلّم ليخرج النّاس بما فيه من حِكَم ومواعظ ودلائل وحجج من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وهداه بلطفٍ من الله تعالى وحسن عنايته، وليوضّح لهم صراط الله (ٱلْعَزِيز) في ملكه الذي لا يُغلب على أمره و(ٱلْحَمِيد) المستحقّ للحمد الدائم لكثرة نِعمه وفضائله على خَلقه.

- ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2) :

أوّل الطريق للخروج من الظلمات إلى النّور وجوب الإيمان بالله مالك كلّ ما في السماوات وما في الأرض، ليس له شريك في ملكه. والويل للذين يكفرون بوجوده وبألوهيته من عذابه الشديد الذي لا يُطاق.

- ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ (3) :

من صفات الكافرين المنذَرين بالويل أنّهم لا يؤمنون بالآخرة، ولا يعدُّون لها عدّتها من حسن الإيمان، ويؤثرون عليها الحياة الدنيوية والاستمتاع بمُتعِها، ومن صفاتهم أنّهم يمنعون أتباعهم وضعافهم من الإيمان بالله وحده والاهتداء إليه بشتّى وسائل المنع، ومنها إلحاق الأذى، أو الهزء



بهم، وبالكيد لهم، أو بقتالهم، وهم يرغبون في تحريف دين الله وسبيله المستقيم بادّعاء الباطل، والكذب على الله الواحد بأن يجعلوا له شركاء. هؤلاء في حياد بعيد عن الصواب، وعن الحقّ، وبُعْدٍ عنهما بعدا شاسعا.

- وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (4) :

كان ظنّ مشركي قريش – من جهلهم ووهمهم– أنّ رسول الله لا يكون من جنس البشر، وأنّ لغته على غير لغتهم، فجاءتهم هذه الآية لتبيّن لهم أنّ الله تعالى لم يرسل رسولا إلاّ بلغة القوم الذين أرسل إليهم، وهو واحد منهم ليوضّح لهم شرائع الله وأحكامه وهديه. ويترك الله تعالى في الضلال من يرفض الاهتداء إليه ويرغب أن يبقى على ضلالته، ويهدي الله تعالى من يشاء أن يهتدي إليه، والله هو العزيز الذي لا يُغلب على أمره والحكيم في توجيه عباده لما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

- وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ (5) :

ولقد سبق لنا أن أرسلنا موسى بالمعجزات الدّالّة على صدقه، وبحججنا، ودعوناه ليرشد قومه من بني إسرائيل لما يخرجهم من جهلهم وشركهم الذي كانوا عليه إلى نور الإيمان والتّوحيد والدّين الحنيف، ودعوناه لِيَعِظَهم بما نزل على الأمم السّالفة من عذاب لينذرهم به، وليتّقوه، وليُذَكِّرهم بنِعَمِ الله عليهم في أيّام الرّخاء بعد الشّدّة ليشكروا له. إنّ في هذا التّذكير دلائل على فضل الله على كلّ من اِجتهد في الصّبر على مشاقّ التّكاليف ومقاومة الأهواء، ولمن كان كثير الشّكر لله تعالى على نِعمه، وكان أكثرهم حمدًا لربّه تعالى.

- وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ(6):

وأذكـر إذ قال موسى لقومه تذكّروا فضل الله عليكم عندما أنقذكم من حكم آل فرعون وبطشهم وسطوتهم، وكانوا يذيقونكم أشدّ العذاب، ويكلّفونكم من الأعمال ما لا تطيقون، كانوا يذبّحون أبناءكم ليقطعوا نسلكم، ويَسْتَبْقُون نساءكم أحياء لخدمتهم، ولأمور أخرى، وفي كلّ هذا محنة ومصيبة عظيمة وشديدة الوقع على النّفس، وقد أنقذكم الله تعالى منها بإخراجكم من بلادهم.

- وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ (7) :

وإذ أخبركم الله بخبر مؤكّد، وأعلمكم بأنّكم إذَا شكرتم الله عزّ وجلّ على نِعَمِه ليكثرنّ من إغداق النِّعَمِ عليكم، ولئن جحدتم فضل ربّكم عليكم وغفلتم عن شكره وطاعته وعبادته فإنّ عذابه للجاحدين الغافلين عنه قويّ لا يُحتمل.

- وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ **(8)** :

وقال موسى يعظ قومه: إن كفر جميع النّاس على وجه الأرض فالله غنيّ عن عبادتهم وعن شكرهم له جلّ وعلا، إنّ الله غنيّ عنكم وعن عبادتكم، فأنتم المحتاجون إليه، وهو المستغني عنكم، وهو كثير الحمد في السماوات وفي الأرض.

- أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ **(9)** :

هذه في الوعيد للتّحذير من الكفر وتكذيب الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وهذه الآية إلى الآية15 في التأكيد على بشرية الرّسل، وفي مواعظهم لأقوامهم. والمعنى: ألا تتّعظون بما جرى للأمم السّالفة الكافرة من قبلكم، من ذلك قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، والذين من بعدهم من الأمم وهم كُثُرٌ لا يحصيهم إلاّ الله تعالى. أم ليس لكم علم بأخبارهم؟ جاءتهم رسلهم بالحجج والدلائل على صدق دعوتهم لعبادة الله وحده، ولنبذ الشّرك، وللاستقامة على دين الله وشرعه، فلم يسمعوا لهم وعضّوا أصابعهم تغيّظا من الرّسل، ومن كلامهم، ومن دعوتهم لأنّهم دُعُوا لما لا تهْوَاهُ أنفسهم، ثمّ جهروا لهم بأنّهم يكذّبون برسائلهم وبدعوتهم للتّوحيد، وبأنّهم يكفرون بالتّصديق بالبعث ليوم الحساب، وبيوم القيامة، ولا يصدّقون بالوعيد، وصرّحوا لهم بأنّهم في شكّ موجب للحيرة والقلق ممّا يدعونهم إليه.

- قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ **(10)** :

قالت رسلهم: أتشكّون في اِنفراد الله بالخلق وبالوجود، وبالقدرة، وهو الذي خلق السماوات والأرض من غير مثال سابق، وهو مبدعهما ومخترعهما، وواجدهما؟ يناديكم الله تعالى لطاعته ليغفر لكم ما فرط منكم من المعاصي والذنوب حتّى لا يعجّل لكم العذاب، وليُمْهلكم إلى آجالكم المعيّنة لوفاتكم. ومن عنادهم وإصرارهم على الكفر والتّكذيب أنّهم قابلوا دعوة رسلهم بالرّفض وقالوا لهم: إنّما أنتم بشر مثلنا تريدون أن تردّونا عن عبادة الأصنام التي كان عليها آباؤنا فأتوا لنا بمعجزات وحجج واضحة لنصدّق بما تقولون. وفي هذه الآية اِلتفات لما قاله المشركون من



قريش للرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ذلك لأنّهم لم يكونوا يصدّقون بأن يكون رسول الله إليهم بشرا، كانوا يتوهّمون أن يكون مَلَكًا كريما ينزل عليهم من السماء، ويأتيهم بالمعجزات الخارقة.

- قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (11) :

تلك القرى قد كذّبوا رسلهم لأنّهم رأوهم بشرا أمثالهم وكانوا يتوهّمون أنّ رسل الله لا يمكن أن يكونوا إلاّ ملائكة، وقالت لهم رسلهم إنّما نحن بشر مثلكم ولكنّ الله يتفضّل على من يشاء من عباده لتكليفه برسالته لعباده لهدايتهم للإيمان به وللعمل بشرعه، وليس لنا أن نأتيكم بمعجزة إلاّ بأمر من الله، ومن عنده. وعلى الله فليعتمد المؤمنون ليهديهم إليه، ولينالوا فضائله.

- وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (12) :

وكيف لا نتوكّل على الله ونعتمد والحال أنّه بَصّرنا بالطّرق الموصلة لنيل رضوانه ورحمته، وللنّجاة من عذابه، وسنحافظ على صبرنا لنحتمل إيذاءكم، وعلى الله فليعتمد المحتاجون إلى عونه، ودعمه، ونصرته، وتوفيقه.

- وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ (13) :

ولقد هدّد المكذّبون رسلهم بنفيهم من قراهم وديارهم إلاّ إذا تركوا دعوتهم لدينهم الجديد، وعادوا لعبادة أصنامهم على نحو ما يفعل القوم. ولقد أوحى الله تعالى لرسله بالمثابرة على دعوتهم، وبتحذير أقوامهم من وعيد الله بإهلاكهم هلاكًا مؤكّدا بسبب ظلمهم لرسلهم، وظلمهم لأنفسهم بالكفر.

- وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ (14) :

ولَنُوَرِّثَنَّ المؤمنين أرضهم من بعد إهلاكهم، وهذا وعد مؤكّد للّذين يخشون الوقوف بين يدي الله تعالى للحساب، وعمل لذلك اليوم عملا ينقذه من النّدم والحسرة والعذاب.

- وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) :

وإستنصر الرسل بالله على الكافرين الظالمين، كالّذي قال: (رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا)(نوح الآية 26). وخسر عندئذ كلّ متعاظم، كثير الظلم، معاند للحقّ، وهو يدرك أنّه على خطإ، ولكنّه يصرّ عليه.

- مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ (17) :



ثمّ سيكون مأواه في جهنّم، ويسقى من ماء يسيل من أجساد أهل النّار قَيْحًا ودَمًا، يتكلّف بَلْعه بشدّة وصعوبة لفساده، وفساد طعمه، ولحرارته، وكلّ ما يصيبه من جهة في بدنه مُميت وقاتل وهالك، ولكنّ روحه لا تخرج ليستريح، وينتظره بعد وَضْعِه هذا عذاب أشدّ إيلاما ووجعا. الآيتان في الوعيد الشديد، والعياذ بالله.

- مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ **(18)** :

هذه في ضرب المثل في الأعمال الخيرية الّتي يتبرّع بها الكافرون بربّهم، والذين لا يؤمنون بيوم الحساب، ولا يرجون بها جزاء من عند الله لأنّهم لا يؤمنون به ولا بثوابه. أعمال هؤلاء الخيرية تذهب هباءً بلا جزاء ولا ثواب كالرماد الذي يلقى به في الأرض في يوم عاصف، تهبّ فيه الرّياح بشدّة فيذرّ الرّماد ذرّا لا يبقي له أثرا في التّراب. لا يحصلون على شيء من الأجر والثّواب من عند ربّهم لأنّهم لا يؤمنون به، ولا يؤمنون بحسابه، ولا يطلبون منه أجرا، ولا يتوقّعون منه تعالى ثوابا.

- أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ **(19)** :

هذا خطاب للكافرين الملحدين الذين لا يقرّون بوجود الخالق سبحانه. والمعنى: ألم ترَ – أيّها الإنسان – السماوات والأرض فتسأل نفسك عمن خلقهما بالحقّ؟ عن الذي أوجدهما؟ وكيف وجدتا لتعرف منهما الله الخالق الحقيقي – ألا تدركون – أيّها الكافرون بالخالق– أنّ الذي خلقكم أوّل مرّة إن يشأ أن يذهب بكم بالموت أو بالهلاك، فإنّ هذا الأمر لا يُعجزه، كما إنّه لا يعجزه أن يأتي بغيركم؟

- وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ **(20)** :

إنّ هذا الاستبدال لا يعجزه، وإهلاككم لا يعجزه، فالله الخالق لا يغلبه شيء، ولا يستعصي عليه أيّ أمر.

- وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ **(21)** :

هذه في تحميل كلّ إنسان مسؤوليته في اِختيار منهجه في الإيمان، أو في الإعراض عنه، الإيمان لا يكون بالتّبعية، ففي يوم الحساب يتبرّأ الرّؤساء والعظماء من تَبِعَاتِ أتباعهم. والمعنى: وخرج جميع الخلق من قبورهم، وبعثوا للحساب جميعا، وظهروا أمام الموازين. يومئذ يقول الضعفاء، أتباع الأسياد وخدمهم وأنصارهم، للذين اِستكبروا عن الإيمان من أسيادهم وزعمائهم



وكبرائهم: إنّا كنّا أتباعا لكم نطيعكم فيما تأمروننا به، فهل تدفعون عنّا اليوم شيئا ممّا ينتظرنا من العذاب عند السؤال، وعند القضاء فينا بحكم الله تعالى. يومئذ يتبرّأ منهم أسيادهم بحجّة أنّهم لو اِهتدوا، ولو أنّ الله تعالى هداهم للإيمان لأرشدهم إليه ليكونوا من المؤمنين. ويقولون لهم: واليوم سواء علينا أندمنا، أو خفنا الخوف الشديد ممّا ينتظرنا من العذاب فإنّه لا ينفعنا الحزن الشديد، ولا الصبر القويّ فليس لنا اليوم من مَنْجًى ولا مِن مهربٍ من العذاب الذي سنلاقيه.

- وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (22) :

وهذه في تبرّؤ الشّيطان من أتباعه، فليس للإنسان يوم الحساب من مجير أو نصير ممن كان يتّبعه وممن كان يطيعه، ويسمع له، ليس للإنسان إلاّ ما قدّم لنفسه من إيمان وعمل صالح يرجو من الله تعالى أن يُثيبه عليهما يوم الحساب، والمعنى: وقال الشّيطان لأتباعه الذين حُكم عليهم بالعذاب بنار جهنّم، والذين يساقون إليها: إنّ الله تعالى وعد عباده المؤمنين الوعد الحقّ بإنجائهم من العذاب وبالإغداق عليهم بنعمه في جنّته، وتوعّد الكافرين بالوعيد الحقّ بالعقاب والعذاب، وعدتكم بوعود باطلة، ونقضت عهدي ووعدي لأنّي لا أملك منها شيئا، ولم تكن لي قدرة على إجباركم على الكفر والمعصية، وإنّما أنا دعوتكم لذلك فاستجبتم لي طواعية. فلا تلومونِي اليوم على شيء، بل لوموا أنفسكم على الطاعة لي، ومعصية ربّكم الحقّ، وأنّبوا أنفسكم، ولا أقدر لكم اليوم على إغاثتكم وإنجائكم من العذاب، ولا أسمع اليوم لصراخكم ونداءاتكم، وما أنتم بقادرين لي على شيء للانتقام منّي، ولستم بقادرين على شيء لغَوْثِي، فلكم شأنكم، ولي شأني. لقد كنت من قبلُ متبرّئا من شرككم. إنّ للظالمين أنفسهم بالشّرك وبمعصية الله وبتكذيب الرّسل عذابا موجعا.

- وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ (23) :

وعلى عادة القرآن في إتباع الوعيد بالوعد الحسن تأتي هذه الآية في تبشير المؤمنين الذين يؤدّون الطاعات في إخلاص وفي مواعيدها بالبساتين المرفهة الجميلة في جنّة التّكريم يقيمون فيها الإقامة الدائمة لا يخرجون منها بإذن ربّهم، وبرحمته جزاءً بما كانوا يعملون، تحيّتهم فيها سلام ليكونوا في أمان من زوال النّعم، ومن تحوّلها.



- أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ (24) تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ (25) :

الآيتان في ضرب المثل بالكلمة الطيّبة التي فسّرها الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بأنّها كلمة: لا إلاه إلاّ الله، وذلك للتّرغيب في التّصديق بها، وللتّسبيح بها تكرارا. والاستفهام في (أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ): يفيد لفت الانتباه قصد التّدبّر، والاعتبار، وللإفادة. والمعنى: ألا ترى كيف ضرب الله مثلا لكلمة ""لا إلاه إلا الله"، وكلّ كلمة داعية للهدى، وللحقّ، وكلّ كلمة تدعو للعمل الصالح، وترك المعاصي، هي كشجرة طيّبة، والشجرة الطيّبة عند العرب السابقين هي النّخلة، كذا فُهِمَتْ عند التّنزيل. والنّخلة شجرة طيّبة لأنّ كلّ ما تُنْتِجُهُ يُنْتَفَعُ به حتى أوراق الجريد الذي يخرج منها يُصَنَّعُ منه ما يُستغلُ وعاءً لحفظ المتاع أو لِحَمْلِهِ، وحتى نواة التّمر يُنتفع بها غذاءً للإبل، ودواء للإنسان يستعمل بطريقة خاصة، وأمّا جذوعها فيُتّخذ منها سُقُف للبيوت أو أعمدة، أو أوْتارٌ للخَيْمَة. وأصل شجرة النّخلة ثابت في أعماق التّربة، ويمنع زحف الرمال، وهي باسقة في طولها تظلّل وترطّب الجوّ وتصدّ الرّياح، فهي بحقّ شجرة ذات منافع وفضائل كثيرة، وكذلك الكلمة الطيّبة هي مثمرة، من ردّدها ثبّت إيمانه، ونال عنها أجرا وثوابا، وهي كلمة الحقّ، وكلمة الفصل التي تفصل بين الحقّ، والباطل، الباطل هو الشرك، والحقّ هو الإيمان بالوحدانية، وهي الكلمة المنقذة من عذاب الله في الدنيا والمنقذة من عذاب الآخرة.

والكلمة الطيّبة تشمل كلّ كلمة داعية للخير، وكلّ كلمة فيها نصحٌ وإرشاد، وهي كلمة الصدق، وعكسها الكذب وشهادة الزور، هي كلمة الإحسان والردّ الجميل، هي كلمة السلام، وهي كلمة إصلاح ذات البين، وهي كلمة التّسبيح، وكلمة الحمد، وكلمة الاستغفار، هي كلّ كلمة ذِكْر، وكلّ كلمة يأتي منها كلّ خير، تدفع الباطل والشرّ.

ويضرب الله تعالى الأمثال للنّاس لتقريب المعاني، وللإفهام، وعساهم بهذا التّشبيه يدركون ما ينفعهم لدنياهم وآخرتهم.

- وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ (26) :

والكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر، وكلمة الكذب والباطل، وكلمة الفتنة، وكلّ كلمة لا يُراد بها الخير، مَثَلُها مثلُ الشجرة الفاسدة التي تأوي تحتها الثعابين والزواحف السامّة والحشرات المؤذية الفتّاكة لا يأتي منها خير، ولا يُنتفع منها في شيء، اِقتلاعها خيرٌ من وجودها، ولا تُغرس في أيّ أرض، ولا يُرغب في رؤيتها.

- يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ (27) :

(بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ) هو شهادة أن لا إلاه إلاّ الله، وأنّ محمدا رسول الله. والله سبحانه يغرس في قلوب عباده المؤمنين هذه الشهادة، ويرطّب بها ألسنتهم، ويجعلهم يردّدونها في حياتهم، وفي آخرتهم تكون منقذة لهم من العذاب، وشهادة لهم يُثَقِّلُونَ بها ميزان حسناتهم. وأمّا الذين يظلمون أنفسهم بإصرارهم على الشّرك والكفر فيَصْرِفُهم عنها، فلا يجدون ما ينقذون به أنفسهم من عقاب الله وعذابه، ويفعل الله بعباده الكافرين ما يشاء في عقابهم.

- **أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ (28) جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ (29) وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ (30) :**

هذه في عناد مشركي مكّة، وعمى بصيرتهم، جاءتهم نعمة الله تعالى لهدايتهم للإسلام ليكونوا على الحقّ، وليستقيموا على الصراط المستقيم، فكذّبوا الرسول صلّى الله عليه وسلّم ورفضوا النّعمة، ورضوا بالضلالة، وأصرّوا على شركهم، فأنزلوا بعنادهم هذا، وبرفضهم للنّعمة أنفسَهم وأهليهم وأتباعهم الذين اتّبعوهم دار الهلاك، وهي جهنّم.

سيدخلون جهنّم في آخرتهم، وسيُوقدون بنارها ويلتاعون، وما أسوأ مَا رضُوا لأنفسهم من دار ليستقرّوا فيها. جعلوا لله تعالى الواحد الأحد نظراء، واتّخذوها آلهة مستحقّة للعبادة، قل لهم: انعموا بحياتكم الدنيوية وانعموا بمتاعكم فيها حتى تحين آجالكم، وبعد ذلك سيكون مآلكم إلى النّار لتقيموا فيها إقامة أبدية.

- **قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ (31) :**

الإضافة في (لِّعِبَادِيَ) إضافة تشريف وتكريم، وهم المؤمنون الذين آمنوا بالله تعالى واتّبعوا سبيله، وأطاعوه. هؤلاء يأمرهم تعالى بأن يثابروا على إقامة صلواتهم في أوقاتها، وعلى النّحو المفروض، وبأن يبذلوا في وجوه أعمال البرّ شيئا ممّا رزقوا من الخيرات في السرّ خوفا من الرّياء، أو علَنًا إذا كانت من الزكاة الواجبة لتبرئة الذّمّة من قبل أن يفاجئهم الموت، وقبل أن يقوموا ليوم الحساب الذي ليس فيه وسيلة للحصول على منفعةٍ ببَيْع أو شراء، أو بالصدقة.

- **ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ (32) :**

عودة لعرض بعض دلائل الخلق للردّ على المشركين، ولإشعارهم بضلالهم في عبادتهم. الله الذي تُدْعَوْنَ لعبادته، ولطاعته، وللخشية منه هو الذي خلق السماوات التي تظلكم، والأرض التي تقلّكم، وأنزل من السماء ماء لتشربوا ولتسقوا أنعامكم، ولرَيّ مزارعكم، وسقي أشجاركم لتخرج لكم الثمرات، وهو الذي سخّر لكم البحر بِلُجَجِه العميقة لتجري على سطحه سُفُنُكم بأمره وفضله حتى



لا تغرقوا فيه، لتبتغوا رزقكم أو لتحملكم في أسفاركم للبلد الذي لا تبلغونه إلاّ بشقّه بين ضِفَّتَيهِ، أو لتحمل بضاعتكم الثقيلة لتجارتكم، وهو تعالى الذي جعل لكم الأنهار مطاوعة لرغباتكم، وقضاء مصالحكم.

- وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ **(33)** :

وهو تعالى الذي جعل لكم الشمس والقمر مستمرّين في الحركة، يمدّانكم بمنافعهما، وجعل لكم الليل لسكنكم ولراحتكم، وجعل لكم النّهار لسعيكم ونشاطكم وعملكم.

- وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ **(34)** :

وهو تعالى الذي يستجيب لرغباتكم وأدعيتكم ويعطيكم ما تطلبون منه، وإنّكم لا تستطيعون إحصاء النِّعم التي وهبها لكم، ولا تستطيعون عدّها لكثرتها ووفرتها ولأنّها لا تتناهى. إنّه الله تعالى الذي أنعم عليكم بجميع هذه النّعم، وهو الذي خلق لكم ما سبق لكم ذكره لتعرفوه بها فما لكم تعبدون غيره الذي لم يخلق لكم شيئا ولم ينفعكم بشيء ولكنّ الإنسان كثير الظلم لنفسه بغفلته عن آيات ربّه، وبإصراره على الكذب على الله تعالى إذ يدّعي له النّدّ والشريك، وهو كثير الكفر بنِعم الله وكثير الجحود، وكثير التّكذيب بآلاء الله جلّ وعلا.

- وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ **(35)** :

هذه الآية إلى الآية 41 في عرض جملة من أدعية إبراهيم عليه السلام التي ذكر فيها البلد الحرام: مكة ودعا فيها لذرّيته من اِبنه إسماعيل عليه السلام.

واُذكر إذ توجّه إبراهيم إلى ربّه بالدعاء، فدعا لمكّة المكرّمة بالأمن، ودعا لأبنائه فيها أن يبعدهم الله عن عبادة الأصنام. والصنم هو كلّ ما يقدّس من دون الله، أو كلّ ما يُشغِل عن طاعة الله وعبادته – عند بعضهم –.

وفي هذا اِلتفات لمشركي قريش ليعلموا أنّهم قد خرجوا عن ملّة أبيهم إبراهيم بما يفعلون من تقديسهم للأصنام، ولصدّهم عن الدعوة للإسلام: دين التوحيد.

- رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ **(36)** :

وعلّل إبراهيم دعاءه لأبنائه لأن يجنّبهم الله تعالى عبادة الأصنام بأنّه قد رأى قومه وغيرهم من عبدة الأصنام قد حادوا عن الحقّ وعن الصواب، وضيّعوهم في الباطل. واِعتبر إبراهيم كلّ من تبعه في ملّة التوحيد فإنّه من ذرّيته، ومن خالف وصيته في عبادة الله وحده، وفي أن يكون على ملّة الإسلام فإنّه ابن عاصٍ، وترك أمره لله تعالى فإن شاء غفر له فهو الغفور، ورَحِمَه برحمته

فلم يُهْلِكْهُ فإنّه هو الرّحيم. وقد جاء في وصية إبراهيم: (وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)(البقرة الآية132).

- رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ **(37) :**

هذا دعاء اِستعطاف، واِسترحام عندما همَّ إبراهيم بالعودة لأهله في أرض كنعان حيث "سارّة" و"إسحاق" : مخلّفا وراءه : "هاجر"، واِبنه منها "إسماعيل" في مكان قفر: لا ماء فيه، ولا نبات، وليس فيه عمران، ولا من يسكنه. كان اِختيار هذا المكان على نحو ما هو عليه من وحشة وعراء وجفاف لبناء بيت الله الحرام، ولإيواء إسماعيل وأمّه من اِختيار الله تعالى، ومن وحيه لإبراهيم. ولاشكّ أنّ في هذا الاختيار حكمة. قد يكون هذا الموضع هو وسط الكرة الأرضية على قول بعضهم من اِجتهاده، ولعلّه لأنّه المكان الذي لا يغري أحدًا ليسكنه أو ليزوره، وهذه حكمة بالغة حتّى يكون المكان مقرًّا لأبناء إسماعيل، أحفاد إبراهيم وحدهم دون سواهم، لا يختلط جنسهم بأي جنس آخر، وقد ظلّ الأمر فعلا على هذا النّحو حتّى بعثة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم. وأمّا الحكمة الثانية: فالمكان ليس فيه من إنتاج الأرض وخيراتها شيء ليغري بالتردّد عليه للتجارة، وليس فيه من مظاهر الجمال والرّفاه ليغري بزيارته للسيّاحة وللّهو، ليبقى مكانا لا يقصده إلاّ قاصد لبيت الله الحرّام للطاعة فقط.

وجاء دعاء إبراهيم في صيغة الجمع ليجمع بينه وبين بنيه الذين سيقيمون في ذاك المكان من بعده. ربّنا إنّي تركت ذرّيّتي يقيمون في مكان قفر لا ينبت فيه زرع عند بيتك الحرام ليعمّروا المكان ويحفظوا البيت ويحرسوه. ربّنا إنّهم يسكنون حول البيت ليقيموا الصلاة طاعة لك فاجعل قلوب النّاس تميل إليهم، وتسرع إليهم شوقا ووُدًّا، وارزقهم من جميع أنواع الثّمرات عساهم يكونون من الشاكرين لفضلك عليهم. والملاحظ أنّ قلوب جميع المؤمنين تهفو لزيارة بيت الله الحرام للحجّ أو للعمرة، وإنّ من حول البيت في مكة المكرّمة توجد جميع خيرات الأرض من مشرقها ومغربها ومن كلّ أرض على وجه البسيطة ومن خيرات البحار، وكنوزها.

- رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ **(38) :**

هذا من أدب الدعاء، فإنّ المؤمن إذا أراد أن يتوجّه إلى الله سبحانه بالدعاء افتتح بتسبيحه أو بحمده. وقد توجّه إبراهيم إلى ربّه هاهنا بأنّه يعلم ما يخفي في سرّه من طلب وحاجة، وبأنّه سبحانه العليم بما نطلبه جهرا ولا نخفيه لشدّة حاجتنا إليه، وما يخفى على الله من شيء في ملكوته لأنّه سبحانه وسع كلّ شيء علما.

- ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ **(39) :**

ولم يكتف إبراهيم بالتّسبيح عند توجّهه لربّه بالدعاء، فقد ثَنَّى بحمده، حمد الله عزّ وجلّ إذ منحه من فضله وَجودِه رغم كبر سنّه إسماعيلَ من هاجر، وإسحاقَ من سارّة، وكان هذا من إجابته لدعائه، فهو سبحانه وتعالى يجيب دعوة الداعي والسّائل، ويسمع ما يطلبه منه عبده وما يسأله.

- رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ **(40) :**

دعا إبراهيم ربّه ليجعله وذرّيّته من المحافظين على إقام الصلاة لعبادته في أوقاتها المعلومة، وذلك لأنّها الطاعة التي تقرّب العبد من ربّه، وتجعله دائم الصّلة به تعالى، ولأنّ المداومة على الصلاة تحفز المصلّى لأن يواظب على الطاعات وعلى مراقبة الله تعالى في نفسه، ولأنّها تردعه عن المعاصي والمنكرات. قال تعالى: (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ)(العنكبوت الآية45).

(رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ) تحوّل ضمير النّداء من المفرد إلى الجمع ليجمع بذلك أبناءه معه في دعائه حتى يقبل الله تعالى من الجميع أدعيتهم، ولم يكن لفظ (دُعَآءِ) مضافا إلى ياء المتكلّم ليدلّ على دعاء الجميع، وحتى لا يكون بين التوجّه (رَبَّنَا) في صيغة الجمع مع دعاء في غير صيغة الجمع.

- رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ **(41) :**

نون المتكلّم هنا تجمع جميع المؤمنين. هذا دعاء يجب أن يكون على لسان كلّ مؤمن ليطلب من ربّه تعالى المغفرة له، ولوالديه، وللمؤمنين جميعهم من إخوته وأهله وذويه وخلاّنه وكلّ أخ وأخت في الإيمان يوم يقوم الحساب حتى لا يُؤَاخَذَ أحدٌ منهم بالسّيئات من أفعالهم، وليفوزوا برضوانه تعالى وبجنّة تكريمه، والله ذو الفضل العظيم، والحمد لله ربّ العالمين.

- وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ**(42) :**

هذه في تسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عمّا يلاقيه من المشركين. والمعنى: ولا تظننّ –يا محمد– أنّ الله غير مطّلع عمّا يفعله المشركون معك ومع المؤمنين من أتباعك، إنّه عليم بما يعملون، وإنّما يمهلهم ليوم القيامة، وهو يوم تتفتّح فيه عيون الكافرين من شدّة الفزع والخوف، ولا يُغمض لهم جفن من شدّة ما يصيبهم من الهول والحزن.

- مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ **(43) :**

تراهم مسرعين إلى الدّاعي في ذلّة وخوف، ونظر دائم صوبه (مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ) رافعي رؤوسهم إلى السماء، لا ينظر أحدهم إلى الآخر، ولا يلتفت إليه (لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡ) لا يرجع إليهم



تحريك أجفانهم من شخوصها وفزعها، وهذه حالة مرضية مؤذية. (وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ) وقلوبهم كالهواء، كالخلاء الذي لا شيء فيه، لأنّهم لا يفهمون ممّا يجري حولهم شيئا. وهذه حالات كرب عظيم.

- وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ (44) :

هذه في إنذار المشركين ليعلموا أن ليس بعد الموت ويوم القيامة إعادة للحياة الدنيا ليصلحوا أعمالهم، وهذا لإعذارهم. والمعنى: وأنذر المشركين بأنّه حين يقضي فيهم يوم القيامة بأخذهم للعذاب فيأملون يومئذ بأن يردّهم الله تعالى للحياة الدنيوية لفترة قصيرة ليرى حسن عبادتهم وصدق طاعاتهم وتصديقهم بالرّسل، واِقتداءهم بسننهم فلا يُردُّون لأنّ السماوات والأرض قد زالتا: زلزلت الأرض ولفظت ما فيها واِنشقّت السماء وانتثرت. ويقال لهم يومئذ للتّذكير والتّوبيخ وللتّأييس: ألم تكونوا تُقسمون من قبلُ بأنّكم إذا متّم لا تعودون للحياة ولا تُبْعَثُون، فقد ضيّعتم على أنفسكم باب التّوبة والإنابة.

- وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ (45) :

ولقد أقمتم في مساكن الذين هلكوا من قبلكم بسبب كفرهم وتكذيبهم برسلهم وبيوم القيامة والوعيد، وقد ورثتم أرضهم وديارهم، وقد علمتم وعرفتم بما أبصرتم من آثارهم ما فعل بهم ربّهم حين عاقبهم، وقد وضّح الله لكم على لسان رسوله بما ضرب لكم من الأمثال سوء عاقبة الكافرين فهزأتم بما سمعتم وأعرضتم عن الإيمان.

- وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ (46) :

وقد مكر الكافرون بأنبيائهم ورسلهم وبالذين آمنوا معهم بأن بيّتوا لهم السوء، وإلحاق الأذى، وقد كان عند الله علم بما يبيّتون، وكان مكرهم شديد الأذى وشنيعا لو كان للجبال أن تزول لزالت من شناعته، وبشاعته، ومن عظم الحقد الذي كان في صدورهم.

- فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ (47) :

هذه لتثبيت النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم ليعلم أنّ الله تعالى ناصره مثلما نصر الرّسل من قبله على الكافرين، وأنّ هؤلاء لن يصلوا إليه بأذى، وإنّ الله سبحانه (عَزِيزٞ) أي لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عنه شيء، وهو(ذُو ٱنتِقَامٖ) ممن كفر به، وجحد نعمته، وظلم المستضعفين، وذلك بإهلاكهم قبل أن يبلغوا غايتهم من الإفساد في الأرض.

- يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ (48) :

وهو تعالى ذو اِنتقام شديد من الكافرين يوم تقوم الساعة حتى تتغيّر صفة الأرض وصفة السماوات بالزلزال العظيم والانشقاق المهول، يومئذ يخرج جميع الخلق من قبورهم من باطن الأرض ويظهرون للحساب بين يدي الواحد الذي لا شريك له في الملك والحكم، والقهّار لأنّ كلّ شيء خاضع لإرادته وحكمه وتصرّفه، ومنفّذ أمره على من يشاء.

- وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ **(49)** سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ**(50)** :

وترى الكافرين المشركين والمكذّبين برسله يوم الحساب مقيّدين في سلاسل من حديد كالمجرمين لإذلالهم، تُدْهَنُ جلودهم بالقطران وهو دهن كالزّفت الأسود النتن الذي تشتعل فيه النّار بسرعة، ومن كثرة الدهن الّذي على جلودهم يظنّ الناظر إليهم بأنّهم يلبسون قمصانا من القطران، وتشتعل فيهم النّار حتى تبلغ وجوههم وتشوّهها، وهذا وعيد شديد.

- لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ**(51)** :

يفعل الله بهم هذا العذاب لتحصل كلّ نفس ما تستحقّ من الجزاء على ما قدّمت من عمل لتُحاسب عليه، إنّ الله تعالى يحاسب جميع الخلق على ما عملوا، وهو محيط بأفعالهم.

- هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ**(52)** :

هذه الآية خلاصة لما جاء في هذه السورة من موعظة، والمعنى: هذا القرآن يبلّغ النّاس جميعا مواعظ الله تعالى، وإرشاده لما يهديهم لسبل الرّشاد، وسبل النّجاة من عذابه، وليوقنوا بأنّ الله واحد أحد هو الذي سيحاسبهم على أعمالهم بعد مماتهم، وليتّعظ به ذَوُو العقول الرشيدة، والقلوب السليمة، والبصائر المفتوحة فيصلحوا عقيدتهم وأعمالهم، وليكونوا من المؤمنين المتّقين.



| آياتها | ســـــورة **الحجـــــــر** | رقمها |
|---|---|---|
| **99** | ـــــ مكيّة ـــــ | **15** |

الحجر اِسم لبلاد ثمود، وقد ذكر هذا الاسم في هذه السورة دون سواها، فلذلك سمّيت بسورة الحجر، وهي سورة مكية وكشأن كلّ السور المكية فإنّها في تركيز العقيدة السليمة وفي دحض حجج الشرك.

ومن أهمّ مواضيعها: التنويه بفضل القرآن الكريم في هديه وتنوير البصيرة، وفيها آيات لتثبيت النّبي محمد صلّى الله عليه وسلّم لتسليته عمّا يُتَّهَمُ به من الجنون، وعمّا يُطْلَبُ منه من مطالب لتعجيزه، وفيها آيات وعد ووعيد.

وعرضت قصة كفر إبليس، ونبذا من قصص بعض الرّسل للاعتبار.

وممّا تميّزت به هذه السورة هو وعد الله تعالى لحفظ هذا الذكر دون سواه، وأنّه متفضّل على عباده بإنزال السبع المثاني.

وفي السورة دلائل على خلق الله تعالى لإثبات وحدانيته وقدرته وفضله على الخلق أجمعين.

- الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ **(1)** :

أُفتُتحت هذه السورة بمثل ما أُفتُتحت به سور أخرى مكية، وأخرى مدنية للتأكيد على أنّ القرآن الكريم كتاب واضح الدّلالة بأنّه من عند الله عزّ وجلّ، ذلك لأنّ الكافرين والمشركين يطعنون في نسبته إلى كلام الله تعالى، وكانوا يكذّبون به وبالوحي وبرسالة رسولهم، والقرآن كتاب الله أودع فيه رسالته لعباده أجمعين وإن كذّب به المبطلون والمعاندون. فكلّ ما يقرأ من الآيات في هذا الكتاب هو القرآن المنزل من عند الله، وإعجازه هو دليل بأنّه من عنده عزّ وجلّ.

- رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ **(2)** :

قد يودّ الذين كفروا به في دنياهم حين يقومون للحساب لو كانوا مسلمين لينجوا بأنفسهم من العذاب، وحين يرون أنفسهم أنّهم كانوا خاطئين عندما كذّبوا به.

- ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ **(3)** :

أُتركهم لشهواتهم ليأكلوا كالأنعام، ولِلَهْوِهم، ولينعموا بحياتهم وهم يأملون في دوام حياتهم، وطول إعمارهم في الأرض، وسوف يعلمون غفلتهم حين يرون عاقبتهم السيّئة في آخرتهم، وحين يعاينون سوء المآل.



- **وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ (4) :**

هذه في إمهال المكذّبين، والمعنى: ولم نعجّل بإهلاك القرى الكافرة الظالمة، بل أمهلنا أهلها حتّى حان الأجل والوقت المحدّد لتنفيذ الوعيد فيهم.

- **مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ (5) :**

لا يسبق الوعيد أجله، وإذا حان فإنّه لا يُؤَخّر عن القوم الظالمين.

- **وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ (6) :**

وقال مشركو قريش للنّبيّ الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم: يا أيّها الذي نزّل عليه الوحي، وهذا نداء للهزء، وعدم الإقرار له بالنّبوّة والرّسالة والوحي، إنّك مختبل في عقلك حينما تدعونا لاتّباعك، وترك آلهتنا.

- **لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (7) :**

وقالوا له: هلاّ أحضرت لنا الملائكة في صورتهم الحقيقية ليخبرونا بصدقك إن كنت بحقّ رسولا من عند الله كما تدّعي.

- **مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ (8) :**

هذا إخبارٌ من عند الله تعالى ليعلموا أنّ الملائكة لا تنزل على قوم إلاّ بالعذاب، وحينما ينزلون يأخذون الجميع بالاستئصال بدون إمهال ولا تأخير.

- **إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (9) :**

هذه في الردّ على تهكّم المشركين، وفيها التأكيد على حفظ القرآن من التّحريف، والمعنى: إنّا نحن، وهو الله تعالى جلّ جلاله الذي نزل الذّكر الذي هو القرآن الكريم، وإنّه تعالى متكفّل بحفظه من التّحريف: من الزّيادة والنّقصان ومن الإهمال والنّسيان. سيظلّ باقيا على هيأة تنزيله على محمّد صلّى الله عليه وسلّم إلى يوم القيامة.

- **وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ (10) وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (11) :**

ولقد أرسلنا من قبلك – يا محمّد – رسلا في قُرًى من الأمم السالفة، وما لقي هؤلاء الرّسل من أقوامهم إلاّ الهزء بهم، والسّخرية من دعوتهم لتوحيد الله تعالى ووجوب طاعة الله وحده والعمل بشرعه، وللإيمان بالبعث وبيوم الحساب، ولقُوا منهم السخرية من الوعيد.

- **كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (12) لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ (13) :**

كذلك ندخل القرآن في قلوب الكافرين به كما يدخل الخيط في الثّوب ليظلّ ما سمعوا منه كالوقر في آذانهم، وليكون شاهدا على بلوغه لهم، ولكنّهم كفروا به. ولا يؤمنون بالوحي وبالقرآن وقد عرفوا ما جرى فيما مضى في الأمم الذين كذّبوا رسل الله وهزؤوا بهم وبالوعيد، ولا يعتبرون.



- ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (15)﴾ :

الآيتان في وصف عناد مشركي قريش. والمعنى: ولو فتحنا عليهم بابا من السّماء فظلّوا يصعدون منه إلى الملكوت العلوي لقالوا عند عودتهم من رحلتهم في السماء: لم نر شيئا، ولم نُبصر شيئا، بل لقد سُحِرْنا حتى تهيّأت لنا أمور لم نعقل منها شيئا.

فهل يُرجى مع مثل هذا العناد تصديق، وتواضع ليؤمنوا ؟ كلاّ...

- ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ (16) وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ (17) إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ (18)﴾ :

ومن أعظم دلائل الخلق والقدرة أن جعل الله عزّ وجلّ في السماء منازل للكواكب السيّارة، وجعلها زينة لمن ينظر إليها، ويتتبّع حركاتها من علماء الرّصد. ومنع تعالى عن كلّ شيطان لعين أن يفسد فيها إلاّ من حاول أن يتسمّع فيها – وهو مُسْتَخْفٍ – لما يجري فيها من أحداث من أمر الله تعالى، أو خطف شيئا من المسموع من الملإ الأعلى فإنّه تتبعه شعلة من نار منفصلة تظهر للمبصرين لتدمّره وتهلكه قبل أن ينقل خبر ما سمعه لغيره. وما يُسْتَقْرَأُ من هذه الآيات أنّ كلّ من يدّعي العلم بالغيب وخبر السماء ممّا سيكون في حياة البشر، فإنّما هو من الرَّجْمِ بالغيب، ومن الشعوذة والافتراء.

- ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ (20) وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (21)﴾ :

وهذه في فضائل الله تعالى على خلقه، وفي نعمه ليشكروه، والمعنى: وجعلنا لكم الأرض ممهّدة للانتفاع بها وبخباياها وللسير فيها وللسعي، وجعل فيها جبالا ثابتة راسخة حتى لا تضطرب بكم، ولتستقرّوا في أرضكم وبيوتكم، وجعلناها مسخّرة لكم لتحرثوها ولتطمروا فيها زرعكم، أو لتقلبوها لتغرسوا فيها غراساتكم، وجعلنا ما تطمرون وما تغرسون يخرج الزّرع، أو يزهر ويخرج الثمر بقدر معلوم على قدر ما تحتاجون. وجعلنا لكم فيها أسبابا لتبتغوا فيها ما ترزقون لمعاشكم كاستخراج المعادن لصناعاتكم، أو لتصطادوا صيدكم لتأكلوا ممّا خلق لكم في بحورها، أو لتنقّبوا فيها آباركم لشربكم وسقيكم الدوابّ وللريّ. وجعلنا فيها رزقا للدوابّ وللسّائرين فيها ممن لا تعولون من الوحوش والأسماك... ونمتلك خزائن الأرض كلّها. وخزائنها هي إيجاد الأشياء النّافعة التي تفيدكم في تحقيق أغراضكم في الصناعات أو البناء أو أدوات العمل والسفر والكشف ووسائل العلاج، وكلّ ما تحتاجونه لحياتكم أو لإبداعاتكم وإختراعاتكم، وما تزالون



تكتشفون من كنوزها ما لا تعلمون مثل اِكتشافكم للبترول، وللذرّة، ومثل ما اِمتلكتم من قدرات لصناعة السيارة و الطائرة والباخرة النفّاثة... وما نمكّنكم من هذه المكتشفات من خزائن الأرض إلاّ بقدر محدّد بحسب ما تقتضيه الحاجة والمصلحة والحكمة لتتوزّع بينكم الخيرات، ولتتميّزوا في إبداعاتكم لتحتاجوا إلى بعض في تعاملاتكم.

- وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ (22) :

وهذه أيضا من نعم الله على خلقه من الأمور الطبيعيّة في مواسمها المحدّدة. والمعنى: وأرسلنا في الوقت المعلوم الرياح التي تلقّح الأشجار لتنتج ثمارها، أو التي تجمّع السّحب ولتسيّرها للقرى لتسقي النّاس والحيوان والشجر والثمر والزرع ولإخصاب الأرض، ولتنقية الهواء. وليس لأحد من الخلق مهما أوتي من علم أو قدرة أن يحول دون وصول ماء السماء إلى البلد الذي وُجّه إليه السحاب، أو أن يمنع عنه نزول القطْر، أو أن يمنعه عن الغير لينتفع به وحده، ويخزنه لفائدته، لأنّ إرساله بأمر الله عزّ وجلّ، لا يتّحكم فيه أحد غيره سبحانه.

- وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ (23) :

وهذه في الدليل الأقوى والحجّة البيّنة الواضحة على وحدانية الله تعالى، وعلى القدرة، وليس من إلاه آخر غيره يحيى ويميت، ويكون هو الحيّ الدائم الباقي بعد وفاة جميع الخلق، وقد جاءت الآية بالتّأكيد بأداة (وَإِنَّا) مع نون العظمة لله عزّ وجلّ، وضمير الشأن (لَنَحْنُ) الذي ذكر مرّتين لتدلّ على أنّه هو وحده صاحب الفضل على خلقه في إحيائهم، وأنّه تعالى هو مميتهم، ولا أحد غيره هو المميت، وأنّه هو وحده الوارث للأرض وما عليها، وكلّ شيء هالك إلاّ هو سبحانه، هو الباقي.

- وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ (24) :

وهذه في الدلالة على سعة علم الله بمن أوجد من خلقه. هو تعالى عليم بمن خلق في الزمن البائد من الأمم السالفة منذ خلق آدم، وهو عليم بمن سيأتي من بعد زمننا هذا، في مستقبل العصور حتّى يأذن بفناء الأرض وما عليها.

- وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25) :

وهذه في إثبات الحشر، والحشر يكون بإحياء الموتى. والمعنى: وإنّ ربّك سيحشر أولئك الأوائل وجميع من والاهم من الخلق إلى المولود الأخير الذي تقوم عليه السّاعة. إنّه تعالى حكيم في تدبير أمور خلقه، وأمور القيامة والحشر والحساب، وعليم بما كان وبما يجري وبما سيكون، وقد أحاط بكلّ شيء علما.

- وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (26) :



ولقد خلقنا الإنسان من طينٍ يابسٍ لم يُطبخ، طينٍ أسودَ متغيّر لطول مخالطته للماء، مصبوب أو مصوّر على هيأة إنسان، متغيّر الرائحة واللون.

- وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ (27) :

وخلق الله تعالى الجانّ قبل خلقه للإنسان، خلقه من نار تَقْتُل بحرّها.

- وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ (28) فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (29) :

وأذكر إذ أخبر ربّك الملائكة بأنّه خالق بَشَرًا من طين أسودِ يابس متغيّر اللون والرّائحة على صورة إنسان، فإذا تمّ خلقه وتعدّلت صورته، ونفخت فيه من روحي لتكون فيه روح يحيا بها فخرُّوا له ساجدين سجود التّكريم والتّحية لهذا المخلوق البديع، وتقديرا لصنع الخالق عظيم القدرة.

والتّكريم الذي حصل في خلق الإنسان هو بفضل النّفخة من روح الله تعالى، بهذا خصّ الإنسان في خلقه، ومُنحت له ميزات أخرى كذلك من ذلك تكريمه بالعقل والعلم وبالإحساس وتحمّل المسؤولية وبالاستخلاف في الأرض...

- فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ (30) :

ولمّا خلق آدم عليه السلام سجد له الملائكة كلّهم أجمعون عليهم السّلام اِمتثالا لأمر الله تعالى.

- إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (31) :

هذه الآية إلى غاية الآية 44 في معصية إبليس لأمر ربّه اِستكبارا، وفي لعنته، وفي وعيده، ووعيد أتباعه من جنس البشر. والمعنى: إلاّ إبليس الذي كان من الجنّ، والذي كان حاضرا مع الملائكة عند تلقّيهم أمر الله عزّ وجلّ بالسجود لآدم حين يخلقه وينفخ فيه من روحه، رفض أن يكون مع السّاجدين واِمتنع.

- قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (32) :

وسئل إبليس عمّا جعله يمتنع عن السّجود مع الملائكة لمن خلقه تعالى وجعله بَشَرًا.

- قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ (33) :

وأجاب في اِستكبار: لم أكن لأحترم أو أحيّي أحدا من البشر خلقته من طين أسود يابس لم يُطبخ، ومتغيّر الرّائحة واللون.

- قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ (34) وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ (35) :

فأُمِرَ إبليس بالخروج من الجنّة، وأخبر بأنّه سيُرمى بالشّهب لو عاد إليها، وأنّ عليه غضَبَ الله تعالى وسُخْطَه إلى يوم الحساب، يوم المجازاة.

- **قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ (36) :**

وطلب إبليس من ربّه أن يؤخّر موته، وأن يمهله إلى يوم القيامة.

- **قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ (37) إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ (38) :**

وأُجِيب لطلبه ليتأخّر موته إلى يوم الوقت المحدّد للنّفخة الأولى لتقوم ساعة الفناء.

- **قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ(39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ (40) :**

وأقسم إبليس عند طرده من الجنّة ومن رحمة ربّه بأنّه سيعمُد إلى تحسين المعصية لجنس البشر في كلّ مكان من الأرض، ويحبّبها لهم أجمعين إلاّ الذين آمنوا منهم، وأخلصوا لله تعالى في الطاعة والعبادة، وصدقوا في تقواهم، وفي خشيتهم من ربّهم.

- **قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ (41) :**

قال تعالى ما معناه هذا طريق مَرْجِعُه إليّ فأجازي كلّ أحد من البشر بعمله.

- **إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ (42) :**

إن عبادي المؤمنين الطائعين ليس لك عليهم قدرة لتحملهم على الغواية، على المعصية، ولن تقدر على إخضاعهم إليك لأنّ الإيمان والطاعات تحصِنّهم منك ومن إغراءاتك، إلاّ الّذين اتّبعوا إضلالك وإغراءاتك الخدّاعة.

- **وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ (43) لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ (44) :**

وسيكون مآل أتباعك المضلّلين في جهنّم، كلّهم أجمعين، وإنّ لجهنّم سبعة أبواب، لكلّ باب نصيب معلوم من العذاب، والأبواب هي منازل، والعياذ بالله من جهنّم ومن مستقرّها.

- **إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ (45) ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ (46) :**

وعلى عادة القرآن في اِتباع الوعيد بالوعد، جاءت الآيتان وما بعدهما في تبشير المتّقين بكلّ نعيم، والمعنى: إنّ الذين يخافون عقاب ربّهم فيعملون بالطاعات طلبا لمرضاته وحرصا على تجنّب ما يغضبه يُنْعِم الله تعالى عليهم بإيوائهم في بساتين مرفهة، ويدخلونها بالتحية والإكرام ويقيمون فيها إقامة آمنة، آمنة من عقاب الله، وآمنة من سلب النّعمة.

- **وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ (47) لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ (48) :**

الآيتان في بيان مظاهر الإقامة الآمنة في الجنّات. من مظاهرها أنّ إقامتهم فيها مع أجوارهم من إخوانهم المؤمنين المتّقين لا يلقون فيها ما كانوا يجدون في دنياهم من شحناء، وبغضاء وعداوة، صدورهم سليمة من هذه الأمراض والأعراض. إنّهم يتعاملون مع بعض تعامل الإخوان

الأصفياء المخلصين، يتقابلون على الأرائك الفاخرة للحديث والمؤانسة، لا يجدون فيها تعبًا، ولا إعياء، أو شقاء، وما هم منها بمخرجين لأنّ إقامتهم فيها دائمة، وهذا أمر مؤكّد.

- نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ (50) :

أخبر – يا محمد – العباد جميعهم بأنّ الله تعالى هو (ٱلۡغَفُورُ) أي كثير المغفرة لمن تاب وآمن وعمل صالحا، وأنّه هو (ٱلرَّحِيم) أي كثير الرّحمة بعباده المؤمنين لا يعذّبهم، وأخبرهم بأنّ عذابه للكافرين والعاصين المذنبين هو العذاب الأشدّ إيلاما، فمن شاء رحمة ربّه وغفرانه فالسبيل إليهما معلوم، ومن أعرض عن ذلك فإنّ مآله معلوم كذلك، والإنسان مخيّر بين هذا وذاك.

- وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ (51) :

وأخبرهم عن الملائكة الذين حلّوا على إبراهيم ضيوفا. وهذه الآية إلى غاية الآية 84 للاعتبار بعاقبة المكذّبين، وليوقن المؤمنون بأنّ الله تعالى مع المؤمنين حتّى لا يمسّهم سوء في دنياهم، وفي آخرتهم كذلك.

- إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ (52) :

ولمّا دخلوا على إبراهيم سلّموا عليه، ولمّا عرف أنّهم ملائكة قال لهم إنّا خائفون منكم، ذلك لأنّه يعلم أنّ الملائكة لا تنزل إلاّ بالعذاب، والوحي لا ينزل به إلاّ واحد.

- قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ (53) :

فأمّنوه على نفسه، وأخبروه بأنّهم جاؤوه ليبشّروه بإنجاب صبيّ له من زوجته سارّة اِسمه إسحاق، وسيكون نبيّا لأنّ له علما من عند الله عزّ وجلّ.

- قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) :

واِستغرب إبراهيم من خبر البشارة، قد بَلَغَتْهُ وقد تقدّم به العُمُر، ويعلم أنّ زوجته عاقر وهي مسنّة كذلك، فأيّ بشارة هذه؟ والاستفهام للاستغراب لأنّ ظروف الإنجاب غير متوفّرة، وقد جاءت البشارة متأخّرة جدًا.

- قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ(55) قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ (56) :

وها هنا موضع العبرة، قالت له الملائكة: بشّرناك بشيء واقع حقّا، فلا تكن من اليائسين من رحمة لله سبحانه، عندئذ راجع إبراهيم نفسه فقال: لا ييأس من رحمة الله سبحانه إلاّ من كان غير مؤمن به. والعبرة أنّ على المؤمن أن لا ييأس من رحمة ربّه. وقد جاء في الحديث النّبويّ الشريف : "أنّ الله عند حسن ظنّ العبد به"، ومعلوم أنّ من أسماء الله الحسنى: الرّحمان الرّحيم، اللطيف، الودود، الكريم، الرّزاق..



- قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (57) :

ولمّا اِستقرّ الأمر عند إبراهيم سأل ضيوفه عن الشأن الذي جاؤوا من أجله، لأنّه يعلم أنّهم لا ينزلون إلا بعذاب.

- قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (58) إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ(59) إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (60) :

عندئذ أخبروه بأنّهم مرسلون إلى قوم لوط المجرمين، وكان من جرائمهم أنّهم يأتون الفاحشة مع الذّكور، ما يسمّى في عصرنا بالمِثْلِية، وهي فاحشة لا يأتيها إلاّ الشّواذّ، وهي فاحشة منافية للفطرة، وإرسالهم إلى هؤلاء المجرمين هي لاستئصالهم، واِستثنوا من عذاب الاستئصال آل لوط فإنّهم مُنْجَوْنَ من العذاب لأنّ الله تعالى لا يُعذّب المؤمنين إلاّ زوجة لوط فلقد قُدِّر لها أن تكون من الهالكين لأنّها لم تكن مطيعة لزوجها، كانت عَيْنًا عليه لفائدة قومها المجرمين.

- فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ (61) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (62) :

فلمّا وصل الملائكة إلى بيت لوط، ودخلوا عليه، قال إنّكم غير معروفين عندنا فمن تكونون؟ وما غايتكم من هذه الزّيارة؟

- قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (64) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) :

فأخبروه بأنّهم قدْ جاؤوا قومه بما كانوا يكذّبون به من الوعيد ويشكّون في وقوعه، وأتيناك لإثبات الوعيد الحقّ فيهم، وإنّا لصادقون في إهلاكهم جميعا. فأُخرج بأهلك في آخر الليل من القرية، سر أنت خلفهم، واجعلهم يمشون أمامك ولا ينظر أحد منكم وراءه حتى لا يشاهد ما يصعقه ويهلكه، وأُمضوا سيرا في الاتّجاه الذي يُوحى به إليك.

- وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (66) :

وأوحينا إلى لوط ذلك الأمر بما يجب عليه فعله، وبأنّه سَيَتمّ اِستئصال القوم جميعهم وإفناؤهم وإبادَتُهم عند الصباح حين يستيقظون.

- وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ (68) وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (69) قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ (70) قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (71):

وقدم قوم لوط إلى بيته مستبشرين بضيوف النّبيّ ومسرورين بما تحدّثهم به أنفسهم طمعا في إتيان الفاحشة، فخرج لهم لوط يطلب منهم أن يتركوا ضيوفهم آمنين، وأن يخجلوا ممّا يطلبون منهم، ودعاهم ليخشوا ربّهم وأن يَسْتَحْيُوا، وأجابوه بدون حياء ولا خجل بأنّهم قد سبق لهم أن نبّهوه بأن لا يضيّف عنده أحدا على دينه الذي لا يرتضي عملهم في الفاحشة، وقد نهوه عن



ذلك. واِستعطفهم لوط لأن يصرفوا أنفسهم عمّا يريدون بضيوفه، وعرض عليهم الزّواج ببناته حتّى لا يركنوا إلى الحرام.

- لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ (72) :

في هذه الآية تشريف للنّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم لما فيها من قَسَمٍ بحياته، ومعناه: بحياتك – يا محمد – وهذا نهاية التّعظيم وغاية التّشريف، إنّ قومك من قريش في حيرتهم يتردّدون كالسكارى الذين لم يعودوا يبصرون الأشياء بوضوح، وهذا ممّا يصيبهم من الشكّ، ومن التردّد بين التّكذيب والتّصديق.

- فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ (73) فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ (74):

وما إن أشرقت الشّمس، وحين بدأ قوم لوط يستيقظون أصابت القوم قرقعة شديدة وصوت مفزع مُجَلْجِل شديد الوقع على الآذان، وقُلِبَت عليهم بيوتهم فصارت قيعانها سقوفا، وصارت سقوفها قيعانًا، وقلبوا على رؤوسهم، وأُمطروا بحجارة من طين طُبخ بنار محرقة، وكانت حجارة صلبة هدّمت عليهم بيوتهم وردمتهم.

- إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ (75) :

إنّ فيما جرى على قوم لوط عبرة للمعتبرين المتفكّرين.

- وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ (76) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ (77) :

وإنّ قرية قوم لوط على طريق قومك – يا محمد – في رحلتهم إلى الشّام. وإنّ في آثارهم دليل صدق الوعيد عليهم للمؤمنين الذين لا يكذّبون بالوعد والوعيد.

- وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ (78) فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ (79) :

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام، وقد كانوا ظالمين لأنفسهم بالكفر وبتكذيب رسولهم، وقد أهلكهم الله تعالى لشدّة كفرهم وعنادهم ولتماديهم في معاصيهم، وإنّ قريتهم على طريق المسافرين من مكة إلى الشام، وإنّ في آثارهم لمن يمرّ بها أوضح عبرة.

- وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (80) :

أصحاب الحجر هم قوم ثمود، وديارهم بين المدينة والشام، ولقد كذّبوا بالتّوحيد وبرسالة رسولهم "صالح" عليه السلام، وجاء لفظ المرسلين في صيغة الجمع لأنّ من كذّب رسولا واحدا منهم فكأنّه كذّب جميعهم، لأنّهم جميعا كانوا على دين واحد.

- وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ (81) :



وكانت معجزة صالح النّاقة، وأستعمل لفظ الآية في صيغة الجمع لأنّ في خروج النّاقة من الصخرة على أعين النّاس آية، وكان لبنها الذي يغذّي القوم جميعهم آية، وكان شربها في يوم آية، وسراحها آية، فهي في ذاتها آيات، ومع ذلك عقروها كفرا وعصيانا واِستخفافا بالوعيد.

- وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ (82) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83) فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (84) :

كان القوم يتخذون من الجبال بيوتا لأنفسهم، ينحتونها نحتا من شدّة قوّتهم ومن مهارتهم في النحت والبناء، وكانوا يسكنونها آمنين لا يخافون فيها سيلا ولا يخافون غزوا ولا شيئا من عاديات المناخ حرّا أو قرّا، ولا يخشون فيها تخريبا، ومع ذلك أخذتهم الصيحة الشديدة المفزعة فأهلكتهم وهم في بيوتهم عند الصباح وهم نيام، ولم ينفعهم من قضاء الله تعالى حين أتاهم حصن ولا جبل ولا ما كانوا يكسبون من قوّة ومن أموال وخيرات، هلكوا وهلك معهم كلّ ما كانوا يملكون.

- وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ (85) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ (86) :

عودة لموضوع العقيدة، خلق الله السماوات والأرض وما بينهما من فضاءات فيها من الأسرار ما يعلمها إلاّ الله من مثل أنواع الغازات، وقوانين الجاذبية، وانتظام حركة الكواكب فيها، إنّ في كلّ هذا دلائل يستدلّ بها الإنسان العاقل العالم المتدبّر على وجود الله تعالى، وعلى اِنفراده بالخلق، وعلى عظيم قدرته، وحسن تدبيره، وعظيم حكمته في القيام عليها وتنظيم أمرها وبقائها ودورانها. وإنّ الساعة التي قضى الله تعالى قيامها ليجازي كلّ إنسان عمّا قدّمه لنفسه من عمل لآخرته لكائنة، وستقوم بكل تأكيد: فتجاوز – يا محمد – عمّن لم يصدّق بك، واعف عفوًا حسنا، وأعرض عن لومهم وعتابهم. إنّ ربّك هو الخالق الحقيقي لكلّ مخلوق موجود، وهو العليم بما يفعلون، وبما يكسبون، وبما يضمرون، وما يعلنون.

- وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ (87) :

ولقد تفضّلنا عليك وعلى أمّتك بأن آتيناك السبع المثاني، واِختلف العلماء في هذه السبع المثاني، قال علي بن أبي طالب وأبو هريرة وغيرهما أنّها الفاتحة، وقد روي عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من وجوه ثابتة من حديث أبيّ بن كعب وأبي سعد المعلى أنها الفاتحة، وخرّج التّرمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "الحمد لله أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني"، وهذا حديث حسن. وقال ابن عبّاس: هي السبع الطوال: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، الأنفال والتوبة معا (الأنفال والتوبة معا لأن بعضهم يعتبرها سورة واحدة) رواه النّسائي، قال السبع الطوال، وسمّيت مثاني لأنّ العِبَرَ، والأحكام، والحدود ثُنِّيَتْ

فيها، وأنكر قوم هذا الرأي والقول لأنّ هذه الآية نزلت بمكة، والسبع الطوال أنزلت بالمدينة. وقال آخرون: المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن من الأمر، والنّهي، والتّبشير، والإنذار، وضرب الأمثال، وتعديد النِّعم، وأنباء القرون، والصحيح عند جمهور العلماء هو القول الأوّل.

(وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ) هو كلّ ما جاء في هذا الكتاب من سور وآيات وأحكام ومواعظ وبشارة وإنذار...

- لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ(88) :

لا تَتَمَنَّ ما عند غيرك من زينة الدنيا، ولا تنظر إليها نظرة الرّاغب، فقد أغناك الله عنهم بما آتاك من القرآن والتكريم بالرّسالة، ولا تحزن على المشركين إن لم يؤمنوا، وتواضع للمؤمنين، وألِنْ لهم الجانب.

- وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ (89) :

وقل – يا محمد – للمشركين المكذّبين إنّني أنا النّبيّ المرسل الذي يحذّركم التّحذير الواضح البيّن من التمادي في الشّرك والكفر بيوم الحساب، وإنّي المنذر الموضّح لكم سوء مصير من لم يؤمن، ويصلح عمله.

- كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ (90) ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ (91) :

اِختلف المفسّرون في تعيين المقتسمين. قيل هم جمع من مشركي قريش اِقتسموا الطرق الّتي يُدخل منها إلى مكّة، وجعلوا فيها من يحذّرون القادمين إليها من السماع إلى النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم متهمين إيّاه بالسّاحر، أو الشاعر، أو الكاهن، أو المجنون، فسمّوا مقتسمين، واِختلافهم في وصف الرّسول محمد صلّى الله عليه وسلّم هو من الاقتسام أيضا. وهؤلاء يجعلون القرآن عضين، يقولون عنه أحيانا بأنّه شعر، وأحيانا هو سحر، وأحيانا: أساطير الأولين، واتّهموه بأنّه من الافتراء أحيانا، ومن الكهانة حينا. وقال آخرون هم طوائف من اليهود والنّصارى اِقتسموا في الإيمان بالقرآن، آمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه، وقالوا في القرآن الكريم: بعضه صدق، وبعضه كذب، فهؤلاء هم المقتسمون الذين جعلوا القرآن عضين.

هؤلاء – أيّا كانوا – معنيون بالإنذار المبين مثلما أنذر المشركون المكذّبون بسوء المآل.

- فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (93) :

قسما لنسألنّ هؤلاء أجمعهم عمّا كانوا يعملون في الدنيا من الكذب، والاقتسام على الطرق، وعلى التكذيب، وعلى الكيد....

- فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ (95) :

فامضِ – يا محمد – فيما أُمرت به من الدّعوة إلى توحيد الله، واِجهر بالدعوة لدينه: الإسلام، وبهذا اِنتهى زمن الدعوة السّرية. ولا تأْبَهْ بما يقوله المشركون، ولا تُبالِ بما يكيدون، ولا تلتفت إليهم. إنّا دافعون عنك اِستهزاءهم، وأذاهم وكيدهم.

- ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ **(96)** :

هذه في صفة المشركين، وفي تحذيرهم، فإنّهم يدّعون لله ندّا، وشريكا ويتّخذونه إلاها، وما هو بإلاه، وسوف يعلمون حين يحضرون للحساب عاقبة ادّعائهم الكاذب، ومن هو الله الحقّ، ولن ينفعهم يومئذ النّدم.

- ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ **(97)** :

وإنّا لنعلم ما تشعر به من الضيق والحزن بما يقولون فيك من صفات أنت بريء منها كالكذب، والافتراء على الله تعالى، ومن اتّهامك بالجنون، وبالسحر... فلا تحزن بما يقولون.

- ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ **(98)** :

لئن كان الخطاب موجّها للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في صيغته، إلاّ أنّ موضوع الآية موجّه لكلّ مؤمن مسلم. والمعنى: ثابر على الصلاة لما فيها من تقديس وتسبيح بحمد الله عزّ وجلّ، وثابر على السّجود لله تعالى رغبةً ورهبةً، وللمناجاة والدعاء، وللتسبيح. قال تعالى: (وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ)(البقرة الآية 45) وإنّ أفضل ما يُستعان به على تفريج الكربة عند المرض أو الشدّة أو الحيرة أو الضيق أو الخوف أو الرّجاء: الصلاة وإطالة السجود في التّسبيح والدعاء.

- ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ **(99)** :

وداوم على طاعة ربّك فيما أمر به من طاعات ومن أوامر وأحكام ونوَاهٍ، ولا تفارقها حتى يأتي الأجل المحتوم وهو الموت. والموت هو الأمر المتيقّن وقوعه. فاليقين هو الموت. والخطاب عام لكلّ مؤمن.

وإنّ من رجاء كلّ مؤمن أن يأتيه اليقين وهو ساجد في عبادة.



| رقمها | ســـــورة النّحـــــل | آياتها |
| --- | --- | --- |
| 16 | ـــــ مكيّة ـــــ | 128 |

سمّيت سورة "النّحل" لورود ذكر النّحل في هذه السورة دون سواها وقد ذكر فيها النّحل لأنّه إبداع في الخلق عظيم الدلالة والرمزية والإفادة، وللاعتبار. ويسمّيها بعضهم سورة النِعَم لأنّ الله تعالى قد عدّد فيها نعمًا كثيرة أنعم بها على خلقه من البشر.

وقد تعدّدت مواضيع هذه السورة ففيها ما يخصّ العقيدة للتأكيد على أنّ الوحي على الرسول صلّى الله عليه وسلّم أمر صادق، وأنّ التنزيل هو من عند الله تعالى، وليس هو من الافتراء على الله تعالى، ولكنّ التّكذيب به هو الافتراء. وأنّ الشّرك اِفتراء على الله تعالى وكذب. وأنّ التكذيب بالبعث من الجهل، والتّكذيب بالوعيد تناقضه آثار القرى المدمّرة، وأخبار الأمم السالفة، وأنّ الملائكة عليهم السلام رسل الله وليسوا بنات الله، وجاء في السورة وجوب نبذ الطاغوت.

وفي السورة الكثير من دلائل الإنعام على الخلق فيما خلق الله تعالى لهم في الطبيعة، وفي إنتاج الأرض، وفي إنزال الماء، وفي خلق الأنعام وتسخيرها لخدمة الإنسان، وتسخير البحر لركوبه.

وفي السورة جملة من المواعظ، وجملة من الأوامر، والأحكام.

- أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ **(1)** :

هذه في تحذير المشركين من وعيد الله عزّ وجلّ. والمعنى: قرب (أَمۡرُ ٱللَّهِ) وهو تنفيذ وعيده في المشركين بإهلاكهم، فلا تستعجلوه سيأتي في إبّانه، وقد تحقّق بعضه في بدر، وتحقّق بعضه الآخر في وقائع أخرى. تنزّه الله تعالى عن ما يدّعي له المشركون من أن يكون له شريك أو ندّ أو صاحبة وولد.

- يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ**(2)** :

ينزّل الملائكة بالوحي أو الرّحمة من أمره تعالى على من اِصطفاهم للرّسالة لينذروا المشركين لينتَهُوا عن التّمادي في شركهم، ولدعوتهم لعبادة الله وحده، وليخشوا غضبه وعقابه وعذابه، وذلك بترك المعاصي، وبالعمل بالطاعات.

- خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ **(3)** :

الله الذي تدعون لعبادته ولطاعته وتقديسه هو الذي خلق السماوات والأرض بالحقّ، وما تدعون من دونه لم يخلقوا شيئا. عَلاَ الله واِرتفع وتعاظم بذاته وبصفاته عمّا يدعون له من الشركاء.



- خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (4) :

وهو تعالى الذي خلق الإنسان، أوجده من اِلتقاء ماء الرجل بماء المرأة في رحمها، فإذا هو ينسى أصل نشأته فيخاصم خالقه بالباطل، يُنكر ألوهيته، ويدّعي الألوهية والخلق لغيره جهلا وعنادا.

- وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ (5) :

والأنعام (وهي الإبل والبقر والغنم والمعز) خلقها لكم الله تعالى، تتّخذون من أصوافها وأوبارها، أو من شعرها، أو من جلودها لباسا لكم، أو أغطية، أو فرشا لتتدفؤوا بها، وتقُوا بها أنفسكم من لسع البرد، ولكم من ألبانها طعام لكم، وتتّخذون منها مراكب لتجارتكم ورزقكم، ولكم من لحومها طعامكم، ومن مواليدها رزقكم وثروتكم، وكلّها منافع لكم، فهلاّ شكرتم ربّكم الذي خلقها لكم، وسخّرها لخدمتكم وذبائحكم، وركوبكم...

- وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ (6) :

وإنّكم تتباهون بامتلاكها لأنّها من أجمل ثرواتكم، وإنّكم تسعدون برؤية القطيع حين تردّونه في المساء من المرعى إلى مَراحِه أو مَبَارِكِه التي يأوي إليها، وحين تخرجون به صباحا إلى المَرْعَى.

- وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ (7) :

وتحمل أمتعتكم الثقيلة، أو تجارتكم إلى البلدان القصية، لا تستطيعون بلوغها بدونها إلاّ بجهد وتعب شديدين ومشقّة، وبركوب الإبل تستعينون على مشاقّ السفر وتبلغون ما تقصدون من البلدان البعيدة. إنّ ربّكم الله رؤوف بكم لذلك خلقها لكم وجعلها مسخّرة لخدمتكم، وهو رحيم بكم فاشكروا له، ولا تشركوا به أحدا.

- وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (8) :

وخلق الله تعالى لكم الخيل والبغال والحمير لتركبوها في أسفاركم وفي تنقّلاتكم، وهي لمالكها مال ورزق ومطايا وقوة ومفخرة. ويخلق ما لا تعلمون من وسائل الركوب والنقل ممّا لا ترونه اليوم (أي في زمن الجاهلية) وستبصرونه عجيبا ومفيدا في مستقبل حياتكم ممّا تصنعه أيدي بعضكم، وتخترعه عقول بعضكم بما ألهمكم الله من إبداع وإبتكار، وبما أوجده لكم في باطن الأرض من خيرات ستكون لكم عونا لتنجزوا ما تبتكرون وتخترعون من مثل النفط والذرّة وغير ذلك ممّا لم يعرف الناس قيمته وطرق اِستغلاله سابقا وعرفتموه حاضرا، وسيعرف في المستقبل النّاس ما لم تعرفوا قيمته حاضرا وهذا كلّه من فضل ربّكم عليكم (الإلهام ووسائل الإنتاج ومواد الطاقة)، وأنتم لا تدركون مدى فضل الله عليكم. ذكر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره

تعقيبا على هذه الآية: "فالذي يظهر لي أنّ هذه الآية من معجزات القرآن الغيبية العلمية، وأنّها إيماء إلى أنّ الله تعالى سيلهم البشر اِختراع مراكب هي أجدى عليهم من الخيل والبغال والحمير. وإلهام الله النّاس لاختراعها هو ملحق بخلق الله، فالله هو الذي ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذكاء والعلم، وبما تدرّجوا في سلّم الحضارة، واِقتباس بعضهم من بعض لاِختراعها، فهي بذلك مخلوقة الله تعالى لأنّ الكلّ من نعمته" (التحرير والتنوير ج14 ص111).

- وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ (9) :

ولم يَتركْكم الله تعالى لأنفسكم، بل لقد تفضّل عليكم بأن بيّن لكم الطريق الموصل لغاياتكم الحسنة، وأرسل إليكم رسلا، وأنزل إليكم كتبا لتعرفوا بها طرق الخير، و(الجائرُ) الذي هو المائل عن الصواب والمنحرف عنه لتحذروه، ولو شاء الله لجعلكم جميعا مستقيمين على دينه وشرعه، ولكنّه قضى أن يجعلكم مسؤولين عن اِختياراتكم وأعمالكم ليكون ليوم الحساب وَجاهَتُه وأهميتُه لتقييم درجة وفائكم في تحمّل أمانة الاستخلاف في الأرض التي من أجلها خُلِقْتم، ومن أجل هذا التقييم يكون البعث لإعادتكم للحياة بعد مماتكم على وجه الأرض.

- هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) :

ومن عظيم فضل الله تعالى على خلقه أن أنعم عليهم بنزول الغيث ليَشربوا ماءً عذبا، ولريّ الأرض وسقي الشجر لتثمر، ولإنبات الكلأ والحشائش لطعام الدوابّ (فِيهِ تُسِيمُونَ) فيه تَرْعَوْن دوابّكم.

- يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (11) :

وممّا يسقيكم الله تعالى من ماء السماء ينبت لكم الزرع لطعامكم وكذلك شجر الزيتون، والنخيل والأعناب، وغيرها من الأشجار المثمرة. وفي هذا كلّه دليل على فضل الله تعالى على عباده الذين يتدبّرون في عجائب خلق الله تعالى ويتأمّلون.

وهل من بلد أغنى رزقا، وأوفر خيرات، وأطيب عيشا، وأفضل إقامة، وأبهج منظرا إذا أغناه الله تعالى بالغيث النّافع في مواسم الإنبات فملأ سدوده ماءً زلالا حلوًا ومواجل البيوت ليشرب النّاس فيحميهم من العطش، وليسقي أنعامهم لتنتج لهم اللحوم والألبان والأوبار والأصواف، وليروي أرضها فتحيا وتحمى من الجفاف، ولتؤتي أكلها: زرعا خصيبا لطعام سكّانها: قمحا وشعيرا وبُرًّا، وحبّا آخر لطيب الطعام، وحشائش وزهورا لطعام الأنعام وللطِّيب والدواء. وبمَاء السّماء تؤتي الأشجار ثمارها على اِختلاف ألوانها وطعمها وأحجامها للطعام وللرزق وللزينة وللظلال. ومن الأشجار ما يُنتفع به لصناعة كلّ ما يصنع من الخشب.



هذا كلّه، وغيره من الفضائل كثير لا يُحصى من مثل نقاوة الهواء، وجمال المنظر، وطيب الكسب الحلال من إنتاج الأرض وثروة المياه والغابات وثراء البساتين وروعتها. هذه النّعم الوفيرة من خيرات الأرض والسماء تستوجب الشكر لله تعالى على فضله وإنعامه وعلى ما رزق من الخير. وتتميّز البلدان الإسلامية بتوفّر هذه النّعم في أوطانها إلى جانب ما يمتلك بعضها من ثروات بحرية أو ثروات باطنية من مثل البترول أو الأسمدة أو المعادن، ولكنّ البعض من أهلها غير حامدين لله ولا شاكرين. فبماذا يوصف من يريق اللبن الطازج الذي يستدرّه من أبقاره في الطريق أو في مجرى وادي بحضور صحافيين ومصوّرين ليعبّر بذلك عن اِحتجاجه عن موقف حاكم بلاده الذي رفض أن يزيده في رفع سعر بيعه. يعبّر عن اِحتجاجه بإراقة نعمة من أعظم النّعم التي ينتفع بها الصبية والعجائز وهو طعام المرضى وذلك للضغط على حكّام بلاده ليزيد من ربحه، والنّعمة من عند ربّه! وآخر رمى بحبّ الزيتون على الطريق ليداس بالأرجل ولترحِيَه عجلات السيارات المارّة عليه. أكذا نعامل نعمة ربّنا؟ وحتّى تاجر التّمر بعد جنيه لثمر نخيله يحتجّ على الحاكم بإلقائه في الطريق على أعين النّاس؟ بل وألْقَى بحبّ القمح في الطريق، ومنهم من كدّس شيئا منه كدسا صغيرا وأشعله ليطهو عليه برّاد الشاي. وقد عمد بعضهم لحرق الغابات لينتفعوا بالفحم أو للتغطية على سرقة أخشاب الشجر المقطوع بليل، وهي ثروة طبيعية وثروة عامّة فيها الكثير من المنافع البيئية والاقتصادية. أكذا تُعامل نِعَمُ الله تعالى التي ورد التنبيه إلى فضله تعالى في إنشائها في هذه الآية وفي غيرها؟ أليس هذا من بطر النّعمة، ومن الجحود، ومن الإفساد في الأرض، ومن التفريط في نِعم الله تعالى؟! ألم يكن من واجبنا أن نكون من الشاكرين؟

- **وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (12) :**

التّسخير هنا يعني خَلْقَ الشيء لفائدة الإنسان، خُلِقَ هذا الشيء من أجله، وليحقّق له المنفعة لحياته، أو لمعاشه، وها هنا سخّر الله تعالى للبشر الليل والنّهار لتنظيمِ أمور حياته، ليجد سَكَنَه وراحته عند الليل، وليبسّر له طلب معاشه وتحقيق مشاغله وأعماله عند النّهار حين يتجلّى ضوؤه. وفوائد الشمس في حياة الإنسان لا تحصى، وفي تحديد الأوقات والأزمان، وجعل القمر لمواقيت النّاس، وجعلت له النّجوم ليهتدي بها في ظلمات البرّ والبحر، وزينة للسماء حتى تتبدّد وحشة الظلمة الحالكة، وفي الليل والنّهار والشمس والقمر والنّجوم دلائل واضحة على عظيم القدرة، وحسن الخلق والتّدبير، وجميعها تنتظم في سيرها لتحقيق منافعها للبشرية، ولنبات الأرض، ودوام الكائنات والموجودات والوجود بأمر الله تعالى وحده، ليس معه شريك في تدبير سيرها وفي قيامها، قال تعالى: لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ

(الأنبياء الآية 22)(فِيهِمَآ : أي السماوات والأرض) ففي هذه المظاهر الكونية: في تواجدها وخلقها، وفي ما تنفع به الأرض والخلق، دلائل قويّة لأهل العقول الواعية للشهادة له تعالى على وحدانيته في الخلق، وعلى وفرة إنعامه على النّاس ليجدوا منافع لهم في حياتهم، وليعرفوا بها عظيم قدرته ليقدّسوه ويشكروا له.

- **وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ (13):**

وإنّ في ما (ذَرَأَ) أي خلق لفائدتكم في الأرض، وجعله مُسخَّرًا لإرادتكم للانتفاع به، وهو في الكثير من أصناف الحيوانات البريّة، ومن أصناف الطيور، ومن أصناف الحيتان، ومن أصناف الحشائش والشجر والزرع والنبات، ومن أصناف الجماد، في كلّ هذه المخلوقات على اِختلاف أنواعها وألوانها وأشكالها، وعلى اِختلاف خصائصها، ووجوه الانتفاع بها دلائل على اِنفراد الله تعالى في الخلق، وعلى عظيم قدرته، وبديع صنعه، وحسن تدبيره، ودقّة الحكمة في إيجاد ما يحتاجه الإنسان لضمان حياته ووجوده، وهذه الدلائل لا يدركها إلاّ الذين يتعرّفون إلى الله تعالى فيما خلقه لهم.

- **وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (14) :**

وهذه في وجه آخر من وجوه الإنعام، وهي كثيرة ومتنوّعة كما سبق ذكره. والمعنى: وهو تعالى الذي خلق لكم البحر لتنتفعوا بما خلق فيه من الحيتان لتأكلوها طيّبة، وخلق في باطنه كنوزا لكم من الدرر، والمرجان لتتزيّن بها نساؤكم، وتتحلّى بها، وترى – أيّها الإنسان – السفن الخشبية، صغيرة كانت أو كبيرة، تجري على سطحه ولا تغرق رغم عمق مائه، وتراها تشقّ أمواجه، وذلك لتيسير أسفاركم على البحر، ولتنقلوا تجارتكم عبر سفنكم للمدن الساحلية لتملكوا الثروات، ولتتبادلوا النِّعم والخيرات. كلّ هذه النّعم، وكلّ هذا التّسخير لمخلوقات الله العظيمة التي جُعِلَت مطاوعة لكم لتنتفعوا بها نرشدكم إليها لتعرفوا بها ومنها فضل ربّكم الواحد عليكم لتشكروه ولتخصّوه وحده بالعبادة والطاعة والتّقديس، ولتجتنبوا الضلالة في عبادة ما لم يخلق لكم شيئا، والذي لا ينفعكم بشيء.

- **وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (15) وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ (16) :**

وهو تعالى الذي خلق الجبال لتحفظ الأرض من الميل والاضطراب، وجعل لكم الأنهار لشربكم وسقي الدوّاب وريّ الأرض وللصيد وللانتفاع بمياهها لصناعاتكم وبناءاتكم ولتلطّف أجواءكم لطهارتكم، وكثيرة هي منافعها، وجعل لكم في الأرض طرقات ممهّدة لأسفاركم ولسعيكم



في أعمالكم حتى تقصدوا من البلدان ما تشاؤون دون أن تضلّوا أو تتحيّروا في معرفة طرق رجوعكم إلى مساكنكم وقراكم. وجعل لكم معالم للطرق بالنّهار يقع الاهتداء بها، وإذا كان سفركم بالليل فإنّكم تهتدون بالنّجوم سواءٌ أكان سفركم برّا أم كان عبر البحر. وهذا من فضل الله تعالى عليكم.

- أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ **(17)**

هذه الآية في بيان الغاية من سرد آيات الخلق الّتي سبق ذكرها، وهي في دلائل وجود الله عزّ وجلّ، ووحدانيته في الخلق والإبداع والإنشاء. وهي في مظاهر الإنعام، والقدرة، وفي إثبات ألوهيته لتخصيصه وحده تعالى بالعبادة والذكر والطاعة والدعاء.

والمعنى: فأيّ شيء خلقته آلهتكم الّتي تعبدون، فإن لم تكن قد خلقت لكم شيئا ومادامت لا تنفعكم بشيء فَلِمَ تتّخذونها آلهة لكم؟ أتجعلون من يخلق كمن لا يخلق في المنزلة. أفلا تتدبّرون وتعقلون وترشدون لتعرفوا الأصلح لكم. والاستفهام في(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) للتوبيخ على تعطيل العقل عن الفهم، والبصيرة عن النظر، وللتوبيخ عن اِستبدال الهدى بالضلالة وقد جاءهم رسول ليهديهم بأمرٍ من ربّهم للرشاد فشاقّوه وكذّبوه، وجاءهم كتاب من عند الله تعالى هدى وبُشرى للمؤمنين فأعرضوا عنه وأصمّوا آذانهم وكذّبوا به.

يدلّ الاستفهام هنا على عدم المساواة. والمعنى: أفمن يخلق تلك الأشياء التي ذكرت كمن لا يقدر على فعل شيء، هل يُعقل أن تقوم مقارنة بين فاعل ومن لا يفعل شيئا وأنتم ترون أنّ ما تعبدون هي جمادات من صنع أيديكم وليس لها فهم ولا قدرة ولا اختيار، فكيف تقدمون على عبادتها وكيف تجيزون لأنفسكم الاشتغال بخدمتها؟ وكيف تتوجهون إليها بدعائكم وهداياكم؟ قال تعالى (وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا)(الفرقان الآية 3). (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) هذا الاستفهام إنكاري لأنّه من سوءِ التقدير والتفكير أن يُعبد إلاه آخر غير الخالق المنعم، وهو استفهام للتوبيخ والتقريع بسبب تعطيل العقل لانتفاء وجود وجوه للمقارنة أو التسوية.

- وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ **(18)** :

وإن أردتم أن تحصوا نِعَمَ الله عليكم فلن تطيقوا عدّها، ولن تبلغوا ذكر جميعها لكثرتها، فقد أنعم عليكم في ذاتكم بنعم الوجود، والسمع، والبصر، والعقل، والإحساس، والفهم والإدراك، واِبتغاء الرّزق بما أوتيتم من قوة وجوارح وذكاء ومهارة وإلهام للإبداع، واِبتغاء الزّوج والسّكَنِ وإنجاب الذرية لأنسكم ولرفع ذكركم ولتجدوا القائم عليكم عند ضعفكم ومرضكم، وغير ذلك ممّا تنتفعون به من خيرات الأرض ببحرها وجوّها وبساطها، فكيف تبتغون غيره إلاها، وليس له أيّ فضل عليكم. إنّ الله تعالى غفور لمن علم ضلاله فعدل عنه إلى الحقّ، فنبذ الشرك وآمن بالله



وحده، وهو تعالى رحيم بعباده المؤمنين لا يعاقبهم ولا يؤاخذهم عمّا كانوا يفعلون قبل توبتهم وطلبهم العفو والمغفرة يوم يقومون للحساب، فالإسلام يَجُبُّ ما قبله، والحمد لله ربّ العالمين على نعمة الإيمان والإسلام.

- وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ (19) :

هذه في سعة علم الله تعالى بما يفعل كلّ إنسان في سرّه أو علانيته، وبما يقول في نفسه وفي باطنه، وفيما يجهر به، وهذا ليطمئنّ العبد المؤمن بأنّ الله تعالى قريب منه يسمعه ويجيبه لما يطلبه، وبأنّه تعالى عليم بما في نفسه من رغبات، ولتصفو نفسه ويسلم قلبه من الشّرك فيكون صادقا في إيمانه مخلصا في عبادته. وحينما يكون الخطاب في صيغة المخاطبين الجمع فإنّه يكون موجّها للمؤمنين غالبا، ذلك لأنّ الكلام الذي يوجّه لغير المؤمنين يأتي في صيغة الجمع للغائبين لبُعدهم عن ربّهم.

- وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ (20) أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ (21) :

إنّ كلّ ما يُعبد من دون الله تعالى لا قدرة له على خلق أيّ شيء؟ هي أصنام صُنِعت بأيديكم من موادّ خلقها الله لكم. هي حجارة لا تسمع، ولا تعِي، ولا تبصر، ولا تُجيب، هي جمادات لا حياة فيها. (وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ) وهذه الأصنام لا تدري متى يُبعث عبدتها، ومتى تقوم الساعة، فكيف ستكون شافعة لعَبَدَتِها بين يدي الله تعالى كما يدّعي الذين يقدّسونها ويأملون أن تكون شافعة لهم.

- إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ (22) :

وهذا هو القول الفصل في اِستحقاق الألوهية. الله الحقّ الحقيق بعبادة جميع الخلق إيّاه، والذي يستحقّ شكرهم على فضله ونعمه عليهم هو الله تعالى وهو إلاه واحد، لا شريك له، ولا نِدَّ له، فالذين لا يصدّقون بيوم القيامة، وبالبعث، وبالحساب هم الذين ينكرون الوحدانية، ويتعالون جهلا وعنادا عن الإيمان بالبعث.

- لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ (23) :

هذه في تحذير (ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ) وها هنا هم المعاندون، المتكبّرون عن الإيمان بالبعث، ذلك لأنّ هذه الآية تابعة للآية السابقة التي تحدّثت عن القلوب المنكرة للبعث، وهم مستكبرون. وقوله تعالى (لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ) فيه وعيد شديد لهؤلاء، لأنّ الذي لا يحبّه الله لا يُرْحم، ومن يحرمْ من رحمة الله تعالى يُعَذَّب. والمعنى: لاشكّ في أنّ الله مطّلع على سرائر المكذّبين بالبعث والذين



يرفضون التصديق به، ويسمع ما يجهرون به من الاستهزاء بيوم الدّين (وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ) (الواقعة الآيتان 47 و48)

- وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (24) :

وهذه في اِستخفاف المستكبرين بالتنزيل وبالوعيد، فإذا سئلوا عمّا جاءهم من الوعيد في إصابتهم بما أصيب أسلافهم من المكذّبين من أهل القُرى السابقين المُهلكين، قالوا: ما ذاك إلاّ من خرافات السابقين ومن أباطيلهم وحكايتهم.

- لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ (25) :

ذَرْهم وما يقولون، فسيأتون يوم القيامة مُثقلين بآثامهم وذنوبهم كلّها، مع شيء من آثام وذنوب من أثّروا فيهم من أتباعهم ليكونوا أمثالهم من الكافرين، ومن أنصارهم في الهزء بالوعيد والتكذيب بالبعث والحساب مستغلّين جهلهم وبساطة عقولهم وقلّة وَعيهم وفهمِهم. ألا ما أثقل ما يحملون من الذنوب والآثام، وما أسوأ عاقبتهم!

- قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (26) :

هذه في تهديد الذين يقولون في التّنزيل: أساطير الأولين، هذا القول من الكفر بالوحي ومن التّكذيب بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وهذا هو مكرهم. مثل هذا الكفر كفر الذين من قبلهم، فأبطل الله تعالى مكرهم بأن أهلكهم بتدمير بيوتهم على رؤوسهم، دكّ أعمدتها وأسقط عليهم سُقُفَها فردَمَهُم تحت الأنقاض، وكذا هلكوا بغتة في زمن وفي وضعية سكنية مريحة لم يكونوا يشعرون بأنّ العذاب يأتيهم في وقتها، ويقلب عليهم بيوتهم الحصينة.

- ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (27) :

ثمّ يوم القيامة يُعذَّبون العذاب الّذي يذلّهم، ويشعرهم بالمهانة، ويقال لهم: أين ما كنتم تدعون من الآلهة: شركاء الله في العبادة والطاعة، الذين كنتم تُعادُون الأنبياء ورسل الله من أجلهم ونصرةً لهم. وقال المؤمنون العقلاء والذين انتفعوا بالعلم الذي جاءهم به رسل الله إنّ المذلّة والإهانة والعذاب واقعٌ اليوم على الكافرين.

- ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (28) فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ (29) :



الآيتان في سوء عاقبة المشركين: فحين يحضرهم الأجل وتنزل ملائكة قبض الأرواح لتتوفّاهم – وهم على شركهم وكفرهم – يظهرون الاستسلام والخضوع، وحينها يقولون حين يسألون عن أعمالهم: ما كنّا نأتي المعاصي، وهذا من كذبهم، وادّعائهم الباطل، وتردّ عليهم الملائكة إنّ الله عليم، بما كنتم تعملون، ومحصيه. ويوم القيامة عند الحساب يقضي فيهم بإدخالهم جهنّم من أبوابها السبعة – كلٌّ على قدر ذنوبهم وآثامهم ومعاصيهم، ليقيموا فيها إقامة دائمة، وما أسوأها من إقامة للمتكبّرين على الإيمان بوحدانية الله.

- وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ (30) :

وحينما يُسأل المتّقون عن ما نزل من عند الله تعالى من الوحي، يقولون: نزل ما يُبَشِّر بالخير. يَعِدُ الله عباده المحسنين في طاعاتهم له عزّ وجلّ والذين صدقوا في إيمانهم بأن يهبَهُم الرّزق الكريم في الدنيا. ويحفَظهم في آخرتهم من العذاب، ويعِدُهُم بأن يكون وضعُهم في آخرتهم أحسن ممّا كانوا عليه في دنياهم، وستكون إقامتهم فيها حسنة. وما أجمل مأوى المتّقين في آخرتهم!

- جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ (31) ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (32) :

إقامتهم في آخرتهم في بساتين جميلة المنظر يقيمون فيها إقامة دائمة، لهم فيها كلّ ما يشتهون، وكلّ ما يطلبون من الثّمر، وهكذا يكون جزاء الذين يخافون الله تعالى ويطيعونه. هؤلاء حينما تحضرهم الملائكة لقبض أرواحهم يلقونهم بالسلام، وذلك لأنّهم كانوا (طَيِّبِينَ) أي طاهرين من دنس الشّرك والمعاصي، وكانوا يعملون الصالحات، وحين تقوم الساعة، ويتقدّمون للحساب تتفتّح لهم أبواب جنّة الجزاء والثواب ويقال لهم أُدخلوها جزاءً بما كنتم تعملون من الطاعات.

وهذه الآيات في وعد المتّقين جاءت بعد وعيد المكذّبين الكافرين، على عادة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد.

- هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ (33) فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (34) :

والآيتان في تهديد المستهزئين بالوعيد، والمعنى: هل ينتظرون إلاّ أن تأتيهم الملائكة بالعذاب لأنّ الملائكة لا تنزل إلاّ بالعذاب – أو هم ينتظرون يوم الحشر ليؤمنوا بصدق الوعيد. لقد



اِستهزأ من كان قبلهم من الكافرين بالوعيد فأهلكهم الله تعالى، وما ظلمهم الله جلّ وعلا ولكنّهم هم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والاستهزاء برسلهم وبالوعيد. لقد نالوا ما يستحقّون على أعمالهم، وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستخفّون به، ويشكّون في وقوعه، ويتندّرون به من إنكارهم له.

- وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ (35) :

بعد الردّ على المشركين في طعنهم في التّنزيل، والردّ عليهم في شبهة استبطاء نزول ملائكة العذاب عليهم من تكذيبهم بالوعيد جاءت هذه في الردّ على الشّبهة الثالثة في شأن فَهْمهم لمشيئة الله تعالى. قالوا لو أراد الله تعالى ما عبدنا هذه الأصنام من دونه – نحن ولا آباؤنا – إلاّ أنّ الله قد رضي عبادتنا لها، وإنّنا لم نحرّم على أنفسنا شيئا من الطعام لو لم يرضَه لنا، كذلك قال سَلَفُهم من المشركين من الأمم السالفة، فهل كان إرسال الرّسل إلاّ لإبلاغهم بباطل ما يفعلون، ولبيان الحقّ، وهدي النّاس لسواء السبيل، ولكنّهم شاقّوهم وكذّبوهم، ولم يستهدوا للصواب عنادا.

- وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ (36) :

لقد أرسلنا في كلّ أمّة من المشركين على مدى القرون رسولا ليدعوهم لعبادة الله تعالى وحده، ونبذ الشّرك، ولقد دُعُوا للابتعاد عن عبادة الأصنام وكلّ معبودٍ لهم سوى الله جلّ وعلا وتَرْكه، فمنهم من وَفَّقَهُ الله للاهتداء للإيمان، وللعمل بالطاعات والصالحات، واِجتناب المعاصي، ومنهم من وجبت عليه الضلالة لعناده واِستكباره عن الاهتداء للحقّ والصواب. سِيحُوا في الأرض، وجولوا فيها فسترون آثار أقوامٍ هلكوا بالدمار لأنّهم كانوا كافرين لتعرفوا عاقبة معصية الله، والتّكذيب بالرسول، وعاقبة الاستهزاء بالوعيد، وللاعتبار.

- إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (37) :

هذه لتسلية النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم حتى لا يضيق كثيرا بإعراض قومه عن الاستجابة لدعوته. والمعنى: إن تجتهد ببذل كلّ جهدك في إقناع المعاندين المصرّين على الكفر فإنّ من أصرّ على ضلالته لا يستطيع هادٍ أن يهديه، ولن يكون للكافرين المعاندين المصرّين على شركهم في آخرتهم من ينقذهم من عذاب الله تعالى وينجيهم منه.

- وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (38) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ(39) :



وهاتان في الرّدّ على شبهتهم الرّابعة: إنكار البعث، والمعنى: وأقسم المشركون بما يعتبرونها أيمانا مغلّظة وموثوقة، أيمانا لا يخلفونها إذا حلفوا بها، بأنّ الله سبحانه لا يبعث من يموت، لاستحالة وقوع البعث عندهم. وجاء الرّدّ على شبهتهم هذه بتأكيد حصوله لأنّه وعد إلاهي، وهو أمر ثابت وقوعه حقّا، وبلاشكّ، ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون حكمة وجوب حصوله، ولأنّهم لا يدركون عظيم قدرة الله تعالى. وستكشف يوم القيامة حقيقة حصوله، وسيوقن يومئذ المكذّبون أنّهم كانوا خاطئين في إنكاره، وسيعرفون عندئذ عاقبة إنكارهم.

- إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (40) :

إنّ الله تعالى لا يعجزه بعث الأموات من قبورهم، لا يُعجز الله تعالى أيّ شيء، فإنّه تعالى إذا قضى أن يخلق شيئا ويُوجِدَهُ فإنّه يقول له كُن فيكون ما يشاؤه وما يريده، أمره يقضى بين حرفَي : الكاف والنون : كُنْ.

- وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (41) ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42) :

الآيتان في فضيلة المهاجرين وفي بعض صفاتهم، وذلك ترغيبا في الهجرة من دار الكفر حفاظا على دينهم إلى دار يجدون فيها أمنهم عند أداء واجباتهم الدينية وممارسة عقيدتهم السليمة. والذين هاجروا حفاظا على سلامة معتقدهم بالتوحيد من بعد تعرّضهم للأذى من المشركين لنسكنّنهم مساكن صالحة، ولنرزقنّهم رزقا حسنا في دنياهم، وسيكون ثوابهم عن أعمالهم وطاعاتهم أعظم ممّا يلاقونه في دنياهم، وسيكون أدوم وأحسن. (لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ) هذه الجملة موجّهة للمشركين المكذّبين بما جاءهم رسولهم، فلو كانوا يعلمون ما سيلقون من عذاب الله، ولو كانوا يعلمون ما سيلقى المؤمنون المهاجرون من الأجر لانتهوا عن شركهم، وفضّلوا عليه اِتّباع الرّسول فيما يدعوهم إليه. والمهاجرون مكرمون عند الله تعالى لأنّهم صبروا على إيذاية المشركين من صدق إيمانهم، ثمّ غادروا بلادهم وديارهم هجرة بدينهم، وتوكّلوا على الله واعتمدوا عليه في أن يجدوا ملاذا حسنا لهم ليجدوا فيه أمنهم وسلامتهم من الأذى.

- وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43) بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44):

وها هنا في ردّ الشّبهة عن الوحي، فقد كان المشركون يكذّبون بالوحي وبالرسالة. وفي الآيتين تسلية للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتى لا يتأثّر بما يتّهمه به المكذّبون. والمعنى: وما أرسلنا من قبلك – يا محمد – من رسول إلاّ كان رجلا من جنس البشر، وكان يوحى إليه بأوامر ربّه، فاسألوا العلماء الذين لهم علم باللاهوت وبالديانات إن لم يكن لكم علم بالتوراة والإنجيل



و(بالبيّنات) أي الأحكام الشرعية. (وَٱلزُّبُرِ) وبكُتب الشرائع والتّكاليف والتّسابيح. (وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ) أي وأنزلنا إليك – يا محمد – القرآن لتوضّح للنّاس أحكام الله تعالى ومواعظه، وعساهم يتدبّرون ما نزّل عليهم ليعرفوا ربّهم فيؤمنوا به، ويعرفوا فضائله فيشكروا له.

- أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ (45) أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ (46) أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ (47) :

هذه في تهديد الذين يؤذون المؤمنين ليردوهم عن دين التّوحيد إلى الشّرك. والمعنى: أيحسب هؤلاء الذين يَفْتِنُون المسلمين عن دينهم، ويدبّرون لهم المكائد ليؤذوهم آمنين من عقاب الله عزّ وجلّ بعذاب الخسف الذي يزلزل بهم الأرض ويردمهم تحت الأنقاض من حيث لا يشعرون حتى يأخذهم بغتَةً، وعلى غرّة، أو يعاقبهم بعذاب الهلاك في سفرهم للتجارة برّا أو بحرا، فلا يفلتون منه، ولا هم يُنقذون، فالله قادر عليهم، ولا يعجزونه، أو يعاقبهم عقابا نفسيا فيهلكهم بعذاب الشعور الدائم بالخوف من الهلاك بدنيّا، أو بالخوف بذهاب مالهم أو بصحتهم. وقد جاء في الحديث الشريف عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قوله: "نُصرتُ بالرّعب". (فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ) هذه الجملة موجّهة للمؤمنين ليأمنوا مكر الماكرين من الكافرين، فإنّ الله سبحانه يبشّرهم بأنّه رؤوف بهم وذلك بحمايتهم من أعدائهم، ورحيم بهم فلا يعذّبهم.

- أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ(48) :

هذه للتّرغيب في الخضوع لله تعالى والسجود له. والمعنى: أولا يلاحظون أنّ كلّ ما خلق الله سبحانه ممّا يميل ظلّه معه يمينا وشمالا مع ميل الشمس من الشروق إلى الغروب، كلّ ما له ظلّ يسجد لله تعالى، وهو خاضع ومنقاد كانقياد الظلّ لصاحبه.

- وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ (50) :

ولله يسجد خاضعا وطائعا ومنقادا كلُّ ما خلق الله في السماوات وما في الأرض من دابّة، والملائكة يسجدون لله تعالى جميعهم دون اِستثناء في خضوع وخشوع وطاعة لأمر الله تعالى دون اِستكبار، والدوابّ الساجدون لله تعالى والملائكة جميعهم يخافون ربّهم، فلا يعصون أمره، ويطيعونه في كلّ أمرٍ أُمروا به.

- وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ (51) :



هذه في الرّدّ على شبهة القائلين بوجود إلاه للخير، وإلاه للشرّ، يعبدون إلاه الخير ليمنحهم الخصب والسعادة والخيرات، ويعبدون إلاه الشرّ حتى يأمنوا اِنتقامه ومكائده. والمعنى: الألوهية لله وحده – كذا قال الله تعالى – لا تكون الألوهية بالشراكة. تقسّم وتوزّع بين اِثنين أو أكثر، إنّما الله الخالق الحقيق بالعبادة والطاعة إلاه واحد. فخافوا الله الأحد، ولا تخافوا غيره، ولا تطيعوا أحدا غيره، خصّوه وحده بالخوف والرهبة منه.

- وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ (52) :

الله الواحد الذي أمرتم بعبادته الذي يملك ما في السماوات وما في الأرض، وليس لأحد غيره ملكية لشيء فيهما. وله سبحانه الدّين الذي يقوم على طاعته بحسب ما أمر، وشرّع، الدين لا يكون إلاّ له (وَاصِبًا) أي دائما، وثابتا، ولازما، فعلى الإنسان أن يطيعه دائما. (أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ) هذه في توبيخ كلّ من يخشى غيره من الآلهة التي لا تستحقّ الخشية، ولا الخوف منها، لأنّها لا تقدِر لأيّ مخلوق على شيء.

- وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ (53) :

وهو تعالى المنعم عليك بكلّ نعمة من مثل نعمة الوجود والحياة، ونعمة القدرة على العمل والكسب وكلّ نعمة تنعم بها في حياتك، فإنّها منه وحده. وحين يصاب المرء بضرّ في صحته أو كسبه أو غَلَبَةٍ فإنّه لا يَضُجُّ بالاستغاثة والتضرّع والدعاء إلاّ إليه وحده، وينسى ما كان يدعوه من قبلُ، لأنّه يعلم أنّ القدرة بيد الله وحده سبحانه.

- ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ (54) :

ثمّ حين تحفّ ألطاف الله بالذين تضرّعوا إليه، ويرفع عنهم ما كانوا عليه من ضرٍّ، وسوء الحال إذا فريق منهم بعد ذلك ينسَوْن فضل ربّهم عليهم، ويعودون لشركهم من غفلتهم.

- لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ (55) :

يعودون لشركهم ليكفروا بما آتاهم الله من النّعم، ومن كشف الضرّ عنهم، وذلك بتوجيه شكرهم لآلهتهم المزعومة، وبما يظنّون أنّها كانت لهم منقذا ونصيرا. (فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ) هذه في الإمهال، وفي الوعيد معا، بمعنى فانعموا بحياتكم، وبما أوتيتم من الخيرات والنّعم، وسوف تعلمون ما كنتم عليه من غفلة وجحود وضلالة حينما ترجعون إلى الله تعالى للحساب.

- وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ (56) :

وبعد كشف الضرّ عنهم بلطفٍ من الله تعالى يقدّمون القرابين، أو الصدقات لآلهتهم المزعومة التي لا وجود لها، يجعلون لها حظّا ونصيبا ممّا رزقهم الله تعالى من النّعم. (تَٱللَّهِ



لَتُسۡـَٔلُنَّ) قسمٌ مؤكّد بأنّهم سيسألون عن ادّعائهم الباطل وعن اِفترائهم على الله بادّعاء شركاء له يوم الحساب، ومن يسأل يُعذّب.

- وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ (57) :

هؤلاء المشركون ينسبون لله تعالى ذرّيّة إناثا من سراة الجنّ، وهو ادّعاء كاذب وباطل، تنزّه تعالى عمّا ينسبون إليه من اِتّخاذ الصاحبة والولد، ومن غريب أمرهم أنّهم يفخرون بإنجاب الذكور من البنين، ويكرهون إنجاب الإناث، وتراهم ينسبون لله تعالى ما يكرهون، وينسبون لأنفسهم ما يحبّون وما يفخرون به، وهذه شبهة أخرى من شبهاتهم وجاءت هذه الآية إلى الآية 62 في الردّ على هذه الشّبهة.

- وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ (58) يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ (59) :

هذا الذي ينسب لله تعالى الإناث – سبحانه وتعالى عمّا يصف – هو الذي إذا بشّر بمولودة أنثى من زوجه اغتمّ واِكتأب، واِسودّ وجهه من الهمّ بسبب ما بشّر به كراهة لإنجاب البنت، واِمتلأت نفسه غيظا لا يستطيع له ردّا ولا تصريفا، ويتخفّى من القوم حتى لا يعيّروه بمولودته ويتملكّه التفكير في أيّ سبيل يتّخذه مع هذا السوء الذي بُشّر به: أيتركه حيّا رغم شعوره بالمذلّة والمهانة، أو يأخذه ليخفيه في التراب ويردمه حيّا. (أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ) ألا ما أسوأ توزيعهم، وما أقبح اِختيارهم حين ينسبون لله تعالى الأنثى التي يكرهون إنجابها!

- لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (60) :

(لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ) هذه صفة للمشركين لا يصدّقون بالبعث ولا بيوم القيامة، ولا بالحساب في الآخرة، هؤلاء لهم الصفة القبيحة من جهلهم وغفلتهم وكفرهم ومن اِفترائهم.

ولله سبحانه الصفات الحسنى، وهو الغنيّ عن الصاحبة والولد، وهو العزيز الذي لا يغلب والرفيع في منزلته، وهو الحكيم في تدبيره وتصريف شؤون خلقه، وفي إرشادهم لما ينفعهم.

- وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ (61) :

هذه في فضيلة الإمهال، والمعنى: لو يؤاخذ الله النّاس بمعاصيهم لأهلكهم جميعا، وأهلك ما يحتاجون إليه من الأنعام، ولكنّه تعالى قضى أن يمهلهم، وأن يؤخّر عذابهم حتّى تقوم السّاعة، ويحضروا للحساب، وقضى أن يتركهم يحْيَوْن لحياتهم المقدّرة لهم حتّى إذا حضرت آجالُهم، فلا أحدَ يُؤَخَّرُ عن ساعته إذا حضرت، ولا يموت قبل الأجل الذي حُدِّد له لحياته.



• وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ (62) :

هؤلاء الذين ينسبون لله سبحانه البنات، يجعلون لله تعالى الجنس الذي يكرهون من البنين، ويقولون بألسنتهم الكذب بأنّ لهم الذكور من البنين، وبذلك يفتخرون، لاشكّ بأنّ مصيرهم سيكون بالتّعجيل لهم بالعذاب في النّار.

• تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ(63) :

قسما باللهالحقّ لقد أرسلنا إلى أمم كثيرة من قبلك يا محمد فأغراهم الشيطان، وزيّن لهم تكذيبهم، والتمادي في كفرهم، وفي معاصيهم، فالشيطان نصيرهم يوم القيامة إن كان قادرا على أن يكون لهم نصيرا، وسيعذّبون يومئذ بالعذاب الموجع. وهذه لتسلية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم.

• وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (64):

وما أنزلنا عليك القرآن إلاّ لتوضّح لهم ما أشكل عليهم في دين الله تعالى، ولتعرّفهم بالحقّ والصواب، وإنّه كتاب إرشاد وموعظة ورحمة للمؤمنين لأنّه ينقذهم من ضلالاتهم، ويقيمهم على الصراط الذي يبلّغهم الفوز بالنّعيم، وينقذهم من الهلاك والعذاب. وهذه الآية في فضيلة القرآن والرسالة.

• وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ (65) :

عودة مع هذه الآية والآيات الموالية إلى الآية 81 في التّعريف بجملة من إنعام الله تعالى على خلقه لينعموا بوجودهم وحياتهم. والمعنى: والله أنزل من السماء ماء ليحيي به الأرض الجدباء ولتصبح أرضا منتجة تخصب لكم الزّرع والثّمر والعشب والخير. إنّ في هذا التّذكير دليلا على فضل الله تعالى على خلقه يَعْقله الذين يحسنون السّمع لما يُقْرأ عليهم ويحسنون فهمه وإدراك منفعته.

• وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ(66) :

وإنّ لكم – أيّها النّاس – في الأنعام دلائل على قدرة الله، وعلى فضله على خلقه، نسقيكم لَبَنًا (خَالِصًا) أي سليما من رائحة الدم ولونه، وسليما من الفضلات الموجودة في الكرش، وهو الخارج من بطونها من بين (فَرْثٍ) فضلات الطعام، ودم. وهو لَبَنٌ سائغ للشاربين، أي سهلٌ للشّرب، ومرغوب فيه، لا يَغُصُّ به شاربُه، فاذكروا نعمة ربّكم عليكم وأنتم تشربونه لذيذا ومغذّيا.



- **وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرًا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ (67) :**

ولكم فيما تأكلون من إنتاج النّخيل من ثمره، ومن ثمر الأعناب دليل على فضل الله عليكم لمن يعقله بحسن التّدبّر والإدراك. وإنّكم تنعمون بهذه الثّمرات في تجارتكم، فتدرّ عليكم رزقا حسنا، وتعصرون منها ما تشربون، وما تحوّلون من هذا العصير خمرا مسكرا، وهو شراب محرّم على المؤمن شربُه. ويستشهد بعض الذين يَفْتُونَ لأنفسهم فتاوى بغير علم، ولا نصّ واضح، بهذه الآية ليُحِلَّ لنفسه، ولأمثاله شرب المسكر من غير ثمرات النّخيل والأعناب بعد تخميره، وهو اِستشهاد باطل، وقياس باطل لا يقوله إلاّ من زيّن له الشيطان عمله.

- **وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ (68) :**

هذه من آيات حسن الخلق، وعظيم الفضل، وحكمة التقدير ودقّته. فالإنسان حين يحاول التّعمّق في دراسة نظام عمل هذا المخلوق العجيب: النّحل، فإنّه سيعجب من دقّة اِنضباطه في توقيت خروجه لمرعاه، وفي دقّة اِنضباطه في توقيت عودته للمنحلة. لا تتأخّر نحلة عن العودة قبل غروب الشمس. وحين يتأمّل بعين البصيرة في دقّة هندسة بناء المنحلة، فإنّ عجبه سيكون أكبر. وفي حياة النّحل داخل المنحلة، ونظام علاقته بالملكة أسرار أخرى. وأعجب من كلّ هذا المصنع البديع الذي أودعه الله فيه ليحوّل الرّحيق المرّ إلى عسل حلو المذاق، فيه شفاء للنّاس. ما أعجبه من مصنع في حجم بطن نحلة! يدخل الطعام المرّ إليه ثم يخرج منه عبر الفم حُلْوًا عسلا مصفّى!! ماذا في بطن النّحلة من مادّة لتقوم بهذا التّحويل العجيب الذي لا تأتيه أيّ مادة كيماوية من إبداعات الإنسان؟ أليس هذا من القدرة الرّبانية الإعجازيّة؟!

كلّ دارس لنظام حياة النّحل، في عمله، وفي إنتاجه للعسل، وفي بديع صنعه لمنحلته، وفي اِنضباطه لخدمة الملكة، ولأحكام العسس من ذكوره (الدبابير) يتوقّف على الكثير من عجائب حكمة الله تعالى في خلق هذا المخلوق العجيب، ولا يمتلك إلاّ أن يقول : سبحان الله العظيم فيما خلق! ما أبدعه!

ولعلّ هذا من بعض معاني (وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ)، فالوحي هنا ليس بمعنى إلقاء الكلام والأوامر، وإنّما هو أمره (كُن) فكان هذا المخلوق العجيب على ما أراده الله تعالى له ليكون للإنسان دليلا على عظيم قدرة الله تعالى في الخلق، وحسن تدبيره في أضعف خلقه ممّا يُصَنَّفُ عند البشر: حشرة. وجعله الله تعالى نافعا للبشر ليؤتيهم منها عسلا مصفّى فيه شفاء لهم ليعرفوا فضله تعالى عليهم، وليعرفوا أنّ الله تعالى خلق لهم "النّحل" وسخّره لفائدتهم لينعموا بلذيذ الطعام وأطيّبه عساهم يشكرون له جلّ وعلا. أليس هذا من إنعام الله تعالى على النّاس؟



وممّا يُعْتَبَرُ به من حياة النّحل أنّ ما يدخل لبطن النّحل من رحيق الزّهور مرّ المذاق، ولكنّه يخرج منها وعلى رائحة الزّهر الممتصّ حلوًا، يخرج من لُعابها العسل. والإنسان يأكل كلّ ما هو طيّب المذاق ولذيذ، ويخرج من لسانه أحيانا كثيرة ما هو فاسد ونتن من مثل كلمة الكفر، أو كلمة الفحش، أو الكذب، أو الهزء، ولا يرطّب لسانه بالذّكر وبالكلمة الطيّبة (لا إلاه إلا الله) أو بكلمة الشكر (الحمد لله)، أو كلمة التّنزيه (سبحان الله)، أو بالكلمة التي تجمع ولا تفرّق... فهلاّ تدبّر الإنسان ممّا يخرج من فم النّحلة حتى لا يُخْرِج من فمه إلاّ ما هو طيّب وحسن...

ومعنى الآية: وألهم الله تعالى النّحل، وفطَرَها على أن تصنع بيوتها في الجبال، وفي أعالي الأشجار الغابية الباسقة، وممّا يجعله النّاس لأشجار الكرم والأعناب لتتسلّق أغصانها، وذلك لتكون آمنة في عملها وإنتاجها للعسل، وحتّى لا تؤذي أحدا من النّاس، أو يتأذّى منها واحد منهم.

- ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69) :

ثمّ بعد بناء المنحلة بعيدا عن أيدي العباد، وعن مبانيهم، ومراكز أنشطتهم اِسرحي في كلّ الثمرات وتناولي منها غذاءك، واِرتعي في كلّ الطرق التي هيّأها الله لك. يخرج من بطون النّحل عسل متنوّع المذاق، فيه الكثير من المنافع الصحيّة للنّاس. إنّ في خلق النّحل، وفي نظام تأسيس بيته، وفي رعيه، وفي ما ينتجه لينفع به النّاس دليلاً لمن يتفكّر في خلق الله تعالى فيعرف به حسنَ إبداع الله تعالى، وحسن خلقه، وعظيم تقديره للإنعام على النّاس.

- وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70) :

هذه في دليل القدرة والفضل على الإنسان. فالله تعالى هو الذي خلق الإنسان وأوجده من العدم في زمن هو الذي حدّده، ومن والدين هو تعالى الذي اِختارهما له، فهو صاحب الفضل عليه في إيجاده وإحيائه، ولم يخلقه غيره، ولو لم يخلُقْه الله ما كان أحد غيره بقادر على خلقه، فليذكر الإنسان فضل ربّه عليه بأن يحمده إذ خلقه فسوّاه وعدّله في أحسن صورة أنشأه، وليسأل نفسه هل له من خالق غيره؟

ثمّ بعد زمن – حين يقضي المدّة التي حدّدها له الله تعالى لوجوده وحياته – يتوفّاه الله تعالى في الأجل الذي حدّده لوفاته. وحين يتوفّاه الله لا أحد يستطيع أن يعيد إحياءه، ولا أحد يستطيع أن يمنع عنه الوفاة ولو كان طبيبا حاذقا، أو عظيما من حوله كهنة وأطباء.

كلّ إنسان في حياته ووجوده، وعند وفاته خاضع لإرادة الله تعالى وحده، وخاضع لقدرته، وللزّمن الذي حدّده له لظهوره، ولوفاته. ومعنى الوفاة: اِنقضاء زمن حياته: وقضى زمن وجوده وافيا.

ومن النّاس من يردّ إلى أرذل العمر. ومَنْ رُدَّ إلى أرذل العمر، كان للنّاس آية ودليلا على أنّ مَنْ توفّاه الله تعالى وهو في كامل قواه العقلية وفي صحّة بدنية سليمة فقد أكرمه الله تعالى، وخاصّة إذا كان هذا الإنسان من عباده المؤمنين. وقد كان من أدعية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم المروية عنه: اللّهم إنّي أسألك صحّة في إيمان". ذلك لأن الذي يردّ إلى أرذل العمر، وهو زمن الخَرَف، وما يُعبَّر عنه حديثا بالأزهايمر يفقد الكثير من آدميته، إذ يفقد الذاكرة، ومَلَكَة التّمييز: لا يفرّق أحيانا بين اللحم والسمك، ولا يعرف زوجه ولا أبناءه، ويعيش في الأوهام، ويفقد كلّ علم بمحيطه، ولو بمحيط بيته وأهله، ويتيه ويعجز عن الحراك، ويعرف كلّ من يحيط به على تلك الحال أنّ خلق الموت رحمة أحيانا بعباده المعذّبين في الأرض، وبالذين فقدوا جميع معاني الحياة ومعالم الوجود.

وحين يبلغ الوالدان: أحدهما أو كلاهما هذه المرحلة، فإنّ دلائل البرّ الحقيقي بالوالدين تظهر حينها، لأنّها مرحلة ثقيلة على أنفس المحيطين بهما، تتطلّب الكثير من الإنفاق، ومن الصبر لاحتمال اِعوجاجهما ولَغَطِهِمَا، ولاحتمال طول السهر، وقلّة النوم، ولامتلاك الأعصاب حتى لا يضجّ منهما، وتتطلّب المجاهدة والتضحية بالجُهد والوقت، ومراقبة حركاتهما، ولملاينتهما، ولإطعامهما، وكلّ هذا من المتاعب الشاقّة ولكنّ الأجر عن هذا العمل الصالح عظيم، وهو من أجلّ الأعمال الصالحة المأمور بها.

إنّ الله عليم بنشأة عباده، وعليم بآجالهم، وعليم بما يصلح لهم، وهو تعالى عظيم القدرة في الخلق والإنشاء، وعظيم القدرة في الأخذ، وفي تصريف أحوالهم، نسأل الله السلامة وحسن العاقبة.

- وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ **(71)** :

هذه في بيان أنّ رزق العباد بيد الله وحده، رزق الخلق ليس بيد الخلق، والمعنى: والله تعالى هو الذي قسم الأرزاق بين العباد، جعل منهم الأغنياء الأثرياء، وهؤلاء يُمْتَحَنُون فيما آتاهم الله من فضله، وفضلهم على غيرهم بوفرة النّعم، فإن أدّوا حقّها من الشكر ومن الإنفاق في الطاعات كانت لهم خيرا في دنياهم، وفي آخرتهم كذلك، وإن بطروا بها سُلِبت منهم أو عوقبوا على منعهم لأداء حقّ الله تعالى فيما آتاهم. والله يرزق المستضعفين من عباده: العبيد والمماليك يسوق إليهم طعامهم وشرابهم وكسوتهم، وييسّر لهم زواجهم وإنجاب الذريّة ولا يستطيع أسيادهم أن يمنعوا عنهم ما ساقه الله لهم من الرزق، فجميع الخلق يُرْزَقُون، ويحْيَوْن من رزق الله : الأسياد والعبيد

سواء. (أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ) إستفهام لتوبيخ من يُنكر فضل ربّه عليه، ويتوهّم أنّ ما رُزِق به هو من جهده ومن حسن تدبيره، كلاّ إنّ الله تعالى هو الرّزاق.

- وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ (72) :

ومن فضل الله على النّاس أن جعل لهم من أنفسهم: أي من أقربائهم وعشائرهم ومعارفهم أزواجا ليسكنوا إليهنّ، وجعل لهم منهنّ ذريّة، وأبناء من ذرّياتهم الذكور والإناث، ورزقهم من خيرات الأرض وممّا يصنعون، فمن رزقهم الذرية، ومن أنعم عليهم بالطيّبات؟ إنّه الله تعالى، فكيف يكفر بعضهم بفضل الله عليهم، ويقدّسون الأصنام وما يدّعون من الآلهة وهي لم تتفضّل عليهم بشيء، ولم ترزقهم بالطيّبات، وإنّ بعضهم يجعلون بعض الطيّبات حلالا، ويحرّمون على أنفسهم طيّبات أخرى من عند أنفسهم، فكيف يكفرون بنعمة الله عليهم؟

- وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ (73) :

هذه في تأنيب من يعبد من دون الله إلاها آخر، والمعنى: ما أشدّ سخف عقل من يعبد ما لا ينفعه بشيء من الرّزق، لا من السماء، ولا من الأرض، يعبد آلهة لا تستطيع أن تنفعه بشيء، ولا تقدر على نجدته إذا إستغاثها، ولا تملك أن تُجيبه لطلبه لعجزها ولأنّها لا تملك شيئا.

- فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (74) :

فلا تشبّهوا لله أشباها، ولا تجعلوا له أندادا. إنّ الله يعلم ما أنتم عليه، وما تحتاجون إليه لحياتكم ومعاشكم، ويعلم ما ستؤولون إليه، وأنتم لا تعلمون قدرة الله عليكم إذا عصيتموه.

- ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (75) :

هذا مثل لتقريب الصورة لأصحاب المدارك العقلية الضعيفة في الفهم ليعرفوا خطأهم في عبادة إلاه آخر غير الله تعالى. فالذي يعبد إلاها آخر غير الله تعالى كالذي يطلب العون من عبد مملوك لصاحبه، عاجز، مقعد لا يقدر على شيء، فهل يُعقل أن يُستعان بالعبد المملوك لصاحبه أو بالمخلوق العاجز عن فعل أيّ شيء؟ وإنّ أشدّ ما كان يكره العرب هذا الصنف من العبيد لأنّه عالة على سيّده، لا يُنْتَفَعُ منه بشيء. هل يستوي هذا العاجز مع المؤمن، مع مَنْ رزقه الله من لَدُنْه رزقا واسعا فهو ينفق منه بسخاء سرّا وعلانية؟ كلاّ لا يستويان. فلله الحمد إذ نَبَّهَ عباده لما ينفعهم، ولما يضرّهم بجميع أشكال الدلائل والأمثلة ليعرفوا طريقهم للصواب، ولكنّ أكثر الجاهلين المعاندين المعطِّلين عقولهم لا يعرفون ما يجب عليهم اِتّباعه.

- وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (76) :

وهذه الآية في ضرب المثل بِمَنْ يدعو للثبات على الشّرك، وبِمَنْ يدعو للإسلام. والمعنى: وضرب الله تعالى مثلا للنّاس ليميّزوا بين مَنْ ينفعهم في ما يدعوهم إليه، ومن لا يرشدهم إلى خير. فيدعوهم لعبادة إلاه أخرس خِلْقَةً، لا يتكلّم ولا يسمع ولا يُجيب ولا يَبِينُ، وهو عاجز مقعد، لا ينفع بشيء، وهو عبء وعالة على من يَعُوله ويتولّى أمره، أبْلَهُ، لا يفهم ما يُقال له، ولا يقدر على إحضار أيّ شيء يُطلب منه، وهذه صفات للأصنام المصنوعة من الحجر، والأوثان المنحوتة من الخشب. هل يستوي هذا الداعي هو ومن يأمر بالحقّ والعدل، ويسير على المنهج القويم والطريق السويّ الواضح الموصل للغرض المطلوب؟ والإجابة : كلاّ، لا يستويان.

- وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (77) :

هذه في تحذير المشركين والعصاة من أن تَبْغَتَهُم الساعة على ما هم عليه من الكفر والمعصية. والمعنى: وعند الله تعالى وحده خبر ما سيكون في السماوات والأرض من أحداث في مستقبل الأيّام، ولا أحد غيره يعلم ما سيحدث فيهما، علم ما سيكون فيها من اِختصاص الله وحده، ذلك لأنّ حرف اللام في (لِلَّهِ) يدلّ على الاختصاص. واِعلموا –أيّها النّاس– أنّ قيام الساعة للإذن بنهاية الحياة الدنيوية للتحوّل للحياة الأخروية تأتيكم بغتة كطرفة عين أو أسرع من ذلك، فيموت الخلق بصيحة وبنفخة في الصور. وهذا أمر غير معجزٍ لله تعالى، لأنّه سبحانه على ذلك قدير، فأعدّوا لذاك اليوم عدّته، ولا تغفلوا عنه بالتّمادي في المعاصي، أو الاغترار بالإمهال.

- وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (78) :

هذه مع الآيات الثلاث الموالية في بيان بعضٍ من مظاهر قدرة الله تعالى، ممّا جاء في قوله تعالى في الآية السابقة (إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ)، ولبيان جملة من مظاهر نِعَم الله على خلقه عساهم يؤمنون، ولا يشركون، وعساهم يذكرون نِعَم ربّهم عليهم فيشكرون له. والمعنى: والله خلقكم بقدرته، هو الذي نفخ فيكم من روحه لتخلقوا بشرا سوِيًا، وبقدرته ونعمته عليكم أخرجكم من بطون أمّهاتكم أحياء غير أموات، أخرجكم ضعافا لا تملكون لأنفسكم شيئا، ولا تعلمون شيئا من أمور الحياة ومن متطلّباتكم، وما كنتم تنطقون، وأنعم عليكم بالسمع لتتعلّموا ولتعقلوا، وأنعم عليكم بالأبصار لتنعموا بنعمة مشاهدة ما حولكم، وحتى لا تعيشوا حياتكم في ظلمة العمى،

وجعل لكم الأفئدة والعقول لتكونوا من أهل الوعي والمشاعر والأحاسيس، وعساكم تذكرون هذه الفضائل من ربّكم لتشكروا له بطاعته وحده.

- ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (79) :

ومن مظاهر القدرة الربانية أنّك ترى الطير – صغيره وكبيره – يطير في الفضاء بقدرة الله عزّ وجلّ، لا يمسكه أحد عند طيرانه في جوّ السماء وفي رحلته من بلد لآخر طلبا لرزقه. إنّ في حياة الطير بجميع أصنافه الكثير من المظاهر التي تُثير العجب العجاب ممّا يجعل المتابع لا يمتلك نفسه عن التسبيح لله في عجيب ما خلق. إنّك لتلاحظ الطير الصغير – العصفور – في شدّة البرد وقسوته يطير في جوّ السماء، أو يعيش في عُشّه يزقزق، في حين ترى الإنسان يحتمي في بيته متدثّرا تحت غطاء فراشه يرتعش من البرد، والآخر الذي لا يملك إلاّ ريشه، وفي عشّ مصنوع من خشاش الأرض وأضعف الأعشاب في أعالي الشجر يزقزق مبشّرا بانبلاج صبح يوم جديد، لا يرتجف من البرد. أليس في هذا وفي غيره من مظاهر خلقه ما يُثير اِنتباه الإنسان ليؤمن بعظيم القدرة الرّبانية. إنّ في كلّ ما يلاحظ الإنسان في حياة الطير، وفي سعيه لطعامه، وفي هندسته لبناء عشّه دلائل لذوي الألباب من المؤمنين يعرفون بها حكمة الله في ما خلق وحسن تدبيره.

- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (80) :

والله تعالى تفضّل عليكم بإلهامكم أسس بناء بيوتكم وكيفية إقامتها لتسكنوها، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تجدونها خفيفة الحمل لتنتقلوا بها يوم سفركم، وعند إقامتكم العَرَضِية، ومن أصواف الأغنام، وأوبار الإبل، وأشعار المعز تتّخذون أثاثا لحفظ الملابس، أو لتصنعوا منها فرشكم وأغطيتكم ودثاركم ولباسكم، ومنها ما تنتفعون به للتّجارة، وللصناعة، أو للمعاش إلى زمن معيّن.

- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (81) :

والله تعالى هو الذي جعل لكم ممّا خلقه لفائدتكم لتستظلّوا به للتّوقّي من حرّ الشمس، أو للاستراحة، وجعل لكم من الجبال مواضع: مغاراتٍ وكهوفًا لتسكنوا فيها، أو لتحتموا بها عند المخاطر، وجعل لكم ملابس تصنع من مواد صلبة من مثل الحديد لتقيكم من الضرب والطعن بالسلاح كالدروع، وهكذا ينعم عليكم بنِعَمٍ مختلفة تقيكم مخاوفكم، أو تزيّن بيوتكم، أو لتُرزَقُوا بها،



ولمنافع أخرى، وعساكم تتدبّرون هذه النِّعم: فتسلمون، وتكونون من الموحّدين لله تعالى، لا تشركون به أحدا.

- فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (82) :

هذه لتسلية النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم حتّى لا يحزن إذا أصرّ قومه على تكذيبه. والمعنى: فإن أعرضوا عن السماع لك – يا محمد – وعن الاستجابة لدعوتك، وعن تصديقك، فلا تأبَهْ بإعراضهم عنك ذلك لأنّ مهمّتك هي التّبليغ الواضح لما كلّفت بتبليغه إليهم من الوحي من كلام الله تعالى.

- يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ (83) :

(نِعْمَتَ ٱللَّهِ) في هذه الآية تعني نبوّة محمد، وصدق الوحي والرّسالة. والمعنى: إنّ قومك لا يُكْذِبونك، إنّهم يعرفون صدقك، ويعرفون أنّ ما تقرأه عليهم من كلام الله ليس من عندك، ولكنّهم ينكرون عليك ذلك من حسدهم، ومن عنادهم، ومن إصرارهم على شركهم، وعلى عاداتهم، وأكثرهم كافرون، لا يصدّقون بالتّوحيد.

- وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) :

وسيعرف الكافرون المعاندون من كلّ أمّة جاءها رسول فكذّبوه صدق ما جاءهم يوم يبعثون للحساب. يؤمئذ يؤتى بكلّ أمّة يتقدّمهم الشاهد عليهم، والشاهد على الأمّة هو نبيّهم ورسولهم، ولا يؤذن لمن كفر به وبرسالته أن يعتذر، أو أن يتوب، ولا هو يُسْتَعْتَبُ أي لا يُترك للرجوع إلى الدنيا ليَسْتَرْضِيَ ربّه بالتّوبة، وبالعمل بالتكاليف لأنّ الآخرة دار جزاء، وليست بدار العِتَاب، وليست بدار التّكليف.

- وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (85) :

وهذه في التّحذير من الوعيد. والمعنى: وحين يرى المشركون العذاب الذي ينتظرهم، وحين يدخلون جهنّم فإنّهم لا يُمْهَلُون، ولا تُقْبَلُ لهم توبة، ولا يخفّف عنهم ما وُعِدُوا به وهزؤوا منه.

- وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ (86) وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (87) :

ويوم البعث، وعند الحساب حين يرى المشركون شركاءهم من الشياطين والأصنام، والأوثان التي كانوا يعبدون ويقدّسون ويقدّمون لها قرابينهم يقولون: ربّنا هؤلاء الذين جعلناهم لك شركاء، يومئذ ينطق ما كانوا يعبدون بتكذيبهم، إذ لم يَطلبوا منهم عبادتهم، ولا أمرتهم بذلك. حينئذ يستسلم المشركون لقضاء الله تعالى وحُكْمِه الذي توَعَّدَهُمْ به، ويزول يومها ما زيّن لهم الشيطان



من الأمل في أن تكون آلهتُهم شافعةً لهم من العذاب، ويتكشّف لهم أنّ ظنّهم في أن تكون شفيعة لهم كان وهمًا باطلا وكاذبا.

- ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابًا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ (88)

هذه في وعيد المشركين الذين يمنعون النّاس عن الاستماع للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعن الدخول في الإسلام، هؤلاء توعدهم الله تعالى بتعذيبهم العذاب من سيّئه إلى الأسوأ، والأكثر إيلاما بسبب إفسادهم على النّاس دينهم، واتّباع الحقّ والهدى، وبسبب إفسادهم في الأرض بمعاصيهم.

- ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ (89) :

في كلّ أمّة يبعث الله تعالى شهيدا عليهم ليعلّمهم شرائع الله، قيل في هذا الشهيد بأنّه هو النّبيّ الذي يبلّغ قومه رسالة ربّهم، ويدعوهم إلى الإيمان والعمل الصالح، والأنبياء هم الشهداء على أممهم يوم القيامة، وقيل: في كلّ زمان شهيد وإن لم يكن نبيّا، وهو العالم الذي يحفظ الله به شرائع أنبيائه، وهذا يكون حجّة على أهل زمانه وشهيدًا عليهم، والله أعلم بمدى صحة هذا القول الثاني الذي قال به بعض العلماء منهم القرطبي وغيره، ولا أطمئنّ لهذا القول الذي اِعتمده بعضهم في فترات من تاريخنا الإسلامي، وتزعموا به حركة دينيّة سياسية رفعتهم لمنزلة الزعامة مستندين على قول ينسبونه للحديث النبوي: يبعث الله على رأس مائة عام من يجدّد للنّاس دينهم، وهذا القول غير مُصَنَّفٍ عند أهل الحديث الموثق بهم من الأحاديث النّبويّة الصحيحة ولا الضعيفة، ولا الغريبة.

ولذا فأنسب الأقوال في "الشهيد" هو أنّه نبيّ، والقرينة المعتمدة للتأكيد على هذا الرأي أنّه متّصل بفعل (نَبۡعَثُ)، والله تعالى لا يبعث إلاّ نبيّا، ويختاره واحدا من قومه. ويوم القيامة حين يُؤْتَى بالشهداء على أممهم يُؤْتَى بالنّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم شهيدا على هذه الأمّة وعلى (هَٰٓؤُلَآءِ) هم أهل قريش، وعرب الجزيرة العربية، والملوك الذين راسلهم في زمانه، وكلّ من بلغتهم رسالته صلّى الله عليه وسلّم، فيومئذ ينجو من العذاب من اِتّبعه واِنتسب للشريعة التي جاء بها من عند ربه، وأمّا من كفر به، وصدّ عنه فسيلقى من العذاب ألوانا موجعة.

ونزّلنا عليك يا محمد القرآن (تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ) أي يبيّن للنّاس كلّ ما يحتاجون إليه لمعرفة الحلال من الحرام، وفيه من المواعظ ما يهديهم لسُبُل الرّشاد والحقّ، وما يقيهم من الضلالات، وهو رحمة للمؤمنين، لأنّ كلّ من عمل به، واتّعظ به ينجو من كلّ عذاب. وهو بشرى للمسلمين يبشّرهم بنعيم الله تعالى ورضوانه يوم يلقونه عند الحساب.



- إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ (90) :

تُعَدُّ هذه الآية من إحدى الأسس الرئيسيّة الهامّة التي تحدّد المبادئ العامّة التي يجب أن يقوم عليها نظام المجتمع الإسلامي وُجُوبًا فرَضه الأمر الصريح الوارد في أول الآية (إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ) هي مبادئ عامّة مفروضة على الحاكم في تعامله مع محكوميه لإقام العدل، ولإنصاف صاحب الحقّ بالقسط. وهي مبادئ عامّة تلزم أهل العلم، وأهل الذكر لإرشاد العامّة بما يقيم علاقتهم ببعضهم على الإحسان، وصالح الأعمال، وبما يضمن وحدتهم. ولقد قال فيها ابن مسعود: هذه أجمعَ آية لخير يُمْتَثَلُ، ولشَرٍّ يُجْتَنَبُ.

ويُعجبني من الإمام الخطيب في صلاة الجمعة أن ينهي موعظته بهذه الموعظة الرّبانية التي جمعت فأوعت، ووعظت وذكّرت بفضائل الأعمال وفضائل الأخلاق وأوْجَزَتْ.

(إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ) إنّ الله تعالى يفرض على كلّ إنسان أن يعامل الآخر بالعدل. الآخر قد يكون الأب أو الأمّ أو الأخ أو الأخت أو الزوجة أو الصهر أو القريب أو الجار أو العامل أو المدين أو المتظلّم أو الرّعية أو صاحب الحاجة، وما أكثر ما يتعامل الإنسان مع الآخر في محيطه الاجتماعي ومحيطه المهني، ومحيطه الإنساني، ومحيطه الطبيعي! فما هو العدل المطلوب منه في التّعامل مع جميع هؤلاء؟ إنّه في إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه دون حيف أو جور أو غصب، وهو في الفصل بين النّاس بالحقّ، وبالقسط، وبدون محاباة لذي الجاه والسلطان، أو لذي القُربى، وهو في التّعامل بالمساواة بين النّاس دون تمييز بين الأجناس وبين الطبقات، وهو في منح الحقوق لأصحابها وللرّعية دون إقصاء للأقليّات وللمعارضين.. وما أكثر وجوه العدل حتى لا يُظلم أحد في حقّه وفي ماله وفي كرامته!..

(وَٱلۡإِحۡسَٰنِ) عرّفه الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في حديثه مع جبريل عليه السلام: "أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك". وعلى هذا فإنّه يدلّ على وجوب أداء الفرائض الدينية على أحسن وجه، وفي إخلاص للنّية. والإحسان فيما يكون بين النّاس يستوجب التّعامل معهم بحسن الخلق، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "وخالق النّاس بخُلق حسن"، ومن الإحسان إغاثة الملهوف، ومساعدة الضعفاء بما يحتاجون إليه من مال أو رعاية صحية أو تقديم العون لهم خاصة إن كانوا من المسنّين أو من المرضى أو كُنَّ أرامل ذوات عيال. ومن الإحسان الإخلاص في العمل واِجتناب الغشّ والمغالطة. ومن الإحسان المحافظة على نظافة المحيط تجنّبا لجلب الأذى للنّاس، ومن الإحسان تجنّب إيذاء الحيوان... وما أكثر وجوه الإحسان للنّفس وللغير وفي الدّين وفي الطاعات وفي تقديم العون، وفي خدمة المصلحة العامّة وفي الإيثار وفي

التّعامل بالحسنى، وفي اِجتناب كلّ المنكرات وسوء الأخلاق، وكلّ أشكال الاعتداء على الغير خاصة على جنس الإناث وعلى المستضعفين وهذا فرض من أوامر الله جلّ وعلا.

(وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ) ومن أوامره تعالى للإنسان عامّة، وللمؤمن خاصّة، والأمر أوكد لأنّ المؤمن قدوة للنّاس: إيتاء ذي القربى، إيتاؤه قد يكون بالمداومة على صلته. وفي عصرنا الحاضر ضيّع النّاس صلتهم بأرحامهم لأسباب كثيرة، وأغلبهم يتعلّل بكثرة المشاغل، وبضيق الوقت، وببعد المسافات. وإيتاؤهم قد يكون بمدّ يد العون والمساعدة للمحتاج منهم خاصّة، وللمريض الذي يجد عُسرا في توفير المال لعلاجه، ومن إيتائه السؤال عنه من حين لآخر، وبخاصّة عند المناسبات.

(وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ) وينهى الله تعالى عن إتيان الفواحش، وهي الأعمال المُفْرطة في القبح الشنيع المنافية للعفّة والطهر وكرامة الإنسان فتنحدر به إلى الحيوانية ومن الفاحشة الإغراء الجنسي التي تأتي بها الأفلام والقنوات التلفزية الإباحية، وما تأتيه النوادي الليلة، وينهى عن المنكر، وهو كلّ ما ينكره الشرع ولا يرتضيه. وتأباه العقول والعُرف السّليم من مثل شرب المسكرات، وتناول المخدّرات، ومن المنكرات: اِعتراض النّاس لسلبهم تحت التّهديد. ومنها أعمال الإجرام، والعنف بجميع أشكاله بدءًا من السباب إلى الإضرار باليد الجارحة، وأعمال السطو على البيوت والمحلاّت التجارية وحتّى على المنتوجات الفلاحيّة من أملاك الغير...

(وَٱلۡبَغۡيِۚ) وينهى الله تعالى عن الظلم. والظلم أصناف ودرجات، أعلى درجاته ظلم السلطان للرعية باستعمال سلطته وأعوانه لقهر المعارضين، أو لسلبهم أرزاقهم وحقوقهم، أو لتسخيرهم لخدمته، ومن أدنى درجاته غصب الأخ لحقّ أخت في ميراثها من أبيها أو أمّها، وأشكال الظلم كثيرة منها التآمر على أمن الدولة أو أمن النّاس ممّا يُعرف اليوم بالإرهاب الذي يتسبّب في هجرة السكّان من بيوتهم وأرزاقهم ليقيموا في خيام المهجّرين، ويتسبّب في هدم بيوتهم وتخريب أرزاقهم، ويتسبّب في إثارة الفتنة فيفكّك وحدة الوطن، ويستقْوِي بالأعداء ليدكّ اِقتصاد البلاد وأمنه وقوّته العسكرية، ويزهق أرواح الأبرياء، ويتسبّب في جرح العيال والشيوخ والنّساء أو إعاقتهم ويكثر من مآسي النّاس. ومن البغي ضياع العدل عند أهل العدالة، إذا ضاع العدل عند هؤلاء ضاع حقّ النّاس جميعا، وسطا قويّهم على ضعيفهم، وتفشّت فيهم الرّشاوي وأكل أموالهم بالباطل. وكلّ هذه من المآسي التي تحوّل حياة الناس الآمنين إلى حياة ليس فيها أمن ولا أمان.

(يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ) هذه موعظة من ربّكم لتعيشوا آمنين مكرّمين متوادّين متراحمين متعاونين متآلفين، فإذا أعرضتم عنها شقَوْتُم وتعِسْتُم في دنياكم وفي أخراكم كذلك. وهذه موعظة

يعرف فضيلتها وأهميتها ذوو الألباب من أهل الوعي والفكر، غايتها إرشادكم لصالح الأعمال لضمان وحْدتكم، واِستقامتكم على مكارم الأخلاق.

- وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ **(91) :**

إذا كانت الآية السّابقة في تحديد المبادئ العامّة التي يجب أن يقوم عليها نظام المجتمع الإسلامي، فإنّ هذه في التّوجيه لما يضمن حسن المعاملات المادية لحفظ الأمانات والحقوق بين المتعاملين مع بعض حتى يكون عهد المؤمن وَازِنًا، وَيَمِينُهُ مَوْثُوقًا ومُلزِمًا لا خُلْفَ فيهما لضمان حسن معاملاتهم. والمعنى: ويجب عليكم – أيّها المؤمنون – أن تتمّوا العهد الذي اِلتزمتم به كتابيا، وجميع ما يعقد باللسان، فالمؤمن عند كلمته عند البيع أو لتسديد الدَّيْن، ولا يجب مخالفته البتّة، ويشمل الوفاء بالعهد كلّ حِلْفٍ يعقد بين الفِرَقِ المتنازعة فإنّ الخروج عنه ونقضه هو نقض لعهد الله، التّعاهد على الحِلْف بين المتحالفين يجب الاِلتزام به لأنّه يمنحهم الأمان، وهو في الإسلام يعتبر من عهد الله. ويفرض الله تعالى على المؤمنين أن يلتزموا بما أقسموا عليه بالأيمان المشدّدة المغلّظة. لا تخالفوا ما حَلَفْتُم على إنفاذه وأشهدتم الله تعالى عليه، فالحلَفُ باليمين المشدّدة هو إشهاد الله تعالى عليه ليكون (كَفِيلًا) أي ضامنا ورقيبا على كلّ طرف لتنفيذ ما يُلْتَزَمُ به. (إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) للتأكيد على أنّ الله مطلّع على ما تصنعون من بعد عقد عهودكم، ومطلّع على مدى اِلتزامكم بالحَلِفِ، وبما أقسمتم بالله تعالى على تنفيذه، وفي هذا وعيدٌ لمن يخالف عهده، ولمن يَنْقُضُ قَسَمَه بالله عزّ وجلّ.

- وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًاۢ بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ **(92) :**

هذه في ضرب المثل لمن ينقض عهده، وقَسَمَه مثلُه مَثَلُ المرأة التي تغزل صوفا، حتّى إذا أتمّت غزْله وأبْرَمَتْهُ وأحْكَمَتْهُ حَلَّته فجعلته (أَنكَٰثًا) أي محلول الفَتْل وأنقاضا، فلا هو صوف، ولا هو غزل، هذا مثل الذي ينقضُ عهده وقَسَمَه، ويتّخذ اليمين خديعة، ويُضْمِرُ التَّغْرِير، وعدم الوفاء به. ويعقد بعضهم حلفا مع قومٍ ويؤكّدونه بالأيمان المشدّدة فإذا وجدوا قوما آخرين أقوى ممن تحالفوا معهم نقضوا الحلف الأول وعاهدوا الآخرين لأنّهم أقوى، أو أعزّ، أو أكثر مالا، هؤلاء مَثَلُهم مثَلُ تلك المرأة التي تغزل صوفها ثمّ تحلّه بعدما أبرمته وأحكمت غزله.

إنّما اِبتلى الله تعالى عباده بالتّحاسد، والرّغبة في غَلَبَةِ بعضهم على بعض، وإنّه تعالى يمتحن عباده لاختبارهم في مدى مجاهدتهم لأنفسهم للانضباط لأوامر الله وفي صدقهم لطاعته،



ممن يتّبع هواه، ويوم القيامة يكشف لهم حقائقهم، وما اِختلفوا فيه من نزاعاتهم ويفصل بينهم فيما كانوا يتنازعون عليه ويتنافسون فيه.

- **وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (93) :**

ولو شاء الله لجعلكم جميعا على ملّة واحدة، وعلى الهدى خاضعين له ومطيعين، ولكن شاءت مشيئته أن يجعلكم مسؤولين عن اِختياركم للهدى أو لإتّباع الهوى والانسياق لشهواتكم ومعاصيكم، وجعل لكم يوم القيامة لمحاسبتكم على أعمالكم وعلى اِختياراتكم للاستقامة على دينه، أو للضّلالة، فمن شاء لنفسه الضلالة جعله على ضلالته، ومن شاء لنفسه الهدى هداه إليه.

- **وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (94) :**

وينهاكم الله أن تتّخذوا أيمانكم (دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ) أي تتّخذوها وسيلة للغدر والخديعة أو للغش، أو للتّغرير بمن يثق بالأيمان، فتسقطوا في ورطة الضلالة بعد إيمان، وتهلكوا بعد أن صحَّحْتُم مسيرتكم نحو الهدى والصلاح، وعندئذ ينالكم عذاب الله لغدركم بالنّاس، ولتغريركم بهم باستغلال اِسم الله جلّ جلاله، وبهذا العمل تصدّون النّاس عن الثّقة في إشهاد الله على أيمانكم، ولكم في الآخرة عذاب شديد الإيلام لعبثكم بالأيمان. لا يكون مؤمنا من يعطي العهد باسم الله تعالى أو يقسم باسمه العظيم وهو يعلم أنّه كاذب في قسمه، أو ليعطي عهدا ينوي به الغدر، والخلف، أو يريد به أن يخرج من ورطة ثمّ يفلت من الوفاء به. هذا ممّا يفسد علاقة النّاس ببعضهم، ومما ينزع الثّقة بينهم. وقد نبّهنا تعالى في سورة القلم بالحذر ممن يُكْثِرُ مِن الأيمان، ونبّهنا بأن لا نصدّقه قال جلّ وعلا: (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ)(القلم الآية 10).

- **وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (95) :**

وهذه للحذر من العبث بما يُعَاهدُ عليه، ولِيُشْهِدَ الله تعالى على عهده، وهو يضمر الخُلْف فيه، أو نقضه مقابل حصوله على منفعة دنيوية، فكلّ منفعة ماديّة تؤخذ على عهد الله يُراد نقضه هي منفعة قليلة وزائلة إزاء ما سيلاقيه من عذاب يوم الحساب. وما يُكْتَسَبُ من مال عند عهد يراد نقضه هو من الرّشوة، وهو مال حرامٌ كسبُه.

وما عند الله تعالى من الجزاء والثواب عن الوفاء بالعهد والالتزام به تعظيما لاسم الله تعالى هو خير وأفضل ممّا يتلقّاه المخلف بعهده من مال أو منفعة دنيوية إن كنتم تعلمون ما يُعِدّه الله تعالى من تكريم للذين يوفون بعهد الله، والذين يخشون معصية ربّهم.



- **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (96) :**

هذه للتأكيد على ما جاء في الآية السابقة من أنّ ما ينتفع به من مال عن معصية يزول وينتهي، وتسجّل عليه معصية كبيرة سيعاقب عليها. وما عند الله من ثواب وأجر هو الباقي الذي لا يزول، وسيجزي الله تعالى المؤمنين الصابرين على الطاعات بأكثر ممّا يستحقون تكريما من عند الله عزّ وجلّ. هذا الجزاء المضاعف حاصل بكلّ تأكيد لأنّ الفعل جاء مسبوقا بلام التوكيد ومُلحقا بنون التّوكيد للتّعظيم.

- **مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (97) :**

هذه للتأكيد على ما جاء من الوعد الحسن للمؤمن العامل الصالحات، ومن الصالحات أداء الطاعات التي تمثّلها أداء العبادات، والعمل بالأوامر، واِجتناب المنهيات. كلّ من عمل صالحا – سواء أكان ذكرا أم أنثى – وكان مؤمنا، فإنّ الله تعالى يعده بأن يحييه حياة كريمة هنيئة لا حيرة فيها، ولا اِضطراب، ومن الحياة الطيّبة: أن يرزقه الرّزق الحلال، ويُغْنِيَه بالقناعة عن النّاس، ويملأ نفسه طمأنينة، وحذرًا من إتيان المعاصي. ويَعِدُه بأن يُثيبَه بالجزاء الوفير بأكثر ممّا يستحقّ عن أدائه الطاعات يوم القيامة، وهذان وعدان مؤكّدان بلام التوكيد، ونون التّعظيم.

- **فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (98) :**

إذا عزمت على تلاوة القرآن الكريم، فاستفتح بالاستجارة بالله من الشّيطان الذي يُطرد من السماء كلّما اِقترب منها لاستراق السّمع بشُهُبٍ من النّار، وذلك حتّى لا يعرض لك فيصدّك عن تدبّره، والعمل بما فيه، الاستعاذة بالله من الشّيطان الرّجيم عند قراءة القرآن الكريم هي اِستجارة بالله ليستغرق المؤمن بكلّ جوارحه في قراءة كلام الله تعالى في خشوع مؤمّلا هديه تعالى وراجيا ثوابه الجزيل.

نفعنا الله تعالى بتلاوة كتابه، وجعلنا الله تعالى من العالمين به والعاملين.

- **إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ (100) :**

هاتان في تبشير المؤمنين الصادقين المتوكّلين على الله تعالى حقّ التوكّل في كلّ عمل بأنّ الشيطان لا قدرة له عليهم لصدّهم عن سبيل الله تعالى، ولا قدرة له عليهم للتأثير فيهم ليكونوا بعد هديهم أتباعا له، فهم محفوظون من تأثيره عليهم، ولا وَلاَيَةَ له عليهم. إنّما يؤثّر في الذين يتّخذونه مرشدا وناصحا ونصيرا، وفي الذين يعبدونه ويطيعونه من دون الله عزّ وجلّ.



- **وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(101) :**

وإذا جئنا بآية تخالف حكما في التّوراة، أو نَسَخْنا حكما بحُكم آخر نحو الذي كان في تحويل القبلة، أو بدّلنا حكما بحكم أشدّ على المشركين والمكذّبين، والله عليم بما ينزل من أحكامه، اتّهمك كفّار قريش بأنّك كاذب وتختلق الأحكام من عندك، بل أكثرهم لا يعرفون الحكمة من ذاك التّبديل، أو النّسخ، ولا يعلمون أنّ الله تعالى يفعل ما يُريد.

- **قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ(102) :**

أخبرهم – يا محمد – بأنّ ما نزل عليك قد جاء به جبريل – ملك الوحي– عليه السلام من عند ربّك بالحقّ لينصر المؤمنين، ويثبّت أقدامهم، وليَدْعَمَهُمْ، وما نزل عليك فيه هدي وتوجيه وإرشاد وموعظة للمؤمنين، وفيه بشائر للمسلمين بأنّ لهم من الله فضلا عظيما.

- **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (103) :**

ادّعى جمع من المشركين أنّ هذا القرآن من قول محمد صلّى الله عليه وسلّم، وكذّبوا بأن يكون وَحْيًا من عند الله، وقالوا لتبرير زَعْمِهم إنّما يعلّمه واحد من البشر شيئا من التوراة والإنجيل فادّعى أنّ ما يأتي به هو وحيٌ من عند الله، وكانوا يتّهمون غلاما روميا نصرانيا بأنّه هو الّذي يعلّمه شرع الأمم السالفة، وجاءت هذه الآية لتردّ على زعمهم الباطل، ولترفع تهمتهم الباطلة عن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وجاءت لتثبيت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم. والمعنى: إنّنا لنعلم أنّهم يقولون فيما تبلّغهم من كلام ربّك بأنّه من اِختلاقك ممّا علّمك بعضهم من الشرائع السابقة، إنّ الذي يتّهمونه بأنّه مُعلِّمٌ لك لسانه أعجميّ، وليس عربيا، وهذا القرآن بلسان عربيّ فصيح معجز.

- **إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) :**

إنّ المكذّبين بالقرآن الكريم، وبما نزل عليك من دلائل وحجج على صدق ما تبلّغهم به من الهدي للحـقّ، وفضح ضلالاتهم لا يهديهـم الله تعالى للصواب ولصراطه المستقيم لأنّهم يصمّون آذانهم عن سماع الحقّ، وسيُعاقبون بالعذاب الموجع لتَوَلِّيهم عن سماع الحقّ والطعن في صدقه.

- **إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ (105) :**

هذه للردّ على المكذّبين، إنّ المكذّبين الذين لا يصدّقون بآيات الله هم الكاذبون.

- مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (106) :

من اِرتدّ عن الإسلام إلى الكفر من حبّه للشّرك، والميل له فعليه غضب من الله، ومن غضب عليه ربّه أُطْرِد من رحمته، ويعاقب في آخرته بالعذاب الشديد الأليم. أمّا من أكره على أن يقول كلمة الكفر تحت الإكراه والتّعذيب، وكان قلبه مطمئنّا بالإيمان مثل ما كان قد حدث في أوّل عهد الإسلام مع عمّار بن ياسر الذي أعلى ذكر هبل صنم المشركين للنّجاة من عذابهم، فهذا معفوٌّ عنه، وهو مستثنى من الحكم عليه بغضب من الله، وبالعذاب.

- ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (107)

هذه في بيان سبب اِرتداد بعضهم من الإسلام إلى الكفر، ذلك بأنّهم اِختاروا المكاسب الماديّة السّريعة، وآثروا صحبة المشركين ورضاهم على حبّ رضوان الله تعالى والنّجاة من العذاب في الآخرة، والله تعالى لا يهدي القوم الذين لا يهتدون إليه ولا يؤمنون به.

- أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ (108) لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ (109) :

أولئك المرتدّون قد ختم الله على قلوبهم فلم تنشرح للإيمان، وأصمّ سمعهم عن سماع الحقّ والاستجابة لدعوة التّوحيد، وأعمى أبصارهم عن دلائل الحقّ ودلائل الباطل الذي هم عليه، وأولئك هم اللاّهون والساهون عن عذاب الآخرة. لاشكّ أنّهم سيكونون من الخاسرين لآخرتهم: ومن خسر آخرته حُرِم من النّعيم، وكان من الأشقياء لا محالة.

- ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ (110) :

وعلى العكس من أولئك فإنّ الله تعالى يَعِدُ الذين هاجروا بدينهم من بعد ما ابْتلوا في قومهم لأنّهم أسلموا، وعُذّبوا عذابا شديدا بسبب تمسّكهم بإسلامهم، يعدهم بمغفرة ذنوبهم جميعها، ويعدهم برحمته، ومن رحمة الله تعالى أنْ لا يعذّبهم، ومثل هؤلاء المهاجرين المجاهدون الذين جاهدوا في سبيل الله تعالى نصرةً لدينه، والذين صبروا على الطاعات.

- يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ (111):

أيّها النّاس اِحذروا حساب يوم القيامة، إنّه موقف شديد على كلّ نفس، يومئذ تأتي كلّ نفس تدافع عن نفسها، وتخاصم لتجد لها الأعذار لتبرئة وضعها خوفا من العقاب والعذاب، ولكن كلّ نفس ستجد جزاءها عمّا عملت من خير أو عمّا عملت من سوء، ولا يُظلم أحد في حقّه.



- وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرۡيَةً كَانَتۡ ءَامِنَةً مُّطۡمَئِنَّةً يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ (112) :

هذه في تحذير الكافرين الذين يعيشون مطمئنّين، وكانوا جاحدين لفضل الله عليهم، وهذا لموعظة النّاس حتى لا يغفلوا عن ذكر فضل الله تعالى عليهم وحمده. والمعنى: وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة من الإغارة الخارجية، يعيش أهلها مطمئنّين على أنفسهم، وينعمون بالرّزق الطيّب الواسع والهنيء من غير شقاء كبير وتعب كثير، وتأتيهم الخيرات من كلّ جهة، فبطروا بالنّعمة، ولم يشكروا، وجحدوا فضل الله عليهم، فسلّط الله عليهم الجوع بالقحط والجفاف، وبالخوف من الموت جوعا والهلاك عطشا، وبالخوف من أن تحلّ بهم المصائب، وكان هذا بسبب غفلتهم عن ذكر الله، وذكر فضله عليهم، وبسبب بطرهم.

- وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ (113) :

هؤلاء الذين أنعم الله تعالى عليهم بالخيرات حين جاءهم رسول من عند الله عزّ وجلّ ليهديهم لربّهم ليعبدوه، ويشكروا له، فكذّبوه إستكبارا، فهلَكُوا بعذاب لأنّهم كانوا ظالمين لأنفسهم بالكفر.

- فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ (114) :

الخطاب في الآية لجميع المؤمنين، فقد أباح لهم أن يأكلوا ممّا رزقهم من الأنعام، ومن خيرات الأرض حلالا طيّبا هنيئا، وعليهم أن يشكروا الله تعالى على ما أنعم عليهم من الخيرات، ومن شكر الله على نِعَمِه قَيّدَها، وهذا إن كانوا صادقين في إيمانهم بفضل الله عليهم، ومخلصين له في العبادة.

- إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (115) :

هذه فيما يحرم على المؤمنين أكله تنْزِيهًا، وإِستجابة لأمر الله ونهيه، وقد تقدّم تفسير هذا الحكم في سورة البقرة الآية 173. والمعنى: لقد حرّم عليكم أكل الجيفة التي تُذْبح، ولم يهرقْ دمُها مع عدم ذكر إسم الله عليها عند ذبحها، وحرّم عليكم شرب الدم المسفوح (وقد كان أهل الجاهلية يشربون دم القرابين للتبرّك ويدهنون به للتّداوي والتبرّك، وهي عادة فاسدة)، وحرّم عليكم أكل جميع بَدَنِ الخنزير: لحمه وشحمه وأحشائه وجميع أجزائه، وكلّ ما ذُبح دون ذكر إسم الله تعالى عليه، ناهيك إذا ذبح قربانًا لغير الله تعالى، كالذي يفعله بعضهم خطأ من جهلهم يذبحون الذبيحة باسم أحد يعتقدون أنّه وليٌّ صالح، وما يعلم أولياءه الصالحين إلاّ الله تعالى، وما يسمّيه بعضهم وليًّا صالحا هو من عاداتهم وعقائدهم الخاطئة. فمن ألجأته الضرورة لأن يأكل ممّا حرّمه تعالى عليه ولم يكن يبغي المعصية ومخالفة أمر الله عزّ وجلّ، ولم يكن متجاوزا قدر

الضرورة فلا ذنب عليه بسبب الضرّورة فإنّ الله غفور لا يؤاخذه عن أكل ما حرّمه عليه، ورحيم بعباده المؤمنين المطيعين لا يعذّبهم عمّا ألجأتهم إليه الضرورة.

- وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (116) مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (117) :

ولا يحقّ لكم أن تحلّوا ما حرّم الله، ولا أن تحرّموا ما أحلّ الله لكم، ولا تقولوا عمّا لم ينزل الشّرع بتحريمه أو بحلّيته: هذا حلال وهذا حرام، هذا تشريع بألسنتكم، لا تختلقوا على شرعه أكاذيب من عند أنفسكم. إنّ الذين يأتون هذا التشريع من عند أنفسهم لا ينجحون في تحقيق أغراضهم، وإذا كسبوا شيئا ممّا يدّعون على الله الكذب فما هو إلاّ كسب قليل إزاء ما ينتظرهم من عذاب موجع يوم القيامة لتجرُّئِهم على الله تعالى.

- وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(118) :

هذه الآية تردّنا للآية التي وردت في سورة الأنعام (الآية 146) التي فصّلت ما حرّم الله تعالى على الذين هادوا. حرّم الله تعالى على الذين هادوا ما كان من البهائم والطير غير منفرج الأصابع وكلّ حيوان له مخالب (مثل الإبل والنّعام، والإوز، والبطّ...) وشحوم الكرش والكليتين، وما ظلمهم الله تعالى بهذا التّحريم. وإنّما هم الذين ظلموا أنفسهم به لأنّهم هم الذين شرّعوا لأنفسهم هذا التّحريم، ولم تنزل التّوراة بهذا التّشريع.

- ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (119) :

ثمّ إنّ الله تعالى غفور لمن عصوه من طيشهم وسَفَه عقولهم، ثمّ راجعوا أنفسهم فأقلعوا عن المعصية، وثابوا لرشدهم، فتابوا واِستغفروا ربّهم عمّا كانوا عليه. إنّ الله تعالى بعد توبتهم وإقلاعهم عن معاصيهم، وبعد اِستغفارهم رحيم بهم لا يؤاخذهم عمّا كانوا عليه في طيشهم، ولا يعاقبهم عن ذلك.

- إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (120) :

كان العرب يعتبرون أنفسهم في عبادتهم أنّهم على ملّة إبراهيم عليه السلام، فهو عندهم جدّهم الأول لأنّهم جميعا من ذرّية إسماعيل عليه السلام، وهو الذي أقام لهم البيت الذي يطوفون حوله طاعة لربّهم في بلدهم الآمن. جاءت هذه الآية والآيتان المواليتان لها في الثّناء على إبراهيم في طاعته لربّه، وخُتِمت ببيان المقصد من هذا التّذكير الذي فيه التّأكيد على أنّ ما جاء به النّبيّ الرّسول محمد صلّى الله عليه وسلّم من الوحي هو في الدعوة لاتباع ملّة إبراهيم الذي كان



حنيفا وما كان من المشركين، والغرض من ذلك دعوة مشركي العرب الذين يدّعون أنفسهم أنّهم على ملّة إبراهيم لنبذ الشّرك، ولتوحيد الله تعالى في طاعته وعبادته، ومن وراء ذلك التّصديق بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ودعمه، وتجنّب مشاقّته وتكذيبه.

والمعنى: إنّ إبراهيم كان مدرسة في الإيمان وطاعة الله، وكان يعلّم النّاس وجوه البرّ وكان قدوة لهم، وكان (قَانِتًا لِّلَّهِ) أي مداوما على طاعة الله في خشوع، (حَنِيفًا) ومائلا عن الباطل إلى الدّين الحقّ، ولم يكن يدعو من دون الله تعالى إلاها آخر غيره سبحانه. فمن كان على ملّة إبراهيم فإنّه لا يكون إلاّ مُوَحِّدًا، ولا يكون مشركا أبدا.

- **شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (121) :**

وكان من أبرز صفات إبراهيم عليه السلام مُداومتُه على شكر الله تعالى وحمده على نِعَمِه الكثيرة المتعدّدة التي لا تُحصى. اِصطفاه الله تعالى واِختاره للنّبوّة والرّسالة، وهداه لصراطه المستقيم، دين الإسلام.

- **وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (122) :**

وآتاه الله تعالى ذكرا حسنا وثناءً باقيا على الدوام، وجعلنا في ذرّيّته النّبوّة. وإنّه في الآخرة من المكرّمين بأرفع درجات التّكريم لأنّه من الصالحين بكلّ تأكيد.

- **ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (123) :**

هذا بيت القصيد – كما يقال – وهذا هو الغرض المنشود ممّا سبق ذكره، والضمير المخاطب هو النّبيّ الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم. والمعنى: وقد جاءك فيما أوحي إليك – يا محمّد – أن تتّبع ملّة إبراهيم، وأن تكون عليها مائلا عن الباطل إلى الحقّ، فما كان إبراهيم من المشركين، فانبِذْ الشّرك مثله، واعبد الله تعالى وحده، وكن موحّدا.

ولئن كان الخطاب مُوَجَّها إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلاّ أنّ المقصود به كلّ فرد كان مشركا، وهو يدّعي أنّه على ملّة إبراهيم، من باب: إيّاك أعني، واِسمعي يا جاره.

- **إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (124) :**

إنّما فُرض على بني إسرائيل تعظيم يوم السّبت وترك العمل فيه للتّفرّغ للعبادة، ولم يكن هذا في شرع إبراهيم، ولا من دينه، فُرِضَ عليهم بسبب اِختلافهم فيه (وقد اِختلف العلماء في تعيين ما وقع بينهم من الاِختلاف فيه، وكيفيته: ولذا فإنّه لا رأي لنا في تفسير هذا الاختلاف فيه). وإنّ الله تعالى سيفصل بينهم يوم القيامة بحُكمه فيما كانوا فيه يختلفون. والذي يجب الاعتبار به



من هذه الآية هو أنّ على المسلمين أن لا يختلفوا في ما شرع الله تعالى لهم من الأحكام الواجب العمل بها.

- ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ (125) :

أُدع – يا محمد– قومك والنّاس أجمعين – إلى دين الله : الإسلام، دين التّوحيد، ونبذ الشّرك (بِٱلۡحِكۡمَةِ) أي بما يوحى إليك من القرآن، وبالحجّة والإقناع، وبالعقل، (وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ) وبالعِبَرِ، والمواعظ الرّقيقة المؤثّرة، والقول اللّيّن والكلمة الطيّبة، (وَجَٰدِلۡهُم) وحاورهم وناقشهم بالواقع والنّظر والحجّة العقلية والدليل الذي يرى بالعين المبصرة وبالبصيرة. إنّ ربّك أعلم بمن هو مصرّ على كفره عنادا، وتقليدا لآبائهم عن غير وعي، أو اِستكبارا في الأرض، وهو أعلم بمن يلين قلبه، ويعي بعقله فيهتدي للحقّ ويؤمن.

ولئن كانت الآية  موجّهة للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في تحديد منهجه في تبليغ دعوته إلاّ أنّ كلّ واعظ ديني مُلْزم باتّباع نفس هذا المنهج في إرشاد النّاس لدينهم: فإنّ أوّل ما يجب أن يلتزم به الواعظ أو الداعية في دعوته هو اِعتماد الحكمة في إرشاده قبل الموعظة الحسنة، ذلك لأنّ حرف الجرّ (بِ) في(بِٱلۡحِكۡمَةِ) يفيد الوسيلة التي يجب اِعتمادها في الدعوة، وقُدّمت الحكمة على الموعظة الحسنة رغم أنّ دوره الواعظ الأساسي هو تقديم الموعظة، فإن لم يكن الواعظ حكيما في تقديم موعظته قد يبالغ في الترهيب فيصبح مُنَفِّرًا وحينئذ لا يُسمع له، وقد يبالغ في التّرغيب والتّيسير والتّبسيط للمسائل فلا يكون لمواعظه أيّ أثر في إصلاح المعتقد أو العمل بالطاعات، لابدّ لكلّ واعظ من زاد علم واسع وزاد معرفي متين، نصّا وتحليلا ومنطقا، ويجب أن يكون في سلوكه وتقواه وصدقه قدوة ليتأهّل لهذه المهمّة.

- ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ (126) :

هذه في ردّ الأذى عن المستضعفين الذين يدخلون للإسلام. والمعنى: إن ظُلِمْتُم فرُدُّوا الظلم عنكم بما يقابله للرّدع، ولا تتجاوزوا الحدّ في العقوبة. وهذا من قوانين العدل في الإسلام. ولئن صبرتم عن الأذى فلم تردّوا العنفَ بالعنف وتجاوزتم عن عقاب من عاقبكم فهو خير للصابرين، فإنّ الله تعالى سيكافئ الصابرين عن صبرهم، وهذا من أكبر الأدلّة على ترغيب الإسلام في التّعامل مع الآخر بالتّسامح.

الآية جمعت بين مبدإ فرض العدل، ومبدإ التّرغيب في التّسامح. فما أروع خاتمة هذه السورة التي بدئت بتفويض الأمر إلى الله تعالى ليوم الفصل بدون اِستعجاله.

- ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ (127) :

الخطاب في الآية للنّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم ولكنّ معناها عام. قال علماؤنا من قبلُ في مثل هذه الآية التي يكون أمرُها عامّا لكلّ مسلم: "العبرة بعموم الحكم لا بخصوص السبب". فالآية تدعو للصبر على الأذى حتى يأتي أمر الله كما جاء في أول السورة دون اِستعجاله، وقوله تعالى (وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ) ممّا يدّل على أنّ الصابر حين يصبر على أذى من يؤذيه في دينه إنما هو من هدي الله تعالى له، لأنّ الله تعالى يحبّ أن يكون عبده المؤمن قدوة لغيره في إيمانه وفي استقامته على دينه الذي يدعوه للصبر، وللتّعامل مع الآخر بالصبر وتحمّل أذاه، فلا يردّ الفعل، وإذا ردّه كان عَدْلاً في ردّه. كذا يحبّ الله أن يكون عبده المؤمن. ولمواساته ينهاه الله تعالى بأن لا يحزن عمّا يُصيبه من الأذى، وعمّا يصيبه من الألم بما يلقاه من اِستهزاء الكافرين وممّا يتّهمونه به. ويدعوه تعالى بأن لا يكون خائفا أو متضايقا ممّا يدبّر له أعداؤه من المكائد والخديعة ذلك بأنّ الله تعالى قادرٌ وكفيل بحفظه ممّا يدبّرون له في الخفاء.

فهذه الآية تثلج صدر كلّ من أوذي في دينه وصبر، وحينما يرى ما يفعل ربّه بمن أذاه ظلما في مستقبل الأيّام يُشْفَى غليلُه، فإن لم يرَهُ في حياته أُدُّخِرَ له في آخرته ما يرْفَعُ أجره وثوابه.

- إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ (128) :

في هذه الآية حرفٌ يوزن بميزان الدّرر الفاخرة النّفيسة، إنه حرف (مَع). سبق هذا الحرف حرف توكيد (إِنَّ)، واِسم ذي العزّة والجلال: (ٱللَّهَ) سبحانه، فالله جلّ جلاله (مَع) الذين يوصفون بصفتين اثنتين لا غير: التّقوى، والإحسان.

ما أعظم هذه المعية المؤكّدة وما أيسر المطلوب

التّقوى: تقوم على عنصرين اثنين لا غير –كما عرّفها ابن عاشور – اِمتثال واِجتناب.

اِمتثال لأوامر الله عزّ وجلّ – واِجتناب ما نهى عنه.

وأمّا "الإحسان"، فقد عرّفه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم "بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك".

وهذا يعني أن يراقب المؤمن الله تعالى في نفسه فيما يقول، فيما يعمل، وفي كلّ طاعة.

وأمّا المعية: فقل فيها ما شئت، هي معية النّصرة، فلا يغلب ولا يقهر، هي معية الهداية، فلا يضلّ ولا يشقى، هي معية الحفظ، يتقوّى صبره عند الأذى، ولا ينفذ فيه كيد الكائدين، هي معية التّوفيق، إذا تكلّم سمع، وإذا اُمتحن نجح، وإذا عمل أحسن وأتقن، هي معية الرّضوان، إذا لقي ربّه فلا خوف عليه ولا هو يحزن...

كذا تختم السورة في ترغيب الناس في الإيمان مع التقوى والإحسان، فما أيسر ما يطلب من الحقّ والاستقامة أليست هذه السورة : سورة النِّعَمِ؟

اللّهمّ اِجعلنا من عبادك المؤمنين المتّقين المستقيمين على صراطك المستقيم.



| رقمها | ســــورة الإســــــراء | آياتها |
| --- | --- | --- |
| 17 | ـــــ مكيّة ـــــ | 111 |

سمّيت هذه السورة بسورة "الإسراء" لانفرادها بذكر حادثة الإسراء. وهي في مواضيعها تتّفق مع كلّ السور المكيّة في التّركيز على تصحيح المعتقد. جاء فيها ذكر فضيلة القرآن وأهميته في رفع الغشاوة عن الأعين وعن البصيرة لفضح الباطل، وللاهتداء للحقّ البيّن. وجاء فيها ما يدعم الرّسول صلّى الله عليه وسلّم لتصديقه، ولتسليته عمّا يلاقيه من مشاقّة من قومه. وجاء فيها ما يدعو للتوحيد ونبذ الشرك، وما يدعو للحذر من الشيطان وعمله وتأثيره. وفيها عرض لآيات القدرة على الكافرين، ومشاهد ممّا سيكون يوم القيامة عند الحساب، وفيها عرض لطلبات المشركين التعجيزية الغريبة للتصديق بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم.

وانفردت هذه السورة بعرض آيات الحكمة للترغيب فيها، وللاستقامة عليها، وعرضت الإجابة عن سؤال السائلين عن الرّوح، وختمت السورة بالدعوة لتوحيد الله عزّ وجلّ وتنزيهه عن الشرك.

- سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ(1) :

(سُبۡحَٰنَ) هنا للتعظيم، ولتنزيه الله تعالى عن كلّ نقص، وحين يؤتى بهذا اللفظ في بداية السورة والآية فللدلالة على أنّ ما سيذكر بعده يُثير الكثير من العجب والتّعجّب، واللفظ يدلّ عندئذ أنّه لا عجب من قدرته تعالى إذ لا يُعجزه شيء سبحانه. والشيء الدالّ على العجب هو أنّه تعالى قد (أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ)، والإسراء هو السفر ليلا، وكان هذا السفر في ليلة واحدة من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس، ثم عاد من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام في نفس تلك الليلة، وفي زمن قصير يقطع هذه المسافة – على طولها – ذهابا وإيّابا في زمن لم يكن يعرف فيه النّاس السفر إلاّ على الأقدام أو على الدوابّ، فلذا لم يكن العرب في زمنهم قد صدّقوا بإسراء الرّسول صلّى الله عليه وسلّم إلى المسجد الأقصى في ليلته ثمّ أصبح بينهم في مكّة فكذّب به من كذّب، وارتدّ من ارتدّ، وهزأ منه من هزأ. ولم يصدّق به إلاّ من كان صادقا في إيمانه وثابتا عليه من مثل أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه. وقوله تعالى (بِعَبۡدِهِۦ) يدلّ على أنّ الإسراء كان بجسده صلّى الله عليه وسلّم وبروحه، ولم يكن إسراءً بالرّوح في المنام. وكان هذا الإسراء لمباركة المسجد الأقصى، وللربط بين المسجدين بالتعظيم والتقديس والمباركة، وللدلالة على وحدة الأديان في الدعوة للتوحيد، وفي أنّ الرّسل جميعهم أرسلهم ربّ واحد هو الله

تعالى برسالة واحدة: نبذ الشرك وعبادة الله الواحد الأحد، وللدعوة للعمل الصالح الذي منه الإحسان في العبادة وطاعة الأوامر واِجتناب المحرّمات والمنهي عنه، ولإقامة العدل ونصرة الحقّ، ورفع الضلالات عن الجاهلين، والمقلّدين لأسلافهم عن غير وعي وبدون علم. (لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ) كان هذا الإسراء ليرى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من عجيب قدرة ربّه في نَقْلِه، ولتكريمه، وللتسلية عنه لأنّه قد قيل في كتب السيرة النبويّة أنّ هذا الإسراء كان بعد وفاة العزيز على قلب النّبي صلّى الله عليه وسلّم : جدّه الّذي ربّاه: عبد المطّلب، وزوجته التي كانت سندا له: خديجة رضي الله عنها، فأصاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حزن عميق لفقدهما، واِستفرد به قومه فشاقّوه. (إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ) بما يحدث للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وبما يشعر به من حزن عميق.

والذي يحقّق في حادثة الإسراء، في تاريخ وقوعها، وفي الربط بينها وبين المعراج يجد الكثير من الخلط وتضارب الأقوال، ومن المؤكّد عند المحقّقين أنّ تاريخ حدوث الإسراء غير ثابت، وفي يومه، وشهره وسنته، ولذا فإنّ المفسّر للآية يقف عند معنى الآية، وللرّاغب في معرفة تفاصيل الإسراء فعليه بكتب السيرة النبويّة، وعرض القرطبي وغيره من المفسّرين من ذلك اِبن عاشور شيئا من اِختلافات العلماء في خبر هذه الحادثة وما جاء فيها: وابن عاشور يجعل الحادثتين : الإسراء والمعراج منفصلتين في كتابه (التحرير والتنوير)، في تاريخ وقوعهما، ويرى أنّ الإسراء كان بالجسد والرّوح معا، وأنّ المعراج كان بالرّوح. وعموما فإنّنا نؤمن بالإسراء، ونؤمن بالمعراج، والحادثتان من عجائب قدرة الله العظيمة، ولا عجب في أمره سبحانه، وفي أمر تقديره فهو القادر القدير المقتدر سبحانه، ونَدَعُ الاختلافات في تحديد التاريخ، وفي التفاصيل الأخرى لمن يشاء أن يبحث فيها.

- **وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا (2) :**

وأكرمنا كذلك موسى عليه السلام فآتيناه التّوراة ليهتدي بها بنو إسرائيل للدّين الحقّ حتّى لا يُشركوا بالله تعالى أحدا يتّخذونه كفيلا بأمورهم.

- **ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا (3) :**

(ذُرِّيَّةَ مَنۡ) منصوب على النّداء، بمعنى: يا ذرّيّة من حملنا مع نوح، وبهذه الصفة يكون النّداء لجميع النّاس، لأنّ جميعهم من سلالة منْ نجا مع نوح عليه السلام من الهلاك بالطوفان، إنّ جدّكم الأوّل كان عبدا مؤمنا كثير الشكر لربّه على نِعَمِه وفضائله، فاقتدوا به في الإكثار من حمد الله تعالى وشكره على نعمه، ولا تكونوا جاحدين.

- **وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا (4) :**

ولقد أعلمنا بني إسرائيل في التّوراة بما سيقع منهم من الإفساد في الأرض مرّتين، وذلك بمخالفة أمر الله عزّ وجلّ، وبإتيان المعاصي، وستُفْرِطون في الظلم، والاعتداء على أرزاق النّاس إفراطا كبيرا، وكذلك بالاستعلاء عليهم، وبالغَلَبة. وإنّهم ليفعلون هذا في عصرنا الحاضر فيما اِغتصبوه بالقوّة والحيلة والغلبة في أرض فلسطين، وما يزال جشعهم وطمعهم في أرض العرب يكبر ويزداد، "ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ".

- **فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا (5) :**

فإذا حلّ موعد العقاب على أُولاهما أرسلنا عليكم جيشا قويّا ذا بطش في الحرب شديد فجالوا بين دوركم يعيثون فيها بالقتل، وهو وعيد وقضاء كائن لا خُلفَ فيه.

- **ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا (6) :**

ثمّ جعلنا لكم الغَلَبَة عليهم والقوّة، وجعلناكم أكثر عددا وعشيرة من أعدائكم، وذلك جزاءً لكم على عودتكم للطاعة، ولرجوعكم إلى الله بالتّوبة.

- **إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا (7) :**

إنْ أطعتم واِستقمتم على دين الله تعالى وحسن المعاملة عاد إليكم بالخير حسن عملكم، وإن عدتم للظلم والمعصية وللإساءة وقع عليكم سوء عملكم، فإذا جاء وعد العقاب للمرّة الثانية بسبب إفسادكم في الأرض بعثنا عليكم عبادا أولي بأس شديد ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم فيظهر عليها أثر الحزن والخوف والمذلّة، وليقتحموا عليكم المسجد بالقوّة وبالتقتيل كما فعل الأوّلون بكم، وليدمّروا بيوتكم ويخرّبوها ويهلكوا كلّ ما اِستوْلَيْتُم عليه بالقوّة والظلم والقهر.

- **عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا (8) :**

في هذه وعد ووعيد لبني إسرائيل، والمعنى: عسى ربّكم أن يكشف الضرّ عنكم بعدها، وأن ينقذكم من القهر والعذاب إذا تبتم وكففتم عن الظلم، وإن رجعتم للظلم والاعتداء وغصب حقوق النّاس عدنا لعذابكم وللانتقام منكم، وحصرناكم بعد ذلك في جهنّم وحبسناكم فيها.

وممّا يجب الاعتبار به من عموم هذه الآي هو تحذير جميع الخلق في أيّ بلد من الإفساد في الأرض: بإتيان المعاصي بمختلف وجوهها مع الكفر، وبظلم النّاس في حقوقهم وأرزاقهم، والاستعلاء عليهم بقوّة النّفوذ أو المال، فإنّ الله تعالى يعاقب كلّ أمّة يستشري فيها هذا الإفساد بأن يسلّط عليهم أعداءهم حتّى يزرعوا في قلوبهم الخوف والفزع والهلع، فيهجر بيته وبلده ورزقه من يهجّر، ويقتّل من يقتّل، ويعيثوا في الديّار والأرض خرابا ودمارا، ويهتكوا الأعراض، ويفسدوا



على السكّان أمنهم وحياتهم، حتى إذا رجعوا إلى ربّهم بالاستغاثة وبالدعاء وبالتّوبة وبالعزم على إصلاح ما أفسدوا أعاد الله لهم أمنهم وطمأنينتهم، وأخمد فتنتهم، وأصلح شأنهم. وفي تاريخ الإنسانية الكثير من الأمثلة منها ما هو مسطّر في كتب التّاريخ، ومنها ما عايشناه في زماننا الحاضر. رأينا بلدانا قد غزاها الغزاة فعاثوا فيها فسادا وخرّبوها وقتّلوا وشرّدوا وروّعوا وأفزعوا ثمّ ذهبوا مخلّفين وراءهم خرابا، ومن البلدان ما أصابها الجائحات كجائحة جرثومة (الكورونا Covid19) التي روّعت النّاس فحبستهم في ديارهم وساءت وجوه الكثير منهم مما أصابهم من الفزع والهلع والخوف من الموت والهلاك حتى خلت شوارعهم العامرة منهم، وإذا بالنّاس يذكرون ربّهم، فالتجؤوا إليه تعالى ضارعين يسألونه كشف الضرّ عنهم، ورفع الكرب والبلاء، وردّ الوباء وإيقافه. وكذا فإنّ بعض النّاس لا يعرفون ربّهم إلاّ حين يمسّهم الضرّ، وقد جاء في الحديث الشريف عن ابن عبّاس فيما أخرجه الترمذي : "تعرّف إلى الله في الرّخاء يعرفك في الشدّة". سيذكر التّاريخ أنّ جرثومة لم تكن تُرَى بالعين المجرّدة، ولم يكن يعرف لها مصدر، ولا موضع اِنتشار، قد جالت في العالم كلّه، وفي جميع ربوع الأرض تنتقل عبر اللمس، فتكت بعدد كبير من أرواح النّاس في صمت عبر قطع النَّفَس والهواء عنهم، عبر الخنق في هدوء تام، وعلى عجل، لا تمهل، تُمِيتُ الإنسان وهي لا تموت، ولا يعرف لها دواء فتّاك. أقامت حربا عالمية عليها، أخرجت الجند من ثكناتهم لحبس النّاس في بيوتهم، ولغلق محلاّت أعمالهم، وتعطيلهم عن نشاطهم وكسب أرزاقهم وعطّلت مصالحهم، وأبعدت الأفراد عن بعض، فلا هُم يتصافحون، ولا يتقاربون ولا يجتمعون ولا يتزاورون، وضربت اِقتصاد البلدان في مَقْتَلٍ، ولم يسلم من أذاها قويّ ناهيك عن الضعيف، ولا بلد قويّ وعظيم وثريّ ولا مجتمع ضعيف. ورأى فيها المؤمن قدرة الله تعالى على جميع خلقه، يقهرهم إذا شاء بأضعف خلقه، بل بجرثومة لا ترى، ولا يشعر بها أحد، إذا دخلت جسم إنسان فتكت به وأردته قتيلا في فراشه وهو يبصر ولا يجد لنفسه دواءً. سبحان الله العظيم القاهر العزيز الجبّار.

- إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا **(9)** :

هذه في بيان فضيلة القرآن، كتاب المسلمين، فما أسعدهم به إذا اتّخذوه دليلا وناصحا واعظا ومرشدا. إنّه يرشد للسبيل الأقرب للهدى والصواب (وهذه صفة ملّة الإسلام، دين التّوحيد). وهو يبشّر المؤمنين الذين يؤدّون الطاعات، ويعملون بالأوامر، ويجتنبون المنهيات بأن يكرمهم الله تعالى بالأجر المضاعف الجزيل على طاعاتهم.

- وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا **(10)** :

وأمّا الذين يكذّبون بالآخرة، ولا يصدّقون بالبعث وبيوم الحساب فقد أُعِدَّ لهم العذاب الموجع حتى يعلموا أنّ ما جاءهم من عند ربّهم كان حقّا وصدقا.

- وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولاً **(11)** :

هذه لتحذير الإنسان من أن يدعو على نفسه، أو على ماله وولده بالشرّ عند الغضب، فربّما يصادف ساعة إستجابة فيهلك، ويزداد نكدًا بعد غضبه، وتضطرب أموره، ولذا يجب عليه كتم غيظه، ويدعو بأن يصلح له شأنه وحاله، أو أن يهدي ولده، وإذا دعا بالخير، فلا يستعجل الاستجابة لدعائه بالخير، أو لدعائه بالشرّ على الغير، فإنّ لله تعالى تصريف الأمور، وكفى بالعبد أن يرفع أمره إلى الله تعالى ويطلب عونه، والاستجابة لرغبته الحسنة.

- وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلاً مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلاً **(12)** :

وجعل الله تعالى في تعاقب الليل والنّهار دليلين على اِنفراد الله جلّ وعلا بالخلق والقدرة، وعلى حكمة تدبيره ليجعل لخلقه زمنا للعمل والسعي، وزمنا للسّكن والراحة. ويذهب الله تعالى سواد الليل وظلامه، ويأتي بالنّهار المضيء لتبصر في وقته الأشياء بوضوح، ولتنشرح صدوركم بضيائه، وتنشطوا وتخرجوا لتطلبوا المال والكسب والرزق الذي تحتاجون إليه، ولتعلموا بتعاقبهما عدد الأيّام والشهور والسنين وحساب الزمن.(وَكُلَّ شَيۡءٍ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلاً) ولقد نظمّنا هذا التّعاقب ورتبناه ترتيبا دقيقا ومنتظما.

- وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا **(13)** ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا **(14)** :

الطائر عند العرب زمن نزول القرآن هو السهم الذي يخرج من قوس الرّامي طائرا ليصيب قَنصَه، ويعني عندهم الحظّ والنّصيب. كان من عادتهم أن يجتمع عدد منهم على شراء جزور (صغير الإبل) لنحره، وتقاسم لحمه على عددهم. فإذا نحروا الجزور قسموا لحمه أكداسا دون تعيين لأحد، حتى إذا فرغوا من القسمة، وحتى لا يتخيّر أحد كدسا من أكداسه، وحتى لا يتخاصموا في القسمة يتأخر جميعهم عن الأكداس، ويأخذ كلّ واحد قوسه ويرمي سهمه، وحيث يقع سهمه يكون ذاك الكدس حظّه من الجزور، يأخذه طواعية. فإذا حصل على نصيبه من الجزور كان حرّا في التصرّف فيه، إن شاء أكله كلّه، وإن شاء أطعم منه من شاء أن يطعمه، وإن شاء قدّده، هو حرّ في تصرّفه في حظّه منه.

على هذا يفهم الطائر في هذه الآية على أنّه الحظّ الّذي أوتيه في حياته. فمن النّاس من كان حظّه في عقله وتدبيره، قد ينتفع بما أوتي فيكثر علمه وينفع به النّاس، وقد يوجّهه في التّحيّل وغصب حقوق النّاس. ومن النّاس من يؤتى قوّة في البدن، فيصرف حظّه هذا في الدّفاع



عن الوطن أو في العمل أو في البناء والتشييد فينفع بها نفسه وغيره، وقد يصرف هذه القوّة في التسلّط والظلم وإرهاب النّاس.. وكذا فإنّ كلّ إنسان قد أوتي حظّه لينتفع به في حياته، وإن كان حظّه في حسن صوته، وهذا من فضل الله على خلقه. وسيسأل كلّ إنسان يوم الحساب عمّا فعل بحظّه ونصيبه في حياته وعن كسبه منه، وعن تصرّفه فيه. الحظّ من الله تعالى فضلٌ ومِنَّةٌ، والتصرّف فيه من كسب الإنسان، وهو ما سيسأل عنه يوم القيامة.

وعلى هذا يكون معنى الآية على النّحو التالي: وكلّ إنسان منحناه حظّا في حياته ونصيبا من الخصائص، وحظّه هذا(فِي عُنُقِهِۦ) أي ملازمٌ له في حياته، هو قضاءُ الله تعالى فيه، لا يفارقه. ويوم القيامة يُخرج له سجّلٌ عن تصرّفه في حظّه، يلقاه بِيُمْنَاه، أو بشماله فيه توثيقٌ لجميع أعماله.

ويقال له: أُنظر في سجّلك، واِقرأ ما كُتبَ فيه عن أعمالك، وحاسب نفسك بنفسك عمّا قدّمت ليوم الحساب، وكفى بنفسك محاسبة لك عن أعمالك.

- مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً **(15) :**

الآية في بيان أنّ كلّ إنسان مسؤول عن نفسه، ولا يحاسب إلاّ على عمله. فمن اِهتدى إلى التّوحيد، والاستقامة على شرع الله تعالى فثواب اِهتدائه له، لا يُحَوَّلُ لغيره. ومن ضلّ عن طريق ربّه وعصى واِتّبع هواه فإنّما عقابه على كفره يسلّط عليه وحده، ولا يحمله عنه أحدٌ، أو يشفع له فيه أحد. ولا تؤاخذ نفسٌ بذنوب نفس أخرى، فكلّ واحد مسؤول عن نفسه. ولم يترك الله تعالى الخلق لأنفسهم بل قد قضى أن يبعث إليهم رسلا لهديهم وإرشادهم، وترك فيهم كتبه للاهتداء بها حتى لا يكون للنّاس على الله حجّة في عدم اِهتدائهم، لقد أرسل الله تعالى إليهم رسلا ليكونوا شهداء عليهم يوم الحساب.

- وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا **(16) :**

هذه في تحذير زعماء القوم وأشرافهم وأغنيائهم من إتيان المعاصي والفواحش. والمعنى: لا تُهلك قرية، ولا يحلّ بها الوعيد إلاّ بعد أن يرسل الله تعالى إليها رسولا فيأمر أغنياءها وسلاطينها بطاعة الله عزّ وجلّ، وبأداء الحقوق والواجبات، فإذا خرجوا عن طاعة الله تعالى وطاعة الرّسول، وعصوا الأوامر، فعندئذ يحقّ على القرية الوعيد، ويأتيها العذاب فتُدَمَّر تدميرا، وتخرّب للاعتبار.

- وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا **(17) :**

ولقد أهلكنا على مدى التاريخ من بعد طوفان نوح الكثير من الأمم الذين كانوا مفسدين في الأرض بالكفر والمعاصي، وبالظلم لأنفسهم، وكفى بالله أن يكون مطّلعا على أعمالهم، وبصيرا بما يفعلون من الذنوب والمنكرات، فأهلكناهم بمعاصيهم.

- مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا (18) :

من كان يطلب في حياته الكسب الدنيوي بعمله وسعيه، ولا يعمل للآخرة، ولا يؤمن بها، أعطيناه ممّا يطلب من بسط الرّزق والجاه وغيرهما بحسب ما قضينا له لحياته من عمر يعيشه، ومن كسب يكسبه، ثمّ جعلنا مقرّه في جهنّم يقيم فيها ليقاسي حرّها (مَذۡمُومٗا) أي مَمْقُوتًا (مَّدۡحُورٗا) أي مطرودا من رحمة ربّه، ومُبْعَدًا عنها.

- وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا (19) :

ومن كان مؤمنا بالله الواحد الأحد، وعمل بالطاعات، وكان يرجو بعمله الصالح رضوان ربّه، ونعيم الآخرة جازاه الله تعالى عن عمله الجزاء الحسن.

- كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا (20) :

نعطي كُلاًّ من الفريقين: الفريق الذي يطلب في حياته دنياه، والفريق الذي يطلب بعمله في دنياه ثواب الله تعالى في آخرته، نعطيهم ما يطلبون من فضل الله ونِعَمه، وما كان عطاء الله تعالى ممنوعا عن أحد وإن لم يكن مؤمنا، ولا مصدّقا بآخرته.

- ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا (21) :

تأمّل كيف فضّلنا بعض النّاس على بعض في الرّزق والعمل، وفي العقل، وفي صدق الإيمان، فمنهم مُقِلّ ومنهم مكثر، ومنهم من يحبّ خير الدنيا، ومنهم من يحبّ بعمله ثواب الآخرة، وإنّ ثواب الآخرة ونعيمها أفضل بكثير من نعيم الدنيا، وإنّ درجات التّكريم أعلى وأكبر ممّا يلقاه محبّ الدنيا من رفعةِ مَقامه في دنياه.

- لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا (22) :

لا تتّخذ مع الله إلاها آخر، فإنّما الله إلاه واحد، وهذا حتّى لا تكون موضوع ذمّ وتأنيب على شركك، وحتّى لا تكون خائبا، غير منصور، ومستسلما للعذاب يوم القيامة.

- وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا (23) وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا (24) :

الآيتان وما يليهما من الآيات إلى الآية 39 هي آيات "الحكمة" لقوله تعالى (ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ) (الآية 39) ومعنى (وَقَضَىٰ) : أوجب، وأمر، وألزم. ممّا أمر الله تعالى أن لا يُعبدَ إلاّ هو. هو الحقيق بالألوهية وبالتقديس، وبالعبادة والطاعة، وعبادة ما سواه باطلة وهباء، بل توجب العقاب لأنّها عبادة من الضلالات.

وأمر الله تعالى بالإحسان للوالدين في المعاملة وفي الطاعة المشروعة إلاّ إذا كانت طاعة في الشرك. وإنّ الإحسان إليهما يكون أظهرَ، وأبْين، وألزمَ حين يبلغ أحدهما أو كلاهما معا سنّ العجز، وكذلك عند الإصابة بالخَرَفِ، فلا تأنف من العناية بهما إذا بلغا هذه المرحلة ولا تتضجّر أمامها فتضايقهما بما يصدر عنك من قول وإن كان بإطلاق نَفَسِ التأفّف (أفّ)، ولا تزجرهما عمّا لا يعجبك منهما، وقل لهما قولا حسنا لطيفا رقيقا. وأظهر لهما جانب اللّين والرّفق من باب الرّحمة والعطف والإشفاق عليهما، وأُدع لهما بالرحمة وهما على تلك الحال، كما رحماك حينما وُلدت وزمن ضعفك ورضاعك وزمن مرضك وبكائك ليلا ونهارا، وكنت زمنها أحوج لعطفهما وحنانهما ورعايتهما، أُدع لهما بالرّحمة بمثل ما تحمّلا من معاناة عند تربيتك لمّا كنت صغيرا.

- رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا (25) :

(الأوّاب) هو العائد إلى الله تعالى بالتّوبة طالبا مغفرته للتّجاوز عمّا كان عليه من معاصيه. والمعنى: والله عليم بما في نفوسكم من الحنوّ على والديكم، ومن الرّغبة في الإحسان إليهما والبرّ بهم، أو من التأفّف من وجودهم، وعليم بالعاقّ منكم لوالديه أو لأحدهما. إن تكونوا صادقين في نوايا البرّ بالوالدين، وحصل منكم الوقوع في بعض الزَّلَل في حقوقهم من الإحسان إليهم، وتبتم عمّا صدر منكم، وعدتم إلى البرّ، وإلى طاعة الله في الوالدين فإنّه تعالى غفور لعباده الأوّابين.

- وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا (26) إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا (27) :

المؤمن الحكيم هو الذي يعرف حقّ ذوي قرابته من الصّلة للسؤال عنهم، ولتوثيق أواصر المحبّة، ولإعانة من يستحقّ منهم العون خاصة وقت الحاجة والشدّة. وهو الذي يقدّم العون للمسكين المحتاج وابن السبيل للتّراحم والمؤازرة. وهو الذي لا ينفق ماله في المعاصي، وفي غير حقّ. المبذّرون الذين ينفقون أموالهم في المعاصي، وفي الملاهي كأنّهم إخوان للشياطين العصاة المذنبين، فاحذروا تدبير الشّيطان في تزيين إنفاقكم لأموالكم في المعاصي، فإنّه عاص لربّه وكافر، فلا تجعلوه لكم ناصحا ومرشدا.

- وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا (28) وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا (29) إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا (30) :

وإن سألوك عطاءً، ومساعدة، فلم يكن عندك ما تعطيهم فأعرضت عنهم بوجهك اِبتغاء رزق تنتظره من الله، فرُدَّهم بالقول اللّيّن الجميل من مثل قولك: إذا جاءنا ما نطلب أو ما ننتظره



أسهمناكم منه. لا تكن شحيحا بخيلا، فلا تمتدّ يدك بالعطاء كأنّها مُقيّدة، ولا تعط كلّ ما عندك. فتصير لائِمًا لنفسك، نادما عمّا فعلت، وتتحسّر على ما فرّطت فيه. العطاء من الله عزّ وجلّ يبسط الرزق لمن يشاء حسب ما قدر له في نصيبه في الحياة، ويضيّق ويقدّر على بعض من عباده بحسب ما قدّر له لحياته عند ولادته. إنّه تعالى خبير بما يصلح لعباده، وبصير بشؤونهم، وبما يحتاجون إليه، وبما عندهم، وبما يفعلون به.

- **وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا (31) :**

هذه في الحضّ على تنظيم النّسل، وقد جاء في سورة النساء أنّ من واجب الرّجل أن يعول أسرته فقال في التّرغيب في عدم تعداد الزّيجات ليكون قادرا على إعالة الزّوجة وذرّيته: (فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ) (النساء الآية 9) إنجاب الذريّة مسؤولية، فمن كان فقيرا، ولا يستطيع أن يعول ذرّيته فعليه بالحيطة والحذر، ويحرم عليه إذا وُلد لَهُ ولدٌ، ذكرًا أو أنثى – أن يقتله إذا عرف عجزه عن أن يعيله، أو خشي زيادة الحاجة والفاقة والفقر. يحرم عليه قتل مولوده، والله تعالى يتكفّل برزقه وبرزق والديه إذا بُعِث للحياة. إنّ قتل المواليد معصية كبيرة، وإثمٌ عظيمٌ، يجب الاحتياط من الإنجاب فإذا وُلِدَ المولود فلا يقتل.

- **وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا (32) :**

وإِجتنبوا الزّنى، وإبتعدوا عن هذه الفاحشة التي تأباها النّفوس العفيفة، ولا تدنوا منها، والنّهي عن قرب هذه الفاحشة أبلغ من : ولا تزنوا. ولا خلاف من أنّ الزّنى من الكبائر. وإنّ طريقه إلى النّار، وإنّ مخلّفاته سيّئة جدا خاصّة إذا أعقبه حَمْلٌ وإنجاب. ما أعظم جرم الإنجاب من الحرام فإذا ألحق ولد الزّنى بأبيه لحق الأطراف الثلاثة الرجل والمرأة والولد العار لآخر حياتهم، وكان في إلحاق ولد الزّنى بورثة أبيه مشكل، وكانت حياة المولود في مجتمعه شقية ومحلّ طعن وذمّ. وإن لم يلحق بنسبة أبيه فالطامّة أعظم حين يشبّ الفتى أو الفتاة بدون نسبة، ويطلق عليه أو عليها ابن حرام أو إبنة حرام، وكيف سيكون مصيره أو مصيرها إذا عاش أحدهما في الشارع مهملا بغير عائل وبغير مُرَبٍّ.

- **وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا (33) :**

وهذه في تحريم قتل النّفس التي خلقها الله إلا بإدانة واضحة من قاضٍ عدلٍ، والقاضي أو السلطان هو الذي يتولّى تنفيذ الحكم. ومن قُتل مظلوما فقد جعل الله لوليّ القتيل حقّا على القاتل فإمّا أن يطلب من القاضي القصاص منه، وإمّا أن يطلب الديّة، ولا يجب أن يتجاوز حدّه في القصاص، كأن يطلب أن يُقتل أكثر من واحد بواحد، أو أن يطلب أن يُقتل أحد غير القاتل كأن

يطلب قتل أبيه أو إبنه. أو أن يجحف في طلب الديّة. إنّ وليّ القتيل منصور بإذن الله تعالى بالحكم العادل، أو إنّ القتيل المظلوم منصور بوليّه ليأخذ حقّه من القاتل بدلاً عنه.

- وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا **(34)** :

والمؤمن الحكيم في تصرّفه لا يقرب مال اليتيم إلاّ إذا كان يريد أن يستثمره له، وأن ينمّيه له، أو كان يعزم على إصلاحه إن كان بيتا أو أرضا فلاحيّة أو محلاّ تجاريا، وإذا كان وليّه محتاجا وفقيرا وعاملا في رزق اليتيم فإنّه لا يأكل منه إلاّ بالمعروف أي على قدر ما يأخذه العامل الذي يعمل نفس عمله، ولا يزيد. حتى إذا بلغ اليتيم رشده، وصار يحسن تدبير ماله ورزقه ردّ إليه رزقه كاملا غير منقوص، ويُشهد على ذلك ويأتمر المؤمن الحكيم بأمر الله تعالى فيَفِي بعهده ولا ينقصه، فإنّ كلّ إنسان مسؤول عن العهد الذي أعطاه وعاهد عليه يوم القيامة، اِستوفاه، أم خالفه، ونقضه؟

- وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا **(35)** :

ويأمر الله تعالى عبده المؤمن إذا أراد أن يكون حكيما في تصرّفاته، وإذا كان يريد لنفسه أن ينال خيرا في دنياه بحسن الذكر، وينال خيرا في آخرته لتعامله مع النّاس بالقسطاس المستقيم، وإذا كان يريد لنفسه أن يكون (وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) أي حسن العاقبة وحسن الثواب في الآخرة، فعليه أن يستوفي الكيل والميزان وألاّ يكون من المطفّفين، وأن لا يبخس النّاس حقّهم إذا اِكتال عليهم أو إذا كال لهم، أو إذا وزن لهم، أو وزن عليهم، عليه أن يزن (بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ)، أي أن يزن بالميزان العدل، بلا جور ولا خديعة. وإن من بعض تجار الأسواق من يعمد إلى التخفيض في سعر بضاعته لجلب الحرفاء، ويعمد في المقابل إلى العبث بمختلف الأدوات التي توزن بها البضاعة لتحقيق الرّبح الوفير من الغشّ في الميزان، وهذا صنف من أصناف المخادعة والغدر والغشّ والسّرقة، وإنّ ربحه من صنف أكل أموال النّاس بالباطل، وليس هذا من عمل الشّطارة في التّجارة، وإنما هو من عمل الشّياطين.

- وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا **(36)** :

وهذه في الأخلاق العامّة في تعامل النّاس مع بعض. (وَلَا تَقْفُ) أي ولا تحكم على أحد بالظنّ، إنّ بعض الظنّ إثم، ولا تَرْمِ أحدا بما ليس لك به علم. أَحْسِنْ ظنّك بالنّاس لتحابّوا، ولا تطعنْ في أخلاق من تعرف من الأهل والأصحاب حتّى إذا عرفوا منك هذا الخلق هجروك وفقدوا ثقتهم فيك. وحافظ على سمعك، فلا تجلس في مجلس نميمة أو مجلس يُهْزَأُ فيه بالقرآن، أو بالدّين، أو بالنّاس، ولا تلق سمعك للإشاعات والاِفتراءات فتحمل معك الأكاذيب ثمّ تنقلها

لغيرك، حتى إذا كثّرت من نقلها صرت مثلهم كذّابا عند النّاس، وغير موثوق بكلامك، ولا يكون المؤمن كذّابا ولا مفتريا. واحفظ بصرك بخفضه عن النّظر إلى ما لا يحلّ لك، وطهّر قلبك من الرّجس ومن الضغينة ومن الحسد ومن الكره، ومن كلّ الأمراض القلبية كالنّفاق، وإضمار الشرّ والتفكير في الكيد والمكر والخديعة. لسانك، وسمعك، وبصرك، وفؤادك فاحكم زِمامَها، واجعلها شاهدة لك يوم القيامة على حسن اِستعمالها، ولا تجعلها شاهدة عليك يوم القيامة، واعلم أنّك مسؤول عنها في توجيهها نحو الخير ونحو الفضائل، فلا تجعلها تتحكّم فيك، بل اِجعلها خاضعة لسيطرتك وإرادتك.

- وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا **(37)** :

وكن متواضعا في تعاملك مع النّاس ولا تستكبر، ولا تمش في الأرض مختالا، وفي خيلاء، إنّك تنقب الأرض بقدميك فخفّف الوَطْءَ، ولن تبلغ بتعاظمك مبلغ طول الجبال لترى النّاس من فوق، فإنّك عبدٌ ضعيف، وستعرف قدرك من الضعف عند العجز، أو عند الإصابة بمرض، فعش حياتك كسائر الخلق حتى لا يشمت فيك عند ضعفك، أو يسوء ذكرك عند غيابك، أو من بعدك.

- كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا **(38)** :

كلّ ما تقدّم ذكره من التّحذير والنّهي (وعددها أربع وعشرون) كان محذورا، ومكروها عند الله تعالى. ومن يأتيها يُؤاخذ عليها ويعاقب.

- ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا **(39)** :

كلّ ما تقدّم ذكره من الأوامر والنّواهي هي من العلم النّافع، ومن مكارم الأخلاق وفضائلها التي ترفع الإنسان إلى مرتبة رفيعة عند الله جلّ وعلا، وعند النّاس، هذا ممّا أُوحِيَ إليك – يا محمد – من ربّك لتُعَلِّمَ النّاسَ منهجَ اِكتساب الحكمة في التّصرّف مع بعض. وأُختتمت الآية بما بُدئت به الوصايا : بالدعوى لنَبْذِ الشّرك وللتّأكيد على التّوحيد، وللتّحذير من الإلقاء في جهنّم وهو ملام، ومطرود من رحمة الله تعالى ومبعد عنها.

- أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا **(40)** :

الخطاب في الآية موجّه لمشركي قريش، والاستفهام للتّوبيخ. والمعنى: هل فضّلكم ربّكم وخصّكم بإنجاب الذكور، وجعلتم لربّكم ما تكرهون: الإناث. إنّكم لتقولون قولا فيه إثم عظيم، واِفتراء على الله سبحانه عمّا تصفون له من الكذب ومن الباطل.

- وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا **(41)** :



ولقد بيّنّا في هذا القرآن وكرّرنا بحجج متعدّدة وبوسائل وبطرق مختلفة ومغايرة للإقناع، ومنها وسائل التّرغيب والتّرهيب، ومنها التّذكير بعاقبة الأمم السالفة، وذلك ليعتبروا ويتّعظوا، وليتدبّروا دلائله وحججه حتى يهتدوا، وما يزيدهم هذا التصريف والتذكير إلاّ مزيدا من التّباعد عن الحقّ وعن الرّشاد، وعن الاعتبار.

- **قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا (42) سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا (43) :**

أخبرهم لو كان في الكون آلهة عدّة – كما تدّعون، وتتوهمون خطأً – لتنازعوا على العرش طلبا للملك، وللمنازلة في الحكم كما يحدث بين البشر على الأرض، أو لطلبوا التّقرّب إلى الله تعالى زلفى، تنزّه تعالى وتقدّس وعزّ في مُلكه وعلا في عرشه عمّا يدّعون ممّا لا يليق بألوهيته وبوحدانيّته. وتنزّه تعالى عن النّدّ، وعن الشّريك، وعن الحاجة للصاحبة والولد، وارتفع عمّا يصفه به المشركون.

- **تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا (44) :**

هذه في بيان إستغناء الله تعالى عن تسبيح عباده الكافرين، فإنّ كلّ من في السماوات والأرض من الملائكة والإنس والجنّ ينزّهونه عن الندّ والشريك، وعن الحاجة للصاحبة والولد، وكلّ شيء على العموم في كلّ مخلوق، حيّ ونامٍ يسبّح بحمده تعالى لفضله عليه في الخلق والإيجاد، ولكن ليس للبشر علم أو إدراك لكيفية تسبيح هذه الأشياء. إنّه تعالى حليم بعباده، لا يؤاخذهم عمّا يجهلون، وهو تعالى كثير المغفرة لعباده المؤمنين.

- **وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا (45) :**

هذه في حرمان الكافرين بيوم البعث وبالآخرة وبالحساب من الانتفاع بهدي القرآن الكريم، والمعنى: إذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين هؤلاء المكذّبين بالآخرة ستارا ساترا يمنعهم من الانتفاع بالقرآن وهديه.

- **وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا (46) :**

وجعلنا على قلوبهم أغطية وأغشية تمنعهم من أن يفهموه، ويدركوا ما فيه من الحكمة، وقد نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا قرأ القرآن، منهم أبو جهل، وأبو سفيان، والنضر بن الحارث، وأم جميل فحجب الله تعالى أبصارهم عنه عند قراءته صلّى الله عليه وسلّم للقرآن، فكانوا يمرّون به، ولا يرونه. وجعل الله تعالى على آذانهم صمما وثقلا فلا



يسمعونه. وإذا ذكرت – يا محمد – ربّك كما جاءك في القرآن من أنّه واحد، لا إلاه إلا الله، رجع المشركون من حيث جاؤوا كارهين ما سمعوا وغيّروا طريقهم حتّى لا يسمعوا كلمة التّوحيد.

- نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا **(47) :**

إنّ الله تعالى عليم بما كانوا يستمعونه من القرآن، وكانوا يستمعون إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو يقرأ عليهم آيات من القرآن في مجلسهم حين يجتمعون، فإذا خلا هؤلاء المشركون بأنفسهم، وتحدّثوا عنك – يا محمد – وعمّا اِستمعوا إليه منك، اِتّهموك فيما يتسارُّون به خفية بأنّك رجل له سحر، فاحذروه حتّى لا يسحركم بسحره. ويتّهمونه بهذا للصدّ عنه، وللصّد عن السماع له.

- ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا **(48) :**

ما أعجب ما يقولون فيك – يا محمد – يتّهمونك بأنّك ساحر مرّة، وشاعر أخرى، ومجنون تارة، فضلّوا عن الحقّ، ولم يهتدوا إليه، ولم يجدوا سبيلا للصدّ عنك، ولتنفير النّاس منك ومن السماع إليك.

- وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا **(49) :**

وما كانت حجتهم في رفض الإيمان بالبعث إلاّ أن قالوا أحين نصبح بعد موتنا أجزاء متقطّعة ومتناثرة، أو صرنا غبارا وترابا نعاد كما كنّا وكما خُلقنا من جديد. واِستفهامهم إنكاري يفيد عندهم اِستحالة حدوث ذلك.

- قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا **(50)** أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا **(51)** يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا **(52) :**

أخبرهم – يا محمد – إن أصبحتم بعد موتكم حجارة أو حديدا، أو أيّ شيء آخر تقدرون عليه ممّا يُذَرُّ كالتّراب أو شيء صُلبٍ قاسٍ فإنّ الله عزّ وجلّ سيعيدكم كما خُلقتم أوّل مرّة. الذي خلقكم أوّل مرّة وأبْدَعكم يُعِيدكم بعد موتكم كما كنتم. إذا أخبرتهم بهذا فسيحرّكون رؤوسهم اِستهزاءً وتكذيبا، سيسألونك ساخرين مكذّبين غير مصدّقين. ومتى ستكون هذه الإعادة؟ أخبرهم: لعلّ ذلك يكون قريبا. يوم ينفخ في الصور النّفخة الثانية للقيام للحساب يناديكم المنادي للحشر فستخرجون مسرعين مستجيبين لأمر الله تعالى حامدين شاكرين الله على تحقيق وعده. ويومئذ ستَحْسِبُون أنّكم مكثتم في قبوركم زمنا قليلا وتحسبون أنّ أجسامكم لم تندثر بعدُ ولم تتحوّل إلى ذرّ أو أيّ شيء آخر، ولا تتوقّعون أنّ دهورا طويلة قد مضت عليها بين موتكم وبعثكم.



- وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا (53) :

وقل – يا محمّد – لعبادي المؤمنين إذا جادلهم الكفّار في التّوحيد وتصديق الرّسول أن يقولوا لهم الكلمة التي هي أحسن والتي لا تثير حميتهم، والتي فيها دعاءٌ لهم ليهتدوا للحقّ والصواب، والكلمة التي فيها إلانَةُ القول، وحسنُ الأدب، وكلّ كلمة تُسْقِطُ نزغات الشيطان الذي يحبّ أن يفسد بينهم لإثارة الفتنة والعصبية والحمية، فإنّ الشيطان شديد العداوة للإنسان، يحبّ تهييجه ليُفسد عليه طباعه وخلقه.

- رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا (54) :

هذه لتعليل ما جاء في الآية السابقة في دعوة المؤمنين للتّعامل مع كفّار قريش بالتجمّل بالصبر، وبالتّعامل معهم باللّين. والمعنى: ربّكم أعلم بحالكم، وبما تلاقون من معاناة. إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من كفّار مكّة، أو إن يشأ يأمركم بقتالهم فتتعذّبون لأنّكم لم تملكوا بعدُ الشوكة لتقاتلوهم، وما وكلناك لمنعهم من الكفر، ولتفرض عليهم الإيمان فرضا.

- وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا (55) :

وربّك أعلم بما يفعل جميع خلقه في السماوات والأرض، وأعلم بأحوالهم، وبما هم فيه من رفاه وشدّة، ولقد ميّزنا بعض النّبيئين على بعض فيما أوتُوا من كتب أو معجزات، وفيمن أرسلوا إليهم، وآتينا داود عليه السلام (زَبُورًا)، وهو كتاب تسبيح وتمجيد وثناء على الله تعالى. قد كان نوح أبًا للبشر، وكان إبراهيم أبَ الأنبياء، وكان أمّة، وكلّم الله تعالى موسى تكليما، وآتاه التّوراة والألواح، ووُلد عيسى بكلمة من الله، وآتاه الإنجيل، ورفع إلى السماء، وكلّ الرّسل أرسلوا إلى أقوامهم، إلاّ محمّدا أرسل للنّاس كافّة، وكان خاتما للأنبياء والرّسل، وجاء بالقرآن الكتاب المهيمن، وجاء بدين الله : الإسلام (إنّ الدّين عند الله الإسلام)، وشرّف بأنّ الله وملائكته يصلّون عليه، وأمر أتباعه بالصلاة والسّلام عليه صلّى الله عليه وسلّم.

- قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا (56) :

الخطاب في الآية للمشركين: عبدة الأصنام، والمعنى: أُدعوا أصنامكم التي تتّخذونها آلهة لكم كما تدّعون، فإنّها لن تنفعكم بشيء، وإنّها لا تقدر أن تدفع عنكم ضرّا مكروها، أو ترفع عنكم كربا أو تحوّله عنكم إلى غيركم.

- أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا (57) :

في هذه الآية إشكالٌ حيَّرَ المفسّرين، ويتمثّل هذا الإشكال في معرفة على من يعود اِسم الإشارة: أولئك الذي جاء في أول الآية؟ ولذلك اِختلفت آراء بعضهم في تعيين العائد إليه اِسم الإشارة. وقد اِخترت من الأقوال ما جاء في صحيح مسلم من كتاب التفسير (ج8 ص 244 ط. لبنان): حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدّثنا عبد الله بن إدريس عن الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله في قوله عزّ وجلّ : (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ) قال كان نفر من الجنّ أسلموا وكانوا يُعبدُون فبقي الذين كانوا يَعْبُدُون على عبادتهم وقد أسلم نفرٌ من الجنّ. وعلى هذا يكون معنى الآية: أولئك الجنّ الذين كان يعْبدهم جمع من المشركين قد أسلموا، وتبرّؤوا من عبادة المشركين لهم، وصاروا يطلبون ما يقرّبهم إلى الله من الطاعات، ويرجون رحمة ربّهم، ويخافون عذابه. إنّ عذابَ الله يحذرُهُ كلُّ مؤمن ويتّقيه.

- **وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورًا (58) :**

ما من قوم يظلمون أنفسهم بالكفر والمعاصي إلاّ وكتب الله عليهم أن يُهلكوا بتسليط أعدائهم الأشدّاء عليهم للفتك بهم، ولترويعهم عساهم يعودون إلى الله تعالى بالاستجارة به لينقذهم من كربهم وشدّتهم قبل يوم القيامة، أو يعذّبهم بالبلايا أو بالأوبئة الفتّاكة فيشتدّ عليهم الخوف والفزع والهلع من الإصابة حتى يُسارعوا إلى الله تعالى بطلب رحمته ليكشف عنهم البلاء أو يدفع عنهم ضرّ الوباء. هذا القضاء مسجّل في اللوح المحفوظ. وقد جاءت هذه الآية للتّذكير بهذا القضاء للمداومة على الاستقامة على دين الله تعالى: إيمانا واِحتسابا. وقد عشنا في عصرنا الحاضر ما فعل اِنتشار وباء جرثومة "كورونا" في النّاس، فقد دفع الخوف بالكثير منهم لذكر ربّهم وطلب رحمته وكشف الكرب وطلب الحفظ واللّطف بهم، وجعل بعضهم يذكر قدرة الله على التمكّن من عباده بتسليط أضعف خلقه ممّا لا يُرى على بعضهم ليروْا آيةً من آياته فيعتبروا، ويتّعظوا. وقد أصيب قوم فرعون من قبل بسبع آيات من آيات الله من مثل القمّل والضّفادع والدم. فلمّا هلك أكثرهم عرفوا أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه بتنفيذ أمره فخضعوا لما أمرهم من تسريح بني إسرائيل.

- **وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفًا (59) :**

وما منعنا من إرسال المعجزات الحسّيّة من مثل ما يطلبها المشركون إلاّ لأنّ السّابقين قد كذّبوا بأنّها من عند الله تعالى، وجعلوها من عمل السحر كالذي قاله فرعون وملؤه في معجزات موسى. ولقد آتى الله تعالى ثمود معجزة النّاقة التي خرجت من صخرة في جبل بحضور جمع من قومه، وتحت أبصارهم، فظلموا بها وعقروها عنادا. وما نرسل بالآيات التي تصيب النّاس



بالكرب إلاّ لتخويف الظالمين والكافرين من عذاب الهلاك والاستئصال لينتهوا عمّا هم فيه من الاستهزاء بوعيد الله تعالى، ولينتهوا عن معاصيهم، وليبتليهم حتى يصلحوا شأنهم مع ربّهم ومعتقدهم ومع النّاس، كالذي حدث من إرسال الجراد والقمّل والضفادع على آل فرعون من قبلُ، وما أصيب به العالم في حاضرنا من جرثومة (الكورونا) التي روّعت العالم بأجمعه، وألجأت النّاس إلى بيوتهم، ودفعتهم للاستجارة بالله تعالى وطلب حفظه، جرثومة أعجزت جهابذة الأطباء عن الفتك بها وإيقاف تأثيرها، تنتقل باللمس فتصيب الرئتين فتسدّ على المُصاب تنفّسه وتقتله في زمن قصير، والعدوى بها سريعة.

- وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا **(60) :**

وإذ قلنا لك – يا محمد – بلّغ رسالتك، فإنّا نعصمك من قومك ونحفظك، إنّ ربّك محيط بقومك فلا يصلون إليك بسوء، فامضِ في التّبليغ، ولا تَهَبْهُم. وما جعلنا الرؤيا التي رأيتها رؤيا عين ليلة أسرينا بك إلى بيت المقدس إلاّ اِمتحانا لإيمان من آمنوا بك وصدّقوا بما جئتهم به، فمن اِرتدّ منهم لأنّه أنكر عليك أن تكون قد أسريت إلى بيت المقدس فقد اِفتُتِنَ، بمثل ما اِمتحنّا آخرين بخبر (الشجرة الملعونة في القرآن) وهي شجرة الزّقوم فصار يتندّر بها بمثل ما تندّر بها المشركون. قال أبو جهل اِستهزاءً: هذا محمّد يتوعّدكم بنار تحرق الحجارة، ثمّ يزعم أنّها تُنْبِتُ الشّجر، والنّار تأكل الشّجر، وما نعرف الزّقوم إلاّ التَّمْرَ والزَّبَدَ، ثمّ أمر أبو جهل جارية فأحضرت تمرا وزبدا، فقال لأصحابه: تزقّموا. وإنّ بعضهم ينسب هذه الرواية لابن الزِّبَعْرَى. ونخوّفهم بالهلاك وعذاب الآخرة، فما يزيدهم الوعيد إلاّ تجاوزا للحدّ في الكفر والتكذيب والهزء.

- وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا **(61) :**

هذه إلى غاية الآية 65 في عصيان إبليس لأمر ربّه اِستكبارا، وفي عداوته للإنسان. والمعنى: وأذكر إذ قلنا للملائكة–وكان إبليس معهم– حين تلَقَّوْا أمر ربّهم بالسجود لآدم سجود التكريم والتحيّة عند خلقه، فسجدت الملائكة وامتنع إبليس عن السجود بدعوى أنّ أصل خلقه أفضل من أصل خلق آدم الذي خُلق من طين. الاستفهام (ءَأَسْجُد) يُفيد رفض الأمر بالسجود اِحتقارا لجنس الإنسان.

- قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا **(62) :**

وقال إبليس لربّه: أرأيت هذا الذي كرّمته عليّ، وأمرتني بالسجود له لئن قضيت بأن تؤخّر موتي إلى يوم القيامة لأستولينّ على ذرّيته بالإغواء والإغراء ولأستميلهم للمعاصي إلاّ قليلا منهم، وهؤلاء هم الذين عصمهم إيمانهم من إتيان المعصية.

- قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءً مَّوۡفُورًا (63) :

وتَبَعًا لما قال إبليس فأُطرد من الملكوت العلوي نتيجة لما قال، وأخبر بأن مأواه في آخرته سيكون في جهنّم مع من اِتّبعه من النّاس في إتيان المعاصي لتكون لهم جزاءً عن عصيانهم لأوامر ربّهم، وهو جزاء وفير يجمعهم كلّهم فلا يتخلّف عنه أيّ واحد منهم.

- وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا (64) :

واِستَخْفِفْ بمن اِستطعت أن تستميلهم إليك بوساوسك، واِدفعهم بغوايتك وإغراءاتك للمعاصي، واِجمع عليهم جندك من الشياطين الرّاكبين منهم والمشاة. وشاركهم في تدبير الكسب الحرام الوفير، وساندهم بالأولاد والأعوان الذين يعينونهم على مظالمهم وتحيّلهم. ومَنِّهِمْ الأماني الكاذبة، وعِدْهم بالنّصرة، وبالرّبح وبالجاهِ. وما يعدهم الشّيطان من وعود هي من التّغرير بهم، وهي من الوعود الباطلة المُزَيَّنَة في ظاهرها.

- إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا (65) :

هذه في تبشير المؤمنين الصادقين بأنّ الشّيطان لا قدرة له عليهم، ولا يتسلّط عليهم. فالله حافظهم من كيده ومكره، وكفى به حافظا.

- رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا (66) :

إنّ ربّكم هو الذي يسوق لكم الفلك ويجريها على سطح الماء في البحر لتبتغوا رزقكم من التّجارة، وهذا من فضله عليكم فاشكروا له، ولا تشركوا به إلاها آخر. إنّه بكم رحيم، لا يحبّ لكم العذاب فأخلصوا له وحده في العبادة والطاعة.

- وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا (67) :

وأذكروا حينما تشعرون بالخوف من الغرق حين تركبون البحر فإنّكم عند خوفكم لا تذكرون آلهتكم ولا تدعونها لأنّكم تعلمون أنّها لا تسمع لكم ولا تستجيب، وتستجيرون بالله تعالى ولا تدعون إلاّ إيّاه لأنّكم تعرفون قدرته وتعرفون فضله وتعرفون أنّه معكم يسمع لكم ويستجيب.

وما أعجب أمركم حين ينجيكم إلى البرّ، وتنجون من الغرق والهلاك، فإنّكم تنسون فضل ربّكم عليكم، ورحمته بكم، وتعودون لكفركم وشرككم، وكان الإنسان كثير الجحود لمن أنعم عليه.

- أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا (68) :

هذه في وجوب الاعتبار بأحداث الشدّة وزمنها، فالإنسان عند مرضه، أو عند خوفه، أو عند إنتشار الوباء في محيطه، أو زمن القحط وقلّة المؤونة فإنّه يلتجئ سريعا إلى ربّه ويدعوه لكشف

كربه، ولحفظ حياته مستجيرا به، ومتذلّلا، فإذا اِطمأنّ وذهب عنه ما كان يخافه غفل عن ذكر ربّه، وعن حمده وشكره على فضله، وجحد النّعمة. وجاءت هذه الآية لتحذّره من الجحود. والمعنى: أفأمنتم عقاب ربّكم إذا جحدتم فضله، وعدتم لشرككم، إنّه قادر على أن يجعل جانبا من الأرض ينشقّ ويبتلعكم فتغرقون في باطنها، أو أمنتم من أن يرسل عليكم ريحا شديدة محمّلة بالحصباء، فتضرّ بكم وبمزارعكم وببيوتكم، ثمّ تدعون الله تعالى فلا يُسْتجَابُ لكم، ولن تجدوا لكم من دونه من يحفظكم من عذاب الهلاك.

- ﴿أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا (69)﴾ :

أم أمنتم أن يعيدكم إلى البحر ثانية، حتى إذا بلغتم أعماقه أرسل عليكم عاصفة من الريح مهلكة فتغرقون فيه عقابا لكم على كفركم وجحودكم، ثمّ لا تجدون من يطلب من بعدكم من يثأر لكم فتموتون من غير ثأر، ولا يكون لكم أثر، ولا خبر. وقد كان العربي في زمن الأوائل من أكثر ما يخشى على نفسه أن يُقْتل ولا يؤخذ له بثأره، وأن يموت ولا يترك من ورائه أثرا، ولا خبرا، فهذه الآية تحذّر الكافرين الجاحدين من أن يقتلوا شرّ قَتْلَة، القتلة التي يكرهون.

- ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا (70)﴾ :

لا يستطيع ابن آدم أن يحصي فضل الله عليه فيما كرّمه به على سائر مخلوقاته، خلق الله تعالى آدم بيديه، ونفخ فيه من روحه فأحسن بذلك خلقه وأوجده وأحياه بتلك النّفخة منه تعالى، ولولاها ما حَيِيَ، وجعل ملائكته يسجدون له تحية وتقديرا لأنّه مستخلف في الأرض، ولما ميّزه الله تعالى بعلم علّمه الله تعالى إيّاه، وأنزل إلى الأرض وقد منحه الكثير من القدرات، وأوجد له الكثير من خيراتها وسخّر له البرّ والبحر ليسعى فيهما، وليرزق منهما، ووهبه العقل والتدبير والإلهام، وحمّله الأمانة والمسؤولية ليكون مسؤولا عن عمله، ثمّ أرسل لبنيه رسلا لهديهم وأنزل إليهم كتبا ليتذكّروا مواعظه، وليعرفوا شرعه، وليعلموا وعده ووعيده... وإن نعد نِعَمَ الله تعالى علينا لا نحصيها. (وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ) وسخّرنا لهم البرّ وجعلناه ممهّدا لهم ليبتغوا رزقهم، وسخّرنا لهم البحر ليحملهم في أسفارهم عبر الفلك لبلدٍ لا يبلغونه إلاّ بقطعه، وليبتغوا من البحر رزقهم من قاعه، أو ليبتغوا تجارتهم عبر العبور منه. ورزقهم الله من الطيّبات التي أحلّت لهم ليأكلوا منها، أو لينتفعوا بها لصناعاتهم أو لزينتهم، وسخّر لهم الأنعام ليركبوها وللزينة ولطعامهم، وفضّلهم الله تعالى على كثير من مخلوقاته تفضيلا بيّنا ومؤكّدا بما آتاه من قدرات على الصنع والإبتكار، وبما سخّر له من مخلوقاته، وبما آتاه من مؤهلات فكرية وعلمية.



- يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا (71) :

ويوم الحساب يُحاسَبُ النّاسُ على أعمالهم، ويُسألون عمّا فعلوا بأمانة المسؤولية، وأمانة التّكليف، تدعى كلّ أمّة باسم نبيّهم أو رسولهم، أو باسم كتابهم، فيُقال: يا أمّة محمد... أو يا أمّة القرآن، ويا أمّة عيسى أو يا أمّة الإنجيل... أو يا أمّة إبراهيم.. إلخ... فمن أوتي سجّل عمله بيمينه بما يدلّ على أنّه من أهل الإيمان والعمل الصالح فإنّه يسرّ بسجّله، ويقبلون على قراءته والاطلاع عليه، ولا يظلمون في أجورهم على حسن أعمالهم ولو بوزن الخيط الذي في شقّ نواة التّمرة، وهو خيط لا يزنه ميزان لخفّته، ولكنّه في ميزان الحسنات يوزن، ويأخذ حظّه من الأجر والثواب.

- وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا (72) :

ومن كان في حياته الدنيوية على الأرض أعمى البصيرة عن الحقّ، فهو في الآخرة أشدّ عمى وأكثر بُعْدًا عن النّعيم، وعن نيل الثّواب.

- وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا(73):

وكاد زعماء الشّرك أن يوقعوك في الفتنة، ويصرفوك عمّا أوحي إليك حينما طلبوا منك – يا محمد – أن تبعد عنك الفقراء، وتطردهم من حولك ومن مجلسك من شدّة كبريائهم، وبما طلبوا منك ألاّ تذكر آلهتهم بسوء وبأن لا تتوعدهم لتتقوّل علينا غير ما يُوحى إليك، وذلك ليرضوا عنك، وليتّخذوك عندئذ صديقا لهم وجليسا.

- وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا (74) إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا (75) :

ولولا أن ثبتناك على الحقّ وعصمناك من موافقتهم لقد كدت تميل إليهم شيئا قليلا لاستمالتهم رغبة في دخولهم للإسلام. قال قتادة: لما نزلت هذه الآية قال عليه السلام: "اللّهمّ لا تكلني إلى نفسي طرفة عين" (ذكره القرطبي في لجامع ج10 ص 300). ولو فعلت ما طُلب منك لَنَالَكَ عذاب مضاعف في الحياة الدنيوية وآخر مضاعف في الآخرة، ثمّ لا تجد من ينقذك من هذا العذاب. وهذا وعيد شديد.

ولئن كان الخطاب في الآيتين موجّها للرّسول صلّى الله عليه وسلّم، إلاّ أنّه حاشا الصادق الأمين، أن يستجيب لطلب المشركين، إلاّ أنّ المقصود بالوعيد الشديد تأييس هؤلاء من أن يُستجاب لرغبتهم، وليعلموا أنّه من المُستحيل تحقيق ما يطلبون، وفي الآن ذاته هو وعيد يخصّ



كلّ واعظ وعالم من أن يحرّف شرعا أنزله الله تعالى باعتماد التأويل الخاطئ بالتّعسّف على النّصّ الديني اِسترضاء للطغاة والمشركين والزّعماء لتبرير بعضٍ من أحكامهم الخاطئة.

- وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا(76):

وإن كاد هؤلاء المشركون الذين يريدون أن تسترضيهم باستبدال آيات من القرآن بآيات أخرى من عندك ليُكْثِرُون من إزعاجك ومن إيذائك وإيذاء أصحابك ليدفعوك للخروج من مكة، وإنّهم إذا تمادوا في ذلك ولم يتوقّفوا عن اِستفزازك فلن يمكثوا بعد خروجك آمنين إلاّ قليلا ثمّ يهلكون. وقد هلك بعضهم فعلا يوم بدر بعد هجرة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة المنوّرة.

- سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلاً (77) :

وهذه هي الطريقة التي سنّها الله تعالى لكلّ قوم يؤذون رسولهم ويخرجونه من قريتهم: يهلكهم جميعا، ولن تتغيّر هذه الطريقة في التّعامل مع الذين يشاقّون رسولهم.

- أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا(78):

بعد أن ذكر الله تعالى مكايد زعماء قريش جاءت هذه الآية في دعوة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالاستعانة بالصلاة والدعاء والصبر، وكثيرا ما يرد هذا الأمر في القرآن للاستعانة بالصبر والصلاة على اِحتمال الشدائد، وللدعاء بطلب النّصرة وكشف الضرّ. والمعنى: أقم الصلاة (لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ) وأغلب العلماء فسّروا على أنّ زمن الدلوك هو زمن زوال الشمس عن وسط السماء إلى جهة الغرب، وهو تقريبا زمن العصر، إلى (غَسَقِ ٱلَّيۡلِ) وهو زمن شدّة ظلمة الليل، وهو تقريبا زمن العشاء، والغسق لغةً هو سواد الليل وشدّة ظلمته. وأقم قرآن الفجر أي صلاة الصبح، ومن المندوب إطالة القراءة في صلاة الصبح قدرا لا يضرّ بالجماعة المصلّين حتى لا ينفروا منها، وجاء في سنن الترمذي عن أبي هريرة عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في قوله : "وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر كان مشهودا" قال صلّى الله عليه وسلّم : "تشهده ملائكة اللّيل وملائكة النّهار" (حديث حسن صحيح).

- وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا (79) :

صلاة التّهجّد هي صلاة النافلة بالليل بعد جزء من النّوم، والمعنى: صلّ نافلة من بعض الليل فتهجّد (بِهِ) أي بالقرآن، (نَافِلَةٗ لَّكَ ) أي كرامة لك، رجاء (أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا) : المقام المحمود بالنّسبة للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم "هي الشفاعة". روى التّرمذي عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سئل عن هذه الآية فقال: "هي الشفاعة". قال التّرمذي : هذا حديث حسن صحيح. (انظر تفاصيل هذا في تفسير القرطبي ج10، ص 309-312). والمقام المحمود بالنّسبة إلى المؤمن الصادق المُطيع هي المنزلة الرّفيعة عند الله عزّ وجلّ يوم القيامة.

- **وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا(80):**

هذه في تعليم المصلّي التّهجّد ما يدعو به: يقول في سجوده: أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق، وأخرجني بالصدق، لا أرى في دخولي وفي خروجي ما أكره. واجعل لي من عندك قوّة وعزّا وغَلَبة على كلّ شدّة وكلّ ضيق وأزمة.

- **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81) :**

روى البخاري والترمذي عن اِبن مسعود قال: دخل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مكة عام الفتح وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستّون نُصُبًا، فجعل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يطعنها بمخصرة (عصا بيده) في يده، ويقول: (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) (وهذا الحديث مذكور في كتب السيرة ومعتمد). وعلى هذا يكون معنى الآية: جاء الإسلام، وقيل القرآن، وزال الشّرك وهلك واِضمحلّ، إنّ الباطل زائل، لا بقاء له، والحقّ هو الذي يبقى ويثبت.

- **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82) :**

هذه في فضيلة القرآن للمداومة على قراءته وتدبّره للانتفاع بمواعظه وبأدعيته وبتعويذاته. والمعنى: وننزّل من القرآن ما يجد فيه قارئُه شفاءً لقلبه حتى يطمئنّ، وما يجد فيه راحة نفسه، وما يخلّصه ممّا يشعر به من ضيق.

والقرآن الكريم (رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) : يفرّج الكروب، ويكفّر الذنوب، ويجري الأجر والثواب عند تلاوته وتدبّره: "فمن قرأ منه حرفا فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها" كذا جاء في الحديث الشريف الحسن الصحيح (وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) أي لا يزيد المشركين الكافرين والمكذّبين به إلاّ هلاكا لأنّهم لم ينتفعوا به لينقذوا به أنفسهم من العذاب.

- **وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (83) :**

هذه في الذي لم ينتفع بالقرآن، وأعرض عن تدبّره. وإذا أنعمنا على الإنسان بإنزال ما يرشده إلى الحقّ والعمل الصالح والوعد الحسن لوى جانبه تكبّرا، وتباعد حتى لا يسمع شيئا منه. وإذا تعرّض لضرّ، أو شدّة، أو بؤس، أو فقر كان قنوطا ويائسا من الرّحمة ومن الانفراج، والمؤمن غير قنوط، ولا ييأس من رحمة الله تعالى.

- **قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا (84) :**

قل كلّ واحد يعمل (عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ) على سَجِيَتِه، ومذهبه الذي يلائمه، وعلى طريقته في تعامله مع التّنزيل وأحكامه ومواعظه، وبحسب إيمانه أو على مذهبه في التكذيب به عنادا. فالله سبحانه عليم بالكافر المكذّب، وبالمؤمن، وبمن هو أسرع قبولا، وأصدق إيمانا.

- **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85) :**

لقد كان همّ الإنسان منذ عهد نشأة الفلسفة الإغريقيّة أن يفهم مسألة الرّوح التي يكون بها حياة الجسد. كيف هي؟ وكيف تمتزج بالجسد؟ متى تُزرع؟ وكيف تخرج؟ لأنّ أكثر ما كان يقهر الإنسان هو الموت. هذا القاهر الذي لا يُغلب، ولا يُدرك كنهه هو الذي جعل الإنسان يختلق الأساطير، ويختلق آهلة للخير، وأخرى للشرّ من زعمه الباطل. وجاءت الرسائل السماوية عبر الأنبياء ورسل الله والكتب السماوية بإرشاد النّاس للتّوحيد، ولرفع المزاعم الباطلة، وتحدّثت عن خلق آدم أب البشرية جمعاء، وعن نفخ الرّوح فيه، وعن اِستخلافه في الأرض، وعن التّكاليف، وتحدثت عن البعث وعن الحساب. فغدا السؤال عند الإنسان عموما عن ماهية الرّوح، وعن الساعة وما بعدها. واِختلف النّاس في موضوع الساعة بين مؤمن مصدّق، ومكذّب دهريّ ناكر للبعث والحساب. وأمّا موضوع الرّوح فظلّ سؤالا محيّرا لجميعهم: مؤمنِيهم وكافريهم. وعن الرّوح سئل النّبيّ الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم، سأله إيّاه بعض المشركين بإيعاز من أحد اليهود وهو كتابيّ. سكت الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عن الإجابة حتى جاءه الوحي بهذه الآية.

جاء في ما رواه البخاري ومسلم والتّرمذي وغيرهم أنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم قد سئل عن الرّوح فأمسك حتى جاءه الوحي بهذه الآية. والمعنى: يسألك النّاس عن الرّوح (قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي) أي إنّ مسألة الرّوح خارجة عن إدراك العقل البشري. الرّوح من أمر الله تعالى، فأمسكْ عن السؤال عنها، واُتركْ الأمر لخالقها. (وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلاً) هذه الجملة ليست خاصّة بالسّائلين، وإنّما هي موجّهة لكلّ النّاس، هي عامّة، وصالحة لكلّ زمان. ومعناها: مهما بلغتم من درجة علمية في المعرفة، والكشف العلمي، والاستقصاء الطبّي وغيره فإنّكم غير قادرين على إدراك أسرار الموجودات، ومعرفة الماورائيات ممّا اِستأثر الله جلّ وعلا بعلمه من مثل نفخ الرّوح، وتحديد الآجال والأرزاق، وعلم الساعة، وعلم الغيب، ذلك لأنّ قدرة الإنسان في المعرفة محدودة وإن اِتّسعت عند بعضهم من أهل الذكاء والعبقرية، وتبقى دائما نسبة اليقين محدودة عند البشرية مهما بلغ اِجتهادهم في الفحص والتّدقيق. العلم اليقيني عند الله تعالى.

وفي هذا إشارة للإنسان ليعلم أنّه مهما بلغ من درجة عالية في المعرفة والعلم هو قاصر على إدراك كلّ حقائق الوجود لمحدودية اِستيعاب العقل والذاكرة للمعرفة، وبهذا فإنّ العلم لله تعالى، وهو العليم الحقّ. وما أوتي الإنسان من العلم مهما اِرتقى في درجته إلاّ قليلاً إزاء ما يجهله، وما يغيب عنه، وما عليه إلاّ أن يقول : "ربّ زدني علما".

وممّا يستفاد من هذه الآية أنّ الإنسان إذا كان يجهل موضع ما هو مخلوق فيه، ومَرْكَزَ ما يعيش به من مثل الرّوح، وهو يقرّ بأنّه يجهل سرّ ما فيه فلذلك يسأل عنه، فكيف ينكر ما أُبْلِغَ به عن وجوده بدعوى أنّه لا يراه، وهو يؤمن بوجود روحه وهو لا يراها؟ لذا فعليه أن يتواضع

للعلم، وأن لا يستكبر في إنكار ما يُبَلَّغُ به من العلم. وأوّل ما يجب أن يؤمن به – وهو لا يراه– وجود الله تعالى، وهو واحد أحد، وأن لا يكفر به، فإن كفر فإنّما هو معاند، وأعمى البصيرة، ينكر وحدة الله تعالى، ويسأل عن الروح وهي فيه، يؤمن بها ولا يراها، وينكر البعث وهو لا ينكر أنّه حيّ موجود بعد أن كان في العَدَم قبل أن يخلق، وينكر الساعة وهو يعرف أنّه سيموت يوما، وهو لا يعرف على التحديد يوم موته وشهره وعامه... وهذا من بعض مفاهيم قوله تعالى (وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلًا) سبحان العليم، الذي علّم الإنسان ما لم يعلم...

- وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا (86) إِلَّا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرًا (87) :

كما أنزلنا عليك القرآن هدًى للنّاس، فإنّا لو نشاء لذهبنا به وأنسيناه الخلق، ثمّ لا تجد لك ناصرا يعيده إليك ويردّه، إلاّ أن تصلك رحمة من ربّك فتعيده إليك. إنّ فضل ربّك عليك – يا محمد – كان كبيرا إذ جعلك سيّد ولد آدم، وصاحب المقام المحمود، وآتاك الرّسالة والنّبوّة والقرآن، وجعلك خَاتِما للأنبياء والمرسلين.

وتشير الآية أنّ وجود القرآن بيننا هو من رحمة ربّنا علينا. الله تعالى هو الحافظ للقرآن الكريم، وفي تلاوتنا له، وفي محافظتنا على تحفيظه، وتدبّر آياته بالتفسير ومعرفة أحكامه والعمل بها، فإنّه إذا رُفع بنسيانه رُفعت رحمةُ ربّنا بنا ثم لا نجد لنا وكيلا علينا لا قدّر الله، فالآية تدعو للحرص على العناية بالقرآن الكريم: تلاوة وتحفيظا وتدبّرا وعملا به.

- قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرًا (88) :

هذه في الدلالة على أنّ القرآن الكريم كلام الله تعالى حقّا وصدقا، وأنّه ليس من تأليف محمد صلّى الله عليه وسلّم، وإنّ تحدّيه للإنس والجنّ لأن يأتوا بمثله يدلّ على إعجازه لأنّه من كلام خالق البشر ومعلّمه البيان، ولإثبات صدق النّبيّ الرّسول الأميّ محمد صلّى الله عليه وسلّم الصادق الأمين في أنّ ما جاء به هو وحيٌ من عند الله تعالى، وللردّ على الذين يتّهمونه بأنّه مُعَلَّمٌ أو ساحر أو مجنون بأنّ اِتّهاماتهم باطلة، وهي اِتّهامات كيدية.

والمعنى: أخبرهم لو اِجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بكتاب بمثل هذا القرآن في بلاغته، وحسن نظمه، ودقّة تعبيره، وضرب أمثلته، وحسن بيانه، وفي عمق موعظته، وقوّة حجّته، وفي علمه بما سبق، وبما سيكون، وبما هو من علم الغيب، وفي سرد قصصه للاعتبار فإنّهم لا يأتون بمثله ولا يستطيعون، ولو كان بعضهم لبعض معينا.

- وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89) :

ولقد وجّهنا في هذا القرآن للنّاس بكلّ جهة من القول بما يناسب كلّ واحد منهم على قدر فهمه وإدراكه وعلمه، وذلك للعلم بالحقّ، ولمعرفة وجوه الباطل في ما يعتقده المشركون، فيه آيات بيّنات لمن يتدبّر ويعقل ويبصر. وفيه ما يرشد الضالّ لوجوه الضلال والباطل ليحذرها. فيه من الأمر والنّهي ما تعرف بهما الأحكام التي تُقِيمُ على الصّراط المُستقيم. وفيه أقاصيص الأوّلين للاعتبار. وفيه أخبار الجنّة والنّار للتّرغيب والتّرهيب. فكيف يتأتى للجنّ والإنس أن يأتوا بمثله ولم يُؤتوا من العلم إلاّ قليلا. ولكنّ أكثر النّاس يرفضون تَبَيُّنَ الحقّ، ويصرّون على التّمادي في كفرهم وفي ضلالاتهم، فما أعجب أمرهم! ومن أسباب إصرارهم على الكفر سدُّ آذانهم عن سماع الحقّ، وتدبّر التنزيل بالعقل، وكذلك تشبّثُهم بالعناد.

- **وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا (90) أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا (91) أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا (93) :**

جاء في السيرة النبويّة لابن هشام(ج1، ص 262-264، لبنان) قال: اِجتمع عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنّضر بن الحارث، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطلب بن أسد، وزَمعة ابن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبوجهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، والعاص بن وائل، ونسبيه ومنبّه اِبْنَا الحجاج السهميان، وأمية بن خلف، أو من اِجتمع منهم. قال: اِجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثمّ قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه، وخاصموه حتّى تعذروا فيه، فبعثوا إليه: إنّ أشراف قومك قد اِجتمعوا لك ليكلّموك، فَأْتِهِمْ، فجاءهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سريعا، وهو يظنّ أن بَدَا لهم فيما كلّمهم فيه بَدَاءٌ، وكان عليهم حريصا يحبّ رشدهم، ويعزّ عليه عَنَتُهم، حتى جلس إليهم، فقالوا له: يا محمد، إنّا قد بعثنا إليك لنكلّمك، وإنّا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمتَ الآباء، وعِبْتَ الدّين، وشتمت الآلهة، وَسَفَّهْتَ الأحلام، وفرّقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلاّ قد جئتَه فيما بيننا وبينك – أو كما قالوا له – فإن كنت إنّما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنّما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسوّدك علينا، وإن كنت تريد به مُلكا مَلّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًا تراه قد غلب عليك– وكانوا يسمّون التّابع من الجنّ رَئِيًا– فربّما كان ذلك، بذَلْنا لك أموالنا في طلب الطبّ لك حتّى نبرّئك منه، أو نُعْذَر فيك. فقال لهم رسول الله صلّى الله عليه وسلم: ما بي ما تقولون، ما جئتُ بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكنّ الله بعثني إليكم

رسولا، وأنزل عليّ كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلّغتكم رسالات ربّي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا منّي ما جئتكم به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبرْ لأمرِ الله حتّى يحكم الله بيني وبينكم، أو كما قال صلّى الله عليه وسلّم. قالوا: يا محمد، فإن كنتَ غير قابل منّا شيئا ممّا عرضناه عليك فإنّك قد علمت أنّه ليس من النّاس أحد أضيق بلدا، ولا أقلّ ماءً، ولا أشدّ عيشا منّا، فسلْ لنا ربّك الذي بعثك بما بعثك به، فلْيُسَيِّرْ عنّا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا، ولْيَبْسُطْ لنا بلادنا، ولْيَفْجُرْ لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، ولْيَبْعَثْ لنا مَنْ مَضَى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قُصي بن كلاب، فإنّه كان شيخ صدق، فنسألهم عمّا تقول: أحقٌ هو أم باطل؟ فإن صدّقوك وصنعت ما سألناك صدّقناك، وعرفنا به منزلتك من الله، وأنّه بعثك رسولا كما تقول، فقال لهم صلّى الله عليه وسلّم: ما بهذا بُعِثْتُ إليكم من الله، إنّما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلّغتكم ما أرسلتُ به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبرْ حتى يحكم الله بيني وبينكم، قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا، فخذ لنفسك، سَلْ ربّك بأن يبعث معك ملكا يصدّقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسَلْهُ فليجعلْ لنا جنانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضّة يُغنيك بها عمّا نراك تبتغي، فإنّك تقوم بالأسواق كما تقوم، وتلتمس المعاش كما تَلْتَمِسُه، حتى نعرفَ فضلَك ومنزلتك من ربّك إن كنت رسولا كما تزعم. فقال لهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربّه هذا، وما بُعثتُ إليكم بهذا، ولكنّ الله بعثّني بشيرا ونذيرا، أو كما قال: فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبرْ حتى يحكم الله بيني وبينكم. قالوا: فأسْقِطْ السماء علينا كسفا كما زعمت أنّ ربّك إن شاء فعل، فإنّا لا نؤمن لك إلاّ أن تفعل، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل.... فلمّا قالوا ذلك لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم قام عنهم، وقام عبد الله بن أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم – وهو ابن عمّته، فهو لعاتكة بنت عبد المطلب فقال له: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثمّ سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا ما يعرفون به فضلك عليهم، ومنزلتك من الله، فلم تفعل، ثمّ سألوك أن تعجّل لهم بعض ما تخوّفهم به من العذاب، فلم تفعل، أو كما قال له، فوالله لا أؤمن بك أبدا حتى تتّخذ إلى السماء سُلَّمًا، ثمّ ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثمّ تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنّك كما تقول، أَيْمُ الله، لو فعلت ذلك ما ظننت أنّي أصدّقك، ثمّ اِنصرف عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، واِنصرف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى أهله حزينا آسفا لِمَا فاته ممّا كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولِمَا رأى من مباعدتهم إيّاه.

ومعنى الآيات: وقال المشركون لرسولهم صلّى الله عليه وسلّم: لن نصدّق بك رسولا نبيئا، ولن نصدّق برسالتك وبما جئت به من عقيدة التّوحيد في دينك الجديد إلاّ إذا فجّرت لنا في أرضنا هذه القاحلة الجدباء الجافّة ينبوعا من الماء يسقينا جميعا، ولا ينضب، وننتفع به جميعا، أو حتى يُؤْثرك ربّك علينا فيؤتيك بستانا جنّةً فيه نخيل، وأشجار العنب يُسقى بعيون داخله يتدفّق ماؤها تدفّقا فيجري ماؤها في سواقيها جريانا لا ينضب، فيجعلك فينا أغنانا، وأوسع ثراءً، أو إذا آتيتنا بما تتوعدنا به فتسقط السماء علينا قطعا مدمّرة، وتحضر لنا الملائكة فتقابلنا نحن حتى نراهم بأعيننا، وليشهدوا لك عندنا برسالتك وليشهدوا لنا بصدقك، أو إذا نزل عليك مسكن فاخر من السماء مصنوع من الذهب المزوّق، أو إذا رأيناك بأعيننا تصعد في دَرَج السماء صعودا بيّنا، ولن نصدّق بصعودك إلى السماء حتى تأتي كلّ واحد منّا كتابا من عند الله تعالى يقرؤه بنفسه: قال تعالى : (بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ)(المدثر الآية 52)، أو بمعنى حتّى تأتينا من السماء بكتاب مكتوب بخطّ الملائكة نراه بأعيننا، ونقرؤه بأنفسنا. قل لهم – يا محمد – تنزّه الله تعالى تنزيها عن أن يعجزه شيء ممّا تطلبون، وما أنا إلاّ بشر مثلكم لا أقدر على شيء، إنّما رسول أبلّغكم رسالة ربّي، وأتّبع ما يوحى إليّ من ربّي، ويفعل الله تعالى ما يشاء.

وممّا يُستفاد من هذه الآي، وممّا جاء في خبر السيرة النّبويّة ممّا رواه إبن هشام أنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم قد شاقّه قومه بما يطلبون، وهي مطالب تدلّ دلالة واضحة على إستكبارهم، وعلى عنادهم، وعلى تكذيبهم برسالة رسولهم، وهي مطالب مادية بحتة تناسب حاجتهم للماء، ورغبتهم في المال والثراء، وتناسب كبرياءهم، وتدلّ دلالة قطعية على تعطيلهم لعقولهم، لم ينظروا في الحجج العقلية والدلالات الكونية للتّمييز بين الحقّ والباطل، وتدلّ على قصور الإدراك، لا يقبلون بأن يكون رسول الله إليهم من البشر، إنسانا مثلهم، وواحدا منهم.

- **وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا (94) :**

ولم يمنعهم من الإيمان لمّا جاءهم الهدي للحقّ ليحذروا من الضلال وليتفطّنُوا للباطل الذي هم عليه إلاّ عدم تَقَبُّلِهِمْ لأن يكون رسول الله إليهم واحدا من البشر من جنسهم.

- **قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا (95) :**

هذه في الرّدّ على الذين لم يقبلوا بأن يكون رسول الله إليهم من جنس البشر. والمعنى: لو كان في الأرض ملائكة يقيمون فيها مستقرّين وساكنين عليها لأرسل إليهم ربّهم من السماء ملكا من جنسهم لهديهم، ولا يرسل إليهم رسولا من غير جنسهم، لا يكون رسول الله لجنس من خلقه إلاّ واحدا منهم، من جنسهم، ولا يكون من غير جنسهم.

- ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ (96) :

هذه في التّصديق بنبوّة الرسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم وفي تثبيته. أخبر قومك –يا محمّد– بأنّه يكفيك أن يكون الله تعالى شاهدا بينك وبينهم على صدقك. إنّ الله تعالى خبير بما يصلح للبشر، وبما ينفعهم لحياتهم وآخرتهم، وهو تعالى بصير بما يعملون، وبما يدبّرون.

- ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ (97) :

هذه في وعيد المكذّبين، فمن أنصت لكلام الله تعالى وتدبّره هداه الله تعالى للإيمان، فهو المهتدي، ومن أصمّ سمعه، وأعمى بصره، وأصرّ على كفره وعناده فإنّك لن تجد له هاديا يهديه للحقّ غير الله سبحانه. والكافرون المعاندون يسحبون على وجوههم إلى جهنّم في إذلال وهم عمي، وبكم، وصمّ ليقيموا في نارها المحرقة كلّما سكنت هذه النّار حُرّكت لتَلْتَهِبَ وتهيج وتستعر.

- ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا﴾(98) :

اِستحقّوا ذلك العذاب لأنّهم كفروا بالقرآن ودلائل صدقه وصدق رسوله، وكفروا بحجج باطلهم، وقالوا للاستبعاد والإنكار: أنبعث خلقا جديدا، ونعود لصورتنا الأولى بعد موتنا، وبعد أن تتحوّل عظامنا ترابا وغبارا وأجزاء مفتّتة؟

- ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا﴾ (99) :

هذه في الرّدّ على ناكري البعث. والمعنى: ألا يدركون أنّ الله الذي خلق السماوات بعظمتها والأرض بخيراتها وخصائصها قادر على أن يخلق مثلهم بعد موتهم، حين تنقضي آجالهم، إنّ هذا أمر لا يعجزه، ولكنّ الظالمين أنفسهم بالشّرك يرفضون التّصديق بالبعث، ولا يريدون إلاّ التّكذيب به، والكفر به.

- ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ (100) :

هذه في الدلالة على أنّ قسمة أرزاق العباد بيد الله تعالى هو المعطي سبحانه وهو تعالى المانع، وبيده تعالى الخير كلّه، لا مانع لمن أعطى، ولا معطي لمن منع، سبحانه هو الرّزاق. ومعنى الآية لو كان رزق العباد بيد العباد، وكان بعضهم يملك مستودعات فضل الله كلّه وخيراته لأمسكها لنفسه، ولم ينفق منها خشية أن تنقص بالإنفاق، ذلك لأنّ من طبع الإنسان الشحّ والبخل والإمساك عن العطاء. ولذا فمن آتاه الله خيرا ورزقا فعليه أن يُقَيِّدَ نعمة ربّه بالحمد والشكر وإيتاء الزكاة وبالإنفاق ممّا آتاه الله في وجوه البرّ، ومن قتر عليه رزقه، وقلّ عن حاجته،



أو اِفتقر فليس له إلاّ أن يطلب من الله تعالى أن يرزقه، وأن يطلب عونه وفضله، وأن يستعين بالصبر والصلاة، وأن يحسن عملا.

- وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا **(101)** :

ولقد آتينا موسى تسع معجزات ظاهرة للدلالة على صدقه في تبليغ رسالته إلى فرعون وملئه وهي (يده، وعصاه، والسنون العجاف، وشقّ البحر، والطوفان الذي أغرق جند فرعون في اليمّ، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم). واِسأل بني إسرائيل لمّا جاءهم موسى بهذه الآيات فقال له فرعون، إنّي أراك ساحرا بما جئت به من غرائب الأفعال.

- قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا **(102)** :

وقال موسى لفرعون ردّا على اِتّهامه، إنّ هذه آيات من عند الله تعالى، لا يمكن أن يأتيها البشر، إنّها من عند الذي خلق السماوات والأرض ينتفع بها صاحب البصيرة ليعرف بها قدرة ربّه عليه وعلى النّاس، وليعرف بها صاحب العقل أنّي صادق في دعوتكم إلى الإيمان بالله، وتسريح بني إسرائيل، وإنّي لأتوقّع أن تكون يا فرعون هالكا قريبا، وممنوعا من الخير.

- فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا **(103)** :

وأراد فرعون أن يبعد موسى وبني إسرائيل من أرض مصر بالقتل أو بالنّفي المهلك فأهلكه الله تعالى بالغرق، وأغرق من كان معه جميعا ولم ينجُ منهم أحد من الموت.

- وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا**(104)** :

ولمّا نجيّنا بني إسرائيل من بعد خروجهم من أرض مصر، ومن بعد خروجهم من التّيه أُسكنوا الأرض التي مكّنكم الله منها، فإذا قامت القيامة بعثناكم جميعا من قبوركم من كلّ موضع ينضمّ بعضكم لبعض مختلطين.

- وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا **(105)** :

(وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ) بالدين الحقّ أنزلنا القرآن، وبالشّرع الثابت، وبالعدل، والموعظة الحسنة. (وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ) وحقّا وصدقا نزل القرآن على محمد صلّى الله عليه وسلّم من عند الله تعالى وحيا، نزل به عليه جبريل، وما أرسلناك يا محمد إلاّ لتبليغ رسالة ربّك للنّاس كافة مبشّرا من آمن منهم برحمة ربّهم ورضوانه، ومنذرا الكافرين والمكذّبين بالعقاب والعذاب يوم الحساب. فهذه الآية في تثبيت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتصديقه وتشعرنا بأنّ السورة ستختم كما بدئت بتكريم هذا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بمعجزة الإسراء.



- وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا (106) :

وقرآنا أنزلنا مفرّقا على فترة من الزمن: آيات معدودات إثر آيات، ولم ننزّله مرّة واحدة لتقرأه على النّاس على فترات ليتيسّر لكم فَهْمُ أحكامه، وحفظُه في ذاكرتكم، ونزّلناه (تَنزِيلٗا) أي للتأكيد على أحكامه ومواعظه، ونزلناه مفرّقا، ولو جاءهم بجميع الفرائض في وقت واحد ودفعة واحدة لنفروا منه، ويُصطلح على تنزيله على مدّة طويلة في علوم القرآن بأنّه نزل (مُنَجَّمًا)، أي أنزلناه نجما بعد نجمٍ.

- قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا (107) وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا (108) :

هذه في بيان عظيم مكانة القرآن عند الذين أوتوا العلم لأنّه كلام الله تعالى، وإنّ كلام الله عزّ وجلّ حقيقٌ عندهم بالتّقديس والإكبار. وهذه الآية آية سجود تلاوة. والسجود إنّما هو لتسبيح الله تعالى وتعظيمه ولشكره على نعمة الهداية. وفي صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُكثِرُ في سجوده وركوعه قولَ: "سبحانك اللّهم ربّنا وبحمدك اللهمّ اغفر لي". والمعنى: آمنوا بالقرآن – أيّها النّاس – وإن كفرتم به، ولم تصدّقوا بأنّه تنزيل من عند الله لرفضكم العمل بما فيه فإنّه لا حاجة لله بإيمانكم (إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ) هو النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم، وأهل الكتاب المؤمنون الصادقون، كلّما سمعوا ما تيسّر منه سجدوا على الأرض لله تعالى تعظيما وتقديسا وتصديقا. ويقولون في سجودهم وعند ذكرهم للقرآن: تنزّه الله تعالى سبحان ربّنا إنّ وعده واقع ونافذ لاشكّ فيه. والوعد هو الموعد الذي اِستأثر الله تعالى بعلمه وهو قيام الساعة لمجازاة المؤمنين، ومحاسبة الكافرين المكذّبين ليعلموا أنّ ما أخبر به كان حقا وصدقا.

- وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا (109) :

كذا يكون تقديس المؤمنين لكلام ربّهم، وكذا يكون سجودهم، إنّهم يضعون أذقانهم على الأرض في حال السجود، وهذه غاية التواضع، وحين يذكرون وعد الله بالقيامة والحساب يبكون خوفا وطمعا في النّجاة من المؤاخذة وسوء المآل، وما تزيدهم تلاوة القرآن وسجود التلاوة إلاّ تذلّلا. وهذه في مدح صفة المؤمن عند سماع القرآن.

- قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا (110) :

بعد التّنويه بالقرآن جاءت هذه بالتذكير بالتوحيد، وذلك للتركيز على حسن المعتقد. والمعنى: بلّغهم – يا محمد – بأن يدعوا الله سبحانه، أو يدعوا باسمه الرّحمان، أو بأن يدعوا بأيّ اِسم من

أسمائه الحسنى فإنّه معهم يسمعهم ويجيبهم، وإنّ له سبحانه أسماء الجمال وصفات الجلال كلّها الدالّة على الكمال وجميع المحامد. ولا ترفع صوتك بقراءتك في صلاتك ولا تسرّ بها فلا يسمع مَن خلفك ما تقرأه، وتوسّط في قراءتك بين الجهر المرتفع والقراءة السّريّة التي فيها خفض الصوت. وهذا الحكم في القراءة في النوافل، وأمّا المكتوبة ففيها الجهر بصلاة الليل: المغرب والعشاء والصبح، وفيها الإسرار في صلاة النّهار.

- **وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا (111) :**

وداوِم على شكر الله وحمده على نِعَمه وفضائله التي لا تحصى، وأجلّها نعمة الوجود، ونعمة الهداية، وهو الله الذي لا إلاه إلاّ هو، ليس له صاحبة ولا ولد كما يدّعي له المشركون كذبا وافتراء وعن جهل ومن غير دليل ولا برهان، فنسبوا لله تعالى بناتٍ من سروات الجنّ من زعمهم الباطل، وزعم بعض اليهود أنّ عزيرا بن الله، وما هو إلاّ نبيّ، وزعم المسيحيون النّصارى أنّ المسيح بن مريم ابن الله وهو نبيّ بشر مثلهم خلق بروح من الله من مريم عليها السلام. وليس له تعالى شريك في الملك مثلما يدّعي بعضهم فجعل للشمس إلاها وللحرب إلاها وللخير إلاها وللشرّ إلاها وهي مزاعم باطلة من اِختلاقهم. وليس له تعالى نصير يحتاج إليه لأنّه سبحانه لا يحتاج إلى أحد، وتنزّه عن الحاجة، وإنّما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون. (وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا) أي عظّمه تعظيما وإجلالا، وصِفْه تعالى بأنّه أكبر من كلّ شيء.

تسمّى هذه الآية : "آية العزّ" على قول رواية رُفِعت إلى النّبي صلّى الله عليه وسلّم.

وهكذا بُدِئَت السورة بـ : سبحان الله، وخُتِمت بالحمد لله، ولا إلاه إلاّ الله، والله أكبر. وهذا من أحسن القول والذكر. ثبّتنا الله على القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

| رقمها | سـورة **الكهـف** | آياتها |
| --- | --- | --- |
| **18** | ـــ مكيّة ـــ | **110** |

هي سورة مكيّة، سمّيت بسورة الكهف لأنّها اِنفردت بخبر أصحاب الكهف. روى في فضلها الإمام مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "من حفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف عُصِم من الدجّال" وفي رواية : "من آخر الكهف".

وقد جاء في السيرة النبوية لابن هشام (ج1 ص265-266 ط. لبنان) أنّ القرشيين قد أرسلوا النضر ابن الحارث – وكان من شياطين قريش – ومعه عقبة بن أبي مُعيط إلى أحبار اليهود بالمدينة ليسألهم عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فلمّا بلغاها، واِلتَقيا بالأحبار قالا لهم : إنّكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقال لهما الأحبار: سلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبيّ مرسل، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّلٌ، فاعملوا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدّهر الأوّل، ما كان أمرهم؟ فإنّه قد كان لهم حديث عجب، وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الرّوح، ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتّبعوه، فإنّه نبيٌّ، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. (بتصرّف).

ولما عادا ذهبا صحبة جمع من القرشيين حتى جاؤوا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فسألوه أن يخبرهم عن الفتية والرجل الطوّاف، وعن الرّوح، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أخبركم بما سألتم عنه غدا، ولم يَسْتَثْنِ، فانصرفوا عنه.. فمكث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيما يذكرون خمس عشرة ليلة لا يأتيه وحي، ممّا أحزن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ جاءه جبريل عليه السّلام بسورة أصحاب الكهف، وقد جاء فيها خبر الفتية، وخبر الرّجل الطوّاف. وأمّا السؤال عن الرّوح فقد جاءت الإجابة عنها في سورة الإسراء. ولمّا جاءهم خبر ما طلبوا لم يؤمنوا، بل اِزدادوا كفرًا.

وجاء في هذه السورة خبر تطواف موسى عليه السلام وفتاه مع العبد الصالح: الخضر عليه السلام، وخبر جحود صاحب الجنتين.

وكشأن السور المكيّة فإنّ في السورة ثناء على القرآن وفضائله، وفيها دعوة للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم للمحافظة على خُلق الصبر، وفيها تحذير من الشّرك، ومشاهد ممّا سيكون يوم القيامة، وفيها تحذير وتبشير، وختمت السورة بالدعوة لتوحيد الله الأحد.



- **ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ (1) :**

الآية في الثّناء على الله عزّ وجلّ الّذي أنزل على عبده القرآن. والبدء بالحمد لله يشعرنا بأنّ الله سبحانه يستحقّ حمد عباده المؤمنين إذ جعل بين أيديهم كتابه الذي أنزله على خير خَلقه، ويشعرنا بأنّه إن لم يحمده الحامدون فقد حَمِدَ اللهُ ذاته العلية لأنّه الحميد المجيد وإن غفل عن حمده الغافلون. إنّه سبحانه حقيق بالحمد لأنّه أنزل على (عَبۡدِهِ) وهو النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم وقد أضيف العبد إلى الله عزّ وجلّ تكريما وتشريفا لهذا النّبيّ، أنزل عليه القرآن، ولم يجعل فيه اِضطرابا، ولا تناقضا، ولا خروجا عن الحقّ والحكمة، أو الصواب رغم أنّه نزل منجّما على فترة من الزمن لأكثر من عشرين عاما، ولو كان من عند غير الله لوجد فيه الخلق اِضطرابا، وتغييرا في الأسلوب.

- **قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا (2) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا (3) :**

وهو كتاب قائم بالحقّ، وبما ينفع العباد ليحقّقوا صالح أعمالهم وأخلاقهم في الدنيا، ويحقّقوا سعادتهم في آخرتهم، وهو مستقيم في مواعظه، ومعتدل في أحكامه وشرعه. وهو منذرٌ للكافرين العاصين المذنبين بوقوع العذاب الشديد عليهم إن لم يستقيموا على الحقّ، ومبشّر للمؤمنين الطائعين الذين يعملون الصالحات بالنعيم الأخروي يقيمون فيه إلى الأبد، لا يضيع عنهم، ولا يخرجون منه.

- **وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا (4) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا (5) :**

وفي هذا الكتاب إنذار بالعقاب والعذاب للّذين ينسبون لله الواحد الأحد ولدًا من زعمهم الباطل، بدون علم به، وليس لآبائهم به علم. عظُم قُبْحُ كلمة كاذبة يقولونها في الله تعالى ما يقولون إلاّ الكذب والإفتراء. ليس لله الصاحبة، ولا ولد.

- **فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا (6) :**

هذه في شدّ أزر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إذ تملّكه الحزن العميق والأسف الشديد بسبب تولّي قومه عنه وإعراضهم عن تصديقه حتى يكاد يهلك نفسه من شدّة الأسف والحزن. والمعنى: فلعلّك قاتل نفسك ومهلكها تبعا لإعراض قومك عنك وعن الإيمان بالتوحيد، والتصديق بالوحي وبما أنزل عليك من القرآن من شدّة الأسف وعمق الحزن. لا تحزن عليهم ولا تأسف إن لم يؤمنوا، إن عليك إلاّ البلاغ.

- **إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا (7) :**

لقد جعل الله تعالى الحياة على الأرض مستطابة وحلوة بما فيها من نِعَم وخيرات وجمال، يتنافس فيها النّاس على زينتها، وزينتها هي في مكاسب الأموال والأرزاق، والتّنافس على علوّ المناصب، وعلى درجات العلم، وكسب الأموال، والمكانة العالية في القدر والجاه عند النّاس، ومن زينتها الزواج، وإنجاب الذريّة الصالحة، والحياة المرفهة. وحياة النّاس عليها موضع اِختبار وامِتحان ليُعلم من كان منهم أحسن عملا وإفادة لنفسه ولقومه ولمحيطه ولأثَرِهِ الذي يتركه من بعده من مبانٍ مشيّدة، أو من علوم يستفاد منها، أو من إصلاحات وصدقات جارية يُذْكرُ بها من بعده.

- **وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا (8) :**

فإذا أذِنَ الله تعالى بقيام الساعة جعل ما عليها ترابا لا شيء عليه من نبات ولا مبان ولا عباد ولا حيوان ولا جبال، فالحياة على الأرض وكلّ ما عليها زائل إذا قامت الساعة.

- **أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا (9) :**

تبدأ مع هذه الآية قصّة أهل الكهف التي سئل عنها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى غاية الآية 26. ومن أهمّ ما يُعتبر به من هذه القصة: أن الله تعالى حافظ لعباده المؤمنين. لا يدعهم لفتنة النّاس لتعذيبهم، وأنّه تعالى عظيم القدرة في تقدير الحياة والموت وإعادة الحياة وإعادة الوفاة، وهو على كلّ شيء قدير، سبحانه.

أتظنّ أنّ خبر أصحاب المغارة في الجبل (حسب ما يقوله علماء الآثار فإنّ هذا الجبل واقع في بلاد الأردن) الذي نقشت أسماؤهم على لوح للبحث عنهم، كان خبرا عجيبا. إنّ خبرهم آية من آيات الله الدالّة على القدرة والحفظ. لقد كان الرّقيم: اللّوح الذي نقشت عليه أسماء الفتية، أصحاب الكهف هو الدليل البيّن الدامغ على صدقهم حينما عادوا للحياة بعد ثلاثمائة سنة وتسع، كان القوم قد نقشوه لغاية، وأراد الله تعالى أن يفعلوه ليكون من بعدهم دليل صدق أهل الكهف، ودليل قدرة الله تعالى.

- **إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا (10) :**

وأذكر إذْ اِحتمى الفتية بمغارة في الجبل، ولجؤوا إليه هروبا من الافتتان في دينهم، ودعوا الله تعالى بأن يؤتيهم من عنده رحمة تحفظهم من الهلاك وتحميهم ممّا يخافون، ورحمة تطمئنّ بها قلوبهم فلا يجزعون، وأن ييسّر لهم أسباب الرُّشْد ليقيموا على الهداية، ويبعدوا بها عن الضلالة، وأن يمنحهم اِكتمال العقل، وحسن التصرّف عند الشدّة والعسر.

- **فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا (11) :**

فجعلناهم ينامون نوما ثقيلا في الكهف لعدد من السنوات. والضرب على الآذان يعني تعطيل السمع، لأنّ النّائم عند نومه تُغْمَضُ عيناه فلا يبصر من حوله شيئا وهو نائم، لكنّ السّمع يظلّ على حاله لا يتعطّل عند النّوم حتى أنّ النّائم إذا صدر من حوله صوت وإن كان صوت بعوضة فإنّه ينتبه من نومه، وإن كان يغطّ فيه غطّا، فتعطيل السمع هو الذي يجعل الإنسان لا ينتبه من نومه إذا نام حتى يستيقظ.

- ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا (12) :

ثمّ أيقظناهم من نومهم الثقيل، وجعلناهم يتساءلون فيما بينهم عن المدّة الزّمنيّة التي قضوها نائمين لمعرفة من كان أحسن ذكاءً في إحصاء المدّة التي قضّوها نائمين.

- نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى (13) :

نحن نخبرك بخبرهم الصادق اليقيني، إنّهم فتية مؤمنون بالله الواحد الأحد، وكانوا مهتدين لعمل الصالحات، وزادهم الله بإهتدائهم (هُدٗى) أي اِستقامة وثباتا على الإيمان، والإخلاص في العبادة والطاعات والأعمال والأقوال.

- وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا (14) :

وثبّتنا قلوبهم على التّوحيد، والدّين الحق، وقوّيناها بالصبر (إِذۡ قَامُواْ) لمّا مثلوا بين يدي حاكم القرية في محاكمتهم على مخالفتهم لدين قومهم، واِتّخاذ دين جديد والدعوى إليه، أو ربّما يكون معنى (إِذۡ قَامُواْ) حين تواعدوا على اللقاء وعلى العزم للخروج من القرية هروبا بدينهم حتى لا يُفتتنوا فيه. وكانوا يقولون ربّنا الحقّ هو ربّ السماوات والأرض لن نتّخذ سواه إلاها، لو فعلنا لقلنا قولا مفرطا في البُعد عن الصواب وفي المغالاة في الكذب.

- هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا (15) :

هؤلاء قومنا أشركوا بالله، وعبدوا من دون الله آلهة أخرى، فهلاّ جاؤوا ببرهان واضح، أو كتاب من عند آلهتهم بيّن يستدلّون بهذا أو بذاك على صحّة ما يدّعون. لا أحد أظلم لنفسه ممن يكذب على الله، وينسب إليه الباطل.

- وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا (16) :

ومادمتم قد تَبَرَّأْتُم من عبادة قومكم، وهجرتم ما يعبدون من الأصنام، واِبتعدتم عنهم حفاظا على دينكم، (إِلَّا ٱللَّهَ) أي إلاّ الله لم تتركوا عبادته، فهذا اِستثناء خاصّ بالفتية. فألهمهم الله تعالى



أن يدخلوا كهفا في جبل رأوا في الاختفاء فيه حماية لهم من الافتتان في دينهم، وما كان هذا الإلهام إلاّ بأمر من الله تعالى فأووا إليه، وقال فيهم أحدهم بما ألقى الله على لسانه آووا إليه يبسط لكم الله فيه من رحمته لتجدوا فيه السكينة فلا تخافون، ويهيء لنا فيه أسباب الرّزق والمعاش. قيل في رواية من الروايات التي تروي قصّة أهل الكهف أنّ هؤلاء الفتية كانوا (صياقلة) أي شحاذي سيوف عند الحدّادين. والمِرفق هنا هو مكان العمل، وموضعه، ونقول في لغتنا: مِرفق عام، ومرافق عامّة المحلاّت العامّة والإدارات العامّة.

- وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا (17) :

والكهف الذي اِختاره الله تعالى ليأوي فيه هؤلاء الفتية له صفة مخصوصة ونادرة، فالشمس لا تدخله عند الشروق وعند الغروب ليكون دائما باردا. كهف تميل الشمس عند الشروق على يمينه، وإذا غربت مالت عن شماله، وتتجاوزه فلا تُصيب داخله، وكان رقاد الفتية (فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُ) أي في داخله، وفي متّسع منه، فكان يصيبهم الهواء، ولا تُصيبهم الشمس صيفا ولا شتاء حتى لا تتأثّر أجسامهم بفعل حرارتها، ولتحفظ حفظا من غير أعراض تغيّر معالمها. وهذا من آيات القدرة الربانية، ومن حكمة التّقدير، وهي آية معجزة، وقد وُجد كهف في قرية من قرى (الأردن) على هذه الصفة، ووجد من حولها آثار كنيسة ممّا يؤكّد لعلماء الآثار أنّه هو الكهف الذي ورد ذكره في هذه السورة. من يوفّقه الله تعالى للإيمان به وللعمل بطاعته فهو المهتدي للصواب وللحقّ، ومن يصرّ على الكفر وعلى الباطل فلا ينفع معه إرشاد ولا موعظة، ولا يستطيع أحد أن يقنعه بأنّه على باطل لعناده. العناد أصل الكفر وأساسه.

- وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا (18) :

ولو دخلت عليهم في كهفهم – وهم رقود – لظننت حين تراهم أيقاظا إذ كانت أعينهم مفتّحة. ويتقلّبون يمينا وشمالا على جنباتهم حفاظا على أبدانهم. وكلبهم مادٌّ ذراعيه بعتبة باب الكهف كأنّه يسدّه على الداخل إليه، أو الخارج منه. هذا الكلب هو كلب مرّوا به في طريقهم إلى الكهف فأتبعهم، وقد كان مسخّرا بتقدير من القدير العليم، فلم ينفروا منه، وظلّ يسير معهم حتّى إذا دخلوا الكهف دخل معهم، ومدّ ذراعيه عند فتحته. كان تقديرا حكيما لحفظ الكهف من أن يدخله أحد من النّاس أو من الحيوانات، فالنّاس ينفرون من الكلاب ويتخوّفون منها وكذلك أصناف من الحيوانات، فكان حارسا للفتية، وللكهف، ولمّا صار الكلب عظاما نخرة صارت النّفرة من الإيواء

لهذا الكهف أقوى للمنظر وللرائحة الكريهة، وحينما إستيقظ الفتية ورأوْا الكلب على حالته من العظام النّخرة عرفوا أنّهم ظلّوا في الكهف سنين طويلة، ومن العجب العُجاب – ولا عجب من قدرة القدير وتقديره – كيف إستسلم الكلب للبقاء في الكهف ولم يخرج لطلب الطعام حتّى مات، لعلّه رقد مثلما رقدوا.

(لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ) أي لو دخلت عليهم على حالتهم التي كانوا عليها لفررت منهم فرارا، ولأصابك الرُعب من منظرهم الذي صاروا عليه. لقد ألبسهم الله هيبة ومخافة منهم كي لا يصل إليهم أحد، أو يزعجهم مزعج.

- وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا **(19)** :

وهكذا بعثناهم من رقادهم، فتساءلوا بينهم عن المدّة الّتي ظلّوا فيها رقادا. قال أحدهم لقد ظللنا يوما، أو جزءا من اليوم، وذلك لأنّهم لم يشعروا بمرور الزّمن على رقادهم، ولكنّهم حين نظروا لِمَا آل عليه كلبُهم تحيّروا، فقالوا لبعض، ربّكم أعلم بما لبثتم، لقد رقدنا سنين. واِحتاجوا إلى الطعام فقال أحدهم: اِبعثوا أحدكم بدراهمكم إلى المدينة – وجمعوا دراهمهم الفضية – (الورق هي الدراهم الفضية)، فليتخيّرْ لنا أطيّب الطعام، وأجوده، وأطهره، ولْيأْتِنَا به (وَلۡيَتَلَطَّفۡ) أي وليتكلّف اللطف في المعاملة ويترفّق في شرائه حتّى لا يُشعر أحدًا من القوم بوجودنا فيمسكوا بنا، ويردّونا إلى القرية.

- إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا **(20)** :

إنّهم إن يعرفوكم، ويتمكّنوا منكم يقتلوكم رميا بالحجارة، أو يلزموكم باتّباع مذهبهم في الكفر والشّرك، وحينئذ لن تنجحوا من الفرار منهم ثانية، ولن تفوزوا برحمة الله تعالى ونعيمه إذا اِرتددتم إلى الكفر.

- وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا **(21)** :

وبخروج أحدهم ليشتري لجمعهم طعاما كُشف أمرهم لمّا أظهر الفتى دراهمه. رآها البائع فعرف أنّها من نقود سالف زمانهم، فظنّ أنّ الفتى قد عثر على كنز دفين، وتذكر رواية خبر الفتية – أصحاب الكهف– وأثار التّاجر بلبلة مع الفتى واجتمع من حوله النّاس في اِستنطاق الفتى حتى رفع الأمر إلى الحاكم بالسوق، فلمّا سمع منه الحاكم خبر نومه مع أصحابه في



الكهف، وسمع منه نسبه وعلم منه زمن رقاده أخذه للقسّ الأكبر لينظر في أمره. ولمّا سمع القسّ خبره، وعرف منه أسماء من كان معه في جمعه نظر في الرّقيم (اللّوح الذي نقشت عليه أسماء الفتية) فإذا هي نفس الأسماء، وكان القسّ العجوز حفيدا لأحدهم. تزوّج جدّه الغائب وهو في مقتبل العمر، ثمّ إختفى وترك زوجه حاملا، ثمّ وضعت الزوجة منه فتى هو والد هذا القسّ العجوز. عندئذ (أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ) أي وقتئذ عثر القوم على الفتية الذين كان أسلافهم: آباء أجدادهم يبحثون عنهم، ويطلبهم الحاكم لمحاكمتهم في سالف عصرهم، ونحتوا أسماءهم على الرّقيم لتثبيت طلبهم. عثروا عليهم بعد أكثر من ثلاثمائة سنة. وكذا كان الرّقيم الشاهد، وحجّة الإثبات، أراده القوم لأمرٍ (طلبهم للمحاكمة)، وقضى الله تعالى أن يكون لأمر آخر (أن يكون دليلا وحجّة على قدرته، وعلى صدق خبرهم) سبحانه جلّ وعلا في ما سخَّر، وفيما قدّر.

وجُمع لأصحاب الكهف ما يحتاجون من أطيب الطعام والثمار، وسيق إليهم يتقدّم الجمع القسّ العجوز، وضاق أهل الكهف بالحضور وخافوا منهم على أنفسهم ظنّا منهم أنّهم قد ضُبِطُوا، ولكنّهم لمّا علموا بما حدث لرسولهم إلى السوق، ولمّا سمعوا من القسّ العجوز أنّه حفيد لأحدهم، وأنّ زمن أهليهم وحاكمهم وقومهم مضى منذ قرون، وِاندهشوا وإستغربوا وما وَعُوا ما حدث، وطعموا طعامهم، وعاد الزائرون لقريتهم، فانتشر خبر الفتية في القرية بعودة الزّائرين وشاع في أهلها، وفشا، وأثار فضولهم. وعلم الفتية أنّ وعد الله حقّ في إحياء الموتى بعد مضي القرون الطويلة فازدادوا إيمانا، وعلم هذا الأمر أهل القرى فازداد يقينهم بقدرة ربّهم على إحياء الموتى فأجمعوا أمرهم على زيارة الكهف، وقصدوه في جمع غفير، فلمّا بلغوه فُوجِئوا بموت أصحابه، ولمّا يُتِمّوا طعامهم، فقال قائل فيهم سدّوا عليهم الكهف، ودعوهم على حالهم حتّى يبعثهم الله تعالى، ربّهم أعلم بخبرهم، وبما سيكونون عليه يوم يقومون، وقال حاكمهم وأصحاب الرّأي والنّفوذ: سنبني عليهم مصلّى لصلاتنا التي نتبارك فيها بهؤلاء. (ولا يجوز عند المسلمين اِتّخاذ المقابر مساجد إلى حدّ التّحريم، حتّى لا يُعَظَّمَ إلاّ الله سبحانه).

- سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا **(22) :**

هذه في اِستئثــار الله تعالى بمعرفة عدد الفتية، وبخبرهم.

والمعنى: سيقـول رواةٌ قد كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقول غيرهم، هم خمسة سادسهم كلبهم (رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِ) أي قذفا بالظنّ في أمر من الأمور الغيبية، ويقول آخرون: هم سبعة وثامنهم كلبهم. قل – يا محمد – للسّائلين عن عددهم، وعن بعض أسرار رقادهم ويقظتهم : "ربّي أعلم

بعددهم، وليس يعرف خبرهم إلاّ قليل من أهل العلم، ولا تسأل عن خبرهم أحدا، فلا علم لأحد بصحّة خبرهم، ولا تجادل في عددهم أحدا.

- **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا (23) إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا (24) :**

هذه في تأديب المؤمن حتّى لا يعد غيره بشيء في زمن محدّد دون أن يستثني ليردّ تحقيق الوعد لمشيئة الله تعالى، فلا يقولنّ إنّي فاعل كذا يوم كذا دون أن يقول بمشيئة الله تعالى، أو إن شاء الله. وإذا أقسم على شيء ليفعله في وقت محدّد فليقلْ بعد قَسَمِه: إلاّ أن يشاء ربّي شيئا آخر، حتّى لا يحنث في يمينه إذا لم يَفِ بقسمه في زمنه. (وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) أي تذكّر أنّ الله رقيب ومطّلع عليك إذا هممت بارتكاب ذنب حتّى يكون لك هذا التّذكر مانعا لك من اِرتكابه. وأُدع ربّك على الدوام أن يهديك لكلّ عمل فيه السّداد، وحسن الرّأي، وحسن الفعل، وحسن التّصرّف.

- **وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا (25) :**

ودَام رقاد أهل الكهف في كهفهم على حالتهم ولم يستيقظوا منه إلاّ بعد مرور ثلاث مائة سنة ميلادية، أو ثلاثمائة سنة وتسع سنوات قمرية. سبحان الله ما جاعوا وما هلكوا، وعادوا أحياء بعد طول هذه المدّة وما ذلك إلاّ ليعلم النّاس أنّ الله تعالى قادر على إحياء الموتى وردّهم لحالتهم التي كانوا عليها يوم يأذن بقيام الساعة.

- **قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا (26) :**

قل الله أعلم بما لبثوا في كهفهم ذاك منذ موتهم إلى حدّ نزول الوحي بالإجابة عن سؤال السائلين عن خبرهم. لله وحده علم ما غاب عن النّاس من أخبار ما يحدث في السماوات وما يحدث في الأرض قديما، وحاضرا، ومستقبلا. أُنظر ببصيرتك وتدبّرك في تصريف الله جلّ وعلا في عباده المؤمنين، وأخبر بقدرته، وبرحمته بهم. لم يكن لأصحاب الكهف من وليّ من دون الله تعالى يحفظهم، ولا يُشرك ربّك في حكمه وقضائه وتصريف أمور خلقه أحدا، ولكم في خير أهل الكهف الحجّة والبرهان فاعتبروا بما سمعتم.

- **وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا (27) :**

واِقرأ عليهم ما جاءك من الوحي من القرآن: كتاب ربّك، لا مغيّر لأحكامه، ولا مغيّر لوعد الله للمؤمنين، ولوعيده بالعصاة المذنبين والمخالفين لأمره، ولا ملجأ من الله عزّ وجلّ إلاّ إليه، ولا مَنْجَى منه إلاّ إليه، ليس لأحد من حِمًى من دون الله تعالى.



- وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا(28) :

في هذه الآية رفعٌ لقدر المؤمنين المستضعفين، ولمكانتهم عند ربّهم وعند رسوله، وفيها ردّ على المستكبرين الذين يترفّعون عن الجلوس مع فقراء المؤمنين وضعفائهم تكبّرا، والمعنى: وثَبِّتْ نفسك على مصاحبة الذين يذكرون الله تعالى بالتّسبيح والحمد والدعاء بالصبح والعشي يطلبون رضوانه، ويطلبون التقرّب إليه بإخلاصهم في الدّين بلا مراء، ولا تنصرف عيناك عنهم إرضاء للسادة والوجهاء تريد بصحبتهم الفخر، ولا تطع من صَرَفَنا قلبه عن الإيمان وجعلناه ساهيا غافلا عن ذكرنا بالتّسبيح والحمد، ولا تُطِعْهُ فيما اِقترح عليك من إبعاد الفقراء والمستضعفين من حولك ومن مجالسك، ومُسايرًا هواه في الزّهو بنفسه، واِحتقار الآخر تعاظما وتكبّرا، وكان قد تجاوز حدّه في طلبه.

- وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا(29) :

هذه الآية حين يقرأها المؤمن يراها في وعيد الكافرين الذين شاؤوا لأنفسهم أن يضلّوا على الكفر، ورفضوا الإيمان. ويستشهد بعضهم بجملتها الثانية: (فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ)، ليستدلّ بها على "سماحة الإسلام". ويتّخذها آخرون شعارا للاستدلال بها على "حرية الضمير". ويرى فيها آخرون دليلا على "حرية المعتقد".

وعموما فإنّها في تحميل الإنسان مسؤوليته في اِختياره : الإيمان، أو الكفر، وعليه أن يعرف مصير الكافرين إذا تخيّر المرء أن يكون من جنسهم، فلا تكون له على الله حجّة إذا ساء مصيره في آخرته، فقد شاء لنفسه بنفسه سوء مآله.

والمعنى: أخبرهم – يا مُحمّد – أنّ الدّين الحقّ هو الدّين الذي جاءكم من ربّكم: الإسلام، وكلّ دين غير الإسلام هو دين باطل. فمن شاء أن يسلم فقد وُفِّقَ، وهُدِي للصواب، واِستقام على الدين الحقّ. ومن شاء أن يبقى على ضلالته، وأن يتمّسك بالكفر بالتّوحيد ليظلّ على شركه فهو حرّ في اختياره، وليعلم أنّه قد أُعِدَّ للظالمين أنفسهم بالكفر عنادا نارًا تحيط بهم من كلّ جانب، ومن فوقهم ومن تحتهم(كالسرادق) وهي الخيمة، وحين يستغيثون من حرقتها ومن عطشهم يُقَدَّمُ لهم ماء كَعَكَرِ الزّيت المحروق، أو ماء كالقيح والدم يشوي حلوقهم ووجوههم فيزدادون بهذا الماء عذابا وإحراقا. بئس ما يشربون وبئس المرفق، أي المقام الذين أرادوا لأنفسهم بكفرهم أن يقيموا فيه.

وممّا يُستفاد من الآية أنّ الاستشهاد بها لغرضٍ آخر غير غرض الوعيد بالذين تخيّروا لأنفسهم أن يبقوا على كفرهم، ورفضوا أن يهتدوا للدِّين الحقّ هو من الاستشهاد الذي ينظر في جزء من الآية، وليس في مجملها، وهو من الاستشهاد الذي لم يُنْظَرْ فيه في مقصدِ عمومها.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا **(30)** أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا **(31)** :

على عادة القرآن في اِتباع الوعيد بالوعد، فإنّ الآيتين في تبشير المؤمنين العاملين الصالحات بالكثير من الفضل والنّعيم. إنّ الله تعالى يعدهم بإيتائهم أجرا حسنا عن إيمانهم وعن عملهم الصالحات دون أن يضيع من أجرهم وثوابهم شيئا. يؤتيهم من فضله إقامة دائمة في بساتين مرفهة، ويُكْسَوْنَ ملابس الملوك، ملابس من الديباج الرّقيق، ومن الحرير، ويزيّنون بأساور في عضدهم من ذهب كالملوك والسلاطين، ويجلسون على الأرائك يتكئون عليها اتّكاء المرفّه كشأن وجهاء النّاس وعظمائهم وملوكهم. ما أحسن ثوابهم وما أحسن إقامتهم.

- وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا **(32)** :

هذه الآية إلى الآية 44 في قصّة رجل ثريّ آتاه الله تعالى خيرا كثيرا فبطر به، واستكبر، وجحد فضل ربّه عليه، وأنكر البعث ويوم الحساب، واِستعلى على رجل مؤمن صالح كان فقيرا، جاء واعظا حتّى يكون شاكرا لفضل ربّه عليه، واِحتقره، فعاقب الله تعالى الرجل الثّري بأن أذهب ماله، وأهلك خيراته لكفره وجحوده واِحتقاره للمؤمن، وكذا نصر الله عبده المؤمن، واِنتقم له، وعاقب الجاحد المستكبر ليعتبر به النّاس. وأُقصص عليهم قصة رجلين، كان أحدهما يملك بستانين فيهما خيرات كثيرة من ثمر العنب، وكانا مُحاطَيْنِ بأشجار النخيل للثّمر ولحمايتهما من الرّياح وعاديات الطقس، وكان بين أشجار العنب وأشجار النخيل زروع لأنواع الحبوب للطعام.

- كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا **(33)** :

وكلتا الجَنّتين تؤتيان دائما ثمارهما من الحبوب ومن الثمار بنصيب وافر، ولا يفسد ممّا يغرس أو يزرع شيء إذ كان يجري خلال الأشجار والزروع سواقي من نهر يشقّهما، فكان خيرهما كثيرا طيّبا وتؤتيان رزقا حسنا.

- وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا **(34)** :

وكان لصاحب الجنّتين أموال كثيرة يستثمرها في التجارة، وتؤتيه أرباحا كثيرة. فقال لصاحبٍ له – في محاورة بينهما – أنا أكثر منك مالا، وأكثر منك أولادا وأعوانا وأصحابا وعشيرة.



- **وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا (35) :**

ودخل بستانا من أحدهما، وهو في حالة زهو وكبرياء واِستعلاء، وقال لصاحبه: لا أعتقد أن يهلك هذا البستان، وأن تذهب خيراته وتقلّ أبد الدهر، جاحدا قدرة ربّه على فعل ما يشاء.

- **وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا (36) :**

وقال – وهو يخاطب صاحبه المؤمن الذي جاءه واعظا – ولا أعتقد في البعث ولا في قيام الساعة، فمن مات فقد أهلكه الدهر واِنتهى، وإذا كان أمر الساعة واقعا فإنّي حين أُردّ إلى ربّي سأجد عنده بكلّ تأكيد الحظوة، وسأجد خيرا من هذين البستانين وعاقبة أحسن. عبّر عن تأكيده بأن يجد خيرا ممّا كان عنده في دنياه بفعل (لَأَجِدَن ) مستعملا فيه لام التوكيد في أوله، ونون التوكيد في آخره. وما قاله إلاّ اِستهزاءً، وتعاظما، وكذا يفعل ناكرا البعث.

- **قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا(37) :**

هذه وما بعدها من الآيات في ما وعظه به صاحبه لردّه عن غيّه. قال له: كيف تكفر بربّك الذي خلقك؟ والاستفهام للاستغراب، وللتأنيب أيضا. أتكفر بالذي خلق الإنسان من تراب، ثمّ جعل نسله من (نُّطۡفَةٖ): اِلتقاء ماء الرّجل بماء المرأة، ثمّ ولد رضيعا وخلق الله فيه أسبابا ليكبر ويصير رجلا مكتمل البدن والقوى والعقل.

- **لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا (38) :**

لكن أنا أؤمن بربّي الذي خلقني وسوّاني. ربّي الله، لا أشرك به أحدا، ولا أقرّ بالألوهية لغيره. (لَّٰكِنَّا) عند علماء النحو: الكِسائي والفرّاء، والمازني هي : لكن أنا، فيها حذف للهمزة (أ)، وإدْغام للنونين، وإثبات للألف في (أنـ"ـا"). وجب فهمُ هذا الشرح اللّغوي لتقرأ قراءة سليمة بعد فهم سرّ تركيب هذه الكلمة، ويفهم من هذه الآية والآية السابقة أنّ صاحب الجنّتين كان مشركا، وكان جاحدا، وناكرا للبعث، وهازِئًا به، وفي هذا اِلتفات لأصحاب النّعمة وأثرياء قريش وزعمائهم، فهذا المثل المذكور مقصود به هؤلاء المشركون، الجاحدون، ناكرو البعث والمكذّبون بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم.

- **وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا (39) فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا (40) أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا (41) :**

في هذه الآي ترغيب وتحذير، وفيها توبيخ ووعظ. والمعنى: هلا قلت كلّما دخلت بستانك ذا الخيرات الوفيرة: ما شاء الله لا قوّة إلاّ بالله، للإقرار بفضل الله، وللاستسلام لأمره، لأنّ كلّ خير



وكلّ فضل من مشيئته حتّى لا تُنتزع البركة. وإن كنت تراني فقيرا، لا أملك من الأرزاق، ومن الأعوان والعمّال والأولاد والخدم مثلما تملك، فعسى ربّي أن يعطيني شيئا آخر خيرا من جنّتك وأموالك وأعوانك، وفي المقابل يرسل على بستانك الذي تفخر به بلاءً وهلاكا من السماء يصيبه فيتحوّل إلى أرض لا غرس فيها ولا زرع ولا نبات، أرض ملساء جدباء لا شيء فيها، أو يتوقّف النّهر الذي كان يجري فيه ويسقيه فينضب، ويصبح الماء بعيد المنال، غائرا. قال له صاحبه هذا للتّحذير حتّى لا يتمادى في جحوده، وحتّى يثوب لرشده فيشكر ربّه على فضله.

وشاء الله تعالى أن يثبت تحذيره، ويحوّله إلى واقع عقابا للجاحد وإنتقاما منه وتثبيتا لقول المؤمن النّاصح الآمر بالمعروف والنّاهي عن المنكر.

- وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا **(42)** وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا **(43)** :

وأحاطت الصواعق بالثّمار وبالزرع فأهلكته، وأحاطت الجوائح بأمواله فذهبت بها وصار يضرب كفّا بكفّ من شدّة حسرته وحرقته على ذهاب ماله الذي أنفقه على إصلاح أرضه فلم تصلح، وظلّت خالية من كلّ غرس ونبات إلاّ ما كان ساقطا على بعضه ومحطّما، وهو يقول في ندم حينما ينظر في الحال الّذي آل إليه رزقه في جنّتيه: يا ليتني لم أشرك بربّي أحدا، ولم يجد من حوله من يعينه على مُصابه، هرب عنه الأعوان، وأصحاب المطامع، ولم يجد نصيرا من غير الله، ولم يمنع من عقاب الله تعالى وعذابه، ولم ينقذه أحد منهما. وفي الآيتين إنذار لزعماء قريش وأثريائهم من أن يذهب عنهم أنصارهم، ومن أن تتحوّل عنهم نِعَمُ الله عليهم فيصبحوا نادمين، متحسّرين على ما فاتهم من الخوف من النّذير.

- هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا **(44)** :

إذًا فالنّصرة من عند الله تعالى وحده، وهو المعين الحقّ، لا الجاه، ولا المال، ولا العشيرة ولا الأنصار. هو تعالى خير ثوابا ونصرة وولاية لعباده المؤمنين به، والمطيعين له. وهو تعالى الذي يَهَبُ لمن رجاه ودعاه حسن العاقبة. نسأل الله تعالى السلامة وحسن العاقبة.

وهذه الآية هي محلّ العبرة لهذه القصّة، ومن جعل وليه المال، أو الجاه، أو العشيرة والأعوان فهو مهزوم لا محالة، وكم من رئيس دولة أو وزير طغى وظنّ أن لن يقدر عليه أحد، فلمّا دارت عليه دائرة السوء هلك، وذهب غير مأسوف عليه.

- وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا **(45)** :

هذه في موعظة النّاس بأنّ الحياة الدنيا تزهو حينًا ثمّ يذهب ما عليها.



والمعنى: إنّما مثل الحياة الدنيا كالماء الذي ينزل من السماء فيختلط به نبات الأرض فيزهو النبات ويزهر ويخضر وينمو ويبرز، ثمّ يصبح هذا النّبات يابسا متكسّرا ومتفتّتا وقشّا تمرّ به الرّياح فتفرّقه وتطيّره في الجوّ ويحمله الهواء، فلا ترى له أثرا. والله سبحانه قادر على كلّ شيء لا يعجزه أمر أو فعل. والعبرة أنّ الذي يتعلّق بالحياة الدنيا سيأتي عليه يوم يدرك فيه أنّه كان متعلّقا بالقشّ الذي سيذروه الرّيح.

- **ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا (46) :**

خير المكتسبات في الحياة الدنيوية وأعزّها وأثمنها وأجملها: المال أولا يمنح صاحبه الفخر والزّهو بالنّفس، ويقضي به حاجاته، ويعرف به الرّفاه، ويُكبره به النّاس ويطلبون وُدّه وسخاءه، ثمّ الذّريّة الصالحة ثانيا إذا كانوا من أصحاب المقامات الرّفيعة في العلم، أو في الجاه، أو في القوة والمنعة. لكن عند الله تعالى خير المكاسب وأجلّها وأفضلها وأعزّها: أعمال الطاعات، وأعمال البرّ، وكلّ صنف من أصناف الذّكر والإحسان لأنّها أعمال تُجزي الثّواب والجزاء عند الرّجوع إليه عزّ وجلّ يوم الحساب، ولأنّها من خير المكتسبات التي يؤمّل بها المؤمن أن تحقّق له الفوز بالنّعيم المخلّد، والنّجاة من العذاب.

- **وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا (47) :**

ويوم نذهب بالجبال فنجعلها ترابا، وتُرَى الأرضُ بيضاء لا شيء عليها من نبات أو أيّ كائن حيّ، وعراء ليس فيها ما يستظلّ به من شيء قائم، ونحشر جميع الخلق بدون إستثناء لأحد.

- **وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا(48) :**

يومئذ يعرض النّاس على الله عزّ وجلّ للحساب، ويقومون بين يديه، ويقال لهم حينئذ: لقد حضرتم بين أيدينا وقد رددناكم إلى صوركم التي كنتم عليها في حياتكم قبل مماتكم، وقد كنتم في دنياكم تحسبون أنّ هذا الموعد غير واقع، وأنّ بعثكم بعد موتكم غير ممكن، وتتوهمّون أنّ هذا الموعد لن يكون.

- **وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا (49) :**

(ٱلۡكِتَٰبُ) هنا سجلّ الحساب على الأعمال، و(وُضِعَ) يعني إحضاره وعرضه لكشف ما فيه، و(ٱلۡمُجۡرِمِين) هم المشركون والملحدون والمكذّبون بالرّسل وبيوم الحساب وبالوعد والوعيد. هؤلاء يوم الحساب حين تعرض سجلاّتهم عليهم لمحاسبتهم على أعمالهم يكونون خائفين وجِلِين ممّا في سجلاّتهم من مخالفات ومعاصٍ. ويقول بعضهم لبعض من أمثالهم : (يَٰوَيۡلَتَنَا) وهذا للحسرة



والهلع والفزع ممّا يتوقّعون من سوء المآل، ومن الشدائد عند الوقوف عند الميزان وعند السؤال عن سوء أفعالهم وعن معاصيهم وعن كفرهم، وممّا سجّل عليهم من هزء وعناد وإصرار على الكفر، ويستغربون من دقّة ما أحصي عليهم من أفعالهم، فالسّجلّ لم يترك صغيرة لا شأن لها ولا كبيرة في الجرم إلاّ وأثبتت فيه ودُوّنت بضبط دقيق لزمنه ومكانه ولفظه، ووجدوا ما سيحاسبون عليه جاهزا للسّؤال عنه، وللقضاء فيه، ولا يظلم الله أحدا بأن يعاقبه بأكثر ممّا يستحقّ، وما ظلمه من قبلُ لأنّه قد أخبره عن طريق رسله بما سيكون في آخرته، وقد حذّروه من الحساب ومن سوء مآل الكافرين العصاة.

- وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا **(50) :**

وأذكر إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم عند خلقه فسجدوا، وكان من بينهم حين تلقّوا أمر ربّهم بالسجود لآدم إبليسُ – وكان من جنس الجنّ – فخرج عن أمر ربّه ولم ينفّذه. وسجود الملائكة لآدم هو سجود تقدير واحترام. وهذه الآية تثبت أنّ إبليس لم يكن من الملائكة، وإنّما كان من جنس الجانّ، وكان موضعه في الملإ الأعلى. (أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ) الاستفهام هنا موجّه للبشرية جمعاء، ويفيد الاستفهام التّعجّب والاستغراب. والمعنى : أيُعقل أن تتّخذوا – أيّها النّاس – إبليس وذرّيته أنصارا من دون الله وهم أعداء لكم، لا يريدون لكم خيرا، ولن يرشدوكم إلى الخير، وتتركوا اِتّباع الهدى الذي جاءتكم به رسلكم من عند الله تعالى. بئس ما اِستبدلتم به هدى ربّكم وإرشاده.

- مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا **(51):**

الذين أشركوا يتّخذون إبليس وأعوانه آلهة من دون الله، والحال أنّهم لم يحضروا خلق السماوات والأرض ولا كيفيّة خلقهما ولا خلق أنفسهم، ولم يساهموا في شيء من ذلك، ولا علم لهم بشيء من كيفية الخلق، وما كان الله ليتّخذ الذين يُضلّون النّاس عن الحقّ، ويزيّنون لهم الباطل أعوانا وأنصارا.

- وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا**(52) :**

ويوم القيامة يقال للمشركين عند الحساب، وعند القضاء فيهم بالعقاب تعذيبا: نادوا آلهتكم التي اتّخذتموها شركاء لله تعالى كما اِدّعيتم تَوَهُّمًا، فدعوا إبليس وأعوانه وما كانوا يزعمون من الآلهة فلم يستجب لندائهم أحد منهم. وعندئذ قامت بينهم عداوةٌ ومَهْلَكَةٌ.

- وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا **(53) :**

ورأى المشركون والعصاة المذنبون النّار فعلموا بأنّهم واقعون فيها يقينا، ولم يجدوا منها مهْرَبًا ونجاةً.

- وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا **(54)** :

ولقد نَوَّعْنا للنّاس أساليب الإرشاد والوعظ والتّحذير في هذا القرآن من كلّ وجه لإقناعهم بالتّوحيد ونبذ الشّرك، ولطاعة الله تعالى والحذر من اِتّباع الهوى ووساوس الشيطان، ولكن كان الإنسان يميل إلى المنازعة، والخصومة في الرّأي بالباطل عنادا.

- وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا **(55)** :

ولم يمنع النّاس من الإيمان لمّا جاءهم ما يهديهم للحقّ والصواب ليتوبوا وليطلبوا مغفرة ربّهم عمّا فرط منهم من السيّئات والمعاصي ومن الشّرك إلاّ أنْ يُقْضَى فيهم بما قُضِيَ على أسلافهم من عذاب الاستئصال، أو أن يحلّ بهم عذابٌ يهدّدهم أو يهلكهم وهم يعاينونه بأعينهم ولا يستطيعون ردّه أو النّجاة منه.

- وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا **(56)** :

وما يرسل الله تعالى المرسلين لعباده إلا لهدْيهم حتّى لا يضلّوا، ويحمل المرسلون معهم بشائر للمؤمنين ممّا يَعِدُ به الله جلّ وعلا عباده من الرّحمة والنّعيم إذا آمنوا وعملوا الصالحات، وفي الآن ذاته يبلّغون العصاة المعرضين عن طاعة الله التّحذيرَ الشديدَ من عذابه وعقابه، ويقابل الكافرون رسائل المرسلين بالجدال العقيم اِنتصارا للضلال والباطل ليطمسوا الحقّ الذي جاء به الرسل ويرفضوهُ عنادا وكبرياء واِتّباعا للهوى، ومن غريب أمرهم أنّهم يهزؤون بالوعيد والتّحذير والإنذار.

- وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا **(57)** :

وليس أحدٌ أظلم لنفسه، ويريد لها الهلاك من إنسان يدعى لذكر ربّه ولطاعته ولعبادته، ويُوعظ، ويُنَبَّهُ للحذر من معصية الله ومن عقابه فيعرض عن ذلك، ولا يسمعه، ويتمادى في غَيِّهِ، ولا يذكر ما آتاه من معاصٍ وسيّئات ومخالفات كأنّه يظنّ أنّه ناجٍ من المؤاخذة عليها ومن المحاسبة عمّا فعل. كلّ من كان على شاكلته قد جُعل على قلبه غطاء وغشاء لتعطيله عن الإحساس بالنّدم عمّا فعل، وعن الشعور بأنّه مخطئ وأنّه على ضلال، وجُعِل في أُذُنَيْه ثقل في السمع، شِبْه الصمم فلا يسمع بهما موعظة ولا تحذيرا ولا هديا، وإذا دُعِي للهدى والحقّ والتّوبة والاستغفار فإنّه لا يهتدي للصواب أبدا.

- **وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا (58) :**

هذه في الإمهال. والمعنى: إنّ الله سبحانه كثير المغفرة، وهو ذو الرّحمة الواسعة، لو كان يؤاخذ الظالمين والمشركين بما يفعلون لعجّل لهم العقاب والعذاب ولأهلكهم، ولكن قضى أن يمهلهم ليوم الحساب، يومئذ لن يجدوا ملجأ، ولا مفرّا، ولا ملاذا من العقاب ومن العذاب.

- **وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا (59) :**

ولقد أهلكنا الكثير من القرى في سالف الزمن عقابا لهم لمّا كفروا وأصرّوا على الكفر، ولم يؤمنوا، ولم يصدّقوا رسلهم، وجعلنا لهم يوم القيامة موعدا لينالوا عقابا أشدّ وعذابا دائما.

- **وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا (60) :**

هذه إلى الآية 82 في خبر موسى مع الرّجل الصالح الذي آتاه الله تعالى العلم اللّدُنّي، أي علما من لدن الله سبحانه آثره به دون سواه من خلقه، وكلّفه بإنجاز بعض الأعمال للمجازاة أو للمحافظة عليها، أو للعقاب، وهو من علم الغيب الذي لا يعرف موضعه وسرّه ومكانه وغايته إلاّ الله سبحانه وأطلع عبده عليه وآثره به. وجاء في خبر هذه القصة في الصحيحين عن أبيّ بن كعب أنّه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: "إنّ موسى عليه السّلام قام خطيبا في بني إسرائيل فَسُئِلَ أيُّ النّاس أعلم، فقال: أنا، فعَتَبَ الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، فأوحى الله عليه: إنّ لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يا ربّ كيف لي به؟ قال له: تأخذ معك حوتا فتجلعه في مَكْتَلٍ فحيثما فقدتَ الحوت فهو ثَمَّ" واللفظ للبخاري.

وفي هذه القصّة الكثير من وجوه الاعتبار تُعْرَفُ تِبَاعًا. ولقد رأى موسى عليه السلام في نفسه أنّه أعلم النّاس لأنّه في قصر فرعون – حيث نشأ – تعلّم عِلْمَ القوم وعرفه، ودُرِّبَ على فنون القتال وإِستعمال السلاح وبرع في ممارسته، وتقوّى بالدربة على فنون القتال، ثمّ جاءه الوحي فصار أعلم النّاس في قومه وفي بني إسرائيل الذين كانوا على شريعة إبراهيم وإسحاق ويعقوب في علوم الدين والشرائع، وكلّمه الله تعالى تكليما، وصاهر شُعيبًا عليه السلام، فحُقَّ له أن يقول عن نفسه بأنّه أعلم النّاس ولكنّه لم يَسْتَثْنِ برَدِّ العِلم إلى الله تعالى، وَرَدِّ فضلِ ذلك إليه عزّ وجلّ، وشاء الله تعالى أن يعرّفه، ويعرّفنا نحن أيضا بأنّ من العلوم علوما يستأثر بها الله تعالى ومنها علم الغيب، ومنها العلم اللّدنّي الذي يخصّ به أحدا من خلقه يكلّفه به تكليفا محدودا في موضوعه وزمَنِهِ، ومنها علم ما في السماوات وما في الأرض، وغير ذلك كثير ممّا يتأكّد لدى الإنسان بأنّه مهما أوتي من علم – ولو في إِختصاصات عديدة ومتنوّعة ودقيقة – فإنّما أوتي شيئا قليلا.

والفتى المذكور في هذه القصة هو يوشع بن نون، وهو نبيّ، وهو الذي خرج ببني إسرائيل من التّيه بعد وفاة موسى عليه السلام، ولم يكن يوشع في زمن موسى نبيّا، وإنّما كان معه هارون عليه السلام، ويوشع عليه السلام هو ابن أخت موسى.

وأُذكر إذ قال موسى ليوشع بن نون تزوّد لسفرنا، فإنّا سنسافر حتّى نبلغ مجمع البحرين، أو أظلّ مسافرا زمنا طويلا حتى أبلغ غايتي. وقد اختلف العلماء في تحديد مكان مجمع البحرين، وقالوا فيه أقوالا مختلفة ومضطربة وبدون دليل.

- فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا (61) :

فلمّا بلغ الإثنان مجمع البحرين على أقدامهما شعرا بالتّعب، فاستراحا وأخذتهما غفوة، وانتبه يوشع وهو في غفوته إلى أنّ المكتل قد اِنقلب ورأى الحوت يتسرّب منه إلى البحر، كان الحوت جافّا وكان مُعَدًّا لطعامهما أثناء سفرهما، ثمّ عاد لغفوته، ولمّا اِستيقظا من اِستراحتهما مضيا في سفرهما، ولم يذكر يوشع لموسى أنّه رأى الحوت يتسرّب من المكتل إلى البحر عبر الموج الذي بلغه وأخذه معه، وأنّه حمل المكتل وقد ذهب حوته واتخذ هذا الطعام في البحر طريقا ومسلكا. وقد نسي أن يذكر ذلك لموسى، وركبا سفينة ومضيا في البحر يَجْذِفَان قرب الساحل يتطلعان لأن يجدا رجلا في هذا المجمع.

- فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا (62) :

ولمّا تعدَّيَا المكان المقصود، وتعبا من الجذف، وشعرا بالجوع، قال موسى ليوشع أحضر لنا طعاما، لقد تعبنا تعبا شديدا في سفرنا هذا، وعَيِينَا.

- قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا (63) :

عندئذ تذكّر يوشع تسرّب حوتهما إلى البحر، فقال لموسى: أتذكر حين اِلتجأنا إلى تلك الصخرة التي اِسترحنا عليها، فإنّي نسيتُ أن أخبرك بأنّ حوتنا قد تسرّب إلى البحر، ومعذرة عن نسياني فإنّما أنساني الشّيطان أن أخبرك بأمره، ولقد اِتّخذ الحوت سبيله إلى البحر في أمر عجيب، هو حوت ميّت جافّ وتسرّب عبر الموج إلى البحر في منظر عجيب.

وممّا يُستفاد من الآية الانتباه لتقدير الله تعالى: جعل الحوت الميّت الجافّ يتسرّب إلى البحر، وهذا أمر عجيب لا يخطر على بال، ولا يُتَصَوَّرُ. وجعل الفتى ينسى الأمر بتقدير منه سبحانه. وجعل موسى يسير سيرا طويلا صحبة فتاه في اتّجاه مجهول للبحث عن رجل مجهول حتى أنهكه التّعب وأرهقه وحتى جاع، وهو الرجل القويّ المحارب. أليس في هذا عبرة لنا لنعلم



أنّ طالب العلم عليه أن يتسلّح بالتجلّد والصبر في طلبه، وعليه أن يتوقّع الجوع والشدّة والتّعب ليبلغ غايته.

• **قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا (64) :**

ولم يؤنّب موسى فتاه، بل قال: هذا ما كنّا نريد، إنّا نريد المكان الذي نفقد فيه الحوت، فرجعا من حيث ركبا في السفينة يَتَّبِعان الطريق الذي سلكاه للعودة إلى المكان الّذي إِستراحا فيه. (قصّ الأثر) اِتّبع أثر الطريق الذي قطعه المسافر. ولكنّ هذه العودة كانت أشقّ من الأولى لأنّ الاثنين كانا مُتْعَبَيْنِ، وكانا جائعين وفي حالة التّعب والجوع يكون الجهد أضعف، وتكون المشقّة مضاعفة أضعافا.

لم يبلغ موسى مراده – وهو النّبيّ عليه السلام – إلاّ بعد عناء ومشقّة وجوع – يا الله! ما أعجب تقديره! وما أعجب تأديبه لنبيّه!؟ طلبُ العلم مطلبٌ نفيسٌ، لابدّ لبذل التّعب من أجله.

• **فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا (65) :**

ولمّا بلغا مكان تسرّب الحوتِ وجدا رجلا من عباد الله آتاه الله تعالى فضلا من عنده وتكريما. هذا الرجل هو الخضر عليه السلام على أشهر الأقوال – ولا أحد يعلم عنه شيئا سوى وصفه بأنّه رجل صالح، هو جندي من جند الله في الأرض كلّفه بعمل فآتاه تنفيذا لأمره سبحانه، وأعانه الله عليه، وخصّه الله تعالى بعلم لم يخصّ به أحدا من خلقه، وهو شيء من علم الغيب، والخضر لم يكن نبيّا ولا رسولا.

• **قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا (66) :**

ولمّا لقيه موسى اِلتمس منه أن يصاحبه في سفره، وأن يكون تابعا له شريطة أن يعلّمه شيئا ممّا تعلّم وممّا عَلِم من الرّشاد إلى الحقّ والصّواب.

• **قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا (67) وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا (68) :**

قال له الرّجل منبّها: إنّك لن تستطيع معي صبرا. وإستعماله للفظ (لَن) يدلّ على أنّ الرّجل متأكّد كلّ التأكيد على أنّ موسى وهو النّبيّ، وهو الرجل القويّ والصبور، غير قادر على أن يتملّك نفسه عن التّعبير عن إستغرابه وعن دهشته ممّا سيشاهده في صحبته له من عجيب أمره، وأنّه غير قادر على أن يتملّك نفسه ليصبر حتّى يعرف نتائج عمل الرّجل الّذي هو من أمر الله فعَلَهُ لغاية مقصودة. وسأله: وكيف تستطيع صبرا على إشباع فضولك لتعرف ما وراء الأحداث حبّا في الإطلاع؟ وهو إستفهام لتحفيزه على ضبط نفسه عن الأسئلة حتى يأتيه خبَرُ أَثَرِ الأفعال، وأبعادِها، ونتائجِها.

• **قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا (69) :**

قال موسى واثقا من نفسه: ستجدني إن شاء الله صابرا، فلا أسأل عن شيء، وسأظلّ تابعا ومراقبا للفعل فحسب، ولا أعصي لك أمرا في الصبر وفي تنفيذ ما تأمرني به.

- قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا (70) :

اِشترط الخضر عليه السلام على موسى عليه السلام على أن لا يسأله عن شيء عندما يتّبعه، وعليه أن ينتظر حتّى يفسّر له الخضر أسباب فعله ويبادره بإخباره عن أغراضه.

- فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا (71) :

فانطلق موسى مع الخضر في سفرهما حتّى لقيا سفينة لصيادين فقراء فطلب الخضر السفر صحبة صاحبه معهم، فحملوهما معهم، وإذا بالخضر يَعْمَدُ إلى لوح من ألواح السفينة يضربه بالقَدُوم يريد قَلْعَه، وفعلا قلعه، لم يتمالك موسى نفسه من عجيب ما يراه من فعل صاحبه فقال: أتعمد لخرقها لتغرق أهلها، وقد حملونا بدون مقابل. لقد قمت بعمل شديد الأذى، والغرابة. قاله من شدّة إشفاقه على الصيادين، والمركب وسيلة عمل واِسترزاق.

- قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا (72) :

فذكّره الخضر بما نبّهه إليه سابقا بأنّه لن يتملّك نفسه عن إشباع فضوله ليعرف سبب ما سيفعل...

- قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا (73) :

فاعتذر موسى عن خرق ما وعد به من اِلتزام الصمت والكفّ عن السؤال، فقال: معذرة لا تؤاخذني عن نسياني، ولا تُضَيِّقْ على صحبتي معك وأمر اِتّباعي لك ولا تجعل لي فيه مشقّة.

- فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا(74) :

ثمّ مضيا في طريقهما حتى اِلتقيا بغلام فقتله الخضر، ثارت ثائرة موسى فقال له: أقتلت نفسا مطهّرة لا ذنب لها وبغير سبب، وليس لتنفيذ حكم قضائي في قصاص، لقد فعلت فعلا مُنْكَرًا.

- قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا (75) :

وذكّر الخضر موسى بما نبّهه به من قبلُ بأنّه غير قادر على ضبط نفسه لإشباع فضوله لكشف سرّ قتل نفس غلام بغير ذنب، وقتلُ نفس بريئة بغير جُرْمٍ أمرٌ جلَلٌ، والقاتلُ رجل صالح وهو عبد مأمور من الله الرّحمان الرّحيم العَدْل ليفعل هذا الفعل! سبحان الله تعالى فيما يقدّر..!! اللّهم اِنفعنا بشيء من علمك لنُبْصِرَ شيئًا من حكمتك في تصريف بعض الأمور في مجريات حياتنا.

- قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا (76) :



قال موسى : إن سألتك عن شيء بعد هذا السّؤال فاطردني من مصاحبتك، قد أَعْذَرْتَنِي، وبلغتَ منتهى الإعذار والتّسامح في شأني. يفهم من هذا أنّ موسى عليه السلام قد شعُر بالكثير من الحرج في اِستعجاله لفهم سرّ ما يفعله هذا الرّجل تنفيذا لأمر ربّه. وممّا يستفاد من هذه الآيـة ومن موقف موسى أنّ العقل البشري قاصر على إدراك مقاصد الغيبيات، وأنّ علم الحياة محدود.

- فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا **(77) :**

ثمّ واصلا مسيرهما حتّى إذا بلغا قرية من القُرى طلبا طعاما ضيافة، بدون مقابل من سكّانها، فرفضوا إطعامهما، واِمتنعوا عن اِستضافتهما وإكرامهما شحّا وبخلاً، فوجدا في مكان من القرية جدارا مائلا يكاد يسقط رَدْمًا، وينهدم، فقام الخضر بترميمه وإصلاحه حتّى لا يسقط. فقال له موسى: قوم أتيناهم، فلم يضيّقونا، ولم يطعمونا، لو شئت طلبت أجرا عن الإصلاح الذي أقمت به الحائط لنشتري به منهم طعاما نأكله، لم يتمالك نفسه من أن ينظر فيما يحدث، دون أن يتدخّل فيما لا يعنيه، وإن كان يريد به نصحا.

- قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا **(78) :**

عندئذ قال الخضر: تدخلّك هذا يجعلنا نفترق، فلا تصاحبني بعد هذا، وسأخبرك بأسباب ما فعلت وأغراضه لأفسّر لك ما لم تقدر على اِمتلاك نفسك على الصبر حتّى يأتيك خبره، وما كنت تتعجّل معرفته حُبًّا في الاطلاع.

- أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا **(79) :**

أمّا السفينة فكانت لبحّارة يعملون عليها لاكتساب رزقهم من الصيد وكانوا فقراء مساكين، وكان يحكمهم ملك ظالم يرسل أعوانه ليسخّروا كلّ سفينة يلقونها في البحر وأصحابها لخدمة مصالح الملك بدون أجر، فأردت أن أعيبها حتّى إذا وقعت عليها أعينُ أعوان الملك وضبطوها وجدوها معطّبة، فزهدوا فيها، وتركوها لأصحابها دون تسخيرهم لخدمة الملك مجانا، وعندئذ يظلّ مركبهم على ذمّتهم ليكتسبوا به رزقهم، غير مسخّرين لخدمة لا يحصلون من ورائها على نفعٍ لهم ولأهليهم. والمستفاد من الآية: ربّ ضارّة نافعة. وثانيا: أنّ الله تعالى يحبّ عباده المساكين، وكان من أدعية النّبي صلّى الله عليه وسلّم على ما روي عنه: "... وأُحشرني مع المساكين..." لأنّ الله تعالى رحيم بعباده المساكين، ورؤوف بهم.

- وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا **(80) :**

وأمّا الغلام القتيل فكان أبواه مؤمنين صالحين، وكان غلاما طائشا، فخشينا أن يرهقهما حين يشبّ بعقوقه، وبمعاصيه، فيسيء إلى ذكر والديه من بعدهما حينما يموتان، ويكون سببا في إلحاق السبّ واللعنة وهما ميّتان بسبب ظلمه لنفسه بالكفر، وظلمه للنّاس بطغيانه.

- فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) :

وشاء الله تعالى بما فعلتُ من أمره أن يريحهما منه بقتله حتى لا يشقيهما في حياتهما وبعد مماتهما، ويؤلمها، حتّى إذا آتاهما الله ولدا آخر اِعتنيا بتربيته عناية أحسن من تربيتهما للأوّل ليكون خيرا منه، وليكون أصلح دينا وخُلقا، وأكثر صلاحا وطهارة من الإثم والمعصية، وأكثر عطفا وشفقة بهما.

ومن المُستفاد من عمل الخضر بأمرٍ من الله تعالى هو وجوب الحرص على تربية الأبناء على حسن الإيمان وحسن الخلق، وعلى الوالدين أن لا يهملا تربية ما ينجبان من الذريّة حتى لا يشقيا بما أنجبا في حياتهما، ومن بعدهما. ومن المُستفاد من الآية أنّ الله تعالى وليٌّ لعباده المؤمنين الصالحين، وما أصابهم ممّا يظنّون أنّها مصيبةُ سوء قد يكون من ورائها الخيرُ لهم.

- وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82) :

وأمّا الجدار فكان لغلامين صغيرين يتيمين، وكان تحت الجدار كنزٌ من مال دفنه أبوهما لهما ليستخرجاه حين يبلغان تمام رشدهما وكمال عقليهما، وحسن التّصرّف في ما ورثا من أبيهما من مال مدَّخر، فينتفعان به، وكان هذا الإصلاح ضروريا حتّى لا يندكّ الجدار وينهدّ فيكشف أحد أفراد القرية الكنز فينهبه ويحرم صاحبيه من الانتفاع به، وهذا من رحمة الله تعالى باليتيمين، ومن حكمة تقديره ليحفظ لهما رزقهما، وهذا أيضا من رحمته تعالى بعبده الصالح من بعد وفاته تكريما لصلاحه وإيمانه، حفظ له ماله لولديه حتى يبلغا رُشدهما.

ذلك تفسير ما لم تقدر على ضبط نفسك لتعرفه في إبّانه.

ومن المُستفاد من عموم هذه القصّة أنّ الله تعالى ولِيُّ المؤمنين في حياتهم، ومن بعد مماتهم. يحفظ المساكين منهم، ويحبّ رفع ذكرهم من بعد مماتهم بالخير، وأن يكون لهم الذرّية الصالحة الطيّبة، ويحفظ أبناءهم الضعاف الأيتام من بعدهم بحفظ أرزاقهم حتى لا يضيع عنهُم إرثهم. ومن المُستفاد أنّ كلّ ما يحدث لعباده المؤمنين فيه خيرٌ لهم، وإن رأوْا في الحادث في زمنهم شرّا أو سوءًا، أو نكبة، لو اِطّلعوا على الغيب لرأوْا فيما أصابهم خيرا لهم من بعدهم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.



- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ (83) :

هذه لغاية الآية 98 في خبر الملك الطوّاف في الأرض الذي سئل عنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. ويسألونك – يا محمد – عن ذي القرنين، قُل سأخبركم بشيء من خبره وعمله.

ولا أحد يعلم شيئا عن الاسم الحقيقي لذي القرنين، ولا عن زمن ظهوره، وقد جاء في هذين الأمرين روايات كثيرة، وهي روايات مضطربة، والمهمّ أنّه كان قائدا عسكريا قويّا، وكان رجلا مؤمنا وصالحا، وكان يظهر على جانبي جبْهته نُتُؤَانِ، بسببهما لقّب بـ "ذي القرنين" للإشارة لما برز على جبهته كأنّهما قرنان.

- ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ (84) :

وقد مكّن الله تعالى له في الأرض، وآتاه ملكا واسعا، وجعله متملّكا في أرض مملكته ومتصرّفا، ويسّر له أسبابًا لهذا التّمكّن من بينها صلاحُه، وعلمُه، وحبّ العلم، وحرصُه على إقامة العدل، وحسن التّصرّف في مملكته.

- ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ (85) :

واتّبع هذه الأسباب التي مكّنته في الأرض، وخرج متّخذا طريقا لتفقّد رعيته.

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ (86) :

وسلك طريقا باتّجاه الغرب حتّى بلغ مكانا تنتهي عنده اليابسة، ويرى الذي يقف في طرفها الذي يفتح على البحر الشمس عند غروبها كأنّها تسقط في ماء (حمإ) طين أسود. هذا المكان جغرافيا أقرب ما يكون في أحد الأطراف الغربية بالقارّة الأوروبية المطلّة على المحيط. وهذا ما جعل بعضهم يقول بأنّ ذا القرنين من إسبانيا، وآخرين يقولون عنه يونانيا، والمهمّ يكاد يتفّق الجميع على أنّه من القارّة الأوروبيّة، يسمّيه بعضهم إِسكندر، وليست هناك رواية ذات ضبط دقيق يُعتمد عليه، وجد ذو القرنين سكّان المكان غير منضبطين للأعمال الصالحة، وللدين. (قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ) لم يكن ذو القرنين نبيّا ولا رسولا، ولذا يُفهم القول هنا على أنّه الإلهام من الله تعالى. أُلهم ذو القرنين بأن يأخذ القوم بالشدّة والقوّة، بالأسر أو القتل، وإمّا أن يأخذهم بالموعظة وإرشادهم للصواب ولصالح الدين والعمل.

- ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ (87) ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (88) :

فرأى أن يؤدّب الكافر الذي يعمل السيّئات بالشدّة والقسوة، ثمّ حين يردّ إلى ربّه فسيعذّب بما يستحقّ من العذاب يوم الحساب. وأمّا المؤمن الذي يعمل صالحا فسيلقى عند ربّه (ٱلْحُسْنَىٰ) وهي الجنّة، ويلقى من ذي القرنين من حسن المعاملة وحسن القول والتكريم بما هو أهله.



- ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٍ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرًا (90) :

ثمّ اِستدار جهة الشرق، وسلك طريقه مشرقا حتى بلغ مكانا لم يعد من ورائه عمران (جغرافيا قد يكون هذا المكان صحراء سبيريا)، وهكذا يكون تطَوّافُه مغرب الأرض ومشرقها، وهو الشخص الّذي سئل عنه الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ملك ملكا عظيما هي قارة أوروبا بلغ ملكه المحيط مغربا، وبلغ صحراء سبيريا مشرقا. وجد ذو القرنين في ذات المكان قوما لم يكن لهم سترٌ من الشّمس، وهذا وصف للمكان القاحل، ولا يكون إلاّ في صحراء ليس فيها شجر ولا جبل، وكانوا من شدّة بؤسهم وفقرهم لا يجدون لأنفسهم لباسا ساترا لهم، ولا مساكن يحتمون بها، ولا شجر، ولا ثمر.

- كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرًا (91) :

وهكذا علمنا بجميع أخباره، وما كان من أمره في سفره، وتطوافه.

- ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا (92)حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمًا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلًا(93) :

ثمّ اِتّخذ طريقا نحو الجنوب، وتابع مسلكه حتّى بلغ مكانا بين جبلين عظيمين (قد تكون المنطقة في جنوب الشرق الأدنى)، ووجد عند سفحهما قوما لا يفهمون لغة، ولا لسانا غير لغتهم ولسانهم لانقطاعهم التامّ عن مخالطة غيرهم، وهم لا يُفْهَمُون إلاّ بعسر وبكثير من الفطنة.

- قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدًّا (94) :

وطلب القوم من ذي القرنين حمايتهم من قبيلتين همجيتين يعيثون في الأرض فسادا وهلاكا، هما ياجوج وماجوج، ووعدوه أن يجعلوا له شيئا من خراج أرضهم مقابل حمايتهم منهم ببناء سدّ يكون حاجزا بينهم وبين ياجوج وماجوج يمنعهم من عبث هؤلاء وفسادهم وإضرارهم وهجوماتهم المهلكة.

- قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا (95) :

قال لهم ذو القرنين: لا حاجة لي بخرجكم فقد تفضل عليّ ربي بخير كثير ونعم ومكّن لي في الأرض، فأعينوني بقوّة أبدان رجالكم لحمل الأثقال، وقوّة سواعدكم للعمل، لأقيم بينكم وبينهم سدًّا منيعا لحمايتكم.

- ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا (96) :



وطلب من القوم أن يحضروا له (زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ) قطعا عظيمة من الحديد الفولاذي، وأقام بما آتَوْهُ من الفولاذ جدارين بين جانبي الجبلين وما بينهما، ثمّ دعا القوم ليشعلوا نارا عظيمة ملتهبة وينفخوا فيها بما عندهم من "الكير" لإذابة الحديد ليتماسك، وليذيبوا (قِطْرًا) وهو النّحاس المحمي الذي اِستعمله ليصبّه على جداري الحديد ويطليهما به.

- **فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا (97) :**

وبعد تمام إقامة السدّ لم يقدر أحد على أن يعلوه، أو يرتقيه لارتفاعه ولأنّه أملس، ولالتحامه بالجبلين، وحاولوا كثيرا بكلّ جهد وبكلّ اِجتهاد أن يحدثوا فيه ثقبا فما اِستطاعوا لسمكه ولصلابته، فهو من الحديد والنحاس المذابيْنِ. وهكذا اِحتمى القوم من المهاجمين المعتدين.

والمستفاد من الآية أنّ على كلّ سلطان أو ملك أو زعيم أن يجتهد في إقامة كلّ ما يحمي قومه من المهلكة سواءً أكان من هجومات الأعداء، أو من عوادي المناخ من مثل الانجراف أو الفيضانات.

- **قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا (98) :**

فلمّا اِطمأنّ ذو القرنين على صلابة السدّ ومَنَعتِه لحماية فريق من قومه، وجزء من مملكته لم ينسب ما فعله لاجتهاده وذكائه وعلمه وحسن تدبيره، وإنّما نسبه لرحمة الله تعالى بعباده إذ سخّر لهم من يقوم لهم بهذا العمل لحمايتهم من الأعادي ولحفظهم من ظلم الظالمين، وذكّر القوم بأنّه إذا أذن الله تعالى بالقيامة جعل هذا السدّ المنيع مستويا بالأرض ومهدّما ومحطّما، وإنّ وعد الله بقيام الساعة واقع حتما وحقّا.

- **وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا (99) :**

هذه الآية إلى آخر السورة في معتقد البعث، وفي الوعد والوعيد للتحذير من الشرك، وختمت السورة بالتأكيد على التصديق برسالة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وبالوحي كما بدئت به. وجعلنا النّاس يموجون في الدنيا مختلطين لكثرتهم يتنافسون في أعمال البرّ أو في اِبتداع المعاصي، طبقات يحتاج بعضهم إلى بعض يتعاونون ويتنافسون، وجعلناهم أجيالا يتعاقبون: شبابا، وكهولا وشيوخا يتوارثون الأموال والأعمال والقِيَم والجاه... وكذا الحياة الدنيا فإذا قامت الساعة في النّفخة الأولى، ثمّ إذا نفخ في الصور النّفخة الثانية للقيام للحساب بعثناهم جميعا، ثمّ جمعناهم للميزان للجزاء والثّواب، أو للعقاب.

- **وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا (100) :**

ويومئذ نبرز جهنّم للكافرين، فيرون ما ينتظرهم من العذاب عيانا، وظاهرا.

- **ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101) :**

كانت أعينهم في دنياهم مغطاة عن إبصار دلائل الله تعالى في خلقه ليؤمنوا به ويطيعوه، وكانوا لا يقدرون على سماع كلامه ومواعظه ودعوته لطاعته من إعراضهم وتولّيهم عنه، واليوم تفتح أعينهم على ما ينتظرهم من عقاب، وتفتح أسماعهم لتسمع قضاء الله تعالى فيهم، وليسمعوا حسراتهم.

- أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا (102) :

المقصود بـ (عِبَادِى) في هذه الآية هم: عزير، وعيسى عليهما السلام، وهم عند بعضهم الكهنة المتاجرون بالدين، والمعنى: أيظنّ الذين أشركوا بالله، واتّخذوا بعضا من عباد الله أنصارا لهم يطلبون مرضاتهم أنّهم ناجون من الإقامة في جهنّم التي أعدّت للكافرين، كلاّ، ذلك لأنّ الاستفهام إنكاري.

- قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا (103) ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) :

اِسألهم: هل ترغبون في أن أخبركم بأكثر النّاس خسرانا: إنّهم أولائك الذين أخطؤوا في مسار حياتهم الدنيوية. يعملون أعمالا يظنّون أنّهم أحسنوا بها لأنفسهم، ولا يعلمون أنّها أعمال محبطة، ليس لهم عليها أجر وثواب في الآخرة، كالذي يؤدّي الطاعات الدينية رياءً، أو كالذي يحسن للنّاس للسمعة، أو كالذي يتصدّق من مال كسبه من حرام، أو كالذي يعمل الكثير من أعمال البرّ لفائدة البلاد والعباد وهو كافر ملحد، غير مؤمن، لا يريد بأعماله ثوابا، ولا أجرا من عند الله تعالى، وهو لا يؤمن بيوم الحساب، فهذا أعماله يلقى عنها في دنياه حسن الذكر، وليس له في آخرته شيء من الأجر، وهو لا يتوقّعه، ولا ينتظره، ولم يكن يطلبه. وتتضمّن الآية دعوة المؤمن إذا أحسن عملا أن يطلب به وجه الله ورضاه، ولا شيء غير ذلك ليلقى الثواب عنه في آخرته.

- أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا (105) :

الذين تُحبط أعمالهم هم الكافرون الذين لا يؤمنون بجزاء ولا ثواب ولا يؤمنون بيوم الحساب ولا يؤمنون بالوعد والوعيد، ولا يصدّقون بالبعث وبلقاء ربّهم يوم الحساب، هؤلاء لا يكون لهم شأن يوم القيامة، لا يكون لهم أيّ وزن، فهم محتقرون، ومهانون. والذي لا يوزن هو القشّ الذي لا قيمة له ولا أهمية، يذروه الرّيح لخفّته. ما أحقر قيمة الكافر يوم القيامة!

- ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا (106) :

هؤلاء يحضرون في جهنّم جزاء كفرهم بالبعث وبيوم الحساب، وجزاء اِستهزائهم بالوعيد واِستهزائهم بالرّسل والسخرية من إنذارهم، وتحذيرهم.



- إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا (107) خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا (108) :

وعلى عادة القرآن في إرفاق الوعد بالوعيد، فإنّ الآيتين في تبشير المؤمنين العاملين الصالحات بإيوائهم في أعلى منزلة في الجنّة وأفضل مكان للضيافة يقيمون فيها إقامة دائمة لا يرجُون عنها تحوّلا، ولا اِنتقالا.

- قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا (109) :

تشير الآية لسعة علم الله تعالى، ودوام تقديره للقيام على ملكوته العلوي وملكوته السفلي وما بينهما. الإشكال في هذه الآية فهم معنى (كَلِمَٰتُ رَبِّي) هي بلاشكّ كلمات الوحي، وهي المقدّرات لتسيير أمور خلقه بجميع أصنافه، وهي الكلمات التي يجري بها كلّ ما في الكون، بما في ذلك الأمور التي تؤمر بها الملائكة، من هذه الكلمات ما جاء بها القرآن من كلمات خاصّة به تعالى: لا إله إلاّ الله، والحمد لله، وسبحان الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، وما شاء الله كان، وكلمة كُن.. وما إلى ذلك من كلمات التسبيح والتمجيد والثناء والأمر والقضاء، ومنها كلمات التحصين، والاستعاذة، وكلمات الدعاء والاستجارة، ومنها كلامه تعالى الذي جاء في القرآن الكريم وفي الكتب المنزلة من قبله والصحف والمزامير، وكذلك كلّ ما سطّره القلم من الآجال والأرزاق، وكلّ ما في اللوح المحفوظ.. كلمات الله لا تحصى، ولا حدّ لها، وهي كلمات أزلية، كانت لما مضى من الأحداث والأزمان، وهي لما هو كائن في حاضرنا، وهي لما سيكون في مستقبل الحياة الدنيا، ولما سيكون في أحداث قيام الساعة، وفي أحداث القيامة، وفي أعمال الميزان، وفيما بعد... والمعنى: لو كان البحر على وفرة مائه حبرا يكتب به القلم كلمات ربّي لفرغ الحبر على وفرته وجفّ ونفد قبل أن يُتِمَّ هذا القلم كتابة بقية كلماته لكثرتها وتنوّعها وسعتها، ولن يُتِمَّهَا ولو زدنا هذا البحر بحورًا أخرى ليمدّه بالحبر مددا آخر. سبحان الله العظيم.

- قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا (110) :

هذه خاتمة السورة وفيها التذكير بما جاء في أوّلها في التّصديق بالوحي، ويوم البعث وفي الوعد والوعيد، وفي إثبات الوحدانية ونبذ الشّرك، وهذه المواضيع مجتمعةً لخّصْتها هذه الآية مع إضافة الإعلان عن بشرية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم. والمعنى: أبْلغهم – يا محمد – أنّك بشر مثلهم، وقد خصّك الله تعالى بحمل رسالته إليهم تلك التي تَبْلُغك عنه عبر الوحي لترشدهم بأنّ إلاههم هو إلاه واحد لا شريك له، وأنّ كلّ من يرجو أن يلقى الله وهو راضٍ عنه يوم بعثه بعد موته للحساب، ويطلب نعيمه وتكريمه فعليه أن يؤمن بوحدانيته وأن يعمل صالحا وأن يترك الشّرك حتّى لا يعبد غير الله الذي خلقه ولا يطيع غيره.

